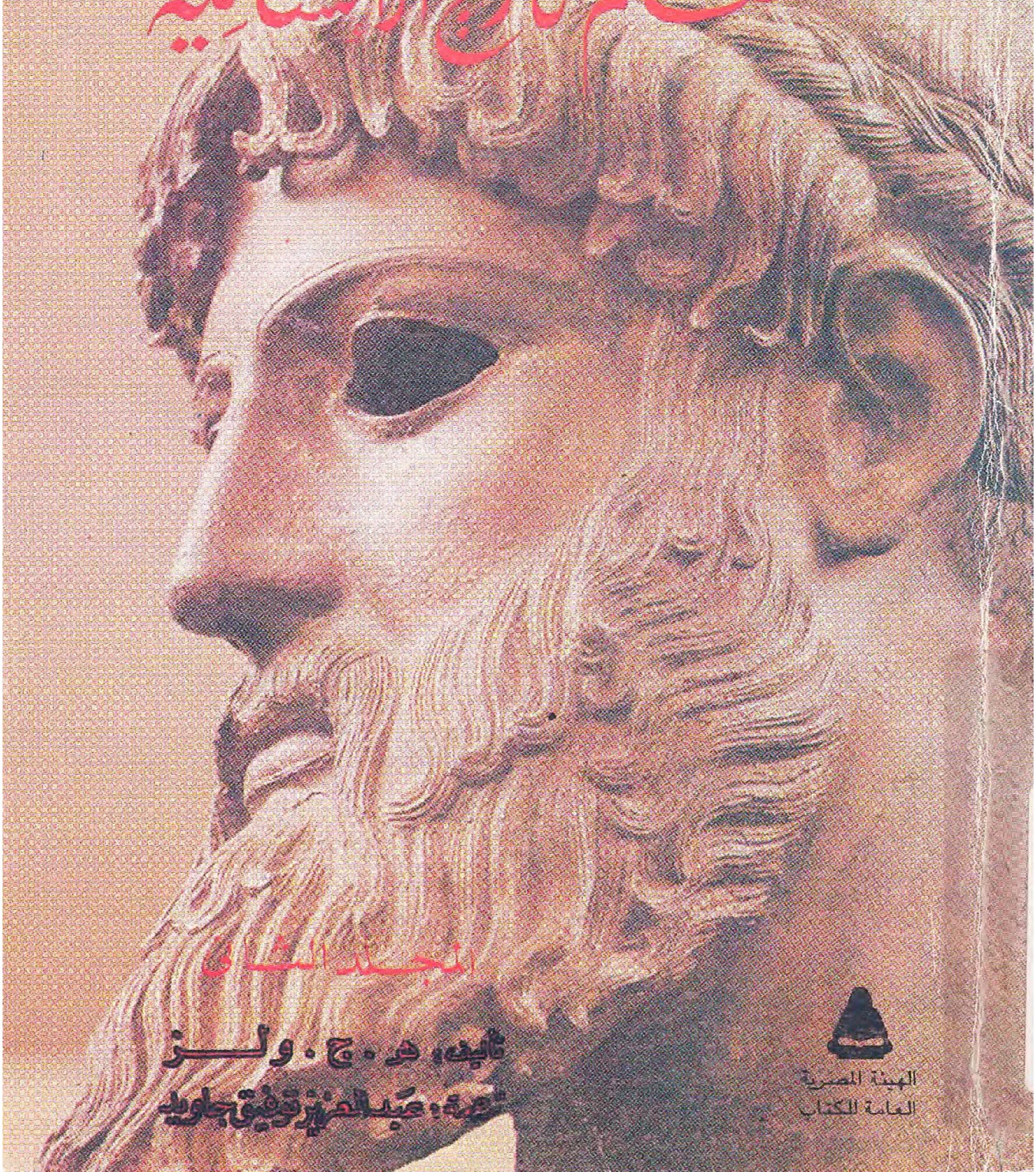
الألف كتاب
الثاني
١٥٧

معالم تاريخ الإنسانية



المجلد الثاني

تأليف: هـ . ج . ولز
ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

هذا الكتاب ـ كما يدل عليه اسمه ـ موسوعة تاريخية شاملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروى قصتها الأديب الانجليزى الشهير ج.هـ. ويلز، والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصدر فى أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشأة الكون والنظريات العلمية المختلفة التى تفسر تطوره ثم ظهور الإنسان والأجناس القديمة المندثرة، ويعرض لفكر الإنسان البدائى ومعتقداته الدينية ونشأة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات فى مصر والعراق والهند، أما الجزء الثانى فيعرض للحضارة الاغريقية والهلينستية والرومانية، ولمحة عن تاريخ العبرانيين، أما الجزء الثالث فيعنى بحضارات العصر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.



مطابع الهيئة المصرية

٦٥٠ قرشا

سيد قطب

معالم تاريخ الإنسانية

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

هـ . ج . ولز

معالم تاريخ الإنسانية

ترجمـه

عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الثاني

في تاريخ الإغريق والرومان ومن عاصرهما

الطبعة الرابعة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه ترجمة لكتاب :

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind
From Primordial Life to NinteenSixty

By

H. G. WELLS

Revised by

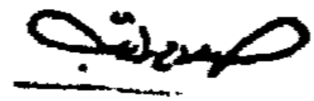
RAYMOND POSTGATE

With Maps and Plans by

J. F. HORRABIN

١ — راجع الطبعتين الأوليين الأستاذ زكى على ، الأستاذ السابق للتاريخ القديم بجامعة القاهرة .

٢ — وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التى أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفى الإنجليزى المعروف



معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثانى

ويحتوى الكتابين الرابع والخامس

الكتاب الرابع : بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند

الكتاب الخامس : قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها

كلمة المترجم

هذا هو المجلد الثانى من « المعالم » ، أقدمه لقراء العربية راجياً أن يعود عليهم منه ما حفزنى إلى ترجمته من نفع وفائدة . وسيجد فيه القراء ذكرا مفصلا لمجتمعات ثلاثة مرت فى مواكب التاريخ : أولها ذلك المجتمع الذى ابتدع لنفسه فكرة الوعد وأرض الميعاد ، واتخذ التوحيد والخلود له عقيدة ، وكتبه المقدسة رباطاً ومُحتشَداً . وأعنى به مجتمع العبرانيين الذين يعرفون باسم اليهود .

وأما المجتمع الثانى فمجتمع يونان الذى عرفت فيه الإنسانية أن لها عقلا يفكر ، وأن هذا العقل ينبغى له أن يفكر وهو طليق من أغلال الماضى وتقاليده ، وأن ما لا يستقيم على صراط العقل وهم مبطل وخيال خائل . فى ذلك المجتمع عرف الناس أنهم سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم إلا بحسن السيرة واحترام القانون ، وعرفوا أن الحاكم ليس ظلا لله ، وأن مشيئته ليست كما زعم الأقدمون قبساً من إرادة الله ؛ وإنما يستمد الحاكم قوته من فوق الأرض ، من ذلك الشعب المحكوم الذى لا بد وأن تكون له إرادة وأن يكون له سلطان وأن تكون له أداة تعبّر عن تلك الإرادة وذلك السلطان ، وهى الديمقراطية التى اتخذها أولئك القوم مذهباً ومعتقداً ، وأورثوها من جاء بعدهم من القرون .

هنالك قام أفلاطون ينشئ خيالا ويعبّر للإنسانية عن أمانيه العذاب فيما رسم لها فى « جمهوريته » من خطط وما ارتضى لها من مثل ، وقام أرسطو منقباً فى ضوء عقله ، باحثاً فى طوايا نفسه وفى أسرار هذا العالم وخفاياه ، وذلك بعد أن تم لولون وضع القوانين التى تصون كرامة البشر وحقوقهم ،

وبعد أن جاء رجل الدولة پريكليس فوطد للديمقراطية أركانها بما آتاه الله من حصافة وحسن تدبير وتقديس للحرية .

أولئك قوم نعجب بهم لا لأنهم قاموا بما قاموا به من أعمال ، بل لأنهم كانوا – فيما يرى ولز – البادئين بمعالجتها السابقين إلى التفكير فيها دون من تقدمهم من أجيال الإنسانية جميعاً . تلك أمة قد خلت بعد أن خلّفت للدنيا تراثاً جليلا ما أحوج العالم العربى وهو فى إبّان نهضته الحديثة إلى تدبره والتفكر فيه .

وقبل انبثاق تلك البحوث الفكرية التى امتاز بها ذلك المجتمع تولدت أساطير اليونان جميلة جذابة ساذجة ونشأت الرطازات حلوة عذبة ، تعبّر عن ذلك الخيال البدائى المبكر الحافل بالشاعرية الهادئة الرقيقة .

أما المجتمع الثالث فمجتمع روما الجامع بين النقيضين الوارث للضدين : جاهلية الإترودين ومدنية الإغريق . فى مجتمع روما اجتمع من أسباب الحضارة أرقاها ومن دلائل الهمجية أحطها وأدناها . وفى مجتمع روما تطور فن المال نافعاً وضاراً وتنوعت أساليب استعماله . وفى مجتمع روما ازدهر فن عمارة عظيم لا يزال الناس يعجبون به ويفيدون منه إلى يومنا هذا . وفى مجتمع روما تجمعت كل حضارة الغابرين وتكدس ترف الأولين . ومدت الطرق وأنشئت الجسور . وفيه بدأت أساليب التلاعب بالضعفاء ، وأحاييل العبث بإرادة الكثرة من الشعب وتزييف اتجاهاته . على أن مجتمع الرومان كان بين تجاريب إنشاء الدولة العظيمة صورتها الأولى فتبدى فيما يتبدى فيه كل تجريبى من نقص شائه لسنا نشعر أن الدنيا قد نضته عن نفسها حتى فى عصرنا هذا على الرغم من تأخر الزمان وجهود المصلحين . وفى مجتمع روما الضخم عرف الناس أن فى الإمكان أن يحكم المجتمع نفسه بنفسه مهما أوتى من الضخامة ومهما كثرت مدنه ودساكره .

وعن مجتمع روما أخذت أوربا قانون الظفر والنّاب ، ألم تكن روما

يومئذ من مشاكل وعواطف وشهوات، لا يزال يعتلج فى صدور الناس إلى وقتنا هذا . ولم يفت ولز ألا يقصر حديثه على الوقائع مجردة ، بل هو ينشئ للقارئ نسجاً محبوكاً ، لحمته آراؤه ومذاهبه التى خلقها وآمن بها ، جاعلا من أحداث التاريخ سدى الملك النسيج . فأنت إذ تطالع الكتاب تتناول معه خمائر ثمينة ، منها ما يثبّت الديمقراطية ، ومنها ما يدعوك إلى تقديس الحرية وصون الكرامة البشرية والتحلل من قيود التعصب أيّاً كان مبعثه ، ومنها ما يحفزك إلى تقدير الإنسان ووضعه فى مرتبته الشريفة بين الكائنات بوصفه إنساناً : العالَمُ موطنه والإنسانية قوميته وجنسيته .

* * *

ولا يفوتنى أن أسجل مزيد اغتباطى للتقدير الكريم الذى لقيه المجلد الأول من الأوساط العلمية ومن كثير من أساتذة الجامعة المحترمين وكبار رجال وزارة المعارف وخاصة أستاذى المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال بك الذى يعد بحق راعى الكتاب ونصيره — فقد تلقيت من حضراتهم من عبارات التشجيع ورسائل الرضاء ما لا يسعنى إلا أن أشكر الله عليه أجزل الشكر وأعظمه . ولقد أحسنت لجنة التأليف الموقرة كل الإحسان كدأبها إذ عنيت بمواصلة طبع هذا الكتاب وإذاعته فى الناس فأسدت إلى المكتبة التاريخية فى لغة الضاد فضلا جديداً . ذلك أنى لست أعلم — ويشركنى فى ذلك حضرة الأستاذ المراجع وهو الإخصائى الثقة — بأنه قد صدر فى العربية كتاب فى تاريخ الإغريق والرومان انطوى على ما ينطوى عليه هذا المجلد من الإحاطة والشمول مع الدقة العلمية وصحة المعلومات ولذلك أشعر بالسعادة إذ أقدمه للأمة العربية مشفوعاً بشكرى العظيم لحضرتى صاحبى العزة الأستاذ الجليل أحمد أمين بك رئيس اللجنة والأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى بك سكرتيرها العام وحضرات أعضائها المحترمين .

ولقد بذل حضرة المراجع الأستاذ زكى على أستاذ التاريخ

قدوة الدول الغربية ومعلمتها الأولى فيما أخذت به هذه الدول من استعمار وأنانية واستغلال للشعوب المغلوبة وعدم اهتمام بمصالحها أو الأخذ بيدها إلى طريق النهوض والتقدم ؟ ولعل فى أسطورة رومولوس منشئ روما وأنه قد غذته ذئبة بلبانها ، انسجاماً مع ما اتسمت به هذه الدولة من جشع وغدر وذئبيّة . فلا عجب أن كانت الدول الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، قرن ثورة الاستعمار وفورته تضع روما موضع التقدير والإعجاب بسياستها الغشوم ونظمها الاستنزافية .

إن العالم لم يلق من روما وضريباتها فى العصر الحديث إلا كل شر ونكر ، ولكن الشرق العربى الناهض الذى لا يزال يصلى أساليب الاستعمار الجهنمية خليق بأن يقلب الرأى فى تاريخ روما عله أن يستفيد من سالف التجارب فى رد ما يلقى من المحن فى حاضره ومستقبله .

* * *

والمؤلف لا يقتصر فى هذا السفر بالبداهة على التاريخ من الناحية السرديّة وحدها ، بل يتناوله من نواحيه الاجتماعية ثم الإنسانية ومن زاوية الحياة وتنظيماتها .

وإنك لا تدرى إذ تطالع هذا السفر من أى أقطاره يأخذك الإعجاب به وبمؤلفه ؛ بل إنك إن رمت التاريخ وجدت فيه ما يملك مشاعرك من أحداث وعبر ؛ وإن التمست السياسة أو الاجتماع ظفرت بكل رائع أخاذ ، فى نهج علمى محكم وتناسق بين الأقسام فريد .

وهاهو ذا المؤلف يحلل بين يديك مقومات تلك المجتمعات ثم لا يقف عند هذا الحد بل يتقدم إلى الموازنات فيعقد الواحدة منها تلو الأخرى بين تلك المجتمعات وبين ما يشاكلها أو يجافيها فى عصره ، فتخرج من كل ذلك بأن تلك المجتمعات إنما هى هيئات إنسانية مركبة ، تماثل أو — تكاد — معظم ما تنطوى عليه حياتنا العصرية من الظواهر . فإن ما كان يحرك عقول الرجال

محتويات الكتاب

صفحة

الكتاب الرابع

بلاد اليهودية[1] وبلاد الإغريق والهند

---

(١) اضطررنا الى وضع هذا الاسم تمشيا مع المؤلف والحقيقة أنها بلاد الكنعانيين والفلسطينيين وان كان المؤلف ينكر على الصهيونية فى المجلد الرابع كل مدعياتها فى فلسطين .

الصفحة

الكتاب الخامس

قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها

الفصل السابع والعشرون : القياصرة بين البحر والوديان العظيمة

فهرس الصور والخرائط

صفحة

صفحة

الكتاب الرابع

بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند

الفصل الثالث عشر

الأسفار المقدسة العبرانية والأنبياء العبرانيون

١ – مركز الإسرائيليين فى التاريخ ٢ – شاول وداود وسليمان
٣ – اليهود شعب تلط الأصل ٤ – أهمية الأنبياء العبرانيين

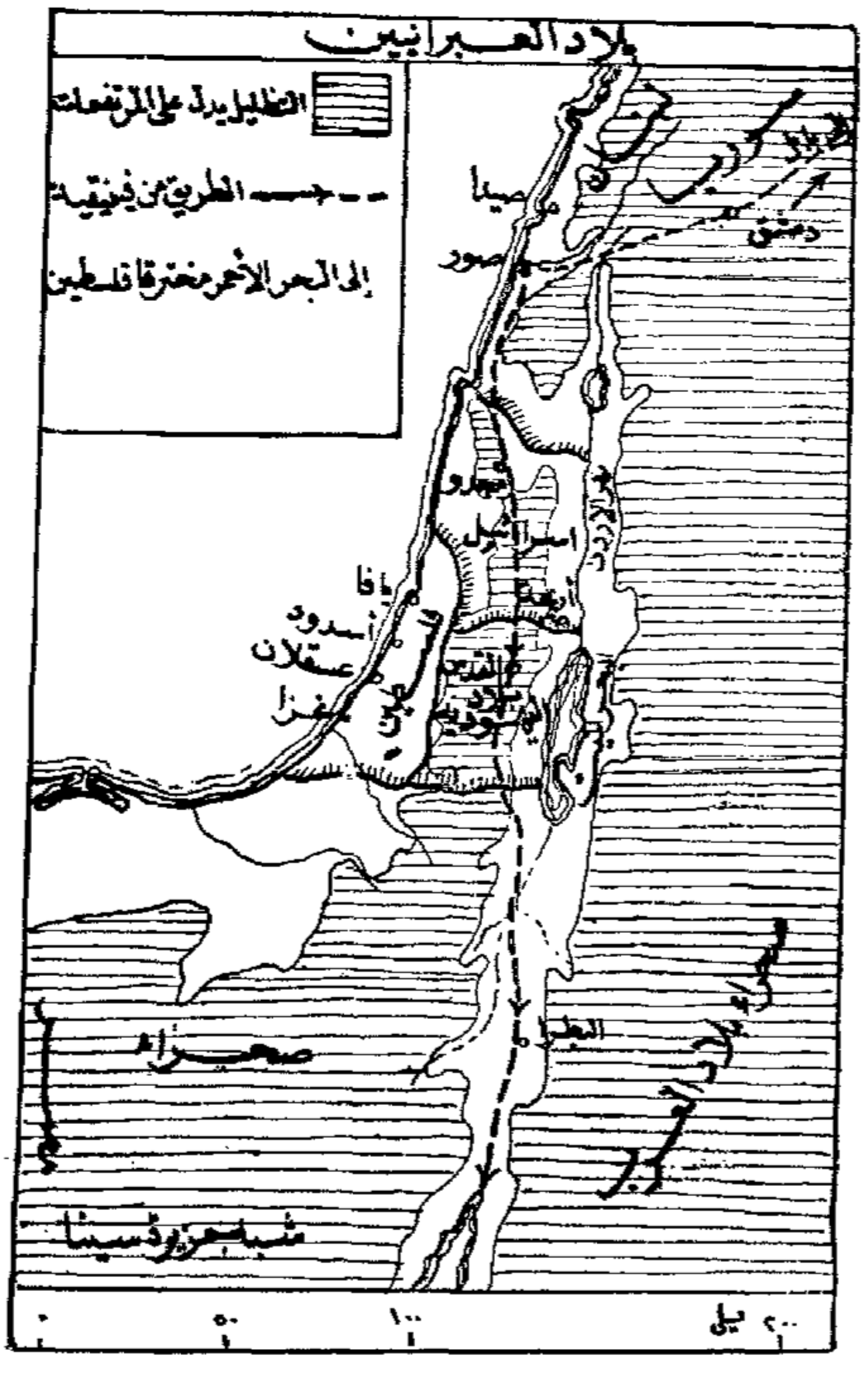
---

١ – مركز الإسرائيليين فى التاريخ

فى وسعنا الآن أن نضع الإسرائيلين ومعهم أعجب مجموعة من الوثائق القديمة فى الموضع الصحيح اللائق بهم ، بالنسبة إلى هذه المعالم العامة التى تؤرخ للإنسانية . وأعنى بهذه المجموعة تلك الوثائق التى تعرفها جميع الشعوب المسيحية باسم « العهد القديم » . وإنا لنجد فى هذه الوثائق أكثر المستندات طرافة وأعلاها قيمة فى تبيان تطور المدنية ، كما نجد فيها أنصع الدلالات على انبثاق روح جديدة أخذت تتدسس إلى شئون البشرية أثناء المنازعات التى قامت بين مصر ومملكة آشور من أجل التسلط والسيطرة على العالم .

ولا شك أن جميع الأسفار التى يتكون منها العهد القديم كانت موجودة – وفى نفس صيغتها الحالية تقريباً – فى سنة ١٠٠ ق. م. على أقصى تقدير . والراجح أن معظمها كان يعتبر كتابات مقدسة فى عصر الإسكندر الأكبر (٣٣٠ ق.م.) ، وكانت هـــذه الأسفار هى الأدب المقدس للشعب اليهودى الذى نُقل قبل ذلك بزمن قصير – فيما عدا بقية صغيرة من الدهماء – من موطنه الأصلى إلى مملكة بابل عام ٥٨٧ ق .م. بأمر الملك الكلدانى نبوخذ نصر الثانى .

وكانوا قد عادوا إلى مدينتهم « أورشليم » (بيت المقدس) ، وأعادوا بنـــاء معبدهم هناك تحت رعاية قورش ، ذلك الفاتح الفارسى الذى خلع نابونيداس آخر الحكام الكلدانيين فى بابل (٥٣٩ ق.م.) كما ذكرنا آنفاً . دام الأسر البابلى قرابة خمسين سنة . ويعتقد كثير من الأعلام الثقات أن اليهود اختلطوا بالبابليين فى أثناء هذه الفترة ، اختلاطاً عنصرياً وفكرياً عظيماً .



(ش ٥٨) — خريطة بلاد العبرانيين

ولا يخفى أن موقع أرض اليهودية[1] وعاصمتها أورشليم فريد فى بابه ، فهى بقعة مستطيلة الشكل تشبه الشريط يحدها البحر المتوسط غرباً والصحراء الواقعة فيما وراء الأردن شرقاً . ويمر خلالها الطريق الرئيسى الطبيعى الذى يصل بين الحثيين وسوريا وآشور وبابل شمالا وبين مصر جنوباً . فكانت لذلك قطراً قدر له تاريخ مضطرب حافل بالأعاصير .

كانت هذه البلاد طريقاً لمصر وكل قطر عزيز الجانب إلى الشمال ، وكانت الجيوش الزاحفة للفتح والتوسع تخترقها ، كما يشنون على أهلها الحروب رغبة فى شق طريق للتجارة . ولم يتوفر لها من سعة الرقعة ولا من القـــدرة الزراعية ولا الثروة المعدنية ما يكفل لها الأهمية . وقصة الشعب اليهودى التى حفظتها لنا تلك الأسفار المقدسة تجرى كأنها تعليق مسطر على هامش التاريخ الأعظم شأناً ، أعنى به تاريخ نظامى الحضارة القائمين فى الشمال والجنوب ومدنية الشعوب البحرية فى الغرب .

وتتكون هذه الأسفار المقدسة من عدة عناصر مختلفة . وكان الناس من قديم الزمان ينظرون إلى الأسفار الخمسة الأولى (توراة موسى) باحترام خاص . وهى تبدأ على صورة تاريخ عام يروى قصة مزدوجة تتناول خلق العالم والبشرية والحياة الأولى للجنس البشرى ، كما تتحدث عن طوفان عظيم قضى على البشر جميعاً سوى بضع أفراد محظوظين . وقصة الطوفان هذه عظيمة الانتشار فى الروايات القديمة . وقد تكون صدى لذلك الفيضان الذى اجتاح وادى البحر المتوسط والذى حدث فى العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) من تاريخ الإنسان . ولعلها تعيد إلى الأذهان ذكرى إحدى الكوارث العظيمة التى حدثت ببلاد جورجيا وإقليم بحر قزوين . وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تروى كلا من قصتى الخليقة والطوفان ، وهى نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى وطنهم . ومن ثم فإن نقاد الكتاب

---

(١) فى هذا البيان التاريخى الدقيق الذى سطرته يد محايدة نزيهة ما يدحض كل مدعيات الصهيونية وإسرائيل فى أرض فلسطين العزيزة . فلم يكن اليهود فيها فى يوم من الأيام إلا مغتصبين لأرض لا يملكونها . وإذا هم اليوم يقولون للجهلاء إنها كانت لهم مستقراً لملك عضود وموعد موعود .

المقدس يحاجون بأن اليهود استولوا فى أثناء أسرهم على تلك الفصول الافتتاحية ، وهى قوام الإصحاحات العشرة الأولى من سفر التكوين .

ويتلو ذلك تاريخ آباء الشعب العبرانى ومؤسسيه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وهم يمثلون فيه على صورة رؤساء بدو يتبعون نظام الأبوة ويعيشون عيشة الرعاة الرحل فى المنطقة الممتدة بين بابل ومصر . ويقول النقاد إن قصة التوراة الراهنة قد صيغت من نصوص عديدة سابقة . على أنه مهما يكن شأن مصادر القصة ، فإنها بحالتها التى نجدها عليها اليوم ملأى بالحيوية وقوة التعبير . وكان ما يسمى اليوم باسم « فلسطين » يسمى فى ذلك الحين « أرض كنعان » ويسكنه قوم ساميون يسمون الكنعانيين ، وهم شعب وثيق القربى بالفينيقيين الذين أسسوا صور وصيدا ، وبالعموريين الذين فتحوا بابل وأسسوا الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة حمورابى .

وكان الكنعانيون شعباً عرف الإستقرار فى زمن معاصر تقريباً لحكم حمورابى — وقد مرت ببلادهم قطعان إبراهيم ورعلانه . وتقول رواية للكتاب المقدس إن رب إبراهيم وعده هو وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن العامرة . وعلى القارئ أن يرجع إلى « سفر التكوين » فيقرأ كيف أن إبراهيم الذى لم يكن له عقب قد ارتاب فى هذا الوعد ، ثم يقرأ أخبار مولد اسماعيل وإسحاق . وسيجد القارئ فى « سفر التكوين » كذلك ترجمة حياة إسحاق ويعقوب ، الذى تغير اسمه فأصبح إسرائيل ، وسيرة أبناء إسرائيل الاثنى عشر وكيف أنهم هبطوا مصر أيام قحط عظيم . وبهذا ينتهى « سفر التكوين » أول الأسفار الخمسة الأولى ويختص الكتاب الثانى وهو سفر الخروج بقصة موسى .

وقصة استقرار أبناء إسرائيل فى مصر واستعبادهم بها قصة عسيرة معقدة . وهناك سجل مصرى يشير إلى نزول بعض الشعوب السامية بأرض « جاسان Goshen » بأمر الفرعون رمسيس الثانى ، وجاء فى هذا السجل أنهم لجأوا إلى مصر بسبب افتقارهم إلى الطعام . ولكن ليس هناك قط أى سجل مصرى يتحدث عن حياة موسى وأعماله . ولم يصل إلينا أى بيان تاريخى

عن إصابة مصر بالطاعون ولا عن أى فرعون أغرق فى البحر الأحمر . وتحتوى قصة موسى على قدر كبير من شذى الأساطير . ومن أبرز الحوادث فيها ، حادثة تخبئة أمه له فى تابوت من الحلفاء ، وهى قصة لها شبيه فى أسطورة سومرية قديمة .

فالقصة السومرية المتحدثة عن سرجون الأول تجرى كما يأتى : « ها أنذا سرجون الملك القوى ملك أكاديا . كانت أمى فقيرة ، وما عرفت أبى قط ، وكان شقيق أبى يعيش بين الجبال ... وقد ولدتنى أمى الفقيرة سراً ، ووضعتنى فى سلة من القصب ، وأغلقت بابها بالقار ، ثم ألقتنى فى النهر ، فلم تبتلعنى لججه بل حملتنى مياهه حتى أوصلتنى إلى (أكىّ) الموكل بالرّى . وقد تلقانى أكى هذا فى طيب قلبه . وربانى أكى حتى أصبحت غلاماً يافعاً . وجعلنى أكى بستانياً . وأدخلت خدماتى كبستانى السرور على قلب (عشتار) وبذلك أصبحت ملكاً » .

إن هذا لأمر يحير اللب . ومما يزيدنا حيرة تلك اللوحة الطينية التى كشفت أخيراً والتى كتبها الولاة المصريون على إحدى مدن كنعان إلى فرعون « امنحوتب الرابع » أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة المتقدمة فى الزمن على رمسيس الثانى وفيها يذكرون اسم العبرانيين صراحة ويصرحون بأنهم يجتاحون أرض كنعان . فإذا كان العبرانيون يقومون بفتح كنعان فى زمن الأسرة الثامنة عشرة ، فليس من الممكن أن يأسرهم ويضطهدهم رمسيس الثانى من الأسرة التاسعة عشرة قبل أن يتموا فتح أرض كنعان . ومن الجلى أن قصة الخروج (Exodus) — وقد كتبت بعد الحوادث التى ترويها بزمن طويل — ربما كانت تركيزاً وتبسيطاً ، أو لعلها تمثيل ورمز لما كان فى الحقيقة تاريخاً معقداً طويلا لغزوات قبلية . ولعل كل ما فى الأمر أن إحدى القبائل العبرانية انحدرت إلى مصر وأصبحت مستعبدة ، على حين كانت القبائل الأخرى قد أخذت بالفعل تهاجم المدن الكنعانية

النائية . بل إن فى الإمكان ألا تكون مصر (واسمها بالعبرانية مصرايم) هى أرض الأسر بل (مسريم) فى شمال بلاد العرب ، على الجانب المقابل من البحر الأحمر . وقد بحثت هذه المسائل بحثاً مستفيضاً دقيقاً فى « موسوعة الكتاب المقدس Encyclopoedia Biblica فى مادتى موسى والخروج » ، فليرجع إليها القارئ المحب للاستطلاع إن شاء .

ويتناول كتابان آخران من الكتب الخمسة الأولى هما « سفر تثنية الاشتراع وسفر اللاويين » ، الشرائع والقواعد الكهنوتية . أما سفر الأعداد فيسرد تجولات بنى إسرائيل فى الصحراء وغزوهم كنعان .

ومهما تكن التفاصيل الدقيقة لغزو العبرانيين أرض كنعان ، فما لاريب فيه أن ذلك القطر الذى فتحوه تغير تغيراً عظيماً منذ أيام أسطورة « الميعاد » الذى وعد به إبراهيم قبل ذلك بقرون . ثم يصبح القطر من بعد ذلك — فيما يلوح — أرضاً سامية إلى حد كبير وتنشأ به كثير من المدن التجارية المزدهرة . على أن موجات كبيرة من شعوب غربية نزحت على طول شاطئه . ولقد ذكرنا من قبل كيف هوجمت الشعوب الأيبيرية البيضاء الداكنة أو شعوب البحر الأبيض القاطنة فى إيطاليا وبلاد الإغريق ، وشعوب المدنية الإيجية التى بلغت الأوج فى كنوسوس ، Conssos ، إذ هاجمتها موجة زاحفة جنوباً من أجناس ناطقة بالآرية من أمثال الإيطاليين والإغــريق ، وأوضحنا كيف نهبت كنوسوس حوالى (١٤٠٠ ق. م.) ، وكيف دمرت تدميراً تاماً حوالى (١٠٠٠ ق. م .) . وبديهى أن سكان هذه الموانى الإيجية كانوا يجتازون البحر فراراً من الأعداء وطلباً لمستقرات أكثر أمناً وسلاماً . لذلك غزوا الدلتا المصرية وما يليها غرباً من الشاطئ الإفريقى ، وأنشأوا أحلافاً بينهم وبين الحثيين وبعض الشعوب الآرية أو المصطبغة بصبغة آرية .

حدث هذا كله بعد عصر رمسيس الثانى أى فى عهد رمسيس الثالث . وتسجل الآثار المصرية معارك بحرية عظيمة ، كما تمثل مسير هؤلاء القوم

إلى مصر على امتداد ساحل فلسطين . وكانت وسيلة النقل لديهم هى العربات التى تجرها الثيران وهى إحدى خصائص القبائل الآرية . ومن الواضح أن هؤلاء الكريتيين كانوا يعملون متحالفين مع بعض الغزاة الآريين الأول . ولم يتم بعد الوصول إلى صورة متصلة الحلقات لقصة هاته المنازعات التى استمرت بين ١٣٠٠ ق.م. و ١٠٠٠ ق.م. على أنه يتضح من رواية الكتاب المقدس أنه عند ما نهض العبرانيون تحت إمرة « يشوع » لمواصلة إخضاع أرض الميعاد ببطء اصطدموا بشعب جديد هم الفلسطينيون الذين كانوا يستقرون على امتداد الشاطئ فى سلسلة من المدن أصبحت أهمها وأعظمها غزة وجت (جات) وأشدود وعسقلان وعقرون[١]. وكان هؤلاء الفلسطينيون فى الحقيقة نازحين جداً كالعبرانيين تماماً . والراجح أنهم كانوا بوجه خاص هم أولئك الكريتيون اللاجئون من البحر والهابطون من الشمال . وعلى ذلك فإن الغزو الذي ابتدأ بشكل هجوم على الكنعانيين سرعان ما أصبح نزاعاً طويلا لم يحالفه التوفيق التام ، نشب من أجل تلك الأرض الموعودة التى كانت مطمع الأنظار ، بينهم وبين هؤلاء الفلسطينيين النازحين الذين كانوا أكثر قوة وأشد بأساً .

ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد وقعت يوماً فى قبضة العبرانيين تماماً . ويلى الكتب الخمسة الأولى فى الكتاب المقدس أسفار « يشوع » والقضاة وسفر راعوث (وهو استطراد عن سياق الموضوع) وصموئيل الأول والثانى والملوك أول وثان . مع سفر الأيام بجزئيه ، وهو يكرر فى شيء من التنويع كثيراً من مادة سفر صموئيل الثانى وسفر الملوك . وينطوى الشطر الأكبر من هذا التاريخ المتأخر على ظل للحقيقة يزادد على اطراد الأيام ظهوراً . وفى هذه الأسفار نجد الفلسطينيين قد شددوا قبضتهم على ما امتلكوه من أراضى الجنوب المنخفضة الخصبة ، كما نجد الكنعانيين والفينيقيين صامدين فى الشمال ضد أعدائهم الإسرائيليين . وليست انتصارات يشوع الأولى مكررة .

---

(١) ضبطت هذه الأسماء وغيرها على ما ورد بالكتاب المقدس . (المترجم)

وكتاب القضاة إنما هو سرد محزن لسلسلة من الهزائم والنكبات يفقد القوم بسببها شجاعتهم ، ويتخلون عن عبادة ربهم الخاص « يَهْوَهْ Jehovah » ويعبدون بعلا وعشتورث ويختلطون بالفلسطينيين والحثيين وغيرهم حتى صاروا شعباً مختلط الجنس ، كما ظل هذا طابعهم فيما بعد . وكانوا يخوضون — وهم تحت إمرة سلسلة من الحكماء والأبطال — غمار حروب اتسمت بالفشل على وجه العموم ، ولم تتحد كلمتهم أثناءها قط . فقهرهم على التعاقب المؤابيون (Moabites) والكنعانيون والمديانيون والفلسطينيون . ويتحدث سفر القضاة عن قصة هذه الحروب التي خاضها جدعون وشمشون وغيرهم من الأبطال الذين يلقون بين الفينة والفينة بصيصاً من أمل فيما كان يلم بإسرائيل من نكبات. ويروى سفر صموئيل الأول قصة الكارثة العظيمة التي حلت بهم عند حجر المعونة (Ebenezer) أيام أن كان « عالى » قاضياً .

كانت المعركة حرباً ضروساً أعد لها الطرفان عدتهما واشتبكت فيها جيوشهما برمتها وخسر فيها بنو إسرائيل ٣٠,٠٠٠ رجلا (!) وكانوا قبل ذلك أصيبوا بهزيمة فادحة خسروا فيها ٤٠٠٠ رجلا ، وعند ذلك أبرزوا أقدس رمز لديهم ، وهو تابوت عهد الرب[1] .

« وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلّة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض ، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا : ما هو صوت هذا الهتاف العظيم فى محلة العبرانيين ، وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة . فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة . وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله . ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين ؟ هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات فى البرية . تشددوا وكونوا رجالا أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم .

---

(١) الإصحاح السابع من صموئيل الأول من الكتاب المقدس .

« فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل ، وهربوا كل واحد إلى خيمته ، وكانت الضربة عظيمة جداً . وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل ، وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالى حفنى وفينحاس .

« فركض رجل من بنيامين من الصف وجاء إلى شيلوه فى ذلك اليوم وثيابه ممزقة وتراب على رأسه . ولما جاء فإذا عالى جالس على كرسى بجانب الطريق يراقب لأن قلبه كان مضطرباً لأجل تابوت الله . ولما جاء الرجل ليخبر فى المدينة صرخت المدينة كلها ، فسمع عالى صوت الصراخ فقال ما هو صوت الضجيج هذا ؟ فأسرع الرجل وجاء وأخبر عالى ، وكان عالى ابن ثمان وتسعين سنة وغامت عيناه ولم يقـــدر أن يبصر .

« فقال الرجل لعالى أنا جئت من الصف ، وأنا هربت اليوم من الصف . فقال كيف كان الأمر يا ابنى ؟ فأجاب المخبر وقال : هرب إسرائيل أمام الفلسطينيين ، وكانت أيضاً كسرة عظيمة فى الشعب ، ومات أيضاً ابناك حفنى وفينحاس وأخذ تابوت الله . وكان لما ذكر تابوت الله أنه سقط عن الكرسى إلى الوراء إلى جانب الباب فانكسرت رقبته ومات ، لأنه كان رجلا شيخاً ثقيل الجسم . وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة .

« وكنته امرأة فينحاس كانت حبلى تكاد تلد ، فلما سمعت خبر أخذ تابوت الله وموت حميها ورجلها ركعت وولدت لأن مخاضها انقلب عليها ، وعند احتضارها قالت لها الواقفات عندها : « لاتخافى لأنك قد ولدت ابنا فلم تجب ولم يبالِ قلبها ، فدعت الصبى إيخابود قائلة « قد زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ ولأجل حميها ورجلها » .

وكان خلف (عالى) وآخر القضاة هو صموئيل ، وقد حدثت فى أواخر حكمه حادثة فى تاريخ بنى إسرائيل تتمشى مع مامر بالشعوب العظمى المحيطة بهم من تجارب ، بل هى التى أوحت بها إليهم ، إذ نشأ بينهم ملك حكم فيهم

وظهرت فيهم الملكية . وهم يقصون علينا بأوضح عبارة نبأ الصراع المحتدم بين طريقة الحكم العتيقة على يد الكهنة وبين الطريقة الأحدث منها فى تصريف شئون البشر . ومن المستحيل علينا ألا نقتبس اقتباساً ثانياً : فكم يبدو استياء الكاهن واضحاً جلياً فى حديث الرب إلى صموئيل .

« فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة ، وقالوا له : هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا فى طريقك ، فالآن اجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب .

« فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا : أعطنا ملكاً يقضى لنا . وصلى صموئيل إلى الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم . وحسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم ، وتركونى وعبدوا آلهة أخرى . هكذا هم عاملون بك أيضاً . فالآن اسمع لصوتهم ، ولكن أشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم .

« فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكاً بجميع كلام الرب وقال : « هذا يكون قضاء الملك الذى يملك عليكم : يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه ؛ لمراكبه وفرسانه . فيركضون أمام مراكبه ، ويجعلهم لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين ، فيحرثون حراثته ، ويحصدون حصاده ، ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه . ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله . ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً . فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى اخترتموه لأنفسكم . فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم .» فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا : لا بل يكون علينا ملك ، فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب

ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا » . (صموئيل الأول الإصحاح الثامن) .

٢ – شاول وداود وسليمان

على أن طبيعة بلاد العبرانيين وموقعها كانت عوناً عليها . لذا لم يكن ملكهم الأول شاول أوفر حظاً فى النجاح من القضاة ، هذا إلى أن المكايد الطويلة التى كان يدبرها المغامر داود ضد شاول مسرودة فى الجزء الباقى من سفر صموئيل الأول . وكانت خاتمة شاول هى الهزيمة المنكرة التى أصابته على جبل جلبوع (Gilboa) إذ قضت بسالة رماة السهام من الفلسطينيين على جيشه قضاء تاماً .

« وفى الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين فى جبل جلبوع . فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وأرسلوا إلى أرض الفلسطينيين فى كل جهة لأجل التبشير فى بيت أصنامهم وفى الشعب . ووضعوا سلاحه فى بيت عَشْتُورَثَ وسمروا جسده على سور بيت شان . (صموئيل الأول الإصحاح ٣١) .

وكان داود (٩٩٠ ق.م. على وجه التقريب) أشد كياسة وأكثر نجاحاً من سلفه . ويلوح أنه وضع نفسه فى حماية حيرام ملك صور . فثبّتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه ، وكانت العامل الجوهرى فى عظمة ابنه سليمان . وقصة داود بما تحوى من قتل وسفك دماء واغتيالات متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض[١] ، أشبه بتاريخ أحد رؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك ممدّن . والقصة مسرودة بأسلوب رائع واضح فى السفر الثانى من صموئيل[١] .

ويبدأ سفر الملوك الأول بحكم الملك سليمان (٩٦٠ ق.م. على وجه التقريب) وأمتع ما فى تلك القصة من وجهة نظر المؤرخ الذى يتناول التاريخ من الوجهة العامة ، علاقة سليمان بالديانة القومية والكهانة وتصرفاته إزاء

---

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول وصموئيل الثانى .

الهيكل والكاهن صادوق (Zadok) والنبي ناثان .

كانت بداية حكم سليمان مخضبة بالدماء كحكم أبيه سواء . وآخر ما سجل من حديث داود تدبيره لولده الوسيلة لقتل شِمعى (Shimei) ، وآخر ما سجل من كلماته هى « الدم » إذ يقول لابنه « وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية[١] » هكذا يقول مشيراً إلى أنه كان شِمعى الشيخ يحميه القسم الذى أخذه داود على نفسه للرب ما دام حياً ، فما من عهد يرتبط به سليمان فى هذا الشأن . ويغلو سليمان فيقتل أخاه ، الذى حاول أن يغتصب العرش ، ثم ما لبث أن تخاذل وقدم الطاعة . ومن ثم أخذ يتصرف بملء حريته فى أنصار أخيه . وإن ضعف سلطان الدين على العبرانيين المخلطة أجناسهم والمبلبلة فى ذلك الأوان عقولهم ، ليتضح من السهولة التى يستبدل بها سليمان برئيس الكهنة المعادى له نصيره صادوق ، كما يتضح ذلك بشكل أدعى للعجب من قتل يوآب (Joab) فى الهيكل على يد بناياهو أعظم صنائعه إجراماً ، على حين لاذت الضحية بقدس حرم المعبد ، واستمسكت بقرنى مذبح يَهْوَهْ (Jehovah) . ثم شرع سليمان بعد ذلك يجدّ فى العمل ، بأسلوب كان يعد بالنسبة لذلك الزمان ذا روح عصرية حقة . فعمد إلى صوغ ديانة شعبه فى قالب جديد . وقد استمر فى تحالفه مع حيرام ملك صور ، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقاً عاماً يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبنى فيه السفن . ونتيجة لهذه الشركة بينهما تكدست فى أورشليم ثروة لم يسمع بها من قبل .

وقد ظهرت فرق العمال عند بنى إسرائيل ، فكان سليمان يرسل أفواجاً من العمال تحل إحداها محل الأخرى لقطع أخشاب الأرز من لبنان فى عهد حيرام . كما أنه نظم فى أرجاء بلاده مجاميع من الحمالين . (وفى هذا كله الكثير مما يذكر القارىء بعلاقات أحد الرؤساء فى أفريقيا الوسطى بهيئة تجارية أوربية) . وبعد ذلك بنى سليمان لنفسه قصراً ومعبداً ليهوه الرب لا يكاد يضارع قصره فى الضخامة . وكان تابوت عهد الرب — ذلك الرمز المقدس

---

(١) المصدر السابق .

لهؤلاء العبرانيين الأقدمين — قد استقر مقامه حتى ذلك الحين فى فسطاط كبير . كان ينقل من مكان مرتفع إلى آخر ، وكانت تقدم القرابين لرب إسرائيل فى عدد من الأماكن المرتفعة المختلفة . فالآن أدخل التابوت بين الروائع الذهبية الموجودة فى حجرة داخلية من معبد كسيت جدرانه الحجرية بخشب الأرز ، ووضع بين تمثالين عظيمين لهما أجنحة ، ومصنوعين من خشب الزيتون المذهب ، وتحتم منذ ذلك الحين ألا تقدم القرابين على غير المذبح الذى بين يديه .

وهذا التجديد المنطوى على المركزية الدينية يذكرنا بكل من أخناتون ونابونيداس . ولا يتم لمثل هذه الأمور نجاح إلا متى هوت إلى الدرك الأسفل سطوة هيئة الكهنوت ونفوذها وتقاليدها وعلمها .

« وأوقف حسب قضاء داود أبيه فرق الكهنة على خدمتهم واللاويين على حراساتهم للتسبيح والخدمة أمام الكهنة عمل كل يوم بيومه والبوابين حسب فرقهم على كل باب . لأنه هكذا هى وصية داود رجل الله . ولم يحيدوا عن وصية الملك على الكهنة واللاويين فى كل أمر وفى الخزائن » .

بيد أن إقامة سليمان لعبادة يهوه فى أورشليم على هذا الأساس الجديد ، ورؤياه لربه ومحادثته له فى مستهل حكمه لم تحل دون ابتداعه فى أواخر أيامه ضرباً من العبث بالأمور الدينية . فإنه أكثر من الزواج . وإن يكن ذلك لأسباب تتصل بالدولة وأبهة الملك . وكان يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية ، فهو يقدم القربان لربة صيدا «عَشْتُورَثَ» وكَمُوش (وهو رب مؤابى) ومُولَكَ وهلم جر . والواقع أن وصف الكتاب المقدس لسليمان يصوره لنا ملكاً متقلباً كغيره من الملوك ، لا يفضل البتة أياً منهم فى تمسكه بأهداب دينه ، كما يصور لنا فى قومه شعباً معتقداً بالخرافات وذا عقلية مبلبلة ككل شعوب العالم المحيط بهم .

وفى قصة سليمان ناحية ذات أهمية كبيرة جداً لأنها تسجل طوراً جديداً

فى الشئون المصرية وهى زواجه من ابنة فرعون . ولا بد أن هذا الفرعون كان أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين . فى أيام عظمة أمنحوتب الثالث ، كما تشهد بذلك رسائل تل العمارنة ، كان من الجائز أن يتنازل فرعون فيقبل فى حريمه أميرة بابلية . ولكنه كان يرفض رفضاً باتاً أن يسمح لأميرة مصرية لها ما لها من قداسة ، أن تصبح زوجة لعاهل بابلى . ومما يدل على انحطاط مهابة مصر واطراد تدهورها أن يحدث الآن بعد انقضاء ثلاثة قرون ، أن ملكاً صغيراً كسليمان ، يستطيع أن يتزوج من أميرة مصرية على قدم المساواة . ومع ذلك فإن مصر نهضت من كبوتها إبان حكم الأسرة المصرية التالية (الثانية والعشرين) يوم اغتنم الفرعون شيشنق مؤسس تلك الأسرة فرصة الانشقاق بين إسرائيل ويهوذا (Judah) وهو الانشقاق الذى ظل ينمو طوال حكم كل من داود وسليمان — فاستولى على أورشليم ونهب كلا من مستودعى الآلهة والعظمة القصيرى الأجل وهما المعبد الجديد وقصر الملك .

ويبدو أن شيشنق استطاع كذلك أن يخضع فلسطين . وجدير بالذكر أن الفلسطينيين ذوت أهميتهم منذ ذلك التاريخ . فنجدهم قد فقدوا لغتهم الكريتية واتخذوا لغة الساميين الذين كانوا أخضعوهم . ومع أن مدائنهم ظلت مستقلة إلى حد ما ، فإنهم اندمجوا رويداً رويداً فى غمار الحياة السامية العامة لفلسطين .

وهناك من الشواهد ما يدل على أن قصة حكم سليمان الأصلية على صورتها البدائية الأولى المقبولة عقلا ، وقصة ما أتاه من اغتيالات متنوعة ، وارتباطه بحيرام ، وابتنائه القصر والمعبد[١] ، وذلك البذخ الذى أوهن مملكته ثم مزقها آخر الأمر شطرين — قد تعرضت (أعنى القصة) لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر ، كان مشغوفاً بالمبالغة فى وصف رخاء عصر سليمان مولعاً بتمجيد حكمته . وليس هذا مجال معالجة موضوع نقد أصول الكتاب المقدس ومصادره ، وإن لم يتطلب الأمر منا إلا شيئاً عادياً

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول والأيام .

بسيطاً من الإدراك دون تفقه فى العلم — لندرك ما يتجلى فى المادة الرئيسية لقصة داود وسليمان من حقيقة جلية وصدق واضح . وهى قصة يعمد كاتبها إلى الشرح والتوضيح آونة ، وإلى التبرير أخرى ، وإن كانت مع ذلك تسرد كل الحقائق مهما بلغ بعضها من القسوة ، على نحو لا يفعله إلا كاتب معاصر أو كاتب يكاد يكون معاصراً ، يقصها وهو مقتنع بأن لا سبيل إلى إخفائها . ثم يلاحظ الإنسان أيضاً ذلك التحول المفاجئ إلى الإطراء والثناء ساعة ظهور الفقرات التى أضيفت إلى القصة . ومما يشهد بقوة تأثير القول المكتوب وتغلبـــه على الحقائق الماثلة فى أذهان الناس ، أن رواية الكتاب المقدس هذه استطاعت أن تحمل العالم المسيحى بل الإسلامى على الاعتقاد بأن الملك سليمان لم يكن من أشد الملوك عظمة وأبهة فحسب بل كان أيضاً من أحكم الرجال . فإن سفر الملوك الأول يسهب فى الكتابة عن أقصى ما وصل إليه مجده من أبهة وفخامة ، وإذا قيست هذه إلى جمال وعجائب المبانى والتنظيمات التى قام بها عاهل عظيم كتحوتمس الثالث أو رمسيس الثانى أو نفر من الفراعين الأخر ، أو سرجون الثانى أو سردانابالوس أو نبوخذ نصر العظيم ، فإنها تبدو من التوافه الهينات . كان بعد معبده من الداخل، عشرين ذراعاً عرضاً أى مايقرب من خمسة وثلاثين قدماً (وهذا لا يزيد عن عرض فيلا للسكنى العادية) ، وستين ذراعاً أى مئة قدم طولا . وتختلف الأقوال فى تقدير الذراع ، وهو على أكبر تقدير يعادل أربعاً وأربعين بوصة . وعلى هذا الاعتبار يتسع العرض فيصبح سبعين قدماً ليس غير ويصبح الطول مائتى قدم . فأما حكمته ومعرفته بأصول الحكم وتدبير السياسة ، فما القارئ بمحتاج أن يجاوز الكتاب المقدس[١] لكى يعرف أن سليمان لم يتجاوز بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة المعاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق ، فأما مملكته فهى رهينـــة تتجاذبها مصر وفينيقيا . وترجع أهميتها فى معظم أمرها إلى ضعف مصر الموقوت ،

---

(١) يستطيع القارئ إذا شاء استزادة أن يرجع إلى أسفار صموئيل والملوك الأول والأيام الثانى التى رجع إليها المؤلف من الكتاب المقدس . (المترجم)

ذلك الضعف الذى أثار طموح الفينيقيين وألزمهم باسترضاء القابض على مفتاح طريق آخر للتجارة إلى الشرق . كان سليمان فى عين شعبه ملكاً مبذّراً جائراً ، وقد أخذت مملكته تتداعى قبل موته تداعياً ظاهراً وتتجزأ بدداً .

وينتهى بانتهاء حكم سليمان مجد العبرانيين القصير الأمد ؛ فإن القسم الشمالى من مملكته وهو الأكثر ثراء ، والذى طال تحمله عبء الضرائب المفروضة فى سبيل بذخه ، انسلخ عن أورشليم وأصبح مملكة منفصلة هى إسرائيل . وقد فصم هذا الصدع تلك العلاقة التى كانت تربط بين صور وصيدا وبين البحر الأحمر ؛ وهى التى مهدت السبيل لومضة الثروة التى هبطت على سليمان فجأة . وليس هناك بعد ذلك أى ثراء فى التاريخ العبرانى . فأما أورشليم فإنها ظلت قصبة قبيلة واحدة هى قبيلة يهوذا ؛ وحاضرة أرض ملؤها التلال المجدبة ، تحول فلسطين بينها وبين البحر ويحيط بها الأعداء من كل جانب .

ويظل هذا القطر بعد ذلك ثلاثة قرون مسرحاً لحروب ومنازعات دينية واغتصابات واغتيالات وقتل الإخوة للإخوة طلباً للملك . وهى قصة سافرة فى همجيتها . فإن إسرائيل تحارب يهوذا وما جاورها من دول ، وتعقـــد المحالفات مع إحداها ثم تعقدها مع الأخرى ، وتبدأ قوة سوريا الآرامية فى الصعود كنجم يؤذن العبرانيين بالشر والأذى . ثم تنهض من خلفها القوة العظيمة النامية ، قوة الإمبراطورية الآشورية الأخيرة . لقد ظلت حياة العبرانيين طوال ثلاثة قرون شبيهة بحياة رجل أصر على العيش وسط سوق صاخب فكان مصيره أن تدهمه سيارات الجمهور والبضائع .

وكان «فولُ Pul» (وواضح أنه تَغْلَـتَ فَلاسِرُ الثالث نفسه Tiglath Pileser) أول ملك آشورى فيما تقول رواية الكتاب المقدس ، ظهر فى أفق العبرانيين ، فدفع له مَنَحِيمُ ألف تالنتوم[1] talent من الفضة (٧٣٨ ق.م.) ثمناً لخلاص البلاد منهم . على أن قوة آشور كانت تتجه آنذاك قدماً نحو أرض مصر التى شاخت وتدهورت . ويخترق طريق المغيرين أرض اليهودية ويعود تَغْلَتَ

---

(١) نص عبارة الكتاب المقدس « فأعطاه ألف وزنة من الفضة » الملوك الثانى ١٥ : ٢٠ . [المترجم] .

فَلاَسِيرُ الثالث أدراجه ويعقبه فى الزحف شَلْمَنَأَسَرُ فيتآمر ملك إسرائيل التماساً للعون مع مصر — تلك « القصبة المرضوضة » ، وفى ٧٢١ ق .م . اجتيحت مملكته كما ذكر آنفاً ووقعت فى ربقة العبودية وزالت من التاريخ تمام الزوال . وكانت يهوذا (Judah) عرضة لنفس المصير ولكنها نجت منه فترة من الزمان . ولقد ذكرنا لك من قبل مصير جيش الملك سَنْحاريب أيام حكم الملك حَزَقِيا(١) (٧٠١ ق.م.) . وكيف قتله ابنه (سفر الملوك الثانى الإصحاح ١٩ : ٣٧) . وليس فى الكتب المقدسة أى إشارة لما يلى ذلك من إخضاع الأشوريين لمصر . على أنه من الواضح أنه قبل حكم سنحاريب ، كان الملك حزقيا يتبادل المراسلات السياسية مع بابل (٧٠٠ ق.م .) ، التى كانت ثائرة على سرجون الثانى ملك آشور . وتبع ذلك غزو آسَرْحَدُّون لمصر ، ثم شغلت آشور فترة من الوقت بمشاكلها الداخلية . ذلك أن الاسكيذيين (الإشقوذيين) والميديين والفرس كانوا يتهددونها من الشمال ، وكانت بابل نهباً للفتن . وقد أسلفنا كيف أن مصر خف عنها الضغط الآشورى فترة من الزمان فأخذت تنهض من كبوتها . وكان هذا أول الأمر فى عهد أبسماتيك ثم فى عهد نخاو الثانى .

وهناك خان التوفيق مرة أخرى القطر الصغير الواقع فى الوسط فلم يحسن اختيار حلفائه . ولكن أين يجد العبرانيون السلامة وعلى كلا جانبهم عدو ؟ فإن يوشيا (Josiah) وقف فى وجه نخاو فذبح فى معركة مجدّو (٦٠٨ ق.م.) وأصبح ملك يهوذا تابعاً يدفع الجزية لمصر . ولكن عندما سقط نخاو أمام نبوخذ نَاصَّرُ الثانى بعد أن توغل حتى وصل إلى الفرات سقطت يهوذا معه (٦٠٤ ق.م.) حتى إذا نصب نبوخذنا صّر ثلاثة ملوك خاضعين له كالألعوبة ، ساق غالبية الشعب أسرى إلى بابل (٥٨٦ ق.م.) ، أما الباقون فقاموا بثورة ذبحوا منها الموظفين البابليين ، ثم لتجأوا إلى مصر فراراً من انتقام الكالديا .

« وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتى بها جميعاً إلى بابل . وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم

---

(١) حزقيا بوزن زكريا . [المترجم] .

وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة . وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيداً إلى أن ملكت مملكة فارس » .

(سفر الأيام الثانى إصحاح ٣٦ : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .

وهكذا انتهت القرون الأربعة التى عاشتها الملكية العبرانية وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجرد حدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا ، ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظماً . ولكن جرى القدر بأن تنشأ عنه إذ ذاك نتائج أخلاقية وعقلية ذات أهمية كبرى للبشرية كافة .

٣ — اليهود شعب مختلط الأصل

واليهود الذين عادوا بعد فترة تربى على الجيلين إلى أورشليم من بابل أيام الملك قورش كانوا شعباً مختلفاً جد الاختلاف عن أولئك المتقاتلين من عباد « بعل » وعبّاد « يَهْوَهْ » ، وعمن يقدمون القرابين فى المرتفعات ، ومن كانوا يقدمون القرابين فى أورشليم فى مملكتى إسرائيل ويهوذا . والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هى أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا منها ممدنين . خرجوا جمهوراً مختلطاً منقسماً على نفسه ، لا يربطه وعى ذاتى وطنى ، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال ، جعلهم ينأون بجانبهم عمن عداهم ، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة ، إذ لم يحدث إلا قبل الأسر بأربعين عاماً أن اكتشف الملك يوشيا كما يقال « سفر الشريعة » فى المعبد (سفر الملوك الثانى الإصحاح ٢٢ : ٨) ، وفيما عدا ذلك فليست هناك أى إشارة فى السجل إلى تلاوتهم أى كتاب ، وعادوا إلى وطنهم ومعهم الشطر الأكبر من مادة « العهد القديم » وواضح أن اليهود وقد تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين وحجبوا عن السياسة ، وعاشوا فى ذلك الجو الباعث على النشاط الذهنى فى العالم البابلى ، فإن العقل اليهودى ما لبث فى أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة .

كان ذلك العصر فى بابل عصر بحوث تاريخية ونهضة علمية ، وكانت المؤثرات البابلية التى حملت سردانا بالوس على اقتناء مكتبة عظيمة من مخطوطات قديمة فى نينوى ، لا تزال تعمل عملها . ولقد أخبرناك من قبل كيف بلغ انشغال نابونيداس بالبحوث الخاصة بالآثار القديمة حدا جعله يهمل الدفاع عن مملكته ضد اعتداء قورش . ومن ثم كانت كل الظروف مما يحفز اليهود المبعدين على البحث فى تاريخهم الخاص ، ثم إنهم وجدوا فى نبيهم حزقيال زعيما يستنهض هممهم . ومن أمثال تلك السجلات المخبأة والمنسية التى كانوا يحملونها معهم — ما بين تواريخ أنساب وتواريخ معاصرة تؤرخ لداود وسليمان وغيرهما من الملوك ، وما بين أساطير وتقاليد قديمة — صاغوا قصتهم وأطنبوا فيها ثم قصوها على بابل وعلى أنفسهم .

وقصة الخليقة والطوفان ، والكثير من قصة موسى ، والشىء الكثير من قصة شمشون قد جمع شتاتها من مصادر بابلية . وهناك نصّان ، نص عن قصة الخليقة ، ونص آخر عن قصة عدن ، يلوح أنهما وإن كانا فى أصلهما بابليين ، كانا معروفين للعبرانيين قبل النفى ، وعندما عاد اليهود إلى أورشليم ، لم يكن قد اكتمل لهم بين دفتى سفر واحد غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة بالبنتاتويك[1] ، ولكن لم يكن مفر من أن يتلو ذلك تجميع سائر الكتب التاريخيـــة .

ولقد ظل سائر أدبهم قروناً طويلة فى صورة كتب منفصلة ، كانت تلقى من الاحترام قدراً متفاوتاً جداً . ولا ينكر أحد أن بعض الكتب المتأخرة قد ألف بعد الأسر . هذا وأضيفت إلى كل هذا الأدب أفكار رئيسية بأعيانها . فثمة فكرة كانت هذه الكتب نفسها تدحضها فى تفصيلها ، وهى القول بأن كل الناس قاطبة أبناء إبراهيم الخلص الدماء . وثمة فكرة أخرى عن وعد قطعه يهوه لإبراهيم بأن يفضل الشعب اليهودى على جميع الأجناس الأخرى . وثم فكرة ثالثة هى ما كان يخالجهم قبل كل شىء من الاعتقاد فى أن يهوه هو

(١) وهى المسماة بتوارة موسى كما أسلفناه . [المترجم]

أعظم وأقوى آلهة القبائل طراً ، وأنه كان على ذلك رباً يعلو كل الأرباب ، وأخيراً أنه كان الرب الحق الوحيد . وانتهى الأمر بالشعب اليهودى بأن اقتنعوا — على بكرة أبيهم — بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للأرض قاطبة .

وكانت هناك فكرة رابعة نشأت نشوءاً طبيعياً جداً من هاته الفكرات الثلاثة ، وهى القول بزعيم منتظر ، مخلّص للعالم ، ومسيح يحقق ما ترامى به الزمن من وعود ياهوه التى طال الأمد عليها .

ولا مراء أن هذا الالتئام الذى ضم شتات اليهود فأصبحوا فى مدى هذه السنين السبعين شعباً تؤلف بينه تقاليد مكتوبة متواترة ، هو أول مثال فى التاريخ للقوة الجديدة الكامنة بين القرطاس والقلم فى شئون البشرية . كان ذلك الذى حدث تماسكاً عقلياً لم يقف أثره عند توحيد الشعب الذى عاد إلى أورشليم ، بل تجاوز ذلك كثيراً . وهذه الفكرة القائلة بالانتساب إلى شعب مختار قدرت له الرفعة من قبل ، كانت فكرة خلابة . واستولت هذه الفكرة أيضاً على لب اليهود الذين ظلوا فى بابل ووصل الأدب الخاص بها إلى اليهود الذين كانوا مستقرين فى مصر إذ ذاك ، كما أنها أثرت فى الشعب المختلط الذى أسكن السامرة . (وهى العاصمة القديمة لملوك إسرائيل) عند ما أبعدت القبائل العشر إلى ميديا . وهى التى أوحت إلى عدد كبير من البابليين وغيرهم أن يدعوا فى إبراهيم أبا لهم ، وأن يفرضوا أنفسهم على اليهود العائدين . وكذلك أصبح العمونيون (Ammonites) والمؤابيون (Moabites) أنصاراً لهم . وسفر نحميا (Nehemiah) حافل بأخبار المحن التى نجمت عن انتحال هؤلاء المتطفلين لامتيازات الشعب المختار . كان اليهود من قبل شعباً متناثراً فى أقاليم ومدن كثيرة ، يوم توحدت عقولهم وأمانيهم ، ثم أصبحوا شعباً ذا نزعة انعزالية متباعداً عمن عداه ، ولكن نزعتهم الانعزالية كانت بادئ الرأى مجرد رغبة فى حفظ التعاليم والعبادة سليمة مصونة خشية تكرار أمثال تلك الكبوات المحزنة التى حدثت فى عهد الملك سليمان . وظلت العقيدة اليهودية زماناً

طويلا فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل من ينضوى مخلصاً تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى .

ولا بد أن الفينيقيين بعد سقوط صور وقرطاجة كانوا يرون الدخول فى العقيدة اليهودية أمراً يمتاز بسهولته وجاذبيته . وكانت لغتهم وثيقة القربى بالعبرانية . ومن المحتمل أن الغالبية العظمى ليهود أفريقيا وأسبانيا ، كانت فى حقيقة الأمر ذات أرومة فينيقية . كذلك دخل العرب فى زمرتهم أفواجاً . وكما سنلحظ فيما بعد ، كان فى جنوب الروسيا يهود من الجنس المغولى نفسه .

٤ — أهمية الأنبياء العبرانيين

والأسفار التاريخية من سفر التكوين إلى نحميا ، التى أقحمت عليها فيما بعد فكرة الوعد المقطوع للشعب المختار ، كانت ولا شك العمود الفقرى الذى تقوم عليه الوحدة الفكرية ولكنها ليست البتة الفصل الختامى الذى يتم به الأدب العبرانى ، الذى تكون منه الكتاب المقدس آخر الأمر . وما هذا بمجال الكتابة عن أسفار من أمثال سفر أيوب Job (الذى يقال إنه محاكاة للمأساة الإغريقية) هذا إلى نشيد الإنشاد لسليمان ، والمزامير ، والأمثال وغيرها ، على أن من الضرورى معالجة الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء فى شىء من التوسع والاستيعاب . وذلك لأن هذه الأسفار تكاد تكون أقدم الشواهد ، بل هى ولا مراء أفضل الدلائل على ظهور صنف جديد من الزعامة فى شئون البشر ، هو زعامة الأنبياء .

وليس هؤلاء الأنبياء بطبقة جديدة فى المجتمع ، وذلك لأنهم ينتمون إلى أصول وطبقات متباينة إلى أقصى حد . فكان حزقيال مثلا من طائفة الكهنة ، وكان ذا عواطف كاهنية ، وكان عاموس (Amos) راعياً ، على أنهم يشتركون جميعاً فى كونهم يبثون فى الحياة قوة دينية خارج نطاق القرابين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد . ويبدو أن الأنبياء الأول أشد الناس شبهاً بالكهنة الأول ، فإنهم يستلهمون الوحى ويقدمون النصح وربما لم يكن هناك فى

البداية أى فارق كبير بين الكاهن والنبى إبان الأيام التى كانت العبادة فيها تقام على مرتفعات كثيرة فى البلاد ، والتى كانت الفكرات الدينية فى أثنائها غير مستقرة نسبياً .

وكان الأنبياء يرقصون فيما يلوح بطريقة تشبه إلى حد ما طريقة الدراويش ، وينطقون بالوحى . وكانوا يرتدون على وجه العموم رداء يميزهم مصنوعاً من جلد الماعز الخشن ، وكانوا يتبعون تقاليد البدو الرحل وينفرون من «بدع المستقرين الحديدة» . على أن طراز الأنبياء ظل بعد بناء المعابد وتنظيم الكهانات عاملا آخر قائماً ومنعزلا عن الخطة الدينية الرسمية . والراجح أن الكهان لم يبرحوا يتبرمون بالأنبياء تبرماً يتفاوت قدره . إذ أنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس فى الشئون العامة ، والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة ، وهم قوم « نصبوا أنفسهم بأنفسهم » إن جاز مثل هذا القول ، ولم يكن لهم من سند يستندون إليه إلا ما يحسون من نور باطنى . وفى الكتاب المقدس صيغة ثابتة هى (وعند ذلك جاءت كلمة الرب إلى فلان) .

وفى الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا وهى أشد أيامها اضطراباً ، ويوم أطبقت مصر وشمال بلاد العرب ومملكة آشور ثم مملكة بابل إطباق المنجلة على البلاد ، أصبح لهؤلاء الأنبياء شأن وقوة عظيمان ، وكانت دعوتهم موجهة إلى العقول القلقة الوجلة ، وقد ركزوا جل نصحهم وترغيبهم فى بادئ الأمر على الندم خاصة وعلى هدم هذا المكان المرتفع أو ذاك وعلى إعادة العبادات إلى أورشليم وما شاكل ذلك . ولكن بعض نبوءاتهم كانت تحمل بين طياتها بالفعل نغمة تشابه النغمة التى تصدر فى أيامنا هذه عمن نسميهم (بالمصلحين الاجتماعيين) . كقولهم « إن الأغنياء يسحقون وجوه الفقراء » ؛ وإن المترفين ليستنفدون خبز الأطفال ؛ وإن ذوى النفوذ والأثرياء ليقلدون بذخ الأجانب ورذائلهم ويضحون بالعامة على مذبح هذه البدع الجديدة ، وهذا ما لا يرضاه الإله « يهوه » ، ولا مراء أنه منزل بالبلاد من أجله سخطه وعقابه .

ولكن اتساع أفق الأفكار الذى نجم عن الأسر ، أفضى إلى تغيير نغمة التنبؤ وتوسيع مجالاتها . فإن الوضاعة المشوبة بالحسد والتى كانت تشوه الصورة القبلية الأولى للإله ، قد حلت محلها صورة جديدة تقول بإله كله بر وصلاح مطلق ، وواضح أن سلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودى ، بل كان شيئاً يحدث فى تلك الأيام فى كافة أنحاء العالم السامى . فإن تفتيت الشعوب والممالك لتكوين إمبراطوريات ذلك العصر العظيمة الدائبة التغير ، وتحطيم النحل ونظم العبادات والكهانات ، وما كان يجرى من تبادل التكذيب والتحقير بين المعبد والمعبد فى تنافسهما ومنازعاتهما ، كانت كلها مؤثرات تفك عقال أذهان الناس وتفتح أمامها آفاقاً أكثر سعة وأشد حرية فى النظرة الدينية . كانت المعابد تكدس كنوزاً عظيمة من المواعين الذهبية ولكنها فقدت سيطرتها على أخيلة الناس .

ومن العسير علينا أن نقدر ما إذا كانت الحياة فى ظلال هذه الحروب المستديمة قد صارت أقل استقراراً وسعادة مما كانت عليه من قبل ، ولكن مما لا سبيل إلى الشك فيه أن الناس أصبحوا أشد إدراكاً لما فيها من شقاوة وعدم اطمئنان . فلم يبق للناس إلا القليل من الارتياح والاطمئنان — اللهم إلا فى قلوب الضعفاء والنساء — إلى تلك القرابين والطقوس وإلى عبادات المعبد الشكلية . هكذا كان العالم الذى شرع أنبياء إسرائيل المتأخرون يحدثونه عن الرب الأوحد وعن الوعد بأنه لا بد أن يأتى يوم يسود العالم فيه السلام والوحدة والسعادة . وهذا الإله العظيم الذى شرع الناس إذ ذاك فى الكشف عنه كان يعيش فى معبد «لم تصنعه يد ، وهو سرمدى فى السموات» . ولا يخالجنا إلا القليل من الشك فى وجود مقدار كبير من أمثال هذه الأفكار وتلك القواعد فى مملكة بابل ومصر وفى كل أرجاء الشرق السامى . وأسفار الأنبياء فى الكتاب المقدس لا تعدو أن تكون نماذج لتنبوءات ذلك الزمان .

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى تسلل الكتابة والعرفان تدريجياً من

أفقهما المحدود المقصود على الكهنة وخدم المعابد وحرمها المقدس ، أعلى من تلك القوقعة التي نمت فيها وترعرعت أول الأمر . ولقد اتخذنا من هيرودوت نموذجاً شائقاً لما أطلقنا عليه اسم الذكاء الطليق للجنس البشرى . وها نحن أولاء نعالج تدفقاً جديداً لآراء وأفكار أخلاقية تنساب فى المجتمع العام . وإن فى ظهور الأنبياء العبرانيين ، وفى الانتشار المطرد الذى لقيته فكراتهم المتجهة إلى الاعتقاد بوجود رب واحد فى هذا العالم بأسره ، لتطوراً آخر مماثلا لذلك، تهيأ لضمير البشرية الحر . ومنـــذ ذلك الزمان فصاعدا ، والفكر الإنسانى تخالجه — إما فى شيء من الضعف والخفاء ، وإما على حالة من التآزر وحشد القوى — فكرة تهدف إلى إقامة حكم واحد فى العالم ، وفكرة أمل ورجاء فى سلام فعال بديع وسعادة رائعة يسودان شئون البشر . بذلك تحولت الديانة العبرانية من ديانة معبد من الطراز القديم ، وأصبحت إلى حد كبير ديانة أنبياء خلاّقة من طراز جديد . ويتعاقب الأنبياء نبياً بعد نبى .

ثم ولد فيما تلا ذلك من أيام — كما سنذكر لك — نبى ذو قوة لم يسبق لها مثيل ، هو عيسى ، الذى أسس أتباعه تلك الديانة العالمية العظيمة ، وأعنى بها الديانة المسيحية ، وبعد ذلك ظهر أيضاً نبى آخر ، هو محمد ، وكان ظهوره فى بلاد العرب ، وقد أسس الإسلام ، وعلى الرغم من انفراد كل منهما بما له من خصائص مميزة ، فان هذين المعلمين قد نشآ بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء اليهود . وليس من عمل المؤرخ أن يناقش صدق الدين أو كذبه ، وإنما يقتصر عمله على تسجيل ظهور الآراء والفكر البنّاءة العظيمة . فمنذ ألفين وأربعمئة من السنين ، وبعد أن انقضت ستة أو سبعة أو ثمانية آلاف من السنين على بناء حوائط المدن السومرية الأولى ، ظهرت فى العالم فكرتا الوحدة الخلقية للبشرية والسلام العالمى .

الفصل التاسع عشر
الشعوب الناطقة بالآرية فى عصور ما قبل التاريخ

١ – انتشار الناطقين بالآرية .   ٢ – عن حياة الآريين الأصلية .
٣ – العائلة الآرية .

١ – انتشار الناطقين بالآرية

تكلمنا عن اللغة الآرية بوصفها لغة نشأت على الأرجح فى إقليم الدانوب وجنوب الروسيا ثم انتشرت من منطقتها الأصلية إلى مناطق أخرى . ونحن إنما نقول « على الأرجح » لأنه لم يثبت قط ثبوتاً محققاً أن ذلك الإقليم كان مركزها . ولقد أثيرت حول هذا الموضوع مناقشات واسعة النطاق وحدث بصدده اختلاف كبير فى الرأى . لذا فنحن إنما نقدم إليك وجهة النظر السائدة . كانت تلك اللغة فى الأصل لغة مجموعة من الشعوب النوردية الجنس . فلما أن انتشرت الآرية انتشاراً واسعاً أخذت فى التفرع والانقسام إلى عدد من اللغات الثانوية . فالتقت فى الغرب والجنوب بلغة « الباسك » التى كانت سائدة فى أسبانيا ، ولعلها لقيت أيضاً لغات أخرى متنوعة على شواطئ البحر المتوسط .

وقبل انتشار الآريين من بلادهم الأصلية نحو الجنوب والغرب كان الجنس الأيبيرى موزعاً بين بريطانيا العظمى وإرلندا وفرنسا وأسبانيا وشمال أفريقية وجنوب إيطاليا ، كما كان على حالة أكثر مدنية وتحضراً فى بلاد الإغريق وآسيا الصغرى . وكانت بينه وبين المصريين صلات وثيقة . وإذا حكمنا عليه بآثاره الباقية فى أوربا ، قلنا إنه كان صغير الحجم أو يكاد ، وكان بوجه عام بيضاوى الوجه مستطيل الرأس . وكان يدفن رؤساءه وذوى المكانة من أفراده فى حجرات من الجندل[1] مغطاة بروابى عظيمة من التراب .

(١) الجندل : هو الصخر الضخم .   (المترجم)

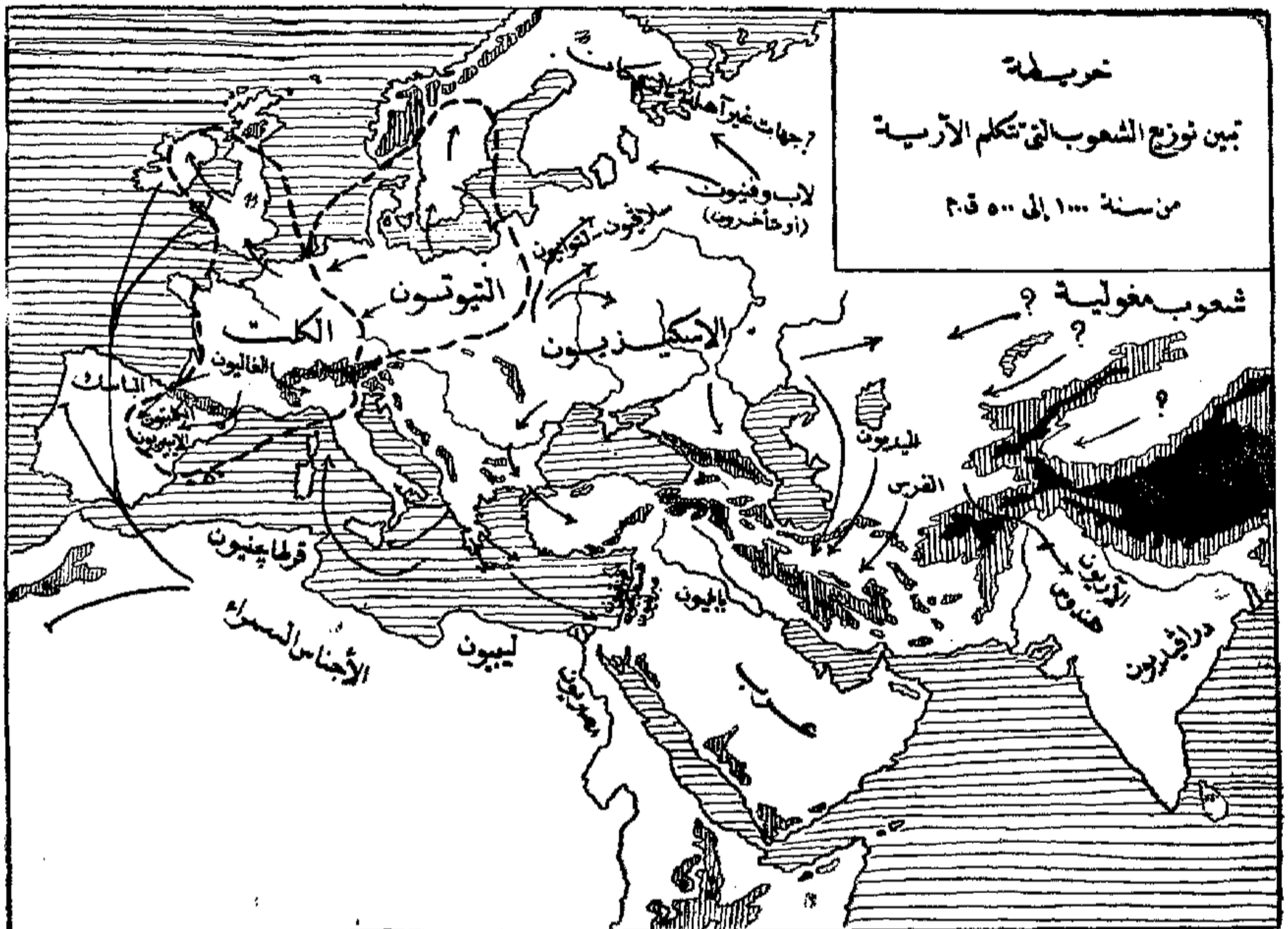
ولما كانت هذه الروابى أكثر طولا منها عرضاً ، فإنها تعرف بالقبور[1] المستطيلة ، وكان هؤلاء الأقوام يحتمون فى بعض الأحيان فى الكهوف ، كما كانوا أيضاً يدفنون بعض موتاهم فيها . ومن آثار العظام الإنسانية ، سواء المحترق منها والمهشم والمقطع ، بما فى ذلك عظام الأطفال — نستنتج أنهم كانوا من أكلة لحوم البشر .

هذه القبائل الأيبيرية القصيرة الأجساد الداكنة اللون (يضاف إليهم الباسك إن كانوا جنساً مغايراً) قد دفعوا إلى الخلف جهة الغرب ، ثم هزموا واستعبدوا على أيدى موجات تتقدم وئيداً من أولئك الناطقين بالآرية الأطول قامة والأشد شقرة الذين نزحوا نحو الجنوب والغرب عابرين أوربا الوسطى ، وهم الذين نسميهم الكلت . ولم يقف فى وجه ذلك اللسان الآرى القاهر غير شعب الباسك وحده . وشرع أولئك الناطقون بالكلتية يتخذون طريقهم رويداً رويداً نحو المحيط الأطلسى ؛ وكل ما يتبقى اليوم من أعقاب الأيبيريين مختلط بالسكان الكلتيين . أما مدى تأثير الغزو الكلتى فى سكان أرلندة فهو مثار جدل إلى وقتنا هذا . وربما كان الكلت فى تلك الجزيرة مجرد طائفة من الغزاة فرضوا لغتهم على رعبة من السكان أكثر عدداً . وربما صح مثل هذا القول عن أسبانيا . بل يشك بعض الناس فيما إذا كان شمال انجلترة نوردى الدم أم يغلب عليه الدم السابق للكلتى . فإن بين أهل ويلز من هو قصير داكن البشرة ، كما أن بين الإرلنديين طرزات مماثلة ، وكلاهما أيبيرى الجنس . والبرتغاليون العصريون يغلب عليهم كذلك الدم الأيبيرى .

وكان الكلت يتكلمون لغة هى الكلتية ، يقال عنها إنها كانت تجمع بين مفردات آرية ، وبين أجرومية البربر Berbers (أى الأيبيريين) ؛ وهى اللغة التى قدر لها أن تتفرع بدورها فتصبح لغة غالة واللغات (Gallic) الويلزية والبريطونية (Briton) والاسكتلندية والإرلندية الغيلية (Gaelic) وألسنة أخرى . وكان الكلتيون يدفنون رماد رؤسائهم وعظمائهم فى قبور مستديرة . وعلى حين كان هؤلاء الكلتيون النورديون ينتشرون غرباً ، كانت هناك

---

(١) وقد أسميناها أيضاً فى المجلد الأول باسم تلمات الدفن . (المترجم)



٥٩ — خريطة توزيع الشعوب الناطقة بالآرية

(لاب : لابلنديون ، فنيون : فنلنديون)

شعوب آرية نوردية أخرى تضغط جنوباً على شعب البحر المتوسط ذى اللون الأبيض الداكن فى أشباه الجزائر الإيطالية والإغريقية وتطور مجاميع الألسن اللاتينية والإغريقية . وثمة قبائل آرية معينة كانت تندفع نحو البلطيق وعبره حتى تدخل اسكنديناوة ، وهى تتكلم ضروباً من الآرية أصبحت النورسية القديمة — وهى أصل السويدية والدانمركية والنرويجية والإيسلندية — والقوطية والجرمانية العليا والسفلى[١] .

وفى نفس الوقت الذى كان اللسان الآرى البدائى ينتشر فيه على هذا النحو ، وينقسم إلى لغات وليدة فى الغرب ، كان ينتشر ويتفرع فى الشرق كذلك . فإن القبائل الناطقة بالآرية كانت تستعمل فى شمال جبال الكربات والبحر الأسود لهجة تميزها تسمى السلافونية (الصقلبية) التى منها جاءت الروسية والصربية والبولندية والتشيكية وألسنة أخرى . وثمة لهجات أخرى للغة الآرية موزعة فى آسيا الصغرى وبلاد إيران ، تجسمت ذاتيتها فى صورة الأرمنية « والهند وإيرانية » وهى أم اللغتين السنسكريتية والفارسية . ولقد أطلقنا فى هذا الكتاب كلمة الآرية على كل هذه المجموعة الضخمة من اللغات ، وإن كان اصطلاح « الهندوأوربية » مستعملا فى بعض الأحيان للدلالة على العائلة بأسرها ، على حين اقتصر استعمال كلمة الآرية على حيز أضيق هو اللسان الهندوإيرانى ، ثم قدرت الأيام لهذا اللسان الهندو إيرانى أن يتشعب فيما بعد فيصبح عدداً من اللغات من بينها الفارسية والسنسكريتية ، والأخيرة إنما هى لغة قبائل بعينها من الناطقين بالآرية ذوى البشرة الشقراء ، زحفوا شرقاً ودخلوا الهند فى زمان ما بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق.م . ، وتغلبوا على الشعوب الدراڤيدية السمراء الذين كانت تلك الأرض فى أيديهم إذ ذاك .

ولقد انتشرت قبائل آرية أخرى من مجال جولانها الأصلى إلى شمال البحر الأسود وجنوبه ، كما سارت حول شمال وشرق بحر قزوين ملازمة شواطئ بحار تلك المنطقة أثناء انحسارها أمامهم وإفساحها الطريق لهم . وبذلك أخذت تنشب المنازعات فضلا عن الاختلاطات بينهم وبين الشعوب المغولية من مجموعة الأورال آلتاى اللغوية ، وهم القوم الذين يربون الخيل فى سهوب

---

(١) أنظر اللغات البشرية ص ١٣٩ من المجلد الأول .   (المترجم)

آسيا الوسطى المعشبة . ويلوح أن الآريين اكتسبوا طريقة اســتخدام الخيل فى الركوب والحرب من هاته الشعوب المغولية . ولقد كانت هناك فى عصر ما قبل التاريخ ثلاثة أو أربعة أنواع أو أجناس مختلفة من الخيل فى أوربا وآسيا . على أن أرض السهوب أو الأراضى شبه الصحراوية هى التى أعدت فى مبدأ الأمر خيولا ذات بنية مهيأة لغاية أخرى غير الانتفاع بها كغذاء .

وليكن مفهوماً أن كل هذه الشعوب القاطنة فى السهوب الروسية والآسيوية ، كانوا يغيرون مواطنهم بسرعة . ذلك أن تعاقب الفصول المتطرفة المناخ ربما قذف بهم مئات كثيرة من الأميال . ولذا فليس فى ميسورنا اليوم أن نستدل على مضارب أقدامهم وتنقلاتهم إلا على سبيل الظن والاستدلال . فكانوا ينزحون إلى الشمال فى كل صيف ، ثم يعودون أدراجهم إلى الجنوب من جديد عند ما يحل الشتاء . وكان مدى هذا التأرجح السنوى يبلغ فى بعض الأحيان مئات الأميال . ورغبة منا فى التبسيط ، تمثل خرائطنا انتقالات الشعوب المترحلة بخط مستقيم ، وإن كانوا فى حقيقة الأمر يتحركون فى تأرجحات سنوية مثلهم فى ذلك مثل خادم يكنس دهليزاً فتنتقل مكنسته من جانب إلى جانب آخر وهو يخطو إلى الأمام فى عمله . وكانت المنطقة الممتدة حول شمال البحر الأسود وربما كذلك شمال بحر قزوين ، والمبتدئة من مجال القبائل التيوتونيـــة الأصلية القاطنة فى أوربا الوسطى وأوربا الشمالية حتى منطقة الشعوب الإيرانية التى تفرعت إلى الميديين والفرس والهنود (الآريين) ، — كانت هذه المنطقة كلها هى أراضى الرعى التى تنتجعها قبائل اختلط حابلها بنابلها اختلاط يجعل الإبهام لا الدقة بالنسبة لها أقرب إلى الحقيقة ، وهى قبائل من أمثال الكمّريين ، والسرمانيين وأولئك الإسكيذيين (الإشقوذيين) الذين اشتركوا مع الميديين والفرس فى الاتصال بالإمبراطورية الآشورية اتصالا له أثره الفعال قرابة سنة ١٠٠٠ ق.م. أو قبلها .

وإلى الشرق والجنوب من البحر الأسود بين الدانوب وبين الميديين والفرس وإلى الشمال من الشعوب السامية وشعوب البحر المتوسط الساكنة على السواحل وفى أشباه الجزر ، استقرت سلسلة أخرى من قبائل

آرية لا تقل عن الأخرى فى عدم تحديد مستقراتها ، وهى تتنقل تنقلا سهلا هيناً من مكان إلى آخر وتختلط اختلاطاً حراً ، وهو أمر يورث المؤرخين أعظم الحيرة والارتباك ، إذ يلوح مثلا أنهم مزقوا الحضارة الحثّية وتمثلوها ، وهى حضارة كانت على ما يرجح سابقة للآريين فى أصل نشأتها . وربما لم يكن هؤلاء الآريون الأخيرون قد وصلوا إلى نفس المرحلة العالية من حياة الترحل التى بلغها اسكيذيو السهول العظيمة .

٢ — عن حياة الآريين الأصلية

أى نوع من الحياة كان يعيشه هؤلاء الآريون فى عصر ما قبل التاريخ ؟ أولئك الآريون النورديون الذين هم أهم أسلاف معظم الأوربيين ومعظم الأمريكيين البيض والمستعمرين الأوربيين فى أيامنا هذه ؛ كما هم أسلاف الفرس والطائفة العليا من الهندوك ، وربما كانوا أيضاً أسلاف الأرمينيين ، على أن هؤلاء الأخيرين كانوا على الأرجح شعباً غير آرى ، ولعلهم شعب حثى تعلم لغة آرية .

ولدينا فى الإجابة عن هذا السؤال مصدر جديد من مصادر المعرفة يضاف إلى ما كشف عنه الحفر من الآثار والبقايا التى التزمنا أن نعتمد عليها فى حالة أسلاف الآريين ، لدينا ميدان اللغة نطرقه . ذلك أن دراسة اللغات الآرية دراسة عناية وتمحيص تبين أن من الممكن استنتاج طائفة من النتائج عن حياة هؤلاء الشعوب منذ ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سلفت من السنين .

فإن بين كل هاته اللغات مشابهة عامة ، فإن كلا منها كما سبق أن بينا تشتق الكلمات المختلفة بإدخال تغييرات على عدد من الأصول أو (الجذور) المشتركة بينها . فمتى وجدنا نفس أصل الكلمة وجذرها متداولا فى كل هذه الألسن أوجلها بدا من المعقول أن نستنتج أن المعنى الذى يومئ إليه أصل الكلمة هذا ، كان لاريب معروفاً للأجداد المشتركين . وبديهى ، أنه إن وجدت بلغاتهم نفس الكلمة بالضبط فربما اختلف الحال إذ أنها قد تكون اسما جديداً دالا على

شيء جديد أو فكرة جديدة انتشرت فى العالم فى زمان حديث جداً ، فكلمة « غاز » مثلا لفظة صاغها « فان هلمونت » وهو كيماوى هولندى ، حوالى سنة ١٦٢٥ ، فانتشرت فى معظم الألسن الممدنة ، وكلمة « التبغ » كذلك كلمة هندية أمريكية جاءت فى أثر انتشار التدخين فى كل مكان تقريباً . على أنه إذا وجدت نفس الكلمة فى عدد من اللغات وإذا كانت تتبع فى تصريفاتها خصائص التصريف فى كل لغة على حدة جاز لنا أن نوقن أنها كانت فى تلك اللغة ، وأنها ظلت جزءاً من تلك اللغة . وإنا لنعرف مثلا أن الكلمتين الدالتين على العربة والعجلة تتداولان على هذا المنوال فى جميع الألسن الآرية ، وبذلك نستطيع أن نستنتج أن الآريين البدائيين ، وأعنى بهم الآريين النورديين الخلص ، كانت لديهم عربات ، وإن كان يبدو من عدم وجود أى كلمات مشتركة دالة على برانق العجلة وإطارها ومحورها ، أن عجلاتهم لم تكن من صنع صانع عجلات ولا كانت ذات برانق ، بل كانت تؤخذ من جذوع الشجر وتسوى فيما بين الأطراف ببلطة .

وكانت هذه العربات البدائية تجرها الثيران ، إذ لم يكن الآريون الأول يركبون أو يسوقون الخيل ولم يكن للخيل عندهم كبير منفعة . وكان مغول العصر الحجرى الحديث شعباً من الفرسان راكبى الخيل ، على حين كان آريو نفس العصر الحجرى الحديث شعباً يستخدم البقر ، فكانوا يأكلون لحم البقر ، لا لحم الخيل . وشرعوا بعد عصور كثيرة فى استخدام الماشية فى الجر ، وكانوا يقدرون الثراء بعدد الأبقار ، ويضربون بها فى الأرض طلباً للمرعى ، ويحملون بضائعهم على عرباتهم التى تجرها الثيران كما يفعل بوير أفريقيا الجنوبية ؛ وإن كانت عرباتهم بطبيعة الحال أقبح شكلا من أية عربة توجد الآن فى العالم ، والراجح أنهم كانوا يتنقلون فى مناطق فسيحة مترامية الأرجاء ، إذ كانوا شعباً نزوعاً إلى الهجرة ، ولكنه لا يدخل تحت المعنى الدقيق لكلمة « الرحل » لأن انتقالاتهم كانت أبطأ وأثقل وأقل مهارة من الشعوب التى أصبحت فيما بعد هى الشعوب المترحلة الأكثر تخصصاً . كانوا

قوم غابات أو أحراش خفيفة (Parklands) لا خيل عندهم ، وكانت حياتهم تتطور متجهة صوب الهجرة متحولة عن حياة العصر الحجرى الحديث السابقة الأكثر استقراراً والمشتغلة بقطع الغابات . وقد تكون التغيرات المناخية التى كانت تحيل الغابات إلى مراع ، وكذلك احتراق الغابات بالنار عرضاً ، من العوامل التى ساعدت على هذا التطور .

سبق أن وصفنا لك نوع البيت الذى يسكنه الآرى البدائى ، كما وصفنا لك حياته المنزلية بقدر ما سمحت لنا بقايا مساكن البحيرات السويسرية . وكانت بيوته فى معظم الأحوال رثة بالغة الضعف ، كما كانت مصنوعة من الطين وفروع الأشجار المتشابكة ، بحيث لم تقو على البقاء . ولعله كان يتركها لأتفه الأسباب ، راحلا عنها بعرباته التى تجرها الأبقار ، وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاها . وهى عادة لا يزالون يرعونها فى الهند . على أن أسلافهم أصحاب القبـــور المستطيلة وهم الأيبيريون ، كانوا يدفنون موتاهم راقدين على جنوبهم فى هيئة الجالسين . وفى بعض ركام الدفن الآرية القديمة (وهى القبور المستديرة) كانت الأوعية المحتوية على رماد الراحلين مصنوعة على صورة المنازل ، وهذه تمثل أكواخاً مدورة لها سقوف من القش .

وكان انتجاع الآرى البدائى للمرعى أعظم أهمية لديه من الزراعة . وكان يزرع فى مبدأ الأمر بفأس خشبى بدائى ، ثم ما لبث حين اكتشف استخدام الماشية لأغراض الجر أن بدأ فى الحراثة الحقيقية بالثيران متخذاً محراثه فى مبدأ الأمر من فرع شجرة معوج اعوجاجاً يفى بحاجته . وزراعاته الأولى التى ظهرت قبل ذلك ، لاشك أنها كانت أقرب إلى صورة البساتين الصغيرة المجاورة لمبانى المنازل منها إلى زراعة الحقول . وكانت معظم الأراضى التى تنزلها قبيلته أرضاً مشاعة ترعى فيها الماشية بعضها مع بعض .

وهو لم يستعمل الحجر قط فى بناء جدران المنازل حتى شارف حافة العصر التاريخى ذاتها . وكان يستعمل الحجر فى المواقد (أمثال ما يوجد فى جلاستونبرى Glastonbury ، كما كان يستعمل الحجر أحياناً فى الأجزاء

السفلى من المبانى . على أنه قد شاد بالفعل نوعاً من البيت الحجرى فى وسط الركام العظيمة التى كان يدفن فيها رماد الناببهن من موتاه ، ولعله تعلم هذه العادة عن جيرانه وسابقيه الأيبيريين ، فقد كان هؤلاء البيض الداكنون أصحاب الثقافة الجندلية[1] ، وليس الآريون البدائيون هم أصحاب الفضل فى إقامة معابد من أمثال ستونهنج (Stonehenge) فى ولتشير (Wiltshire) وكارناك (Carnac) فى بريتانى (Brittany) .

وما كان هؤلاء الآريون يحتشدون فى مدن ، ولكن فى مناطق الرعى فى هيئة عشائر ومجتمعات قبلية ، ويؤلفون فيما بينهم أحلافاً مفككة هدفها التعاون المتبادل بزعامة رؤساء مختارين . وكانت لهم مراكز يستطيعون أن يلجأوا إليها مع ماشيتهم إن دهمهم خطر ، وكانوا يقيمون المخيمات المحوطة بالجدران الطينية والسياجات . ولا يزال من الممكن تقصى آثارها فى طبقات ما عفى عليه التاريخ من معالم البلاد الأوربية . والزعماء الذين كانوا يقودون الناس فى الحرب ، هم فى غالب الأمر نفس الأشخاص الذين يقومون بالتطهير من الرجس بتقديم القرابين ، وهم كهنتهم الأول .

وقد انتشرت معرفة الإنسان للبرونز فى أوربا فى أوان متأخر . فإن الأوربى النوردى ظل يسير فى سبيل التقدم البطىء جيلا بعد جيل مدة ترامت إلى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنه قبل ظهور المعادن ، وكانت حياته الاجتماعية قد تطورت فى تلك الفترة حتى لقد كان هناك رجال ذوو حرف مختلفة فضلا عن رجال ونساء من مراتب مختلفة فى المجتمع ، فكان هناك رجال يعملون فى الخشب والجلد ، وكان ثم الفخرانيون والنحاتون . وكانت النساء يغزلن وينسجن ويطرزن ، وكان هناك رؤساء عائلات تسنموا مراتب الزعامة والنبالة .

وكان الرجل من أفراد القبيلة الآرية يذهب عن نفسه سآمة حياة الرعى والتجول بأن ينذر النذور ويقيم الحفلات ابتهاجاً بالنصر ، ويقيم الجنازات

---

(١) انظر ص ١٠٢ ، ١٠٧ من ج ١ (ط ٣) من المعالم (المترجم)

وتميز بين فصول السنة التقليدية بما يقيم من أعياد وولائم . ولقد مر بنا من قبل حديث اللحوم التى كان يتناولها . وكان شغوفاً بتناول المشروبات المسكرة يصنعها من الشهد ومن الشعير . ثم عاد فصنعها من العنب مع انتشار القبائل الناطقة بالآرية جنوباً . فإذا شربها تملكته نشوة السكر والمرح . ولسنا نعرف ما إذا كان قد عرف الخميرة واستخدمها لتجفيف خبزه ورفعه أو لتخمير مشروباته .

وكان فى ولائمه أفراد أوتوا موهبة المجون والسخرية يعمدون إلى ذلك لا جرم للفوز بضحك إخوانهم ، على أنه كان هناك نوع آخر من الرجال أوتوا أهمية عظيمة فى عصرهم وأهميتهم لدى المؤرخ أعظم وأكبر ، أولئك هم بعض المغنين الذين كانوا يرجّعون الأغانى وينشدون القصص ، وهم المنشدون أو الشعراء المتجولون . وكان هؤلاء الشعراء يعيشـــون بين ظهرانى كافة الشعوب الناطقة بالآرية . جاء ظهورهم نتيجة لذلك التطور الذى أصابته لغة الكلام بل هم عامل آخر مساعد فى تطور تلك اللغة التى كانت رأس كل ما أصابه الإنسان من تقدم فى العصور الحجرية الحديثة . وكانوا ينشدون أو يلقون أقاصيص عن الماضى ، أو أقاصيص عن رئيسهم الراهن وشعبه ، كما ينشدون أيضاً أقاصيص أخرى استحدثوها ، وكانوا يستظهرون النكات والقفشات . وهم الذين استحدثوا الأوزان والقوافى وتمسكوا بها وحسنوها كما وفقوا إلى السجع وجناس الحروف الأولى من الكلمات وما شابه ذلك ومما يتهيأ فى اللغة من احتمالات كامنة . والراجح أنهم بذلوا جهداً كبيراً فى سبيل إحكام قواعد اللغة ووضعها على أسس ثابتة . وكانوا فيما يحتمل أول من أمتع الأذن من عظماء الفنانين على نحو ما كان مصورو الصخور الأورينياكيون فيما بعد أول عظماء الفنانين الذين نعمت بآثارهم الأيدى والعيون . ولا ريب أنهم كانوا يأتون بالكثير من الحركات والإشارات . والراجح أنهم كانوا يتعلمون الحركات والإشارات المناسبة وهم يحفظون أناشيدهم . على أن ترتيب اللغة وعذوبتها وقوتها كانت لا جرم شغلهم الشاغل .

وهؤلاء الشعراء يؤذنون بخطوة جديدة خطتها إلى الأمام قوة العقـــل

الإنسانى وآفاقه . وإليهم يرجع الفضل فى توجيه أذهان الناس إلى شعور جديد « بكائن » أعظم من أشخاصهم هو القبيلة ، وشعور آخر بحياة ترجع إلى الماضى البعيد . فلم يقتصروا على مجرد تذكير قومهم بقديم الإحن والمعارك ، بل أخذوا يترنمون بذكرى المحالفات القديمة والتراث المشترك ، فبعثت على أيديهم جلائل أعمال السالفين من الأبطال . وبذا صار الآريون يعيشون بخيالهم قبل مولدهم وبعد انتهاء أجلهم .

وهذه التقاليد الشاعرية نمت فى مبدأ الأمر نمواً وئيداً ، ثم ما لبث نموها أن زاد سرعة كمعظم أمور الإنسان . حتى إذا حان الزمان الذى كان البرونز يدخل فيه إلى أوربا ، لم يكن هناك شعب آرى واحد لا يقوم فيه احتراف الشعر وتدريب الشعراء . وعلى أيديهم أصبحت اللغة كأجمل ما يمكن أن تكون فقد كان هؤلاء الشعراء كتباً حية ، وكانوا تواريخ فى صورة رجال ، وكانوا قوامين ومنشئين لتقاليد جديدة فى الحياة الإنسانية أشد قوة . وكان لكل شعب آرى سجله الشاعرى الطويل يتوارثونه على هذا الوجه نقلا وسماعاً . فكان للألمان قصائد الساجا كما تسميها اللغة التيوتونية ، وللإغريق ملاحمهم وللهنود الآريين شعرهم القصصى الفيدانتى بالسنسكريتية القديمة . وأقدم الشعوب الآرية كانوا فى جوهر أمرهم شعب صوت ، إذ يلوح أن الإلقاء كان متسلطاً على كل شىء حتى على تلك الرقصات الطقوسية والدرامية وعلى « ارتداء ثياب الماضى » وهى أمور كان لها أيضاً لدى معظم الشعوب الإنسانية الفضل فى نقل التقاليد من السلف إلى الخلف .

ولم تكن هناك فى ذلك الزمان كتابة . ولما أن تسرب فن الكتابة لأول عهده فى أوربا — كما سنقص عليك نبأه فيما بعد — فلابد أن الناس رأوا فيه طريقة تسجيل أشد ما تكون بطئاً أو سماجة وجمودا ، حتى لأوشكوا أن يضنوا على القرطاس بهذه الكنوز الوهاجة الجميلة التى تعيها ذاكرتهم . وقصرت الكتابة فى أول الأمر على الحسابات والحقائق الواقعية . وازدهر شأن الشعراء

والمنشدين المتجولين ، حتى بعد إدخال الكتابة بزمن بعيد جداً ، بل الواقع أنهم بقوا في أوربا حتى العصور الوسطى في صورة المغنين المتجولين . Minstrels .

ولم يكن لتقاليدهم لسوء الحظ ما للسجل المكتوب من ثبات . إذ أنهم كانوا لا ينفكون يصححون ويهدمون ويبنون ، وكانت لهم طرائقهم المتجددة وكانت لهم نواحي إهمالهم فترتب على ذلك أن لم يبق من ذلك الأدب غير المسطور لعصور ما قبل التاريخ غير آثار ضئيلة دخلها الشيء الكثير من التحوير والتنقيح . ومن أمتع تواليف الآريين قبل التاريخ وأحفلها بالمعلومات تلك الملحمة التي خلدتها الإلياذة الإغريقية . ويرجح أن صيغة أولى من الإلياذة كانت تتلى على الناس إبان ١٠٠٠ ق.م. ولكن لعلها لم تدون حتى (٧٠٠ أو ٦٠٠ ق. م.) ولا بد أن لكثير من الرجال يداً فيها ، إما مؤلفين أو محسنين منقحين . على أن ما عقب ذلك من متوارث التقاليد الإغريقية تنسبها إلى شاعر ضرير يدعى هوميروس ، كما ينحلونه كذلك الأوديسيا ، وهي مؤلف شديد الاختلاف عنها في الروح والنظرة . ويحتمل أن يكون بين الشعراء الآريين كثير من المكفوفين . والشعراء كما يقول الأستاذ ج . ل . مايرز Myres كانوا يُسلبون البصر لمنعهم من الشرود من القبيلة . ولقد رأى المستر ل. لويد في روديسيا موسيقاراً لدى جوقة ممن احترفوا الرقص من الأهالي ، وقد سلبه رئيسه بصره لهذا السبب عينه . وكان السلاف (الصقالبة) يسمون الشعراء باسم سليپاك Sliepae ، وهي الكلمة التي يطلقونها أيضاً على الرجل الضرير .

ونص الإلياذة الأصلي الذي كان الناس يتلونه أقدم من الأوديسيا عهداً . ويقول الأستاذ جلبرت مري : « إن الإلياذة بوصفها أثراً شعرياً نص كامل أقدم من الأوديسيا عهداً ، وإن كانت مادة الأوديسيا (وهي إلى حد كبير من التراث الشعبي (Folk-lore) الذي لا يمكن تحديد تاريخه) أقدم من أية

مادة تاريخية فى الإلياذة . ويرجح أن كلا من الملحمتين كتبت مرة ثانية ، ثم أعيدت كتابتها فى تاريخ لاحق ، على نفس النحو الذى أعاد به لورد تنيسون أمير شعراء الملكة ڤكتوريا فى كتابه « أناشيد الملك » كتابة قصة « موت آرثر Morte d'Arthur » ، وهى بذاتها التى أعاد كتابتها السير توماس مالورى قرابة ١٤٥٠ نقلا عن الأساطير السابقة لعصره ، وفيها جعل الأقوال والمشاعر والشخصيات أقرب إلى الاتساق مع عصره . على أن حوادث الإلياذة والأوديسيا ، وطريقة العيش التى تصفان ، وروح الأفعال المدونة فيهما ، تنتمى إلى القرون الختامية لعصر ما قبل التاريخ . ثم إن هاته الأشعار سواء منها الساجا والملاحم والڤيدا تزودنا هى وعلم الآثار القديمة وعلم فقه اللغة بينبوع ثالث للإحاطة بأنباء هاته الأزمان الغابرة . وإليكم مثلا فقرة الإلياذة الختامية ، وهى تصف على وجه الضبط طريقة إقامة القبر قبل التاريخ [(١)] :

أسرعوا جملة لشد البغـال　　وقوىّ الثيران حول العجال
ثم ساروا مهن فوراً وجدوا　　وإلى السور أقبلوا أسرابا

أنهراً تسعة بجمع الضرام　　لبثوا ثم عاشر الأيام
رفعوا الميت والعيون هوام
فوق ذاك الوقود ثم النـارا　　أضرموها به توّج أوارا
ولهم حين لاح ورد بنان الـ　　فجر من حوله أقاموا عصابا

حيث هبت لواهب النيران　　أخمدوها بصرف خمر الدنان
ولفيف الإخوان والخلان
جمعوا كل أعظم الميت جمعـا　　بكئيب الفؤاد يذرون دمعا
أودعوها من ثم حُقّ لجين　　وكسوه برفيرهم[(٢)] جلبابا

---

(١) اعتمد المؤلف فى هذا الاقتباس على ترجمة تشاپمان الشعرية للإلياذة مصححاً بعض الكلمات بمساعدة ترجمة لانج وليف ومايرز النثرية ونقلناه نحن عن ترجمة البستانى العربية لها ص ١١٤٨　　(المترجم)

(٢) البرفير والفرفير ضرب من الألوان مركب من الأحمر والأزرق ، والثوب صبغ به ويعرف بالأرجوان .　　(المترجم)

أنزلوها فى حفـــرة حفروها   وبجلمود صخـــرهم طمروها

ثم شادوا الضريح إذ دفنوها

وحواليه أوقفوا الأرصـــادا   من سراة السُّرى قروما شـــدادا

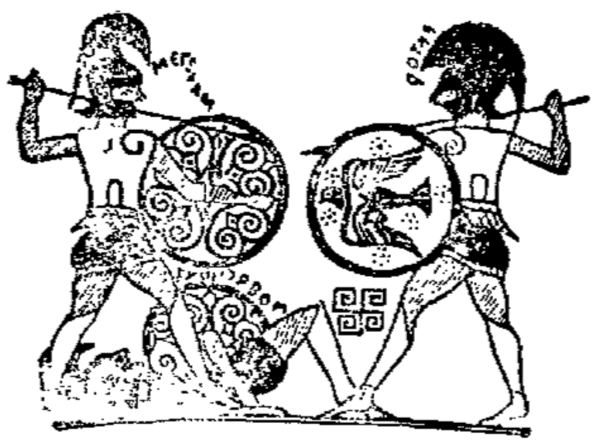
خشية من عدوهم أن يفاجى   بغتة حـــين غفلة واحتسابا

وإذا القـــبر أكملوا وأتموا   صرح ذاك المليك فريام أمّوا

حيث حوليه للعزاء انضموا

ولهم هيـــأ المليك طعـــاماً   كان فى مأتم الفقيد ختاما

ذاك ما كان من مناحة هكطو   ر الذى روض الجياد الصلابا



١٠ — القتال بين منيلاس وهكتور

ومازال هناك أيضاً ملحمة انجليزية قديمة (ساجا) هى بيووُلْف (Beowulf) وقد صنفت قبل عبور الإنجليز من ألمانيا إلى انجلترة بزمن طويل. وهى تختتم بوصف منظر للدفن شبيه بذاك. وهى تبدأ بالحديث عن إعداد كومة الحطب للإحراق. وقد علقت من حولها التروس والدروع، وتحمل الجثة وتوقد النار، وبعد ذلك يدأب المحاربون عشرة أيام على إقامة مقبرة ضخمة لكى يراها عن بعد كل مسافر بالبر أو البحر.

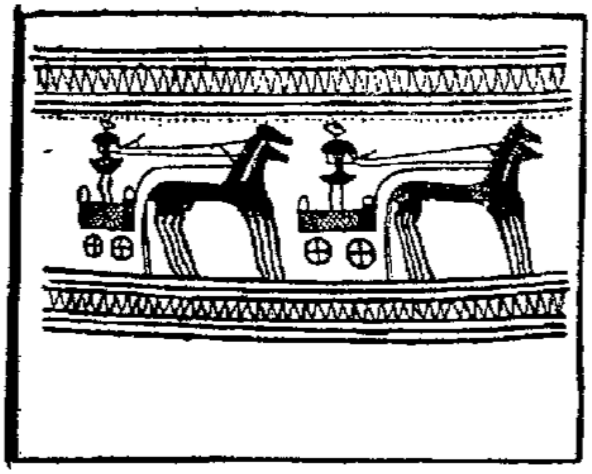
وملحمة بيوولف التى ظهرت بعد الإلياذة بألف سنة على الأقل شائعة هى الأخرى، وذلك لأن إحدى مغامراتها الكبرى تدور حول نهب كنوز مقبرة قديمة ترجع إلى عهد أقدم من ذلك.

٣ — العائلة الآرية

والملاحم الإغريقية تصور لنا الإغريق الأول على غير علم بالحديد ، صفراً من كل معرفة بالكتابة ، كما تصورهم قبل أن يؤسسوا أى مدن إغريقية فى تلك البلاد التى تدل كل الدلائل على حداثة عهدهم بفتحها . فأخذوا ينتشرون جنوباً من مواطن الآريين الأصلية ، وكانوا فيما يلوح قوماً من الشقر نازحين ، حديثى عهد ببلاد الإغريق أى حديثى العهد بأرض كان يتملكها إلى ذلك الحين شعوب البحر المتوسط أو الشعوب الأيبيرية .

وتوخياً للوضوح وإن تعرضنا لشىء طفيف من التكرار فى هذه المسألة بالذات ، نذكرك بأن الإلياذة لا تعطينا صورة حياة العصر الحجرى الحديث البدائية بذلك الإقليم الآرى الأصلى ، بل تعرض علينا تلك الحياة وقد سارت حثيثاً صوب حالة جديدة ، وكانت طريقة العيش الحجرى الحديث قد انتشرت فيما بين ١٥٠٠٠ ، ٦٠٠٠ ق. م. بانتشار الغابات ووفرة النباتات فى الحقبة المطيرة — فوق الجزء الأكبر من العالم القديم من نهر النيجر إلى نهر الهوانج هو ومن إرلندة إلى جنوب الهند . وبينما كان مناخ أجزاء عظيمة من الأرض يرتد من جديد إلى حالة أكثر جفافاً وأشد تعرياً من النبات ، كانت حيـــاة العصر الحجرى الحديث السابقة الأكثر بســـاطة تتطور فى اتجاهين : أحدهما يؤدى بها إلى حياة أكثر تجوالا وانتقالا ، أى إلى حياة تنتهى آخر الأمر إلى أن تصبح حياة هجرة مستديمة بين مراعى الصيف والشتاء وهى ماتسمى باسم « حياة الترحل أو البداوة » ، والآخر يفضى بها فى وديان لأنهار معينة تسطع عليها الشمس — إلى حياة رى يختزنون فيها الماء . وهى التى تجمّع فيها الناس فكوّنوا المدن الأولى وأقاموا المدنيات الأولى . ولقد أسلفنا وصف المدنيات الأولى وألمعنا إلى تعرضها من وقت لآخر لغزوات الشعوب المترحلة ولحظنا من قبل أنه فى خلال آلاف عديدة من السنين ظلت المدنيات تتعرض للغزوات يتردد عليها المترحلون تردداً يكاد يكون إيقاعياً كخفق الطبول .

وينبغى لنا أن نلحظ أن الإغريق كما تصورهم لنا الإلياذة ليسوا مجرد رحّل من العصر الحجرى الحديث عارين من كل حضارة ولا هم بالقوم الممدنين ، وإنما هم بدو مترحلون فى حالة انفعال واضطراب ، لأنهم كانوا التقوا من فورهم بمشهد الحضارة ورأوا فيه فرصاً للحرب والمغنم والسلب .



ش ٦١ – صورة الخيول والعربات الحربية فى عصر ما قبل التاريخ

وإغريق الإلياذة الأوائل محاربون شديدو المراس ، ولكن يعوزهم النظام — وما معاركهم إلا فوضى قوامها النزال الفردى . ولديهم الخيل ولكن ليس لديهم فرسان ، وهم يستخدمون الحصان وهو حيوان عرفه الآريون فى زمن حديث نسبياً ، يتخذونه لجر مركبة حربية بدائية فى ميادين القتال . وكان الحصان لا يزال فى ذلك الزمان شيئاً جديداً حتى لقد كان فى حد ذاته مبعثاً للرعب . فأما أغراض الجر العادية فكانت الثيران أنعامها ، كما رأينا من الاقتباس الذى قدمناه لك من الإلياذة .

ولم يكن لهؤلاء الآريين من كهنة سوى سدنة المقاصير والأماكن المقدسة . ومن رؤساء العائلات من كان يقوم كذلك بتقديم القرابين ، ولكن لا يبدو أن ديانتهم تنطوى على خفايا كثيرة أو شعور بأسرار مقدسة . فعندما يخرج الإغريق للقتال ، يلتئم من هؤلاء الرءوس والأكابر مجلس ينصّبون عليهم فيه ملكاً ، يتمتّع بسلطات فضفاضة . وليس لديهم قوانين بل لديهم العرف وحده دون أى معايير مضبوطة للسلوك والأخلاق .

وكانت الحياة الاجتماعية لدى الإغريق الأوائل تدور حول دوارات[1]

(١) الدوار كما هو معلوم هو دار الوجيه الريفى . (المترجم)

هؤلاء الزعماء . وكان هناك ولا ريب أكواخ للقطعان وما شابهها ، ومبان « للعزب » منعزلة . على أن بهو الرئيس كان مركزاً جامعاً يؤمه الناس لحضور الولائم وسماع الشعراء والأخذ بنصيبهم من الألعاب والرياضة . وكان أرباب الحرف البدائيون يتجمعون هناك . وكانت من حوله حظائر البقر واسطبلات الخيل وما إلى ذلك من المرافق . وكان الدهماء من غير ذوى المكانة ينامون فى أى مكان حول ذلك البهو على النحو الذى كان يفعله الخدم والأتباع فى قلاع القرون الوسطى ، وكما يفعل الناس حتى الآن فى الدوارات الهندية . وفيما عدا وجود الممتلكات الشخصية البحتة كان لايزل يحيط بالقبيلة جو من الشيوعية القائمة على نظام الأبوة . فكانت القبيلة أو رئيس القبيلة يملك أرض المرعى ، وكانت الغابة والأنهار مشاعاً بين الجميع .

ويلوح أن النظام الاجتماعى الآرى — بل فى الحق كافة المجتمعات الأولى . لم يكن يقوم على المنازل الصغيرة المنفصلة التى تتكون منها فى الوقت الحاضر كتلة السكان فى أوربا الغربية وأمريكا ، بل كانت القبيلة عائلة كبيرة . وكانت الأمة جماعة من العائلات القبلية . وكان الدوار كثيراً ما يضم مئات من الناس . وقد ابتدأ المجتمع البشرى أمره على نفس الشاكلة التى ابتدأ بها تكوين القطعان والأسراب بين الحيوانات ، وذلك بأن كانت العائلة تؤخر تفككها وانقسامها . وانك لتجد الأسود فى الوقت الحاضر فى شرق أفريقيا جانحة بشكل واضح لأن تصبح حيوانات اجتماعية من هذه الناحية ، وذلك فى ملازمة الصغار لأمهاتها بعد استكمالها نموها ثم فى خروجها للصيد جماعة . وكان الأسد حتى حين أقرب شيء إلى حيوان منفرد . ولئن لم يتعلق الرجال والنساء بعائلاتهم فى الوقت الحاضر بالقدر الذى كانوا يتعلقون به فى الماضى ، فذلك لأن الدولة والمجتمع يزودان الناس بالطمأنينة والعون والتسهيلات التى كانت فى يوم ما فى متناول جماعة العائلة دون غيرها .

ومجتمع الهندوك فى الوقت الحاضر لا يزال يحتوى تلك الدوارات

الكبيرة التي كانت في المراحل الأولى للجماعة البشرية . وقد وصف (المستر جهو بندرانات باسو)من أمد قريب دوارا هندوكياً طرازياً ، هو دوار آرى تهذب وتلطف بمرور آلاف من سني المدنية . بيد أن تكوينه الاجتماعي هو عين تكوين الدوارات التي تتحدث عنها الملاحم الآرية .

قال : « إن نظام العائلة المشتركة قد وصل إلينا من أزمان سحيقة في القدم ، ولا يزال النظام الأبوى الآرى القديم مسيطراً في الهند . وهو على قدمه لا يزال زاخراً بالحيوية . والعائلات المشتركة إنما هي هيئة تعاونية فيها للرجال والنساء منزلة محددة المعالم ، وعلى رأس تلك الهيئة أرشد أعضاء العائلة ، وهو في العادة أكبر الذكور سناً ، غير أنه كثيراً ما تتسلم مقاليد السلطة أرشد النساء في حالة غيابه (راجع قصة پنيلوب Penelope في الأوديسيا) .

« وعلى جميع القادرين جثمانياً من الأعضاء أن يكرسوا جهودهم وكسبهم إلى الحصيلة العامة سواء أكان ذلك عن طريق المهارة الشخصية أو الزراعة والتجارة . فأما الضعفاء والأيامى واليتامى وذوو القربى المعوزون ، فقد كان لزاماً أن تعولهم العائلة جميعاً وتعينهم ، وكان لزاماً أن يعامل الأبنـــاء وأبناء الإخوة والإخوة وأبناء العم جميعاً على قدم المساواة ، إذ أن أى تفضيل لا محل له ربما أفضى إلى تفكك العائلة . وليس لدينا (في الهند) أى كلمة للدلالة على أبناء العمومة . فهم إما إخوة أو أخوات . وليس في مصطلحنا لفظ يدل على أبناء العمومة الذين يبعدون في قرابتهم لنا درجتين ، فإن أولاد ابن عمك لحاً[1] إنما هم أبناء وبنات أخيك ، مثلهم كمثل أولاد إخوتك أو أخواتك تماماً . *والرجل لا يستطيع أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله مهما* بعدت قرابتها منه إلا بقدر ما يستطيع التزوج من أخته لحا ، اللهم إلا في أجزاء بعينها من « مدراس » ، حيث يستطيع الرجل أن يتزوج ابنة خاله . والعواطف العائلية والروابط العائلية قوية جداً بينهم على الدوام . ولذلك كانت المحافظة على معايير المساواة بين هذا العدد الكبير من الأعضاء ، لا تبلغ من الصعوبة ما تبدو عليه لأول وهلة . زد على ذلك أن الحياة هناك

---

(١) ورد في الوسيط : لحت القرابة بيننا لحاً ، دنت ولصقت . [المترجم]

جد بسيطة ، فلم يكن استعمال الأحذية حتى زمن قريب شائعاً داخل المنازل ، وإنما كانوا يستعملون الخفاف أى الصنادل غير ذات الشسوع الجلدية . وإنى لأعرف عائلة ميسورة الحال من الطبقة الوسطى مكونة من عدد من الإخوة وأبناء العمومة ، ولها زوجان أو ثلاثة من الأحذية الجلدية تتناوب استعمالها . إذ أن تلك الأحذية لا تستعمل إلا إذا حدث ما يستدعي خروجهم ، ولاتزال تلك الطريقة عينها مرعية فى حالة الثياب الغالية الثمن أمثال الشيلان التى تبقى أجيالا عدة ، والتى تلوّى مع تقادم العهد بها عناية ملؤها التجلة لسابق استعمالها على يد أجداد كريمى الذكرى .

« وتبقى العائلة المشتركة أحياناً متجمعة مدة أجيال عدة ، حتى تصبح كبيرة الحرم ثقيلة العبء عسيرة القياد فتتجزأ إلى عائلات أصغر منها . وإنك لترى على هذا النحو قرى بأكملها مأهولة بأعضاء عشيرة واحدة . قلت إن العائلة هى جماعة تعاونية ، وربما أمكن تشبيهها بدويلة ، ويحتفظ لها بأوضاعها وبمكانتها نظامها القوى القائم على المحبة والطاعة ، وإنك لترى فى كل يوم تقريباً أفراد العائلة الصغار ، يتقدمون إلى كبيرها « ويأخذون تراب قدميه » علامة على التبرك ، وكلما انطلقوا فى مشروع لهم استأذنوه فيه وتقبلوا بركاته ... ! وهناك روابط كثيرة تربط العائلة بعضها ببعض : أولها رابطة التعاطف والمسرات المشتركة والأحزان المشتركة . فعندما تحدث فى العائلة وفاة يشمل الحداد كل أفرادها ، وإذا ولد مولود أو تزوج فرد عمت الأفراح كل العائلة . وهناك فوق كل شيء إله العائلة وهو تمثال لفشنو (Vishnu) الحافظ ، وله حجرة خاصة ، تعرف عادة باسم حجرة الرب . على أن بعض العائلات الميسرة الحال تخصص له معبداً ملحقاً بالمنزل تؤدى فيه العائلة عبادتها اليومية ، وترتبط العائلة بتمثال الرب بنوع من المحبة الشخصية ، لأن التمثال ينحدر على العموم من الأجيال السابقة ، وكثيراً ما يكون أحد الأجداد الأتقياء قد حصل عليه بمعجزة من المعجزات فى بعض الأزمان السحيقة ... وكاهن

العائلة وثيق الارتباط برب العائلة . والكاهن الهندوكي جزء من حياة أتباعه العائلية لا يتجزأ ، وقد دامت الرابطة بينها وبين شخصه مدة أجيال كثيرة . وليس الكاهن عادة رجلا واسع العلم ، وهو على كل حال ملم بتقاليد عقيدته. وليس الكاهن بالعبء الثقيل على العائلة إذ هو يرضى بالقليل . فإن ملء حفنات قليلة من الأرز لتكفيه ، وإن عدداً قليلا من أصابع الموز أو الخضر المزروعة فى المنزل ، وإن قليلا من السكر غير المكرر المصنوع فى القرية ، وإن قليلا من قطع العملة النحاسية تعطى له فى بعض الأحيان — لهى كل ما يلزمه .

« وكل صورة لحياتنا العائلية لا تتناول بالحديث خدم الدوار تكون صورة بتراء . فالخادم الأنثى تعرف فى البنغال باسم « چهى » أى الابنة ، فهى كابنة البيت ، وهى تدعو رب البيت وربته أباً وأماً ، وتدعو شبان وفتيات العائلة إخوة وأخوات ، وهى تقاسم العائلة حياتها ، وتذهب إلى الأماكن المقدسة مع سيدتها ، إذ أنها لا تستطيع الذهاب بمفردها ، وهى على العموم تقضى حياتها مع العائلة التى تبنتها ، وتعنى العائلة بأطفال الخادمة . والخدم الرجال يلقون معاملة مماثلة لهذه تماماً . وهؤلاء الخدم الرجال منهم والنساء هم فى العادة قوم من طوائف أدنى مرتبة . على أن شعوراً بالتعلق الشخصى ينمو بينهم وبين أفراد العائلة ، وحين تتقدم بهم السن يسميهم الصغار من أفراد العائلة — فى حنان ومحبة — إخوة كباراً وأعماماً وخالات .

« ولكل بيت ميسر الحال مدرس مقيم على الدوام ، يعلم أطفال العائلة كما يعلم أولاداً آخرين من أبناء القرية وليست مبانى المدارس كثيرة النفقة ، فإن فى أية شرفة « ڤراندة » أو مظلة فى الفناء متسعاً للأطفال ومعلمهم ، ويقبل أبناء الطوائف الدنيا فى هذه المدرسة مجاناً . فهذه المدارس الأهلية لم تبلغ يوماً مرتبة عالية جداً . بيد أنها كانت مركزاً لتعليم الجماهير لم يتيسر مثله فى أى قطر آخر .

« ويرتبط بالحياة الهندوكية واجب الكرم الذى تحتمه التقاليد ، فإن واجب صاحب الدار يقضى عليه بأن يقدم الطعام لأى غريب يحضر قبل الظهيرة ، وإن ربة البيت لتمتنع عن تناول طعامها حتى يتناوله كل أفراد العائلة — وإذ أن طعامها يكون فى بعض الأحيان هو كل ما تبقى فى المنزل ، فإنها لاتتناول غداءها إلا بعد وقت الظهيرة بزمن كاف خشية أن يأتى غريب جائع ويطلب الغداء » .

لقد استمرأنا الاقتباس من المستر باسو فى شىء من الإسهاب ، لأننا بهذا نصل فعلا إلى شىء يشبه الفهم الحى لطراز الدوارات التى عمت المجتمعات البشرية منذ العصر الحجرى الحديث ، والتى لا تفتأ تعم اليوم الهند والصين والشرق الأقصى . والتى أخذت فى الغرب تخلى مكانها سريعاً لنظام للتعليم تقوم به الدولة ومجالس البلديات ، ولنظام « تصنيع » واسع النطاق يتيسر فيهما من استقلال الفرد وحريته قدر لم تعرفه قط تلك الدوارات الكبيرة . ولنعد الآن إلى التاريخ الذى تحفظه لنا الملاحم الآرية .

تنبئنا الملاحم السنسكريتية بقصة شديدة الشبه بتلك القصة التى تنطوى عليها الإلياذة . وهى قصة شعب أشقر يأكل لحم البقر — فإنهم لم يصبحوا نباتيين إلا فى زمن لاحق — ينحدر من بلاد الفرس إلى سهل الهند الشمالى ويشق طريقه فى مهل إلى نهر السند . ومن السند ينتشرون فى أنحاء الهند ولكن بينا هم فى انتشارهم تراهم يقتبسون الشىء الكثير من الدرافيديين السمر الذين غزوا بلادهم ، ويبدو أنهم فقدوا تقاليدهم الشاعرية . ويقول المستر باسو : « إن الأشعار القديمة كانت تتناقل على الأخص فى الدوارات على ألسنة النساء » .

أما أدب الشعوب الكلتية الشفوى المحفوظ ، وهم الذين اتجهوا غرباً ، فلم يبق سليماً كما بقى أدب الإغريق والهنود ، وذلك لأنه سطر بعد انقضاء قرون عديدة ، ولذلك فإنه — شأن ملحمة البيوولف (Peowulf) الإنجليزية البدائية — قد فقد كل شاهد واضح يشهد بوجود فترة هجرة إلى أراضى

شعب سالف . ولئن ظهر فيه أثر لمن سبقوا الآريين ، فإنهم إنما يظهرون فقط ظهور (الفيرى[1] Fairy) فى القصص الإرلندية .

وظلت إرلندة — وهى أشد المجتمعات الناطقة بالكلتية انقطاعاً عن العالم — محتفظة بحياتها البدائية إلى أحدث الأزمان . وقصة التين (Tain) وهى الإلياذة الإرلندية تصف حياة قوم يربون الماشية ولا يزالون يستخدمون العربات الحربية كما تزال كلاب الحرب مستعملة لديهم ، وتحمل رؤوس القتلى معلقة حول رقاب الخيول . «والتين» إنما هى قصة غارة لسرقة الماشية ، وفيها أيضاً يبدو النظام الاجتماعى على نحو ما شوهد فى الإلياذة . فإن الرؤساء يجلسون فى قاعات عظيمة رحيبة ، ذلك أنهم يشيدون لأنفسهم القاعات ويقيمون فيها الولائم . وهناك ترفع أصوات الشعراء بالغناء وقص الأقاصيص على حين تدور الكأس بالشراب وينتشى الحاضرون . وليس هناك ما يدل دلالة واضحة على وجود كهنة ، بيد أن هناك نوعاً من الطبيب الساحر حارس التعاويذ والتنبوءات .

---

(١) الفير — كائن أو روح خيالى كثير الورود فى القصص الأوربى ، له صورة إنسانية وقامته أقصر من الإنسان وله قدرة على عمل أشياء كثيرة خارقة لا يستطيع الإنسان عملها . (المترجم)

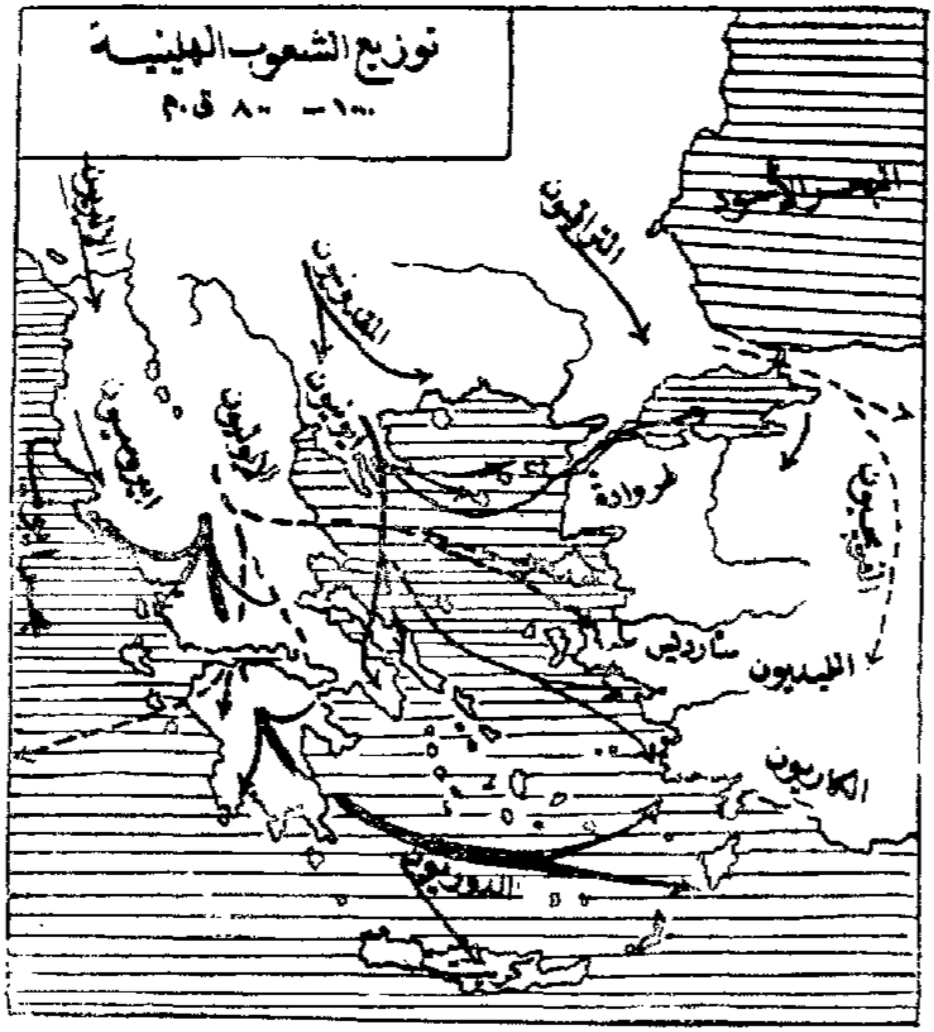
الفصل العشرون

الإغريق والفرس

١ – الشعوب الهلينية

يظهر الإغريق لأول مرة فى ذلك الضوء المعتم السابق لفجر التاريخ (قبل عام ١٥٠٠ ق.م. على التقريب) بوصفهم أحد الشعوب الآرية الجوالة غير الكاملة الترحل . وكانوا يوسعون نطاق رعيهم شيئاً فشيئاً نحو الجنوب متغلين فى شبه جزيرة البلقان ، ويقاتلون شعوب تلك المدنية الإيجية السابقة التى كانت مدينة كنوسوس تاجاً على مفرقها ، ويختلطون بها .

وتنبئنا الأشعار الهومرية بأن هذه القبائل الإغريقية تتكلم لساناً واحداً مشتركاً ، وأن تقاليدها المشتركة التى تدعمها أشعار الملاحم تشد بعضهم إلى بعض فى وحدة مفككة الأوصال . وهم يسمون قبائلهم المختلفة باسم مشترك هو الهلينيون . ولعلهم نزحوا على موجات متعاقبة ، إذ يميز العلماء فى لغة الإغريق القديمة ثلاث لهجات رئيسية : هى الأيونية Ionic والإيولية Aeolic والدورية Doric . على أن لديهم أيضاً أضراباً كثيرة من اللهجات المتنوعة . ويلوح أن الأيونيين سبقوا من عداهم من الإغريق إلى الميدان ، واختلطوا اختلاطاً وثيقاً بالشعوب المتحضرة التى غلبوها على أمرها . وقد يكون سكان مدن من أمثال أثينا وميليتوس من ناحية



ش ٦٢ — توزيع الشعوب الهلينية

الجنس أقل نوردية وأقرب إلى سكان البحر المتوسط . والظاهر أن الدوريين هم قوام آخر موجات الهجرة وأقواها مُنّــة وأقلها تمديناً . فهاته القبائل الهلينية غزت المدنية الإيجية ودمرتها إلى حد كبير وهى المدنية التى سبقت وصولهم . وبنى الفاتحون على أنقاضها حضارة خاصة بهم . وهفت نفوسهم إلى البحر وعبروه إلى آسيا الصغرى بطريق الجزر . وبعد أن ركبوا السفن مخترقين الدردنيل والبســفور ، نشروا مواطنهم ومستقراتهم على امتداد ســواحل البحر الأسود الجنوبية . ثم ما لبثوا أن مدوها على امتداد سواحله الشمالية . كذلك انتشروا فى جنوبى إيطاليا ، التى أطلقوا عليها آخر الأمر ماجنا جرايكيا M gna Graec a أى بلاد الإغريق .

العظمى) ، ثم انتشروا حول الشاطئ الشمالى للبحر المتوسط وأسسوا مدينة مرسيليا محل مستعمرة فينيقية قديمة . ثم أخذوا ينشئون لأنفسهم فى صقلية المستقرات (المستعمرات) منافسين بذلك القرطاجنيين فى زمان يرجع إلى ٧٣٥ ق.م .

وجاء فى أعقاب الإغريق الخلص أقاربهم المقدونيون والتراقيون وعلى جناحهم الأيسر عبر الفريجيون البوسفور إلى آسيا الصغرى .

وإنا لنجد هذا التوزيع كله يتم للإغريق قبل بواكير التاريخ المكتوب . حتى إذا حل القرن السابع ق.م. أعنى إبان الأسر البابلى لليهود ، كانت قد زالت من الوجود كل المعالم الدالة على العالم القديم عالم المدنية السابقة للهلينية فى أوربا . ألا ترى إلى تيرينز (Tiryns) وكنوسوس (Cnossus) كيف صارتا مواقع غير ذات بال ، وإلى مسيناى (Mycenae) وطراوادة (Troy) كيف لا تعيشان إلا فى عالم الأساطير ؟ فأما المدن العظيمة فى هـــذا العالم الإغريقى الجديد فهى أثينا واسبرطة (عاصمة لاكيدامون) وكورنثة وطيبة وساموس وميليتوس . ومن ثم يكون العالم الذى كان أجدادنا يسمونه باسم « بلاد الإغريق القديمة » قد قام على أطلال منسية تنتمى لبلاد إغريق أشد إمعاناً فى القدم من تلك ، كما أنها تضارعها فى تمدينها وتقدمها الفنى من كثير من الوجوه . بل إننا اليوم لم نكد نتجاوز المرحلة الأولى فى تعرف تلك المدنية السحيقة القدم تعرفاً يرجع الفضل فيه إلى جهود المنقبين عن الآثار .

بيد أن بلاد الإغريق القديمة هذه الأحدث من السالفة ، التى نحن الآن بصدد الحديث عنها لا تزال تعيش عيشاً ناصعاً رائعاً فى أخيلة الرجال ونظمهم ، لأنها كانت تنطق بلسان آرى جميل أشد ما يكون بياناً ، قريب الصلة باللغة الإنجليزية ، ولأنها تناولت الأبجدية المستعملة عند شعوب البحر المتوسط وبلغت بها مرتبة الكمال باضافة حروف الحركة إليها ، وبذا أصبحت القراءة والكتابة عند ذاك فنين يسيرين يسهل تعلمهما وممارستهما ، وصار فى ميســور عدد كبير من الناس إتقانهما ووضع سجل خالد للأجيال المقبـــلة .



ش ٦٢ – معركة بحرية إغريقية ٥٥٠ ق.م.

٢ ــ المظاهر المميزة للمدنية الهلينية

إن هذه المدنية الإغريقية التى نراها تدرج فى جنوب إيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى فى القرن السابع ق.م. ، إنما هى مدنية تخالف من أوجه كثيرة هامة كلا من المدنيتين العظيمتين اللتين قفونا نموهما من قبل ، وهما مدنية النيل ومدنية رافدى أرض الجزيرة . نمت هاتان المدنيتان حيث هما خلال عصور طويلة . نشأتا على مهل حول حياة مركزها المعبد ، دارجتين عن زراعة بدائية . ثم قام الملوك الكهنة والملوك الآلهة يجمعون شمل دول المدن الأولى تلك[١] ، فى إمبراطوريات . على أن رعاة الإغريق المتبربرين شقوا طريقهم جنوباً مغيرين على عالم كانت مدنيته قد أصبحت قصة طال بها العهد ، إذ كانت الملاحة والزراعة وإقامة المدن المسورة والكتابة أموراً معروفة بها من قبل . فلم ينشئ الإغريق مدنية خاصة بهم ، بل حطموا مدنية وأقاموا من أنقاضها وعلى أطلالها مدنية أخرى .

وذلك هو السبب الذى يرجع إليه عدم وجود مرحلة دولة معبد فى سجل الإغريق[٢] ولا مرحلة الملوك الكهنة ، بل وصل الإغريق مباشرة إلى نظام المدينة التى لم تنبت فى الشرق إلا حول المعبد ، فعرفوا من الشرق

---

(١) دولة المدينة city state ويسميها بعض المؤرخين المدينة الحكومية . (المترجم)

(٢) دولة المعبد Temple State : دولة مركزها أحد المعابد ويرأسها الكهنة . (المترجم)

فكرة ارتباط المعبد بالمدينة وتسلموها منه لقمة سائغة . ولعل أشد ما أثر فيهم من مظاهر المدينة أسوارها . وإنا لفي ريب من أنهم جنحوا من فورهم إلى حياة المدينة ومقتضيات المواطنية . فكانوا فى بادئ أمرهم يعيشون فى قرى مفتوحة طلقة خارج أطلال المدن التى حطموها ، ولكن النموذج كان ماثلا أمام أعينهم لا يبرح يوحي إليهم ويذكّرهم . وطبيعى أنهم فكروا فى المدينة فى بادئ الأمر كموضع أمين لهم فى زمان حافل بالمنازعات . كما فكروا فى المعبد فى غير فحص ولا تمحيص ، بوصفه مظهراً طبيعياً للمدينة . انتقل إليهم هذا الميراث الذى ورثوه عن حضارة سابقة بينما لا تبرح ذكريات الآجام وتقاليدها قوية ماثلة بقوة فى أذهانهم . واستولى على زمام البلاد النظام الاجتماعى القائم على الأبطال والذى تمجد الإلياذة ذكراه . ولم يلبث أن تكيف ليوفق بين نفســه وبين ما يحوطه من ظروف جديدة . وبمرور الأيام أصبح الإغريق أكثر تديناً وأشد اعتقاداً فى الخرافات على حين استمرت عقائد المغلوبين حية وإن توارت عن الأنظار .

ولقد ذكرنا آنفاً أن التركيب الاجتماعى للآريين البدائيين كان نظاماً ذا طبقتين مكوناً من النبلاء والعــامة ، ولم تكن الطبقتان منفصلتين انفصالا شديداً إحداهما عن الأخرى . كان يقودهما فى الحرب ملك لم يكن إلا كبير إحدى العائلات النبيلة وهو الزعيم المقــدم بين نظرائه Primus inter pares . وبانتصار الإغريق على السكان الأصليين وابتنائهم البلدان أضيف إلى هذا التنظيم الاجتماعى البسيط المزدوج الطبقات ، طبقة دنيا من عمال المزارع وحذاق الصناع وغير حذاقهم ، وهى فى جل أمرها من العبيد . على أن المجتمعات الإغريقية لم تكن بأجمعها من هذا الطراز القائم على الفتح . فكان بعضها مدناً من « اللاجئين » تضم وتمثل مجتمعات محطمة خاضعة ، ولم يكن بهذه المدن الأخيرة أية واحدة من الطبقات الدنيا المكونة من السكان الأصليين .

وفى كثير من الحالات السابقة كان من تبقى من السكان الأقدمين

يكونون طبقة محكومة تتمثل فى رقيق الدولة بوجه عام كما هو الحال فى طائفة الهيلوطيين فى إسبرطة ، وأصبح النبلاء والعامة أصحاب الأراضى وأعيان الزراع . وكانوا هم المديرين لحركة بناء السفن والمشتغلين بالتجارة . على أن بعض المواطنين الأحرار الأشد فقراً احترفوا الفنون والصناعات الآلية ، وكانوا — كما سبق أن لاحظنا — لا يأنفون حتى الاشتغال بالتجديف فى إحدى السفن مقابل أجر معلوم . أما أولئك الكهنة الذين كانوا فى العالم الإغريقى فهم إما سدنة للمقاصير المقدسة والمعابد أو موظفون يقومون بتقديم القرابين . واعتبرهم أرسطو فى كتابه « السياسة — Politics » قسماً فرعياً محضاً فى طبقة الموظفين . وكان المواطن يشتغل فى شبابه محارباً وفى كهولته حاكماً وفى شيخوخته كاهناً . وكانت طبقة الكهان بالمقارنة إلى الطبقة المعادلة لها فى مصر وبابل صغيرة لا يعتد بها .

أما آلهة الإغريق الخلص الأبطال فكانوا كما أسلفنا كائنات بشرية ممجدة ، كما كانوا يعاملون فى غير كثير خوف أو رهبة . ولكن كان يستتر وراء آلهة الغزاة الأحرار آلهة أخرى للشعوب المقهورة تجد من يتبعونها خلسة بين الأرقاء والنساء . ولم يكن منتظراً من الآلهة الآرية الأصلية أن تأتى بالمعجزات ، أو أن تتصرف فى حياة الناس ، بيد أن بلاد الإغريق كانت شديدة التعلق باستشارة مهابط الوحى (Oracles) أو العرافين ، شأنهم فى ذلك شأن معظم العالم الشرقى فى السنوات الألف السابقة للميلاد . وكانت دلفى (Delphi) شهيرة بنبوءاتها على وجه خاص . وفى ذلك يقول جلبرت مرى : « عند ما يعجز أسن شيوخ القبيلة عن إخبارك وإرشادك بما يجدر بك أن تعمله ، فإنك تذهب إلى الأموات الميامين ، إن مهابط النبوءات جميعها عند قبور الأبطال ، فهم يطلعونك على المقدور (Themis)[1] وما يجدر بك أن تعمله ، ويكشفون لك عن إرادة الله على حد قول رجال الدين اليوم » .

---

(١) Themis كلمة يونانية معناها القانون الوضعى أو العرف أو المقدور . (المترجم)

ولم يكن كهنة هذه المعابد وكاهناتها يكونون طبقة واحدة ، كما أنهم كطبقة لم يكونوا يمارسون أية سلطة فى البلاد إذ الواقع أن قوام الدولة الإغريقية كله هو النبلاء والعامة الأحرار . وهما طبقتان اندمجتا فى بعض الحالات فى هيئة واحدة مشتركة من المواطنين . وفى كثير من الحالات وبخاصة فى دول المدن الكبرى ، كان عدد العبيد الأرقاء وعدد الغرباء غير المتمتعين بالحقوق يفوق عدد المواطنين الأحرار إلى حد كبير . على أن الدولة فى نظرهم لم تكن لتقوم إلا عن تفضل منهم وتكرم ، إذ هى موجودة من الناحية القانونية من أجل الهيئة المختارة ، هيئة المواطنين الأحرار وحدهم ، وهى حرة فى أن تتسامح أو لا تتسامح مع الدخيل والرقيق . ولكن لم يكن لهؤلاء أى صوت قانونى فى نوع المعاملة التى يلقون ، الأمر الذى يجعل معاملتهم لا تفترق عما لو كانوا يعيشون فى ظل أى نظام استبدادى .

وغنى عن البيان أن هذا تكوين اجتماعى يختلف اختلافاً بعيداً عنه فى النظم الملكية الشرقية . والأهمية الكبرى التى كان ينفرد بها المواطن الإغريقى الحر تذكرنا بعض الشىء بالأهمية الماحقة الساحقة التى كان يستمتع بها « أبناء إسرائيل » فى الدولة اليهودية الأخيرة . بيد أن الجانب الإغريقى خلو من كل معادل للأنبياء والكهان ، ومن فكرة وجود إله واحد مثل « يهوه » له السيطرة والسلطان على كل شىء .

وهناك وجه آخر للتباين بين الدول الإغريقية وبين أى من المجتمعات الإنسانية التى وجهنا إليها اهتمامنا حتى الآن ، هو انقسامها المستمر الذى استعصى علاجه . ومدنيات مصر وسومر والصين ومعها دون ريب مدنية شمال الهند أيضاً ابتدأت كلها فى شكل عدد من دول المدن المستقلة ، كل واحدة منها تتكون من مدينة يحيط بها بضعة أميال من القرى الزراعية التابعة ومن الأراضى والمزارع . ولكنها خرجت من هذا الطور عن سبيل عملية تماسك التأمت بها أجزاؤها فأصبحت ممالك وإمبراطوريات . ولكن

الإغريق لم يتحدوا قط حتى انصرم تاريخهم المستقل بأكمله ؛ ويرجع هذا بوجه عام إلى الظروف الجغرافية التى كانوا يعيشون فيها . فإن بلاد الإغريق قطر مجزأ إلى عدد كبير من الوديان ، تقطعت أوصاله بفعل كتل جبلية وخلجان من البحر جعلت الاتصال فيما بينها أمراً عسير المنال . بل لقـــد بلغ من عسر الاتصال أنه قل من المدن من استطاعت أن تحتفظ بكثير من المدن الأخرى تحت سيطرتها أى مدة من الزمان . وفضلا عن ذلك فإن الكثير من المدن الإغريقية كانت تقع فى جزائر ، وكانت متناثرة على امتداد سواحل شاسعة . وظلت أكبر دول المدن الإغريقية حتى النهاية أصغر من كثير من المقاطعات الإنجليزية . وكانت مساحة بعضها لا تتجاوز بضعة أميال مربعة . وأثينا وهى واحدة من أكبر المدن الإغريقية كان فيها من السكان فى أوج عزها عدد ربما بلغ ثلث المليون . وقل من المدن الإغريقية الأخرى من تخطى سكانه الخمسين ألفاً . وكان نصف هذا العدد أو ما يتجاوز النصف من الرقيق والغرباء ، وكان ثلثا هيئة الأحرار من النساء والأطفـــال .

٣ – الملكية والأرستقراطية والديمقراطية فى بلاد الإغريق

كانت حكومة دول المدن هذه تختلف فى طبيعتها اختلافاً بيناً . فإن الإغريق عند ما استقروا بعد فتوحاتهم احتفظوا إلى حين بحكم ملوكهم ، ولكن هذه الممالك ما لبثت أن عادت رويداً رويداً إلى حكم الطبقة الأرستقراطية . وفى إسبرطة أى (لاكيدايمون) كان الملوك لايزالون متمتعين بمنزلة رفيعة فى القرن السادس ق.م. وكان لأهل لاكيدايمون نظام غريب فى بابه ينطوى على ملكية ثنائية ، إذ يولون عليهم ملكين من أسرتين ملكيتين مختلفتين يحكمان معــاً .

على أن معظم دول المدن الإغريقية أصبحت جمهوريات أرستقراطية قبل حلول القرن السادس بزمان بعيد . ومهما يكن من شىء ، فإن غالب العائلات التى تتولى الحكم بالوراثة يتجلى فيها على الدوام نزوع إلى التوانى وعدم الكفاية

ومصيرها هو التدهور والزوال طال بها الزمن أو قصر . ولما أن خرج الإغريق إلى البحر وأسسوا المستقرات وانتشرت تجارتهم ، برزت بينهم عائلات غنية جديدة ، فزحزحت العائلات القديمة عن مكانتها وتسلمت مقاليد الأمور شخصيات جديدة . وأصبح هؤلاء الأغنياء الحديثو الثراء أعضاء فى طبقة حاكمة كبيرة أقامت ضرباً من الحكومة يعرف بالأوليجركية — تمييزاً له من الأرستقراطية — وإن كان المعنى الدقيق للفظ الأوليجركية (وهو حكومة الأقلية) يجب أن يشمل الأرستقراطية الوراثية كحالة خاصة .

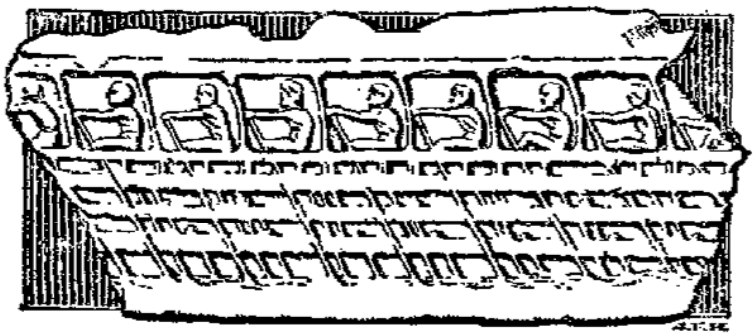
وفى كثير من المدن كان أشخاص من ذوى النشاط الفذ ينتهزون فرصة حدوث شىء من النزاع الاجتماعى ، أو وقوع شىء من المظالم على بعض الطبقات ويقبضون على زمام سلطة ذات طابع استثنائى إلى حد ما بالفعل فى الدولة ، وهذا المزج بين الشخصية والفرصة قد حدث بالفعل فى الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال ، حيث يسمى الرجال الذين يمارسون أنواعاً مختلفة من السلطات غير الرسمية باسم « الرؤساء **Bosses** » وكان أمثال هؤلاء يسمون فى بلاد الإغريق باسم « الطغاة **Tyrants** » على أن الطاغية يوشك أن يكون أكثر من الرئيس نفوذاً وسلطاناً، فقد كان يعترف به ملكاً ، كما أنه كان يطالب بسلطات الملك . ثم إن الرئيس فى العصر الحديث يستتر وراء بعض الأوضاع القانونية التى « استحوذ عليها » ، ويستخدمها فى أغراضه الخاصة . وكان الناس يفرقون بين الطغاة والملوك الذين كانوا يدعون لأنفسهم بعض الحقوق ، أعنى ضرباً من الأسبقية العائلية فى أمور من أمثال تولى الحكم . وربما ناصر هؤلاء الطغاة الطبقات الفقيرة المظلومة . مثال ذلك أن بيزستراتوس الذى كان طاغية من طغاة أثينا وتولى الحكم مدة تتخللها فترتان نفى أثناءهما ما بين ٥٦٠ ، ٥٢٧ ق. م. ، كان يؤيده الأثينيون من سكان التلال الذين أضناهم الفقر ، وربما حدث فى بعض الأحيان كما حصل فى صقلية الإغريقية أن وقف الطغاة فى صف الأغنياء ضد الفقراء . وعند ما أخذ

الفرس فيما بعد فى إخضاع المدن الإغريقية بآسيا الصغرى أقاموا عليها طغاة يناصرونهم .

وكان أرسطو المعلم الفيلسوف العظيم — وقد ولد أيام الملكية الوراثية المقدونية ، وقضى بضع سنين مربياً لابن الملك ، — يفرق فى كتابه « السياسة » بين الملوك الذين يحكمون بحق طبيعى مسلم به ، كملك مقدونيا الذى كان يعمل فى خدمته ، وبين الطغاة الذين يحكمون بغير رضاء المحكومين. والواقع أن من العسير علينا أن نتصور وجود طاغية يحكم بغير رضاء الكثير من رعاياه ودون مشاركة العدد الجوهرى منهم المشاركة الفعالة ، وإن إخلاص « ملوكهم الحقيقيين » ونكرانهم الذات ، قد عرفا بأنهما يثيران الامتعاض والتشكك . وقد استطاع أرسطو أيضاً أن يقول إنه بينما يحكم الملك من أجل خير الدولة ، كان الطاغية يحكم لمصلحته الخاصة . وكان أرسطو فى هذا الموضوع ، كما كان فى قدرته على اعتبار الرق أمراً طبيعياً واعتبار النساء غير جدرات بالحرية والحقوق السياسية — متسقاً مع سير الحوادث حوله .

وكان الشكل الثالث للحكومة التى انتشرت فى بلاد الإغريق انتشاراً متزايداً فى القرون السادس والخامس والرابع ق. م. معروفاً باسم الديمقراطية. ولما كان العالم المعاصر فى هذه الأيام لايفتأ يتكلم عن الديمقراطية ، وإذ أن الفكرة الحديثة عن الديمقراطية إنما هى شىء يختلف اختلافاً بيناً عن ديموقراطية دول المدن الإغريقية . فمن الخير إذن أن نعمد إلى أشد الوضوح فى معنى الديمقراطية فى بلاد الإغريق ، فقد كانت الديموقراطية عند ذاك حكومة تديرها العامة ، وهم الديموس (Demos) . وكانت حكومة تديرها هيئة المواطنين جمعاء وتديرها الكثرة تمييزاً لها عن القلة . ولكن على القارئ العصرى أن يلحظ كلمة (مواطن) هذه فقد كان الرقيق مستبعداً منها ، وكان الرجل المعتوق « المحرر » مستبعداً منها ، وكذلك الغريب ، وحتى الإغريقى المولود فى المدينة والذى نزح أبوه إليها من مسافة ثمانية أو عشرة أميال عن المدينة التى تقع وراء أحد الرءوس الممتدة

فى البحر ، كان يستبعد من عداد المواطنين . وكانت الديمقراطيات الأولى (وإن لم تكن كلها) تشترط فى المواطن[١] مؤهلا من الملكية العقارية ، وكان قوام الملكية العقارية فى تلك الأيام هو الأرض . على أنهم ما لبثوا فيما بعد أن تسامحوا فى هذا الشرط . بيد أن القارئ المعاصر سوف يدرك أنه يلمس هاهنا شيئاً مختلفاً جداً عن الديمقراطية الحديثة . وفى نهاية القرن الخامس ق. م. كان هذا المؤهل العقارى قد ألغى فى أثينا مثلا . على أن بريكليس وهو السياسى الأثينى العظيم ، الذى سوف نتكلم فيما بعد عنه فى شىء من الإسهاب — سن قانوناً (٤٥١ ق.م.) يقصر حق المواطنية على أولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم الانحدار من أبوين أثينيين خالصين . ومن ثم يكون حال هؤلاء المواطنين الأحرار فى الديمقراطيات الإغريقية كحالهم فى الأوليجركيات تماماً ، إذ يؤلفون « هيئة متماسكة » تتولى أحياناً — كما فى حالة أثينا فى أيام عظمتها — حكم عدد كبير من السكان الأرقاء والغرباء .



ش — ٦٤ المجدفون يعملون فى سفينة حربية آثينية حوالى سنة ٤٠٠ق.م.
(قطعة من نقش غائر عثر عليه فى الأكروبا لى)

فلو أن سياسياً عصرياً عامر الذهن بفكرة الديمقراطية على وجهها الحديث المختلف تماماً والقائلة بأن الديمقراطية فى أكمل أوضاعها معناها أن لكل رجل بالغ وامرأة بالغة صوتاً فى الحكومة ، لو أنه رد فجأة إلى الديمقراطية الإغريقية المتطرفة لعدها ضرباً من الأوليجركية . والفرق الحقيقى الوحيد بين الأوليجركية الإغريقية والديمقراطية الإغريقيـــة هو

(١) المواطن Citizen هو كل حر يستمتع بالمواطنية أى الحقوق والواجبات المدنية كاملة . وإن كان الأولى أن يسمى بالمادن نظراً لطبيعة أوطان الإغريق المكونة من مدن .
(المترجم)

أنه فى الأولى لم يكن للمواطنين الأحرار الأفقرين والأقل أهمية صوت فى الحكومة ، بينما كان لكل مواطن حر فى الثانية صوت . ويبين أرسطو فى كتابه « السياسة » بغاية الجلاء النتيجة العملية لهـذا الفارق . إذ كانت الضرائب خفيفة العبء على الأغنياء فى الأوليجركيات . بينما كانت الديمقراطيات من الناحية الأخرى تفرض الضرائب على الأغنياء وتدفع فى العادة للمواطن الحر المعدم ما يقيم أوده من غذاء وكساء وغير ذلك من نفقات خاصة . وفى أثينا كان للمواطنين الأحرار جعل يدفع لهم ، حتى على حضور مجلس العامة . على أن العامة والدهماء ممن هم خارج نطاق الطائفة السعيدة المحدودة من المواطنين الأحرار ، كانوا يكدحون ويصدعون بما يؤمرون . فإن رغب أحدهم فى حماية القانون ، كان عليه أن يبحث عن مواطن حر يتولى الدفاع عنه . إذ لم يكن لغير المواطنين الأحرار أى كيان أو حق فى الالتجاء إلى المحاكم . أما الفكرة العصرية القائلة بأن أى فرد فى الدولة يجب أن يكون مواطناً حراً فلو أنها عرضت على الديمقراطيين ذوى الامتيازات فى أثينا لأزعجتهم كل الإزعاج .

وقد نشأت عن جعل الدولة حكراً موقوفاً على المواطنين لطبقة الأحرار نتيجة بينة واحدة ، هى أن وطنية هؤلاء القوم الممتازين اتخذت شكلا حاداً ضيقاً . فكانوا يكونون الأحلاف مع « دول مدن » أخرى ، ولكنهم لم يندمجوا أبداً بعضهم مع بعض ، إذ كان فى ذلك قضـاء على كل امتياز يستمتعون به كما أن الحدود الجغرافية الضيقة لتلك الدول الإغريقيـة الصغيرة زادت شعورهم حدة وإرهافاً . وكان مما يشد من أزر حب الرجل لوطنه حبه لبلدته وهى مسقط رأسه ، ولدينه وبيته ، إذ كانت هذه جميعاً أمراً واحداً . وبديهى أن الأرقاء لم يكونوا يشاطرونهم تلك المشاعر . وفى الولايات الأوليجركية كانت الطبقـة المهيضة المحرومة فى الكثير الغالب تتغاضى عن كراهيتها للأجانب لشدة كراهيتها للطبقة التى تسومها العذاب فى أرض الوطن . ولكن الوطنية الإغريقية فى صميمها كانت

عاطفة شخصية ذات حدة خطرة تبعث الإلهام ، فهى كالحب المرفوض ، سهلة التحول إلى شيء أقرب ما يكون إلى الكراهية . والمنفى الإغريقى كان على شاكلة المهاجر الفرنسى أو الروسى فى استعداده لمعاملة بلاده المحبوبة معاملة لا تخلو من الخشونة لكى يقيها شر شياطين الإنس الذين تملكوها وأخرجوه هو من ربوعها .

وقد نظمت أثينا فى القرن الخامس ق. م. علاقاتها بعدد من دول المدن الإغريقية الأخرى فأنشأت بذلك نظاماً ، كثيراً ما يتحدث عنه المؤرخون باسم الإمبراطورية الأثينية . على أن دول المدن الأخرى احتفظت جميعاً بحكوماتها الخاصة . وهناك « حقيقة جديدة » أضافتها هذه الإمبراطورية الأثينية ، وهى القضاء المبرم على القرصنة ، وثمة حقيقة أخرى وهى إقامة نظام هو ضرب من القانون الدولى . نعم كان القانون فى واقع الأمر هو القانون الأثينى ، ولكن سهل بفضله إقامة القضايا ونشر لواء العدالة بين مواطنين ينتمون إلى دول الحلف المختلفة . وبديهى أن هذا أمر لم يكن ميسوراً من قبل .

كانت الإمبراطورية الأثينية فى حقيقة الأمر وليدة حلف دفاع مشترك ضد فارس ، وكانت قاعدته فى الأصل جزيرة ديلوس . وقد ساهم الحلفاء فى رصيد مالى مشترك أودعوه خزانة فى تلك الجزيرة ، ثم نقل رصيد ديلوس إلى أثينا لأنه كان هناك عرضة للغارات الفارسية المحتملة الوقوع . وسرعان ما تقدمت مدينة فى إثر الأخرى تعرض دفعات من المال عوضاً عن الخدمة العسكرية مما أفضى إلى أن أصبحت أثينا آخر الأمر تقوم بعبء العمل كله تقريباً ، وتتلقى المال منهن جميعاً تقريباً ، ويعينها فى النهوض بذلك العبء جزيرة أو اثنتان من كبريات الجزر . وبهذه الطريقة تحول « الحلف » بالتدريج إلى إمبراطورية . على أن مواطنى الدول المتحالفة — اللهم إلا حيث كانت هناك معاهدات خاصة تنظم تبادل التزاوج وما شابهه — لبثوا من الناحية العملية أجانب بعضهم عن البعض . وقد وقع على كواهل أفقر المواطنين بوجه خاص فى أثينا معظم أعباء

هذه الإمبراطورية بما كانوا يبذلون من جهود جبارة وخدمات شخصية متواصلة . وكان كل مواطن عرضة للخدمة العسكرية داخل موطنه أو خارجه بين سن الثامنة عشرة والستين . وكان يطلب آونة للذود عن موطنه فى شئون أثينية محضة ، ويتصدى آنا آخر للذب عن مدن الإمبراطورية التى افتدى مواطنوها أنفسهم بالمال . ولم يكن هناك على الراجح بين أفراد مجلس الأحرار الأثينى رجل واحد تزيد سنه على الخامسة والعشرين لم يتمرس بالحرب فى حملات عديدة فى نواح مختلفة من البحر المتوسط أو البحر الأسود ، ولم يكن يتوقع أن يعود إلى الخدمة العسكرية ثانية . وخصوم الاستعمار العصرى يأخذون عليه أنه استغلال الأغنياء للعالم ، على أن الاستعمار الأثينى كان استغلال العالم على يد المواطنين من فقراء الأثينيين .

وثم فارق آخر عن الأحوال والظروف السائدة فى العصر الحديث ، يرجع إلى حجم دول المدن الإغريقية الصغير ، وهو أنه كان لكل مواطن فى النظام الديمقراطى الحق فى حضور مجلس الأحرار والتكلم والتصويت فيه . وكان فحوى هذا أن يلتئم لحل المدن جمع لا يضم سوى بضع مئات من الناس . فلم يكن عددهم فى أكبرها يزيد على بضع آلاف من المواطنين . وليس شىء من هذا القبيل بممكن فى ديمقراطية عصرية فيها من الأصوات ما قد يصل عدده إلى ملايين عديدة . ويلاحظ أن صوت المواطن العصرى فى الشئون العامة مقصور على حقه فى التصويت لواحد أو لآخر من مرشحى الأحزاب الذين يقدمون إليه . ومفروض عند ذاك «موافقة» الناخب أو الناخبة على الحكومة التى يتمخض عنها ذلك الانتخاب . وهذا أرسطو الذى لو أنه عاصرنا لأثلجت فؤاده الأساليب الانتخابية التى تستخدمها ديمقراطياتنا العصرية ، يوضح بطريقة جد بارعة ، كيف أن طبقة المواطنين من الفلاحين الذين نأت مساكنهم يمكن فى الديمقراطية القديمة أن يحرموا حرماناً فعلياً من حقوقهم المدنية بسبب الإكثار

من دعوة مجلس الأحرار دعوة متداركة متكررة لا يستطيعون معها أن يحضروا الجلسات بانتظام . وفى الديمقراطيات الإغريقية المتأخرة (فى القرن الخامس) كان تعيين الموظفين العموميين ، فيما عدا القواد الذين يجب أن تتوافر فيهم دراية خاصة جداً ، يتم بالقرعة ورمى القداح ، إذ كان المفروض أن فى هذه الوسيلة ضماناً يقى الهيئة العامة للمواطنين أرباب الامتيازات من دوام تسلط الأغنياء وذوى النفوذ والمبرزين من أهل الكفاية .

كان لدى بعض الديمقراطيات (مثل أثينا وميليتوس) نظام يسمى النفى السياسى (Ostracism) وهى كلمة مشتقة من أوستراكون (Ostrakon) ومعناها الشقفة إذ كان الناخب يستطيع إبان المنازعات والأزمات أن يكتب اسم أحد المواطنين على قطعة من الشقافة أو المحار فيصدر طبقاً لذلك قرار إما بابعاد ذلك المواطن لمدة عشر سنوات أو عدم إبعاده . وقد يبدو هذا للقارئ العصرى نظاماً قائماً على الحسد ، على أن الحسد لم يكن صفته الجوهرية . إذ الواقع فيما يقول جلبرت مرى أنه كان وسيلة للوصول إلى قرار حاسم فى مسألة انقسم الشعور السياسى بصددها انقساماً ينذر بوقوع أزمة سياسية لا سبيل إلى حلها . وكان فى الديمقراطيات الإغريقية أحزاب وزعماء أحزاب ، ولكن لم يكن لديهم حكومة منتظمة بيدها مقاليد الحكم . ولم تكن لديهم معارضة منتظمة ، فلم يكن هنالك إذن أية وسيلة لتنفيذ سياسة ما ، وإن كانت هى السياسة التى تروق فى نظر الشعب — إذا انبرى زعيم قوى أو جماعة قوية لمناهضتها . على أن النفى السياسى كان يلزم أقل الزعماء الكبار منزلة فى قلوب الشعب وأقلهم استمتاعاً بثقته أن ينسحب من الميدان إلى حين دون أن يلحق أى ضرر بشرفه أو ممتلكاته .

وقد خلد نظام النفى السياسى هذا اسم عضو خامل من أعضاء الديمقراطية الأثينية يكاد يكون أمياً ؛ ذلك أن شخصاً اسمه أريستيديس قد ذاع صيته فى المحاكم لاستقامته ولمناصرته العدل والقانون — حدث ذات مرة أن نشب بينه

وبين ثيموستوكليس نزاع بشأن موضوع يتعلق بالسياسة البحرية ، إذ كان أريستيديس من أنصار تقوية الجيش على حين كان ثيموستوكليس من أنصار النهوص بالبحرية ، فكان الجو منذراً بخطب فادح ، وكان أن لجأت المدينة إلى النفي السياسي لحسم هذا النزاع بينهما . ويقص علينا بلوتارك أنه بينما كان أريستيديس يتجول في شوارع المدينة ساعة التصويت ، استوقفه مواطن غريب من الأصقاع الزراعية المحيطة بالمدينة لا يعرف فن الكتابة وطلب إليه أن يكتب اسمه هو نفسه على قطعة من الشقافة قدمها إليه .

فسأله أريستيديس قائلا : « ولماذا ؟ فهل حدث قط أن أساء إليك أريستيديس ؟ » .

فقال المواطن : « كلا ، كلا ، فإن عيني لم تقعا عليه أبداً ولكنني مع الأسف برمت جداً بما وصل إلى سمعي من أنه يدعي أريستيديس العادل » .

وعند ذلك كما يقول بلوتارك — كتب أريستيديس ما أشار به الرجل دون أن يطيل عليه الكلام .

ومتى فهم المرء المغزى الحقيقي لهذه الدساتير الإغريقية وفهم بوجه خاص مسألة حصر جميع السلطات سواء أكان ذلك في الدعقراطيات أم الأوليجركيات في يد طبقة ذات امتياز محلي ، أدرك كيف كان من المحال قيام أي اتحاد فعال بين مئات المدن الإغريقية المتناثرة حول إقليم البحر المتوسط ، أو حتى وجود أي تعاون منتج بينها يرمي إلى غاية مشتركة . فإن كل مدينة كانت في قبضة فئة قليلة أو بضع مئات من الرجال الذين كان أهم ما يعنون به ويحرصون على تحقيقه في حياتهم هو أن تظل مدينتهم منفصلة عن المدن الأخرى . ولم تكن في العالم قوة تستطيع أن توحد الإغريق غير الغزو الخارجي . ولم تتحقق لهم أي وحدة سياسية حتى غزيت بلاد الإغريق ، فلما أن غزيت بلادهم آخر الأمر ، كان غزوها كاملا بحيث لم تجعل لوحدتهم أدنى قيمة حتى لهم أنفسهم ، إذ اجتمعوا على وحدة الاستسلام والخضوع .

ومع ذلك فقد كان هناك على الدوام مقومات لوحدة بين الإغريق كافة فى بعض التقاليد السائدة بينهم ، دعامتها لغة مشتركة وكتابة مشتركة وتراث مشترك من ملاحم الأبطال ، هذا إلى اختلاطهم المتواصل الذى يسره موقع دولهم من البحر ، عدا روابط دينية بأعيانها كانت تدعو إلى توحيد البلاد . ولو تأملت بعض المقاصير المقدسة — كمقصورة الإله أبولو بجزيرة ديلوس ومعبد دلفى مثلا — لرأيت أن ما كانت تلقاه من تأييد وعون لم يقتصر أمره على دول بمفردها بل تجاوز ذلك إلى اتحادات من الدول « أو أمفكتيونات » Amphictyonies (والأمفكتيون هو حلف الجيران) ، وهى اتحادات أمست واسعة النطاق جداً فى حالة « حلف دلفى » وما ماثله من أحلاف . وكان الحلف يحمى المقصورة المقدسة ويحافظ على سلامة من يؤمها من حجاج ويصون الطرق المؤدية إليها ويحفظ السلام إبان الأعياد الخاصة ، ويسن قواعد معينة للحد من لجوء أعضائه إلى الحرب . كما أن اتحاد ديلوس كان له بوجه خاص فضل القضاء على القرصنة . وثمة رابطة أخرى للاتحاد الهلينى أكثر أهمية مما سلف وهى الألعاب الأولمبية ، التى كانت تعقد فى أولمبيا كل أربع سنوات . وكان سباق الجرى والملاكمة والمصارعة وقذف الرمح وقذف القرص والقفز وسباق المركبات والخيول أهم الألعاب . وكانوا يحتفظون بسجل للفائزين وللزوار الممتازين ، وظلت هذه الألعاب منذ ٧٧٦ ق. م. تقام بانتظام مدة تربى على ألف سنة . وكان أثرها كبيراً فى الاحتفاظ بذلك الإحساس بوجود حياة اغريقية مشتركة ذات طابع هلينى عام ، يسمو على السياسات الضيقة التى تجرى على سنتها دول المدن . وتعتبر ٧٧٦ ق.م. وهى أول سنة عقدت فيها الألعاب الأولمبية نقطة بداية قيمة فى حساب التاريخ الإغريقى .

على أن أمثال تلك الروابط القائمة على العواطف وروح التآلف كانت قليلة الجدوى إزاء « الروح الانفصالية » الحادة التى ترجع إلى النظم السياسية

الاغ نقبة . وفى طوق طالب العلم أن يحس لدى مطالعته « تاريخ هيرودوت» مبلغ الحدة والعنف والإصرار واللجاجة فى المنازعات التى ألقت بالعالم الإغريقى فى غمرة حرب مزمنة . وفى الأيام الحوالى (أى حتى القرن السادس ق . م . على وجه التقريب) كانت تسود بلاد الإغريق عائلات كبيرة نوعاً ما احتفظت بشيء من نظام الدوارات الآرى القديم بكل ما يلازمه من شعور قوى واعتداد بالعشيرة . ومن قدرة على مداومة الاحتفاظ بالمنازعات وإن طال بها الأمد . ويدور تاريخ أثينا مدى سنين عديدة حول منازعات حدثت بين عائلتين عظيمتين هما عائلتا الألكمايونيدين (Alcmaeonidae) والبيزستراديين (Peisistratidae)والأخيرة تعادل الأولى فى الأرستقراطية . بيد أنها أسست صرح قوتها على مساندة الطبقة الفقيرة من الشعب وعلى استغلالها لما يحل بهم من الحيف والمظالم . وفيما عقب ذلك من الزمان أى فى القرنين الســادس والخامس أدى تحديد النسل ونقص أفراد العائلات إلى إثنين أوثلاثة (وهى عملية لحظها أرسطو وإن لم يدرك لها سبباً) — إلى اختفاء العشائر الأرستقراطية القديمة . وكانت الحروب التى وقعت بعد ذلك راجعة إلى المنافسات التجارية وإلى بعض المظالم التى سببها وأثارها بضع نفر من المغــامرين أكثر منها إلى الأحقاد العائلية وروح الأخذ بالثأر .

ومن اليسير علينا الآن أن نفهم فى ضوء هذه الروح الانفصالية الحادة لدى الإغريق ، كيف سهل وقوع الأيونيين بآسيا وبالجزيرة تحت سلطة مملكة ليديا أول الأمر ثم سلطان الفرس عند ما قام قورش بخلع كرويسوس ملك ليديا عن عرشه . ثم هب الأيونيون ثائرين وكأنهم لم يثوروا إلا لكى يعود إليهم الفرس ثانية بالبطش والإخضاع ثم جاء دور بلاد الإغريق الأوربية فكان مما يدعو إلى الدهشة ، بل مما دهش له الإغريق أنفسهم أن وجدوا أن بلاد الإغريق نفسها لم تقع تحت سلطان الفرس ، أولئك الآريين المتبربرين قاهرى المدنيات القديمة وسادتها فى آسيا الغربية . على أننا قبل أن نتحدث عن هذا الكفاح نرى لزاماً علينا أن نلقى نظرة إلى هؤلاء الآسيويين الذين

صمد الإغريق أمامهم ووقفوا لهم بالمرصاد وعلى الأخص للميديين والفرس ، الذين ما كادت تحل بهم سنة ٥٣٨ ق.م. حتى كانوا قد استولوا بالفعل على حضارتى آشور وبابل القديمتين وكانوا على وشك أن يقهروا مصر .

٤ — مملكة ليديا

سنحت لنا فيما سلف الفرصة لذكر مملكة ليديا وربما كان من المستحسن أن ندلى إليك هاهنا بنبذة موجزة عن الليديين قبل أن نواصل الحديث فى قصتنا . وربما كان السكان الأصليون فى معظم أجزاء آسيا الصغرى يمتون بالقرابة إلى السكان الأصليين ببلاد الإغريق وكريت ؛ فإن كان الحال كذلك فلقد كانوا من جنس البحر المتوسط ولعلهم فرع آخر من أولئك القوم الضاربين إلى السمرة الذين هم أعم انتشاراً وأقدم عهداً وأقرب إلى الجنس الأساسى ، والذين نشأ منهم جنس البحر المتوسط فى الغرب ، والجنس الدراڤيدى فى الشرق . وهنالك بقايا من نفس نوع الفن الذى امتازت به كنوسوس وميكيناى وجدت متناثرة فى نواحى آسيا الصغرى . ولكن كما أن الإغريق النورديين انسابوا جنوباً إلى بلاد الإغريق فغزوها واختلطوا بالسكان الأصليين ، فإن قبائل أخرى نوردية تمتّ إليها بصلة القربى فعلت ذلك سواء بسواء فتدفقت عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى .

وقد تغلبت هذه الشعوب الآرية على بعض المناطق تماماً وصارت تكون الشطر الأكبر من السكان مع احتفاظها بلغتها الآرية ، ذلك شأن الفريچيين وهم شعب لغته تكاد تكون شديدة الصلة بلغة الإغريق ، شدة صلة اللغة المقدونية بالإغريقية . على أن بعض المناطق الأخرى لم يعمها الآريون إلى مثل هذا الحد : ففى ليديا حافظ الجنس الأصلى على نفسه وعلى لغته ، فلم يهن ولم يخضع . وكان الليديون شعباً غير آرى يتكلمون لغة غير آرية ، لا يعرف منها فى الوقت الحاضر سوى بضع كلمات قليلة . وكانت ساردِيس (Sardis) عاصمتهم .

وكانت ديانتهم غير آرية كذلك . فإنهم كانوا يعبدون إلهة أنثى هى الأم العظيمة . وكذلك الفريجيون ، فإنهم وإن احتفظوا بلغتهم شبه الإغريقية ، انتقلت إليهم عدوى الديانة الغامضة ذات الأسرار الخفية . والواقع أن قدراً كبيراً من الديانات ذات الأسرار الخفية والطقوس السرية التى عمت أثينا فى تاريخ تال ، كانت فريجية (إن لم تكن تراقية) فى أصلها .

وقد احتفظ الليديون بادئ الأمر بساحل آسيا الصغرى الغربى ، ولكنهم طردوا منه نتيجة لرسوخ قدم الإغريق الأيونيين الذين جاءوا بطريق البحر وأسسوا المدن . ومع ذلك فإن هذه المدن الأيونية الإغريقية أخضعها فيما بعد الملوك الليديون .

وتاريخ بلاد ليديا هذه ما يزال غامضاً غير معروف معرفة واضحة ، ولو أنه كان معروفاً بالفعل لما بلغت أهميته قدراً يجعله جديراً بأن يذكر فى هذه المعالم التاريخية . على أن القرن الثامن ق. م. يظهر لنا اسم ملك جدير بالذكر يدعى جيجيس . فإن البلاد تعرضت فى أيامه لغزو آرى آخر ؛ ذلك أن قبائل مترحلة تسمى الكمريين جاءت تتدفق عبر آسيا الصغرى ، فردهم جيجيس وابنه وحفيده بغاية الجهد والمشقة . واستولى هؤلاء البرابرة الهمج على مدينة سارديس وأحرقوها مرتين . ويذكر التاريخ أن جيجيس دفع الجزية لساردانا پالوس (Sardanapalus) . وهذا أمر يربط ما بينه وبين فكراتنا العامة عن تاريخ مملكة آشور وبنى إسرائيل ومصر . ثم ثار جيجيس فيما بعد ضد مملكة آشور ، وأرسل الجنود لمساعدة أبسماتيك الأول فى تحرير مصر من عبوديتها القصيرة الأجل للآشوريين .

وإلى ألياتيس (Alyattes) حفيد جيجيس يرجع الفضل فى جعل ليديا قوة يعتد بها . وقد ظل فى الملك سبع سنين ، وهو الذى أخضع غالبية المدن الأيونية فى آسيا الصغرى لحكمه . وأصبحت البلاد مركزاً لتجارة عظيمة بين آسيا وأوربا وكانت على الدوام بلاداً منتجة غنية بالذهب . واشتهر الملك

الليدى بأنه أغنى ملوك آسيا . وكان هناك بين البحرين الأسود والمتوسط وبين الشرق والغرب حركة غدو ورواح لا تنقطع . واشتهرت ليديا بأنها أولى أقطار العالم فى إنتاج النقود المسكوكة ، وفى إعداد الخانات (الفنادق) للمسافرين والتجار ، ينزلون بها ويجدون وسائل الراحة والاستجمام . ويلوح أن الأسرة المالكة الليدية كانت أسرة تجارية من طراز أسرة مينوس فى كريت وقد بلغ نظام المصارف (البنوك) والمالية فيها شأواً لا بأس به . وفى هذا القدر الكفاية من أخبار ليديا نقدمه على سبيل التوطئة للقسم التالى

٥ – نهوض الفرس فى الشرق

وعلى حين كانت سلسلة من الغزاة الناطقين بالآرية تدرج وتنتشر ، على الشاكلة التى وصفناها ، فى بلاد الإغريق الأصلية وبلاد الإغريق العظمى (أى جنوب إيطاليا) وما حول شواطىء البحر الأسود ، فإن هناك سلسلة أخرى من الشعوب الناطقة بالآرية ربما كان دمها النوردى الأصلى مختلطاً من قبل بأحد العناصر المغولية ، قد أخذت تستقر وتنتشر فى شمال وشرق الإمبراطوريات الآشورية والبابلية .

ولقد أسلفنا الكلام عن تشت الشعوب النوردية الآرية على صورة تشابه شكل القوس فى شمال البحر الأسود وبحر قزوين . والراجح أن هذا الطريق هو الذى ملكته الأجناس الهندية الفارسية الناطقة بالآرية فى نزولها التدريجى إلى ما يكوّن الآن بلاد فارس ، وانتشرت شرقا إلى الهند من ناحية (من نحو ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق.م.) وازدادت من الناحية الأخرى وتكاثرت فى المرتفعات الفارسية حتى بلغت من القوة حداً جعلها تهاجم مملكة آشور بادئ الأمر (٦٥٠ ق .م.) ثم بابل (٥٣٨ ق.م.) .

ويحيط الغموض الكثير بتغيرات المناخ التى كانت تحدث فى أوربا وآسيا خلال العشرة الآلاف السنة الأخيرة . فإن ثلج العصر الجليدى الأخير تراجع تراجعاً تدريجياً ، وبذلك تحول سهل أوربا العظيم طوال فترة مديدة إلى

سهوب وأحوال شبيهة بالبرارى . ومنذ اثنى عشر ألفاً أو عشرة آلاف من السنين تقريباً كما يقدرون اليوم ، كانت هذه الحالة آخذة فى الزوال لتحل محلها الغابات والآجام . ولقد ذكرنا آنفاً كيف حدث نتيجة لهذه التغيرات ، أن أخلى صيادو الحصان السوليوتريون (Solutreans) مكانهم لصائدى السمك المجدلينيين (Magdalenias) [١] ولصائدى غزال الغابات ، كما أخلى هؤلاء أيضاً مكانهم بدورهم لرعاة العصر الحجرى الحديث وزراعه . ويلوح أن المناخ الأوربى لبث بضع آلاف من السنين أدفأ منه الآن . وكان هناك بحر عظيم يمتد من ساحل شبه جزيرة البلقان متوغلا فى آسيا الوسطى ، ويصل امتداده شمالا إلى وسط روسيا . وكان انحسار ذلك البحر وانكماشه وما نجم عن ذلك من اشتداد المناخ وقسوته فى جنوب روسيا وآسيا الوسطى ، معاصراً تماماً لقيام المدنيات الأولى فى وديان الأنهار ومتمشياً مع تطورها . ويبدو أن هناك حقائق كثيرة تومىء إلى وجود مناخ أكثر اعتدالا فى أوربا وآسيا الغربية ، وتشير أيضاً بشكل أقوى إلى ازدهار فى حياة النبات والخضروات منذ أربعة آلاف أو ثلاثة سنة خلت يفوق ما نشهده الآن . كانت هناك آنذاك غابات فى آسيا الجنوبية وفى القطر الذى هو الآن التركستان الغربية ، حيث تعم اليوم السهوب والصحارى . ومن ناحية أخرى كانت منطقة أورال وقزوين منذ مدة تتراوح بين ١٥٠٠ سنة و ٢٠٠٠ سنة أجف فيما يرجح ، كما كان هذان البحران أصغر منهما فى الوقت الحاضر .

ونلحظ فى هذا الصدد أن تحتمس الثالث (فى القرن الخامس عشر ق م على وجه التقريب) صاد فى حملته التى امتدت إلى ما وراء الفرات قطيعاً مكوناً من مئة وعشرين فيلا فى ذلك الإقليم ، وعدا ذلك فثمة خنجر إيجى من ميكيناى يرجع تاريخه إلى حوالى (٢٠٠٠ ق م) وعليه صورة منظر صيد أسد يحمل الصائدون فيه تروساً كبيرة ويقفون فى صفوف ، الواحد منهم

---

(١) راجع المجلد الأول ص ٨٩ ، ٩٣ الطبعة الثالثة .



ش ٦٥ – خريطة الإمبراطوريتين الميدية والبابلية الثانية

تلو الآخر ، فيطعن الرجل الأول الأسد بحربته ، فإذا وثب الوحش الجريح عليه ، ارتمى الرجل على الأرض متوقياً بترسه الكبير ، تاركاً للرجل الذى يليه أن يكرر طعنته ، وهكذا حتى يُقضى على الأسد . وما برح شعب الماساى[١] (Masai) يمارس إلى اليوم طريقة الصيد هذه ، على أنها لا تصلح إلا فى أرض كثيرة الأسود . ولكن كثرة الأسود تشير ضمناً إلى كثرة القنائص ، وهذا بدوره ينم عن وجود وفرة من النبات . وكان اشتداد المناخ حوالى ٢٠٠٠ ق.م. فى الأجزاء الوسطى من العالم القديم ، وهو الذى سبق أن أشرنا إليه ، مدعاة لتغير اتجاه الشعوب الآرية المترحلة فجعلها تتجه جنوباً نحو الحقول والغابات بين الشعوب الأكثر استقراراً وتمدناً .

ومما هو جدير بالذكر أن الأسود بقيت فى شبه جزيرة البلقان حتى قرابة القرن الرابع ق.م. إن لم يكن بعد ذلك . وربما كانت الفيلة اختفت من

---

(١) هم شعب ذو أرومة حامية شبه زنجية يسكن فى كينيا وتنجانيقا . (المترجم)

آسيا الغربية قبيل القرن الثامن ق.م. ولكن الأسد — وكان أضخم من الأسد الحالى جثة — ظل فى جنوب ألمانيا حتى العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) . ولبث النمر الأرقط (Panther)يسكن بلاد الإغريق وجنوب إيطاليا وأسبانيا الجنوبية حتى بداية الحقبة التاريخية (قرابة ١٠٠٠ ق.م.) .

وتنحدر الشعوب الآرية إلى التاريخ من الأقاليم القزوينية الشرقية قرابة الوقت الذى كانت فيه طروادة وميكيناى وكنوسوس تسقط فى يد الإغريق . ومن الصعب فصل القبائل والأجناس المختلفة وتمييزها بعضها عن بعض . وهى تظهر تحت حشد كبير من الأسماء فى السجلات والمخطوطات التى تسجل أول ظهورهم . على أنه من حسن الطالع أنه ليست بنا حاجة إلى هذه الفروق المميزة فى « معالم » أولية كهذا الكتاب . ويظهر شعب يسمى الكمّريين فى ناحية بحيرتى أوروميا (Urumiya) وفان (Van) . وبعـــد ذلك بوقت قصير ينتشر الآريون من أرمينيا إلى عيلام (Elam) . وفى القرن التاسع ق.م. تذكر المخطوطات الآشورية اسم شعب يسمى الميديين Medes وثيق اللحمة بالفرس يظهرون إلى الشرق منهم ، ويدعى كل من تغلث فلاسر الثالث وسرجون الثانى وهما اسمان غير جديدين على أسماعنا فى هذه القصة ، أنهما ألزماهم دفع الجزية . والمخطوطات تشير إليهم بأنهم « الميديون الخطرون » ، وهم — بَعْدُ — شعب قَبَلى لم يتحد تحت لواء ملك واحد .



٦٦ — الإسكذيون كما يصورهم الفنانون الإغريق

وقرابة القرن السابع ق.م. يتوارى من سجل التاريخ فجأة عيلام والعيلاميون الذين كانت عاصمتهم سوسا وهم شعب له تقاليد ومدنية لا تقل عن تقاليد السومريين ومدنيتهم من حيث القدم . ولسنا ندرى ما حدث لهم . ويلوح

أن الغزاة اجتاحوا السكان وامتصوهم ووقعت سوسا فى قبضة الفرس .

وثمة شعب رابع يمت بصلة إلى هذه القبائل الآرية ، يظهر فى هذا الزمان فى رواية هيرودوت ، وهو الاسكيذيون أو الأشقوذيون (Scythians) . فإن ملوك دولة آشور يوقعون الشحناء طرفاً من الزمان بين مختلف هذه الشعوب ذوات القربى ويُغْرُون الكمريين والميديين والفرس والاسكيذيين بعضهم ببعض وتتزوج أميرات آشوريات (بينهن بنت آسَرْحدون Esarhaddon مثلا) من رؤساء إسكيذيين . ومن جهة أخرى نرى نبوخذ ناصَّر العظيم يتزوج من ابنة كياكسارس (Cyaxares) الذى أضحى ملكاً على الميديين كافة ، والآريون الإسكيذيون يتجهون نحو الآشوريين الساميين ، على حين ينزع الميديون الآريون صوب البابليين الساميين . وكياكسارس هذا هو الذى فتح نينوى عاصمة آشور (٦٠٦ ق.م.) وبذا خلص بابل من النير الآشورى . وبذا تأسست الإمبراطورية البابلية الثانية تحت الحكم الكلدانى . ثم يعود أحلاف دولة آشور الاسكيذيون فيسقطون من القصة بعد هذا ويواصلون عيشهم فى مكان بعيد فى الشمال دون كثير تدخل فى شئون الشعوب التى فى الجنوب ، وإن نظرة إلى خريطة ذلك العصر لتريك كيف أنه خلال ثلثى قرن من الزمان استقرت الإمبراطورية البابلية الثانية استقرار الحمل بين ذراعى الأسد الميدى .

ولن نتدخل فى معترك المنازعات الداخلية بين الميديين والفرس ، وهى التى انتهت آخر الأمر باعتلاء قورش (Cyrus) « الفارسى » عرش كياكسارس الميدى عام ٥٥٠ ق.م. ففى تلك السنة كان قورش يحكم إمبراطورية تمتد من حدود ليديا إلى فارس وربما وصلت إلى الهند . على حين كان نابونيداس آخر الحكام البابليين ، كما ذكرنا آنفاً يحفر منقباً عن السجلات القديمة ويبنى المعابد فى مملكة بابل (بابلونيا) .

٦ — قصة كرويسوس Croesus (قارون)

على أن هناك ملكاً واحداً فى العالم تنبه لخطر تلك القوة الجديدة المجتمعة

بين يدى قورش ذلك هو كرويسوس ملك ليديا . وقد قُتل ابنه بطريقة محزنة جداً ذكرها هيرودوت ولكننا لن نتعرض هنا لوصفها ؛ قال هيرودوت :

« أقام كرويسوس بعد ذلك الحادث مدة سنتين فى حداد عميق لفقد ولده ، ولكن راعه بعد تلك الفترة ما رآه من خلع قورش لابن كيا كسارس من الحكم ومن تزايد الفرس عظمة وسلطاناً ، فأقلع كرويسوس عن أحزانه ، وأخذ يعمل بكل ما أوتى من وسيلة على تقويض قوة الفرس وهى ما تزال فى طور النمو وقبل أن تبلغ غاية العظمة . وعند ذلك أخذ يجرب مهابط الوحى المتنوعة .

وقد كلف كرويسوس الليديين الذين كان عليهم أن يحملوا العطايا إلى المعابد ، بأن يسألوا الوحى هذا السؤال : « هل يهاجم كرويسوس الفرس ، وإن كان الحال كذلك ، فهل يجب عليه أن يضم إليه أى جيش من الرجال بوصفهم أصدقاء ؟ » ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التى بعثوا إليها ووزعوا العطايا وقدموا النــــذور استفسروا من الوحى قائلين : « إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى ، إذ يعد هذه هى مهابط الوحى الصادقة الوحيدة بين الناس ، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب ، ويسألكم الآن مرة أخرى هل قدر له أن يسيّر جنده على الفرس ، وإن كان الأمر كذلك ، فهل كتب عليه أن يضم أى جيش من الرجال بوصفهم أحلافاً ؟ » هكذا استفسروا ، واتفقت إجابات كل من مهبطى الوحى على أمر واحد ، وهو تأكيدهم لكرويسوس بأنه إن زحف على الفرس فإنه سيحطم إمبراطورية عظيمة . وعلى ذلك لما نقلت الإجابة إلى الملك كرويسوس وبلغت مسامعه ، سره الوحى ، ولتوقعه أنه لابد مدمر مملكة قورش ، أرسل ثانية إلى بيثو (Pytho) وأهدى إلى رجال دلفى كافة ، بعد أن استوثق من عددهم ، قطعتين من الذهب لكل رجل منهم ، (قيمة الواحدة منهما ستاتير[1] (Stater) . وفى مقابل هذا أعطى الدلفيون كرويسوس

---

(١) ستاتير : عملة قديمة وهى أكبر عملة ذهبية كانت تستخدم قديماً ببلاد الإغريق . (المترجم)

والليديين حق الأسبقية فى استشارة الوحى والإعفاء من كل الرسوم وحق الجلوس فى المقاعد الأمامية فى حفلات الألعاب ، مع منحهم امتيازاً آخر يبقى لهم على مر الزمان : وهو أن يسمح لكل من يرغب منهم بأن يكون له حق المواطن الحر فى دلفى .

ومن ثم عقدمحالفة دفاعية مع كل من اللاكيديمونيين (Lacedemonians) والمصريين . ثم يستطرد هيرودوت فيقول : « وبينما كان كرويسوس يتأهب للمسير على الفرس ، نصح له أحد الليديين وكان من قبل هذا الزمان معروفاً بالحكمة والحصافة ، على أن هذه النصيحة زادته شهرة على شهرته بالعقل والحكمة بين الليديين — نصح الملك بما يلى ، قال « أيها الملك ، إنك تستعد للهجوم على رجال يرتدون سراويل من الجلد ، وسائر ثيابهم من الجلد كذلك ، وهم يأكلون طعاماً ليس مما يشتهونه ، وإنما مما يستطيعون الحصول عليه ويعيشون فى أرض وعرة ، وفضلا عن ذلك فإنهم لا يتناولون النبيذ بل يشربون الماء ، وليس لديهم من التين ما يتخذونه حلوا بعد طعامهم ، ولا أى غذاء طيب آخر . فمن ناحية ، إن كانت الغلبة لك عليهم فماذا أنت آخذ منهم وليس لديهم شىء يستلب ؟ ومن جهة أخرى إن غلبوك فتأمل كم من الأشياء الطيبة تذهب عنك حين ذاك . فإنهم لو ذاقوا خيراتنا لأول مرة تشبثوا بها لا محالة ، ولن يستطاع بعد ذلك إقصاؤهم عنا . وأنا عن نفسى أشعر بالشكر للآلهة لأنهم لم يبثوا فى عقول الفرس أن يزحفوا على الليديين ». هكذا تكلم من غير أن يقنع كرويسوس ، لأنه من المحقق أنه لم يكن لدى الفرس — قبل أن يخضعوا الليديين — شىء من وسائل الترف ولا من الطيبات » .

واقتتل كرويسوس وقورش فى معركة غير فاصلة فى پتيريا (Pteria) تراجع منها كرويسوس ، وتبعه قورش فالتحما فى معركة خارج عاصمته سارديس ، وكانت قوة الليديين تنحصر فى فرسانهم ، إذ أنهم كانوا فرساناً ممتازين ، وإن كانوا غير منظمين ، يقاتلون برماح طويلة .

« أما قورش فإنه لما أن رأى الليديين مصطفين للقتال وخشى فرسانهم

أقدم على ما يأتى تنفيذاً لمشورة هارپاجوس (Harpagos) أحد الميديين : فقد جمع فى صف واحد كل الجمال التى كانت فى مؤخرة جيوشه تحمل المؤن والمتاع ، ورفع عنها أحمالها وأقام عليها رجالاً مزوّدين بعتاد الفرسان ، وبعد أن أعد عدتهم على هـــذه الشاكلة ، أمرهم أن يكونوا فى مقدمة سائر الجيوش وأن يتجهوا صوب فرسان كرويسوس ، ومن خلف فصيلة الجمال ، أمر المشاة أن يتبعوهم ، ومن خلف المشاة وضع قوة فرسانه بأكملها ، وعندما عبأ رجاله كلا فى مكانه الخاص أمرهم ألا يتركوا فرداً واحداً من الليديين الآخرين حياً ، وأن يذبحوا كل من قد يقف فى سبيلهم ، على أنهم لم يكونوا ليذبحوا كرويسوس نفسه ، وإن أبدى المقاومة ساعة القبض عليه . تلك كانت أوامره وقد وضع الجمال ضد الخيل لهذا السبب : وهو أن الخيلَ تخاف الإبل ولا تستطيع أن تطيق رؤيتها أولا أن تشم رائحتها . فلهذا السبب إذن دبرت الحيلة ، حتى تصبح فرسان كرويسوس عديمة الجدوى . وهى القوة نفسها التى كان يتوقع منها الملك الليدى كل التفوق والتبريز . وبينما الجانبان يتقدمان للالتحام فى المعركة ، وبمجرد أن اشتمت الخيل رائحة الجمال ورأتها دارت على أعقابها وانهارت آمال كرويسوس على الفور » .

وهوجمت ساردیس طوال أربعة عشر يوماً ووقع كرويسوس فى الأسر . . . .

« ولما أن ظفر به الفرس قدموه بين يدى قورش ، فجمع الملك كومة عظيمة من الحطب وأمر فجعل كرويسوس من فوقها مشدود الوثاق ، كما جعل معه أربعة عشر من أبناء الليديين ، فهل كان يقصد أن يقـــدم هذا القربان ثمرة أولى لنصره إلى أحد الأرباب ؟ أو هل كان يبغى تحقيق الوفاء بنذر قطعه على نفسه ؟ أو أنه سمع أن كرويسوس رجل يخشى الله ، فأمر به أن يوضع من فوق قمة الحطب ، لأنه أراد أن يعـــرف هل ستنقذه إحدى القوى الإلهية فلا يحرق حياً ؟ فى قولهم إنه فعل ذلك ابتغاء تلك الغاية .

على أن كرويسوس ، وهو واقف على كومة الحطب هبطت عليه على

الرغم مما كان فيه من سوء الحال ذكرى حكمة سولون (Solon) حين قال بوحي من الآلهة : إنه ليس بين الأحياء من يدعي بالسعيد ، فلما خطر ذلك الخاطر بباله ، قالوا إنه تأوه تأوهاً عميقاً وأن أنينا عالياً ، بعد أن ظل صامتاً زماناً طويلا ، ثم هتف باسم سولون ثلاثاً . فلما أن سمع قورش ذلك أمر المترجمين أن يسألوا كرويسوس عمن يكون ذلك الشخص الذى يناديه ، فاقتربوا منه وسألوه ، ويقال إن كرويسوس لزم الصمت زماناً عند ما سئل فى هذا ، ولكنهم لما ألحوا عليه بعد ذلك قال « إنه رجل وددت وإن فقدت فى سبيل ذلك ثروة طائلة — لو أنه تحدث إلى كل الملوك » . وعند ذلك لما كانت كلماته ذات مضمون مبهم ، سألوه من جديد عما قال ، وإذ كانوا ملحفين لا يعطونه أى سلام أو راحة ، أخبرهم كيف أن سولون — وهو فرد أثيني — قد جاءه ، وبعد أن فحص كل ثروته استخف بها بكلمات كيت وكيت ، وكيف أن كل ما حدث له جاء مطابقاً لما قاله سولون ، وهو لم يكن يتكلم البتة بالنسبة إلى كرويسوس نفسه بوجه خاص ولكن بالنسبة إلى الجنس البشرى أجمع ، وخاصة إلى أولئك الذين يخالون أنفسهم رجالا سعداء . وبينما كان كرويسوس يقص هذه الأمور ، كانت النار أُضرمت فى كومة الحطب وكانت حوافيها قد اتقدت من كل النواحي . وعند ذلك يقال أن قورش عند ما سمع من المترجمين ما قاله كرويسوس ، غير عزمه وأيقن أنه هو نفسه إن هو إلا إنسان ، وأنه يقدم رجلا آخر لا يقل عنه سعادة ؛ ليكون وقوداً للنار وهو حى ، وفضلا عن ذلك فقد خشى القصاص ، ورأى أنه لا أمان لشيء مما تملكه الناس ، ولذلك يقولون إنه أمرهم أن يطفئوا بأسرع ما يستطاع تلك النار التى كانت تتلظى وأن ينقلوا كرويسوس ومن معه من فوق كومة الاحطاب ، وإذ أخذوا يبذلون الجهود لم يستطيعوا إذ ذاك أن يتغلبوا على لهيب النار . ثم يقص الليديون بعد ذلك أن كرويسوس ، وقد علم كيف عدل قورش عن رأيه ورأى كل إنسان جاهدا فى إطفاء النار ، وأنهم لم يعودوا قادرين على الحد من

امتدادها صاح متوسلا إلى أبولون (Apollo) : إذا كنت يوما قدمت هدية تقبلها الإله أبولون ، فإنه سيهب لنجدتى وسينقذنى من الشر الذى هو الآن محيق بى . هكذا تضرع إلى الرب والدمع ملء عينيه . وفجأة كما يقولون ، وبعد أن كانت السماء مصحية والجو هادئاً مستقراً ، تجمع الغمام وانفجرت العاصفة ، وأمطرت السماء وابلا مدراراً فأطفئت نار الحطب ».

« ثم لما أدرك قورش أن كرويسوس محب للآلهة ورجل خير أمر به فأنزل من فوق كومة الحطب وسأله كما يأتى : « أخبرنى ياكرويسوس مَن من الناس قاطبة أغراك بأن تزحف على أرضى وتصبح عدواً لى بدل أن تكون صديقاً ودوداً ؟ فقال له : « أيها الملك لقد فعلت ذلك فكان فيه سعادتك وجر على شقاوتى ، والسبب فى ذلك هو رب الهللينين الذى حرضنى على الزحف بجيشى ، إذ ما من فرد بلغت به الحماقة حداً يجعله يختار بمحض إرادته الحرب دون السلم ، لأن الأبناء يوارون آباءهم التراب فى أوان



ش ٩٨ – إمبراطورية دارا

السلم ، على حين يوارى الآباء أبناءهم فى زمن الحرب . على أنى أعتقد أنه كان مما يسر القوى الإلهية أن تقع هذه الحوادث على هذا النحو . » .

على أن هيرودوت رفيق شائق جذاب يغرى من يكتب معالم التاريخ بالإسهاب فى الاقتباس منه ؛ ولذا فإن بقية حياة كرويسوس وكيف أخذ يقدم إلى قورش نصائح حكيمة ، يجب أن تقرأ على صفحات هيرودوت الزاحزة .

ولما أن أخضعت ليديا ، وجه قورش التفاته إلى نابونيداس فى بابل ، فقهر الجيش البابلى تحت قيادة بَلْشَـــاصَّر (Belshazzar) خارج أسوار بابل ، ومن ثم ألقى الحصار على المدينة فدخلها عام ٥٣٨ ق.م. ، والراجح أن ذلك الفتح تم كما سبق أن أشرنا برضاء كهنة بعل وإغضائهم .

٧ – دارا يجتاح الروسيا

خلف قورش على الملك ابنه قمبيز ، الذى اقتاد جيشاً دخل به مصر (٥٢٥ ق .م .) ، وحدثت معركة على أرض الدلتا اقتتل فيها مرتزقة من الإغريق فى كل من الجانبين . ويصرح هيرودوت أنه رأى عظام القتلى وهى ما تزال فى الميدان بعد ذلك بخمسين أو ستين سنة . وهو يشير إلى صغر حجم الجماجم الفارسية نسبياً . ذلك أن هيرودوت لم يخفف قط من دعايته ضد الفرس . واستولى قمبيز بعد هاته المعـــركة على منف ومعظم أجزاء مصر .

ويقال إن قمبيز أصيب بمس من الجنون فى مصر . فاستباح المعابد المصرية أيما استباحة وظل فى ممفيس « ينبش المقابر القديمة ويفحص جثث الموتى » . وكان قمبيز قد اغتال قبل وصوله إلى مصر كلا من كرويسوس ملك ليديا السابق وشقيقه نفســـه سمرديس (Smerdis) . ثم مات فى سوريا أثناء عودته إلى سوسا متأثراً بجرح عارض ولم يترك عقباً يخلفه على

العرش فخلفه فى الحال دارا الميدى (٥٢١ ق . م .) وهو ابن هيستاسپس (Hystaspes) أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول أعظم من جميع الإمبراطوريات السابقة التى تتبعنا فيما سلف نموها ، فهى تضم كل آسيا الصغرى وسوريا ، أو بعبارة أخرى الإمبراطوريتين الليدية والحثية القديمتين ، وكل الإمبراطوريات الآشورية والبابلونية القديمة ومصر وبلاد القوقاز وإقليم قزوين وميديا وبلاد الفرس ، ولعلها امتدت فى الهند حتى نهر السند . دانت كل هذه البلاد لحكم دارا فأقام عليها حكاماً إقليميين (ينعت الواحد منهم باسم ساتراپ) ، ولم ينج من دفع الجزية للساتراپ الفارسى إلا العرب الرحل وحدهم دون سائر شعوب ما يسمى الآن باسم الشرق الأدنى التابعين لدارا . ويلوح أن تنظيم هذه الإمبراطورية العظيمة كان على مستوى من الكفاية أعلى كثيراً مما كان فى الإمبراطوريات التى سبقتها . فكانت الطرق الرئيسية العظيمة تصل الولاية بالولاية ، وكان هناك نظام للبريد الملكى ، وكانت خيول البريد تقف على مسافات مقررة وهى مستعدة على الدوام لحمل رسل الحكومة أو لحمل المسافر إن كان لديه تصريح من الحكومة — إلى المرحلة الثانية من مراحل رحلته . ويلوح أن الحثيين رصفوا الطرق الكبرى الممتدة عبر بلادهم فى زمن أبكر من هذا بكثير . على أن هذا أول تنظيم للبريد معروف لدينا ، وفيما خلا مسألة حق الحكومة المركزية فى استخدام الطرق الإمبراطوية والاستيلاء على الجرية ، فقد كانت الحكومات المحلية تستمتع بقدر جسيم جداً من الحرية المحلية ، وأفضت تبعيتهم للحكومة المركزية إلى الحيلولة دون وقوع نزاع داخلى قتال بينهم وهو أمر عاد عليهم جميعاً بالخير العميم . وفى أول الأمر كانت المدن الإغريقية الواقعة فى القارة الأسيوية تدفع الجزية وتشترك فى الاستمتاع بهذا « السلم الفارسى ».

وقد استحث دارا على مهاجمة الإغريق فى أوربا طبيب إغريقى فى بلاطه

وكان يحن إلى وطنه ، ويريد أن يعود إلى بلاد الإغريق بأى ثمن . وكان دارا قد رسم من قبل الخطط لحملة على أوربا وليس على بلاد الإغريق . بل على ما هو فى شمال الإغريق عبر البوسفور والدانوب (الطونة) ، كان يريد أن يضرب جنوب روسيا التى كان يعتقد أنها موطن الإسكيذيين المترحلين الذين يهددونه على حدوده الشمالية الشرقية . على أنه أعار مستحثه أذناً مصغية وأرسل الرسل إلى بلاد الإغريق .

وهذه الحملة العظيمة التى قام بها دارا توسع رحاب نظرتنا فى هذا التاريخ . فهى ترفع الستار عن بلاد البلقان من خلف بلاد الإغريق ، وهذه أول مرة نذكر لك فيها البلقان . وهى تحملنا إلى الدانوب وما وراء الدانوب . سارت نواة جيشه من سوسا وهى تجمع الأحلاف وفرق الجند المساعدة أثناء تقدمها إلى البوسفور ، وهنا كان حلفاء دارا من الإغريق « وهم الإغريق الأيونيون فى آسيا » قد أقاموا جسراً من الزوارق عبر الجيش عليه ، على حين واصل حلفاؤه الإغريق رحلتهم بسفنهم إلى نهر الدانوب ، ثم رسوا على مسيرة يومين من مصبه ونصبوا جسراً طافياً آخر على حين كان دارا يتقدم بجيوشه بإزاء الساحل الذى نسميه الآن بلغاريا ، والذى كان يسمى حينذاك تراقيا ؛ فعبروا نهر الدانوب وأخذوا يستعدون لمنازلة الجيش الإسكيذى والاستيلاء على مدن الإسكيذيين .

على أن الإسكيذيين لم تكن لهم مدن ، كما أنهم تجنبوا الالتحام معه فى أية موقعة . وتحولت الحرب إلى عملية طراد مضنية موئسة قوامها اقتفاء أثر أعداء أكثر سرعة وأخف حركة . وكان المترحلون يطمرون الآبار ويدمرون المراعى . وكان فرسان الإسكيذيين يغيرون على أطراف الجيش المكون فى معظمه من جنود من المشاة ؛ فيتصيدون الشاردين منهم ويحولون دون المرعى وجمع الأعلاف . وبذلوا كل ما فى مقدورهم لحمل الإغريق الأيونيين — الذين أقاموا الجسر عبر الدانوب وقاموا على حراسته — على أن يفكوا الجسر ،

وبذلك يضمنون تدمير « دارا » تدميراً محققاً لا ريب فيه . على أن إخلاص حلفاء دارا من الإغريق ظل ثابتاً لا يتزعزع ما داموا يرونه يتابع تقدمه .

ولكن ضروب الحرمان والتعب والمرض نالت من الجيش الفارسى وأعجزته عن التقدم ، وفقد دارا عدداً كبيراً من الرجال ممن شردوا عن جيشه ، واستنفدت كل مؤنه ثم ساوره أخيراً خاطر أليم بأن التراجع عبر الدانوب كان أمراً ضرورياً لإنقاذه من أعياء وهزيمة كاملين .

ولكى يجد مخرجاً ينقذه من ورطته عول على أن يبدأ تراجعه بالتضحية بالمرضى والجرحى من رجاله . فأخبرهم بأنه يتأهب لمهاجمة الإسكيذيين فى أثناء الليل ، وتسلل من المعسكر تحت هذه الدعوى مع نخبة من جنوده المختارين وانطلق جنوبا تاركاً نيران المعسكر متقدة فضلا عن الضوضاء والحركة العاديتين . وفى اليوم التالى أدرك الرجال المخلفون فى المعسكر الحيلة التى لعبها ملكهم عليهم ، فسلموا أنفسهم إلى رحمة الإسكيذيين ، ولكن دارا كان حصل على ما يشتهى ، فاستطاع أن يصل إلى جسر الزوارق قبل أن يلحق به مطاردوه . على أنهم كانوا أسرع من عسكره حركة ، لولا أنهم ضلوا عن قنيصتهم فى الظلام . وعند النهر « بلغ الخوف بالفرس المتراجعين أقصى غايته » إذ وجدوا بعض أجزاء الجسر قد انهارت ولم يجدوا أثراً لنهايته الشمالية .

وفى هذه المرحلة يدوى فى آذاننا صوت يتردد من القرون الخوالى . فهؤلاء جماعة من الفرس الوجلين يقفون حول الملك العظيم على شاطىء النهر المتدفق . . . . وهذه كتل الجيوش المتوقفة عن المسير وقد أنهكها الجوع وأضنتها الحرب ..... وهذا ذيل طويل من السفن المحطمة يمتد نحو الأفق الذى قد يظهر عليه فى أى وقت جنود مقدمة المتعقبين . . . . وليست هناك ضوضاء كبيرة على الرغم من الجمع الحاشد ، بل يسودهم صمت القلق المتوجس . وكانت بقية من جسر الزوارق تمتد امتداد المرساة على الجانب

الآخر من مجرى النهر العظيم ، وكأنما هى لغز لا سبيل إلى حله . ولسنا نستطيع أن نميز هل هناك رجال عنده أم لا ، فإن سفائن الإغريق الأيونيين تلوح كأنما لا تزال تُسحب على الشاطئ الآخر ، ولكن كان كل شىء بعيداً بعداً سحيقاً . « وكان مع دارا إذ ذاك رجل مصرى له صوت أجهر من صوت أى رجل على الأرض . وقد أمر دارا ذلك الرجل أن يتخذ موقفه على شاطئ إيستّر Ister (أى الدانوب) وأن ينادى هستيائيوس الميليطى (Histiaeus of Miletus) .

وإذا بهذا المبجل الذى كان موضع التكريم — وسيأتى يوم تُحمل فيه رأسه إلى دارا فى سوسا كما سنفصل ذلك من توّنا — يظهر عبر النهر مقترباً رويداً رويداً فى قارب .

ويدور حديث يتبين منه أن « كل شىء على ما يرام » .

والتفسير الذى قدمه هستيائيوس عن الأمر تفسير معقد ، ذلك أن بعض الإسكيذيين حضروا ثم انصرفوا ، وربما كان هؤلاء من الطلائع الكشافة . ويبدو أنه جرت مناقشة بين الإسكيذيين والإغريق ، وكانوا يطلبون إليهم تحطيم الجسر ويتعهدون لهم بأن يهلكوا عند ذلك الجيش الفارسى ويقضوا على دارا وإمبراطوريته . وعندئذ يستطيع إغريق آسيا الأيونيون تحرير مدنهم ثانية . وكان ملتياديس الأثينى يدعو إلى قبول هذا المقترح ، على أن هستيائيوس كان أشد منه دهاء . فإنه قال إنه يفضل ألا يتخلى عن الفرس تماماً إلا بعد أن يراهم وقد دمروا تدميراً . فهل يوافق الإسكيذيون أن يعودوا أدراجهم ويدمروا قوة الفرس ليطمئن إليهم الإغريق ، على حين يقوم الإغريق من ناحيتهم بتدمير الجسر ؟ ومهما يكن الجانب الذى انحاز إليه الإغريق آخر الأمر ، فقد كان من الواضح الجلى لهم أن من حسن التدبير تدمير نهاية الجسر الشمالية . فإن لم يفعلوا ذلك فإن الإسكيذيين قد يجتاحونه . والواقع أنه حتى حين كان الطرفان يتفاوضان ، شرع الإغريق فى العمل بأسرع ما يستطاع على

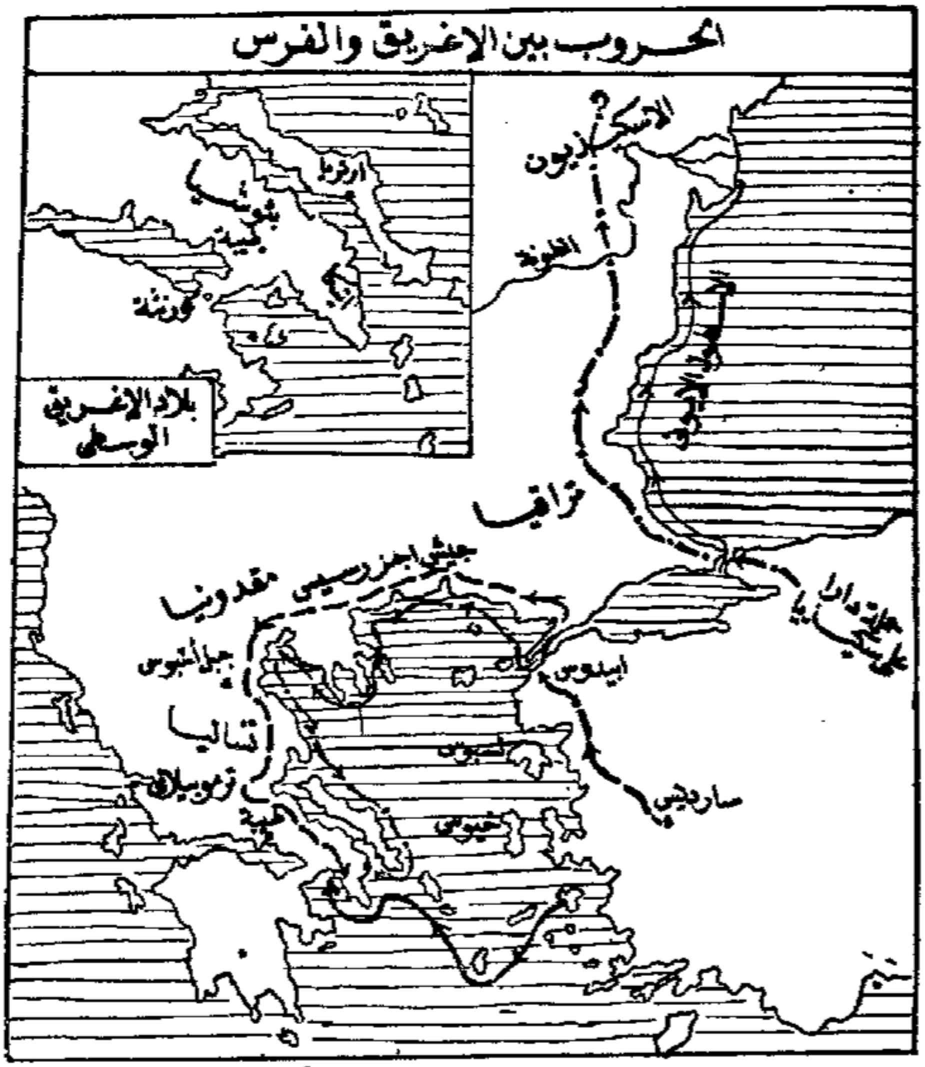
هدم الطرف الذى كان يربطهم بالإسكيذيين . ثم انطلق الإسكيذيون بخيولهم باحثين عن الفرس . وبذا تركوا الإغريق مطمئنين على كلا الحالين . فإن فرّ دارا ونجا ، استطاعوا أن يكونوا إلى جانبه ، وإن دمر لم يكن للإسكيذيين موضع للشكوى .

ولم يعرض هستيائيوس الأمر على دارا على نفس هذه الصورة ، ولكنه حافظ على الأقل على السفائن وعلى معظم الجسر . كما أظهر نفسه بمظهر صديق فارس المخلص . ولم يكن دارا ميالا إلى شدة النقـــد والتدقيق . وجاءت السفائن الأيونية . وسرعان ما أخذت بقية الفرس المجهدة المكدودة تنظر من خلفها بشعور ارتياح لا حد له إلى لجج الدانوب الفولاذية القاسية وهى تنساب مترامية وفاصلة بينهم وبين متعقبيهم .

وزال عن نفس دارا كل سروره واهتمامه بالحملة الأوربية . فعاد إلى سوسا تاركاً فى تراقيا جيشاً تحت إمرة قائد أمين هو ميجابازوس (Megabazus) فأخذ ميجابازوس هذا على نفسه إخضاع تراقيا . ومن بين الدول الأخرى التى أذعنت لدارا مُكرهة مملكة تظهر فى تاريخنا الآن لأول مرة ، وهى مملكة مقدونيا . وهى بلاد يسكنها شعب وثيق الصلة بالإغريق إلى حد أن أحد أمرائها أذن له من قبل ذلك بأن يتبارى فى الألعاب الأولمبية ويحصه على جائزة فيها .

وكان دارا ميالا إلى مكافأة هستيائيوس بالسماح له بأن يبنى لنفسه مدينة فى تراقيا ، لولا أن ميجابازوس كان له رأى مغاير لهذا فى جدارة هستيائيوس بالثقة . فحمل الملك على أخذه إلى سوسا ، وأن يحتفظ به هناك أسيراً يحمل لقب مستشار . ولقد غر هذا المنصب فى البلاط هستيائيوس بادئ ذى بدء ، ثم أدرك حقيقة مغزاه ، فأضجره البلاط الفارسى وأخذ يحن إلى موطنه ميليتوس فنصب نفســه لعمل الشر واستطاع أن يقيم ثورة على الفرس بين الأيونيين من الإغريق فى آسيا الصغرى . ولهذه القصة ملابسات ملتوية

وتأويلات وتخريجات بلغت من التعقيد درجة لا يتسع لها هذا المقام . وهى تتضمن إحراق سارديس على يد الأيونيين وهزيمة أسطول إغريقى فى لادى (٤٩٥ ق.م.) ، وهى قصة حالكة مليئة بالخيانة والقسوة والبغضاء . حتى ليبـــدو فيها مصرع هستيائيوس الماكر حدثاً ساطعاً وضاءاً أو يكاد ، فإن



ش ٦٨ — خريطة الحروب بين الإغريق والفرس

« ساتراب » ساردیس التى أخذ فيها هستيائيوس أسيراً وهو فى طريقه إلى سوسا ، كان له فيه رأى يطابق رأى ميجابازوس ، كما كان يعرف مقدرته على الخداع والتهويش على دارا فقتله هناك فى التو والساعة واكتفى بإرسال رأسه إلى مولاه .

ولقد أقحمت قبرص والجزر الإغريقية فى هذا النزاع الذى أثاره هستيائيوس واشتبكت فيه أثينا آخر الأمر . وأدرك دارا الغلطة التى وقع فيها حين اتجه يميناً بدل أن يعرج يسارا عند ما عبر البوسفور ، ومن ثم نصب نفسه لغزو كل بلاد الإغريق فبدأ بالجزر .

وكانت صور وصيدا المدينتان التجاريتان الساميّتان العظيمتان خاضعتين للفرس . ومن ثم انضمت سفائن الفينيقيين والأيونيين من الإغريق إلى الفرس ، فصـــار لهم أسطول استطاعوا به إخضاع الجزر الإغريقية الواحدة تلو الأخـــرى .

٨ — معركة ماراتون (Marathon)

شن الفرس أول هجوم لهم على بلاد الإغريق نفسها عام (٤٩٠ ق.م.) وكان هجوماً بحرياً على أثينا بقوة دربت بعناية تدريباً طويلا لتلك الغاية ، وكان الأسطول مزوداً بنقالات بنيت خصيصاً لراحه الخيول . وقد نزلت هذه الحملة العسكرية قرب ماراتون فى أتيكا[١] (Attica) . وأرشد الفرس إلى ماراتون رجل إغريقى من الخونة هو هيپياس ابن بزستراتوس الذى كان طاغية على أثينا . واتفق المتآمرون أنه إذا سقطت أثينا ، يصبح هيپياس طاغية لها تحت حماية الفرس . وفى الوقت ذاته تمكن من نفوس القوم شعور بأن شئون هيلاس أخذت تستحكم فيها أزمة حرجة — تمكناً جعل رسولا من العدائين ينطلق من أثينا إلى إســـبرطة ناسياً كل العداوات القديمة بين البلدين ، لـكى يقول لأهلها : « أيها اللاكيديمونيون إن الأثينيين ليهيبون بكم أن تهبوا خفافاً لمساعدتهم ، وألا تسمحوا لمدينة أقدم ما تـكون بين الهلّينيين بأن تقع فى ربقة العبودية على أيدى الهمج البرابرة[٢] . ولا تنســـوا أن إرتريا (Eretria) مستعبدة فى يومنا هـــذا مما أضعف قوة هيلاس بفقد هذه المدينة الشهيرة » .

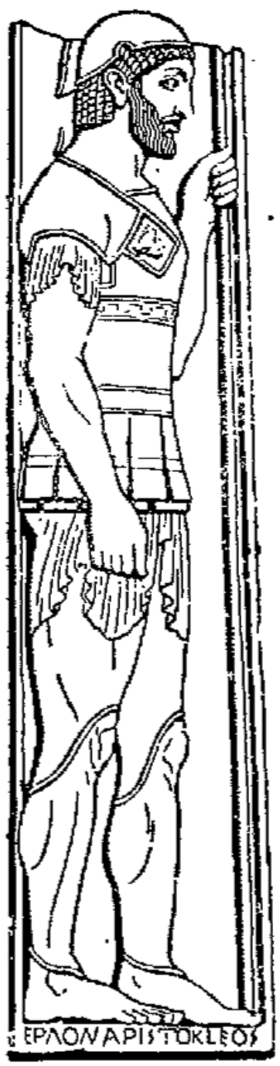
---

(١) إحد ولايات بلاد الإغريق القديمة وكانت عاصمتها آثينا . (المترجم)

(٢) البرابرة (أو الهمج) اصطلاح فى التاريخ اليونانى أطلقه اليونان على كل من عداهم من الشعوب تحقيراً لشـــأنهم . (المترجم)

قطع هذا الرجل واسمه «فيديبيدس Pheidippides» المسافة من أثينا إلى إسبرطة وهي قرابة مئة ميل ، سالكاً كالغراب خطاً مستقيماً ، بل أقصر منه — إذا أدخلنا في حسابنا ما بالطريق من التعرجات والمنعطفات — قطعها فيما يقل عن أربعين وثمانية من الساعات .

على أنه قبل أن يستطيع الإسبرطيون الوصول إلى المكان ، كان الفريقان قد التحما . فهاجم الأثينيون العدو وقاتلوهم « بطريقة جديرة بالخلود لأنهم فيما نعرف كانوا أول من تقدم من الهلّينيين لمهاجمة العدو جرياً ، كما كانوا كذلك أولهم في الصبر على تحمل النظر إلى ثياب الميديين وملاقاة الرجال الذين يرتدونها ، حين كان مجرد اسم الميديين حتى ذلك الزمان مما يرعب الهلينيين سماعه » .



٦٩— جندى أثيني من المشاة

وتزعزع جناحاً الفرس أمام ذلك الهجوم العنيف ولكن القلب صمد . على أن الأثينيين كانوا مع ذلك هادئي الروع مثلما كانوا أشداء . فحملوا الجناحين على الفرار . ثم أطبقوا على جانبي القلب . وعند ذلك فرت كتلة الفرس الرئيسية إلى السفن . وسقطت سبع سفن في أيدى الأثينيين ولاذت البقية الباقية بالفرار . وبعد أن قامت السفن بمجهود فاشل تروم به التقدم إلى أثينا والاستيلاء على المدينة قبل أن يعود إليها الجيش الإغريقي ، تراجع الأسطول إلى آسيا .

ولندع هيرودوت يختم القصة بفقرة تلقى إلينا ضوءاً ساطعاً على مهابة الميديين الهائلة في ذلك الزمان .

« ومن اللاكيدمونيين حضر إلى أثينا ألفان بعد تمام القمر وبعد أن أسرعوا سرعة عظيمة ليصلوا في الأوان ، حتى وصلوا إلى أتيكا في اليوم الثالث لخروجهم من إسبرطة . وهم وإن حضروا بعد فوات فرصة المعركة بزمن طويل ، إلا أنهم كانوا يرغبون في مشاهدة الميديين . فذهبوا وفقاً لهذا إلى ماراتون وشاهدوا جثث القتلى ،

ثم رحلوا بعد ذلك إلى وطنهم ، وهم يثنون على الأثينيين وعلى العمل الذى أتوه » .

٩ — ثرموبيلاى وسالاميس

بذلك الفوز العظيم أحرزت بلاد الإغريق — وقد وحد الخوف كلمتها ردحاً من الزمان — أول نصر لها على فارس . وترامت الأنباء بذلك إلى دارا فى نفس الوقت الذى وصلت إليه فيه أخبار شبوب فتنة فى مصر . ولكنه مات قبل أن يجمع رأيه على الاتجاه الذى ينبغى عليه أن يسلكه . واتجه ابنه وخلفه اجزرسيس (Xerxes) فى بادئ الأمر إلى مصر فولى عليها والياً (ساتراب) فارسياً ثم استمر أربع سنوات يعد العدة لهجوم ثان على بلاد الإغريق . ويقول هيرودوت — وينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه كان إغريقياً وطنى النزعة — فى مؤلفه التاريخى الذى أخذ يسمو آن ذاك إلى أوج الروعة والبهاء :

« فأى شعب لم يخرج به إجزرسيس من آسيا على هيلاس ؟ ! وأى ماء لم ينضب معينه حين ينهال عليه جيشه شرباً ، اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها ؟ لقد كان بعض هذه الشعوب يزوده بالسفن كما كان بعضها مكلفاً بالخدمة فى الجيش البرى . وكان على بعضها أن يقدم الفرسان كما تعين على البعض الآخر أن يقدم سفناً تحمل الخيل . على حين كانوا هم أنفسهم يشتغلون كذلك فى الحملة ، وكان أن أمر آخرون بتقديم سفن حربية للجسور ، وأمر آخرون كذلك بتقديم سفن محملة بالمؤن » .

عبر إجزرسيس إلى أوربا ، لا عند معبرة البوسفور التى عرضها نصف ميل كما فعل « دارا » ، بل عند الهلسبونت (Hellespont : الدردنيل) . وهيرودوت فى وصفه لتجمع ذلك الجيش العرمرم ومسيره من ساردیس إلى الهلسبونت ، إنما تغلب نزعة الشاعر فيه على المؤرخ . ويمر الجحفل العظيم الجرار بكل أبهته بمدينة طروادة (Troy) ؛ واجزرسيس وإن كان فارسياً

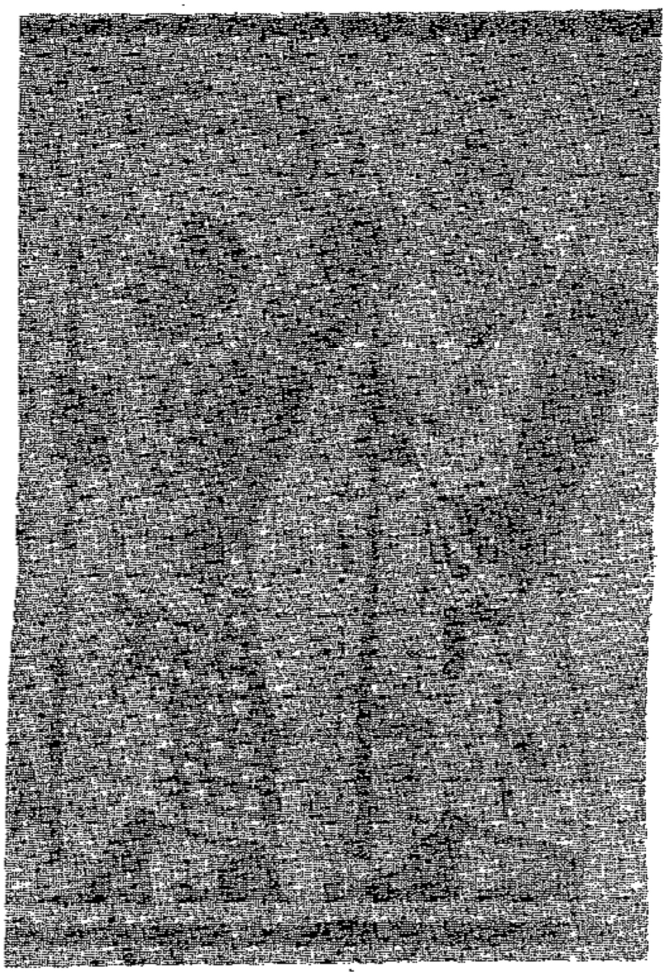
ومن الهمج إلا أنه يلوح فى زى المتأدبين بأدب القدامى فهو يُعرج على تلك المدينة ، كما يقول مؤرخنا ، لزيارة قلعة بريام (Priam) ، وقد أقيم الجسر على الهلسبونت عند أبيدوس ، وأقيم على قمة أحد التلال عرش من الرخام ليشرف منه اجزرسيس على عرض جيشه بأجمعه .

« حتى إذا نظر فرأى الهلسبونت تغطيه السفائن ورأى كل شواطئ سهول أبيدوس غاصة بالرجال ، قال عن نفسه إنه لسعيد ، وما لبث بعد ذلك أن هملت عيناه بالدموع . فلما أن رآه عمه أرطبانوس (Artabanus) على تلك الحال — وهو نفسه الذى صرح برأيه بادئ الأمر فى جرأة ناصحاً إجزرسيس بأن لا يزحف على هيلاس ، — أقول إن هذا الرجل عند ما لاحظ أن أجزرسيس كان يبكى ، سأله كما يأتى : أيها الملك ، ما أبعد الشقة بين الأمرين اللذين أتيتهما الآن وقبل الآن ببرهة وجيزة ، فإنك وقد دعوت نفسك رجلا سعيداً ، تذرف الدمع الآن : فأجاب الملك : أجل إنى بعد أن أحصيتهم عداً دار بخلدى إحساس الإشفاق والحسرة لتذكرى كم حياة الإنسان كلها قصيرة . لعلمى أنه من بين هذا الجمع الحاشد لن يكون واحد حياً بعد أن تمضى مائة من السنين » .

وربما لم يكن هذا من التاريخ الدقيق فى شيء ولكنه على كل حال شعر رائع عظيم . إذ الواقع أنه يحوى من الروعة ما تحويه ملحمة « الديناست[1] الدرامية » (The Dynasts) .

ورافق الأسطول الفارسى هذا الحشد البرى منتقلا بحذاء الساحل من رأس إلى رأس . على أن عاصفة هوجاء أنزلت بالأسطول أضراراً عظيمة ، فأغرقت أربعمئة سفينة بينها الكثير من حاملات القمح . وسار الهلينيون بادئ الأمر وقد توحدت صفوفهم لملاقاة الغزاة فى وادى تمبى (Tempe) فى الشمال قرب جبل أوليمپوس ، ولكنهم تراجعوا بعد ذلك مخترقين تساليا ، واختاروا آخر الأمر أن ينتظروا الفرس المتقدمين عند مكان يدعى « ترموپيلاى » (Thermopylae) ، حيث كانت هناك فى ذلك الوقت صخرة عظيمة يقع البحر

(١) الديناست ملحمة شعرية درامية لـ ماس هاردى . وتصف الحروب النابوليونية . (المترجم)



٧٠ — جنديان من الحرس الفارسي

إلى الشرق منها ، وبينهما ممر ضيق لا يكاد يتسع لمركبة واحدة إلا بشق الأنفس — وقد غيرت الألفان والأربعمئة من السنين التي انصرمت معالم كل شيء في تلك البقعة . والميزة العظيمة التي كانت للإغريق من هذا الموقع في ثرموبيلاي هي أنه كان يمنع أعداءهم من استخدام كل من سلاح الفرسان والمركبات . وكان الممر يضيق جبهة المعركة إلى حد يقلل من شأن عدم التكافؤ بين الفريقين في العدد . وهناك التحم الفرس بهم في معركة في أحد أيام صيف ٤٨٠ ق. م.

صد الإغريق هذا الجيش العظيم ثلاثة أيام ، وأنزلوا بهم خسائر بليغة لقاء خسارة طفيفه نالتهم ؛ ثم ظهرت في اليوم الثالث فصيلة من الفرس في مؤخرة الإغريق ، بعد أن أرشدها فلاح إلى طريق فوق الجبل . وسرعان ما اشتد الجدل والخلاف بين الإغريق ، فكان البعض يدعو إلى الانسحاب ، والبعض يدعو إلى الثبات . وكان ليونيداس (Leonidas) قائد القوة جمعاء يرى وجوب الصمود ، على أن يستبقي معه ثلاثمئة اسبرطي وفي الوقت نفسه يستطيع سائر الجيش الإغريقي أن يتقهقر إلى الممر الثاني الذي يمكن الدفاع

عنه . ومع ذلك فإن الفرقة الثسپية (Thespian) وعددها سبعمائة رفضوا أن يتراجعوا مفضلين البقاء مع الاسپرطيين . وبقيت كذلك فرقة أخرى من أربعمائة محارب من طيبة . ولما كانت طيبة انحازت فيما بعد إلى الفرس . فإن هناك قصة تقول بأن الطيبيين أكرهوا على البقاء فى هذا الموضع قسراً ورغم إرادتهم ، وهو أمر ليس له ما يرجحه من أسس عسكرية أو تاريخية . وقد ثبت هؤلاء الألف والأربعمائة وذبحوا على بكرة أبيهم بعد قتال تجلت فيه البطولة والبسالة . واتفق أن تخلف رجلان من الأسپرطيين لإصابتهما بالرمد . فلما أن سمعا الخبر ، كان أحدهما على حالة شديدة من المرض لا يستطيع معها حراكاً ، وأمر ثانيهما عبده (helot) أن يقوده إلى مكان المعركة ، وهناك أخذ يضرب ضرب العميان حتى قتل . وأخذ الإسپرطى الحى أرستوديموس (Aristodemus) مع الجيوش المتراجعة وأعيد إلى إسپرطة حيث لم تنزل به أية عقوبة على سلوكه ، ولكنه عرف باسم المتقهقر (Tresas) . وكان ذلك كافياً لتمييزه عن سائر الإسپرطيين ، وما لبث أن عمل على أن يقتل فى معركة پلاتايا بعدذلك بسنة ، بعد أن أبدى ضروباً عجيبة من شجاعة المستهين بالموت ...ظلت تلك الفئة القليلة قابضة على الممر يوماً كاملا ، يهاجمها من الأمام والخلف قوة الفرس بأجمعها . فاستطاعت أن تغطى تراجع الجيش الإغريقى الرئيسى ، وأنزلت بالغزاة خسائر فادحةورفعت مهابة المحاربين الإغريق على مهابة الميديين رفعاً يعلو بها عما فعله النصر فى معركة ماراتون (Marathon) .

وأخذت فرسان الفرس ومركباتهم تنساب انسياباً بطيئاً خلال ممر ترموپيلاى الضيق ، وتقدمت نحو أثينا بينما كانت تدور فى البحر سلسلة من الالتحامات البحرية . وتراجع الأسطول الهلينى أمام تقدم العمارة الفارسية ، التى أصيبت بخسارة فادحة بسبب جهلها النسبى بالسواحل المعقدة الكثيرة التعاريج وبتقلبات الجو المحلى . على أن ضخامة العدد هى التى حملت الجيش الفارسى قدماً نحو أثينا ،

والآن وقد ضاع ممر ترموبيلاى ، لم يبق هناك من خط دفاع أقرب من برزخ كورينثة ، وكان معنى هذا هو التسليم فى كل الأراضى الواقعة بين منطقتى ترموبيلاى وكورينثة بما فى ذلك مدينة أثينا ، وهذا معناه أنه لم يبق أمام السكان إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما : فإما أن يفروا وإما أن يستسلموا للفرس . خضعت طيبة ومعها بوءوتيا بأجمعها (Boeotia) ، وأرغمت على الانضواء إلى الجيش الفارسى فيما عدا بلدة واحدة هى پلاتايا (plataea) التى فر سكانها إلى أثينا . وجاء دور أثينا بعد ذلك ، وبذل الفرس جهوداً عظيمة لإقناعها بالتسليم لهم . ولكن جميع السكان أصروا على التضحية بكل شىء والنزول إلى السفن . فحمل النساء وغير المحاربين إلى سالاميس(Salamis) والجزر المختلفة المجاورة . ولم يبق فى المدينة غير عدد قليل من الناس ممن أقعدتهم السن عن الحركة أو ممن خالفوا الإجماع ، فاحتلها الفرس وأحرقوها . فأما الأشياء المقدسة والتماثيل التى أحرقت فى هذه المرة فإنها دفنت فيما بعد فى الأكروپول إذ تولى دفنها الأثينيون العائدون ، وعثر عليها فى عصرنا هذا وبها آثار الحريق ظاهرة . وأرسل إجزرسيس إلى سوسا رسولا راكباً يحمل البشرى ودعا أبناء پزستراتوس (Peisistratus) الذين كانوا معه . أن يعودوا إلى تراثهم وأن يقدموا الضحايا من فوق الأكروپول جرياً على الطريقة الآثينية .

وفى نفس الوقت كان الأسطول الهلينى الموحد انتقل إلى سالاميس وهناك انقسمت الآراء انقساماً مريراً بين أعضاء مجلس الحرب. وكانت كورينثة ، والدول التى وراء البرزخ تطلب أن يتراجع الأسطول إلى ذلك المركز ، أى إلى كورينثة تاركاً مدن ميجارا (Megara) وآيچينا لرحمة القدر . ولكن ثميستوكليس (Themistocles) أصر بكل قواه على القتال فى مضيق سالاميس . وظلت الغالبية تميل إلى التقهقر ، حتى جاءت الأخبار فجأة بأن خط التراجع قد قطع . فإن الفرس أبحروا حول سالاميس وقبضوا على ناصية البحر من الجهة الأخرى .

وقد حمل هذه الأخبار أريستيديس العادل الذى أسلفنا عليك أمر نفيه من أثينا ، وأبلت رجاحة عقله وفصاحته أحسن بلاء فى معاونة ثميستوكليس على تشجع القواد المترددين . كان هذان الرجلان عدوين لدودين فيما سلف ولكنهما إزاء الخطر العام تناسيا شحناءهما فى تسامح نادر فى تلك الأيام . وخرجت السفن الإغريقية للقتال عند الفجر .

وكان الأسطول الآخر أكثر تخليطاً وأقل اتحاداً وانسجاماً من أسطولهم . غير أنه كان يبلغ ثلاثة أضعاف أسطولهم تقريباً . وكان الفينيقيون فى أحد جناحيه ، والإغريق الأيونيون من سكان آسيا والجزر فى الجناح الآخر . فحارب بعض هؤلاء الأخيرين حرب العتاة .على حين تذكر الآخرون أنهم هم كذلك من الإغريق . وكانت سفن الإغريق فى الناحية الأخرى يديرها فى غالب الأمر رجال من الأحرار يقاتلون من أجل أوطانهم . واحتدمت المعركة فى ساعاتهـا الأولى احتداماً اختلط فيه الحابل بالنابل . ثم اتضح لإجزرسيس وهو يراقب النضال أن أسطوله كان يحاول الفرار . وتحول الفرار إلى كارثة .

وكان إجزرسيس اتخذ مجلساً فى مكان يرقب منه المعركة ، فرأى سفنه تدقها حيازيم السفن الأخرى الحادة ، ورأى رجاله المحاربين يصرعون ، ورأى الأعداء ينزلون فى سفنه . وكانت طريقة حرب البحر الغالبة فى تلك الأيام هى الصك والمصادمة . فكانت السفن الكبيرة تثقب السفن المعادية لها وتغرقها لتفوقها عليها فى قوة الصدمة أو كانت تهشم مجاديفها وبذلك تقضى على مقدرتها على المداورة ، وتتركها قعيدة مغلوبة على أمرها . ثم ما لبث إجزرسيس أن رأى بعض سفنه المكسورة تسلم للأعداء . وكان يستطيع أن يرى فى الماء رؤوس الإغريق وهم يسبحون إلى البر ؛ « فأما رجاله البرابرة فقد هلك العدد الأكبر منهم فى البحر لجهلهم السباحة » . ثم بذل الصف الأول من الأسطول الفارسى وهو محصور مضيَّق عليه جهداً تعوزه المهارة ليتزحزح عن مكانه قليلا فأفضى

ذلك إلى ارتباك لا سبيل إلى وصفه ، فاصطكت بعضها بالسفن الفارسية الواقفة خلفها . وكانت هذه السفن القديمة أصنافاً ضعيفة هزيلة لا تصلح للبحر إذا قيست إلى أى صنف حديث من السفن . وكانت الريح الغربية تهب ، وكان كثير من سفن إجزرسيس المهشمة تسوقها الرياح حتى تتوارى عن مجال بصره وتتحطم على أحد الشواطئ البعيدة . وذلك بينما الإغريق يسحبون بعضها الآخر إلى سالاميس على حين شرع البعض الآخر المصاب إصابة أقل وما يزال كامل عدة القتال ، ينسحب نحو السواحل القريبة من الملك لكى يصبح فى حماية الجيش . وهنالك أخذت السفن تتقابل متناثرة على الجزء البعيد من البحر فيما وراء الرؤوس ، وهى بعيدة غير واضحة المعالم لائذة بالفرار — تطاردها السفن الإغريقية . وقد أخذت الكارثة تتجلى لناظرى الملك — فى بطء — إذ يظهر له منها حدث بعد حدث . وإنا لنستطيع أن نتصور الحال وقد أخذ الرسل يغدون ويروحون و يصدر الملك أوامر عاجلة لاغناء فيها ويغير الخطط طيلة نهاره . وكان إجزرسيس قد خرج فى الصباح مزوداً بالمنصات لكى يلحظ من فوقها أحسن قواده بلاء فى القتال فيكافئه على حسن بلائه ، ولكنه رأى وذهب الأصيل يملأ السماء — قوة فارس البحرية تذهب بدداً بين غريقة ومحطمة ، ورأى الأسطول الإغريقى سليما مظفراً أمام سالاميس ، وهو ينظم صفوفه ، كأنما لا يزال غير مصدق بما أصاب من نصر .

ظل الجيش الفارسى عدة أيام على مقربة من مكان المعركة البحرية ، كأنما لم يستقر على رأى ، ثم أخذ يتراجع إلى تساليا ، حيث أشار بعض الناس على الملك أن يقضى الشتاء ثم يواصل الحملة . بيد أن إجزرسيس شأنه شأن دارا الأول من قبله تملكه السأم والضيق من الحملات الأوربية ، وخشى تدمير جسر الزوارق ، فواصل المسير مع جزء من جيشه حتى الهلسبونت (الدردنيل) تاركاً القوة الكبرى فى تساليا تحت قيادة قائد اسمه ماردونيوس (Mardonius) . ويروى لنا المؤرخ قصة تراجعه على النحو الآتى :

« إنهم أيان ساروا ، وحيثما حلوا عند أى من الشعوب يأخذون حاصلات ذلك الشعب ، ويستعملونها فى مؤونتهم ، فإن لم يجدوا حاصلات ، أخذوا الكلأ النابت فى الأرض ، وكم كانوا يسلبون الأشجار لحاءها ، ويسقطون أوراقها ويلتهمونها ، لا تمييز فى ذلك عندهم بين الأشجار المزروعة والأشجار التى تنمو برية . وكانوا لا يتركون شيئاً من ورائهم ، وقد فعلوا ذلك بسبب المجاعة . ثم فشا فيهم فضلا عن ذلك الطاعون والدوسنتاريا التى أهلكتهم أثناء الطريق ، والبعض منهم أيضاً — وكان مريضاً — تركه الملك من ورائه مكلفاً المدن التى قد يحدث أن يمر بها آنذاك أثناء مسيره بأن تعنى بهم وتعولهم ، وترك بعض هؤلاء فى تساليا ، وبعضهم فى سيريس (Siris) الواقعة فى پايونيا (Paionia) وترك البعض فى مقدونيا ...... وبعد أن اخترقوا تراقيا وصلوا إلى مضيق الهلسپونت فعبروه فى سرعة إلى أبيدوس بالسفن ، إذ أنهم لم يجدوا الجسر الطافى ممتداً عبر البحر ، لأن إحدى العواصف حطمته . وأقام الجند هنـــاك حيناً وزعت عليهم فيه جراية من الطعام أكثر مما كانوا ينالون فى الطريق . فمات كثير من رجال الجيش الذين ظلوا سالمين حتى ذلك الحين ، نتيجة لإشباعهم نهمهم بغير حساب وكذلك من تغيير الماء ، ووصل الباقون مع إجزرسيس إلى سارديس » .

١٠ — پلاتايا وميكال

ظل سائر الجيش الفارسى فى تساليا تحت قيادة ماردونيوس ، الذى استمر سنة بأكملها يقوم بالحملات العدوانية على الإغريق . ثم هزم آخر الأمر وقتل عام ٤٧٩ ق . م فى معركة أعد لها الطرفان عدتهما فى پلاتايا . وفى نفس ذلك اليوم أصيب أسطول الفرس وأحد جيوشهم البرية بكارثة مزدوجة تحت ظلال جبل ميكالى على أرض آسيا الصغرى بين إفيسوس (Ephesus) وميليتوس. ذلك بأن الفرس غلبهم الخوف على سفنهم من الإغريق فسحبوها إلى الشاطئ وبنوا من حولها جداراً . ولكن الإغريق نزلوا إلى البر واقتحموا تلك الحظيرة

عنوة ، ثم أقلعوا إلى الهلسبونت ليدمروا ما تبقى من جسر الزوارق حتى لقد اضطر من فر عقيب ذلك من الفرس الهاربين من بلاتايا أن يعبروا بالسفن عند البوسفور مكابدين فى ذلك أكبر مشقة .

ويقول هيرودوت إن المدن الأيونية فى آسيا شجعتها تلك الكوارث التى أصابت قوة الإمبراطورية ، فظهرت فيها للمرة الثانية بوادر العصيان ضـــد الفرس .

وبهذا ينتهى الكتاب التاسع من تاريخ هيرودوت الذى كان مولده قرابة (٤٨٤ ق . م) . فهو إبان معركة بلاتايا كان طفلا يناهز الخامسة . والكثير من مادة تاريخه قد جمعه هو بنفسه واستقاه ممن حضروا بأنفسهم وشهدوا بأعينهم الأحداث العظيمة التى يقصها . واستمرت الحرب تجر أذيالها زماناً طويلا . فإن الإغريق ناصروا ثورة شبت ضد الحكم الفارسى فى مصر ، وحاولوا أن يستولوا على قبرص فلم يوفقوا . ولم تنته الحرب إلا حوالى ســـنة ٤٤٩ ق م . ثم أصبحت سواحل آسيا الصغرى الإغريقية والمدن الإغريقية فى البحر الأسود حرة بوجه عام ، على أن قبرص ومصر استمرتا تحت الحكم الفارسى ، فأما هيرودوت الذى ولد رعية فارسية فى مدينة هاليكارناسوس الأيونية ، فكان يبلغ عند ذاك الخامسة والثلاثين ، ولا بد أنه انتهز أول فرصة بعد ذلك السلم بين بلاده وبين الفرس ليزور بابل وفارس . والراجح أنه ذهب إلى أثينا ومعه تاريخه معداً للإلقاء حوالى (٤٣٨ ق م) .

ولم تكن فكرة إيجاد اتحاد عظيم للإغريق هدفه مهاجمة فارس ، فكرة غريبة كل الغرابة على هيرودوت . ويظن بعض قارئيه أنه كتب مؤلفـــه التاريخى لتقوية تلك الفكرة ورفع شأنها . ولا شك أن جو ذلك الزمان كان مشبعا بعبير تلك الفكرة . وهو ينسب إلى أرستاجوراس ، زوج ابنة هيستياثيوس أنه عرض على الاسبرطيين « لوحة من البرونز حفرت عليها خريطة العالم أجمع بما فيه من بحار وأنهار » وهو يحكى على لسان أرستاجوراس قوله :

« إن هؤلاء البرابرة ليسوا شجعاناً فى القتال ، وأنتم من الناحية الأخرى، قد وصلتم إلى أقصى درجات المهارة فى الحرب ، وهم يحاربون بالقسى والسهام وبالحربة القصيرة ، ويدخلون المعارك مرتدين السراويل وقد وضعوا الكمّات (أى القلانس) على رءوسهم ، وأنتم قد استكملتم عدة قتالكم وأسلحتكم ونظامكم ، فهم قريبو الغلبة هيّنوها ، وليس لدى كل شعوب العالم ما يملكونه من الذهب والفضة والبرونز والأثواب المطرزة والحيوانات والعبيد فكل هذا ربما تحتازونه لأنفسكم لو أنكم شئتم ذلك » .

وانقضت مائة عام قبل أن تؤتى هذه الآراء ثمارها .



٣٠١ — خريطة

ثم قتل إجزرسيس فى قصره حوالى (٤٦٥ ق م) ، ومن بعدها لم تقم فارس بأية محاولة أخرى للغزو فى أوربا . وليس لدينا من العلم بما كان يجرى فى إمبراطورية الملك العظيم من أحداث قدر ما لدينا عن أحداث الدول الصغيرة ببلاد الإغريق الوسطى ، فقد شرعت بلاد الإغريق فجأة فى إنتاج الأدب . وخلدت نفسها فى سجل التاريخ على شاكلة لم يأتها من قبل أى شعب حتى ذلك الزمان . ويبدو أنه بعد (٤٧٩ ق م) (أى عام معركة بلاتايا) أخذت روح النشاط تفارق حكومة الميديين والفرس ، ثم دخلت إمبراطورية الملك العظيم بعدها فى فترة شيخوخة وانحلال ، ويمر عبر المسرح أرتجزرسيس

ثم إجزرسيس ثان ثم دارا جديد . وتحدث الفتن فى مصر وسوريا ، ويثور الميديون ، ويقتتل على الملك أرتجزرسيس آخر وقورش آخر وهما شقيقان . ويكاد هذا التاريخ أن يماثل تاريخ بابل وآشور ومصر فى قديم الأيام ، فهو صورة الأوتوقراطية ، وقد عادت سيرتها الطبيعية الأولى من جرائم القصور والأبهة الملوثة بالدماء والفسوق والأرجاس الأخلاقية . على أن هذا الكفاح بين الشقيقين أنتج درة إغريقية يتيمة ، لأن هذا الملك المسمى قورش الثانى جمع جيشاً من مرتزقة الإغريق دخل به مملكة بابل . وهناك لقى مصرعه فى ساعة نصره على أخيه أرتجزرسيس الثانى ، وعند ذلك أصبح عشرة الآلاف إغريقى فوضى ولا سيد لهم يستخدمهم ، فتراجعوا إلى ساحل البحر ثانية (٤٠١ ق م) وقد خلد هذا التراجع كتاب من أوائل ما سطر فى صفة الحرب وسير أبطالها هو كتاب الصعود[١] الذى ألفه قائدهم زينوفون » .

وتوالت جرائم القتل والثورات وحوادث القمع والتأديب ، وتعاقبت المحالفات الخبيثة والخيانات الوضيعة . ومن أسف أن الأيام لم تتح لنا مؤرخاً عظيما كهيرودوت يسجل أحداثها . ذلكم هو نسيج التاريخ الفارسى ! ! ! وجاءت حقبة من الزمن ازدهر فيها ازدهاراً معتماً ضعيفاً حكم ملك آخر هو أرتجزرسيس الثالث الملطخ بالدماء . « ويقال إن أرتجزرسيس الثالث قد قتله باجواس وولى على العرش مكانه أرسيس أصغر أبناء الملك لكى يقتله بدوره عندما أظهر شيئاً من الاستقلال فى التصرف .

على هذا النهج تسير الأمور . فأما أثينا فإنها بعد أن أخذت بأسباب التقدم حيناً من الزمان عقيب صد الفرس ، ألم بها الطاعون الذى مات فيه پريكليس أعظم حكامها (٤٢٩ ق م) . ولكن تنهض فى غمرة هذه الفوضى حقيقة جديرة بالتنويه : فإن عشرة الآلاف الذين قادهم زينوفون كانوا يتناثرون آن ذاك بين ظهرانى المدن الإغريقية ، مكررين على الأسماع ما لمسوه بأنفسهم من صدق ما أعلنه أرستاجوراس من أن الإمبراطورية الفارسية إنما هى فوضى شاملة يخالطها الغنى والثراء ، وأن أمر غزوها من السهولة بمكان على ذوى العزم من الرجال .

---

(١) الصعود (Anabasis) — وهى كلمة يونانية معناها التوغل والزحف من شاطئ البحر إلى هضبة آسيا الصغرى ، والكتاب يمتاز بأسلوبه السهل البسيط . (المترجم)

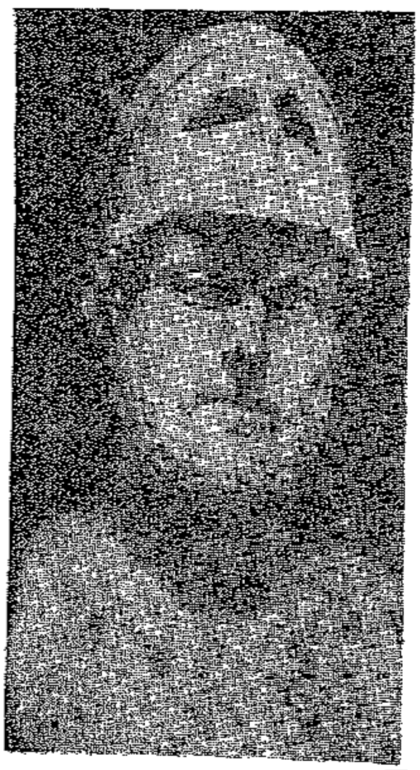
الفصل الحادى والعشرون

الفكر والأدب والفن عند الإغريق

١ – أثينا فى عصر بريكليس .
٢ – سقراط .
٣ – أفلاطون والأكاديمية .
٤ – أرسطاطاليس والليسيوم .
٥ – الفلسفة تصبح غير دنيوية .
٦ – نوع الفكر الإغريقى وتحديداته .
٧ – أول أدب خائل عظيم .
٨ – الفن الإغريقى .

---

١ – أثينا فى عصر بريكليس



٧٣ – بركليس

إن تاريخ الإغريق فى الأربعين سنة التالية لمعركتى پلاتايا وميكالى إنما هو قصة سلم وهدوء نسبيين . نعم نشبت الحروب ، ولكنها لم تكن حروباً ضروساً . وتهيأت لفريق من الموسرين فى أثينا الفرص وأسباب الفراغ إبان فترة قصيرة من الزمان . فكان لهذه الفرص وهذا الفراغ أبعد النتائج أثراً وأطولها عمراً بسبب تفاعل الحوادث وتجمعها بعضها مع بعض والمسلك الذى سلكته فئة قليلة من الناس .

وكان لوصولهم إلى طريقة للكتابة تستطيع أن تنقل الأصوات وتحمل دقائق لغة الكلام ، أثر جعل نشوء الأدب أمراً ممكناً ، فنتج الكثير من الأدب الجميل الرائع ، وازدهرت فنون التشكيل ، وثبتت دعائم العلم الحديث التى

سبق أن وضعها من قبل فلاسفة المدن الإغريقية الأيونية الأول . ثم انقضت فترة امتدت خمسين عاماً أو تزيد ، انفجرت على أثرها العداوة التي ظلت نيرانها تسرى تحت الرماد بين أثينا وإسبرطة ، فأصبحت حرباً عبوساً موهنة للقوى ، امتصت آخر الأمر كل حيوية هذه الحركة الإنشائية الخلاقة .

وتعرف هذه الحرب باسم حرب البيلوبونيز ، وقد استمرت قرابة ثلاثين عاماً . واستنفدت كل قوى بلاد الإغريق . وقد سطع نجم أثينا فى بادئ الأمر ثم تألق حظ إسبرطة . ثم قامت طيبة — وهى مدينة تقل المسافة بينها وبين أثينا عن خمسين ميلا — تنافس إسبرطة وتبزها . وعادت أثينا مرة ثانية إلى الطليعة بوصفها رئيسة لاتحاد عقدته بين المدن . تلك قصة منافسات ليس لها من سبب معقول يبررها ، وكانت حرية أن يتناساها الناس منذ أمد طويل ، لولا أن الإغريق دونوها وصوروها فى أدب رفيع .

وتبدو فارس طوال هذا الزمان ثم تختفى ثم تعود فتبدو من جديد حليفـــة لهذه العصبة أو لتلك . ثم يداخل بلاد الإغريق عند قرابة منتصف القرن الرابع ق . م شعور بوجود مؤثر جديد فى شئونها ، وهو فيليب ملك مقدونيا . فإن مقدونيا تنهض بالفعل فى خلفية[1] بلاد الإغريق التى أعيا انقسامهامن يداويه — نهضة الميديين والفرس من قبل خلف الإمبراطورية الكلدانية . ثم يأتى زمان يولى فيه العقل الإغريقى ظهره لمنازعاته (إن حق لنا استعمال هذا التعبير) ، ويحدق ببصره شاخصاً إلى ذلك المقدونى وقد شمله منه فزع عام .

لا شك أن المنازعات الارتجالية الإجرامية تظل كذلك مهما قيل من أن ثوسيديدس[2] قام بقص القصة بحذافيرها على أسماعنا ، ولن يزيدها إلا إمعاناً

---

(١) الخلفيـــة (Back-ground) كلمة وضعها المجمع اللغوى لتدل على ما يظهر فى مؤخرة أية صورة . (المترجم)

(٢) ثوسيديدس سياسى وزعيم أثينى معارض لبريكليس ؛ أعظم مؤرخى الإغريق كافة ؛ ألف كتاب تاريخ حرب البيلوبونيز . وهو سفر يمتاز بالدقة والتمحيص ؛ كاتبه شاهد عيان مستقل محايد غير متحيز ؛ وجيز النسج بارع السبك ؛ يتصف أسلوبه بالتدفق والبساطة ، رائع الخطاب . ولد ٤٦٠ ق.م. تقريباً ، وأصبح قائداً بحرياً فى حرب البيلوبونيز ونفى ٢٠ عاماً وعاد وقتل ٣٩٥ ق .م . (المترجم)

فى الإجرام والارتجال – أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من تحطيم بدايات عظيمة لحضارات جديدة بسبب ما تمخضت عنه من شامل الفوضى . ولسنا بمستطيعين فى هذه المعالم العامة أن نفسح المجال لتفاصيل هذه المنازعات الداخلية وهذه الحروب والهزائم التى كثيراً ما أطاحت إلى عنان السماء بواحدة من المدن الإغريقية أولا ثم بأخرى ثانياً وهى تتأجج ناراً وتتسعر لهيباً . ولو تأملنا بلاد الإغريق لما وجدناها تعادل بالقياس إلى كرة أرضية مصغرة قطرها قدمان[1] إلا ذرة صغيرة لاتكاد العين تميزها لدقتها . كما أن كتاباً موجزاً فى تاريخ الإنسانية لابد أن يخفت فيه ضجيج هذا القرن الملىء بالانقسامات الذى يمتد بين أيام سالاميس وپلاتايا وبين ظهور الملك فيليب ، فيصبح وسوسة خفيضة لا تكاد تسمع لها نأمة ، أو يُصبح مجرد هينمة عابرة على صفحة الفرصة السانحة التى مرت سريعاً بالشعوب والرجال على السواء .

على أن الشىء الذى لا تتناقص أهميته لأنه امتزج بثقافة الأمم اللاحقة كلها ، ولأنه جزء من دعامتنا العقلية لا يمكن فصله عنها – ذلك الشىء هو الأدب الذى أنتجته بلاد الإغريق فى أثناء فترات قصيرة من السلام ولمحات بارقة من الهدوء والطمأنينة التى أتاحتها تلك الأيام .

يقول الأستاذ جلبرت موراى :

« الواقع أن تاريخهم السياسى الخارجى كتاريخ كل الشعوب الأخرى ملىء بالحروب والديبلوماسية وبالقساوة والخداع . وإنما العظيم حقاً هو التاريخ الداخلى ، تاريخ الفكر والشعور والخلُق . كانت أمامهم بعض صعاب يناضلونها ، وهى صعاب لا تكاد اليوم تعرض لنا . ولم تكن لديهم فى الواقع أية خبرة ولا مرانة ، بل كانوا يجربون كل شىء لأول مرة . وكانوا فى غاية الضعف فى مواردهم المادية ، وكان ما يعتلج فى نفوسهم من عواطف ورغبات ومخاوف وغضبات أشد جموحاً فيما يرجح مما لدينا . ومع ذلك فإنهم أنتجوا أثينا پريكليس وأفلاطون » .

---

(١) يشير الكاتب بهذا إلى الصورة التى تصورها للكون فى الجزء الأول من المعالم ص ١٧ . (المترجم)

إن هذه الذرا العجيبة التى تسنمتها قوى العقل الإغريقى الخلاقة التى ظلت زماناً طويلا تتجمع والتى ظلت عشرين وثلاثة من القرون نبراساً منيراً من الماضى لذوى الألباب من الرجال يرشدهم ويبث فيهم الإلهام ؛ قد بارت حُمّياها بعد معركتى ماراتون وسالاميس ، وجعلت من أثينا بلداً حراً لا يخشى شيئاً ، وهيأت لها السيادة والسلطان فى عالمها وإن لم يتح لها تفوقها العسكرى والمادى ما يبرر تلك العظمة . كان ذلك عمل فئة قليلة جداً من الرجال تعد على الأصابع . فإن بضع نفر من مواطنيها قضوا معظم جيلهم فى ظروف كانت ولا تزال فى جميع العصور تبعث الرجال على أن ينتجوا من الأعمال كل ما هو جميل وخير . كانوا فى أمنة وكانوا أحراراً ، وكانت بهم كبرياء . وما كانوا يعرفون ذلك الإغراء الذى يصاحب كل ذى سلطان ظاهر غير منازع ، والذى يحملنا جميعاً على إيقاع الأذى بإخواننا . ولما أن ضاق صدر الحياة السياسية مرة ثانية فهوت إلى دركات الفساد والضياع التى يقتل فيها الأخ أخاه — كما تجلى ذلك فى الحرب مع إسبرسطة — كان هناك لهيب متقد للنشاط الذهنى بلغ من قوته واتساع رحابه وحسن تغذيته أن استمر على كل المحن العاصفة فى تلك الحرب ، وأن جاوز حياة الإسكندر الأكبر الوجيزة الأمد ، فدام بذلك فترة من الزمان مجموعها الكلى يربى على مائة سنة منذ بداية الحروب .

وإذ كان أهل أثينا قد ملأهم النصر حمية ، وتشبعت نفوسهم بشعور الحرية التى ظفروا بها عن جدارة فإنهم لبثوا يرقون مراقى النبل والعزة ردحاً من الزمان . وعندما كانوا تحت قيادة الديماجوج[١] العظيم بريكليس كبير موظفى الجمعية العمومية الأثينية ، وهو رجل دولة وسياسى خطير ، يكاد يقارب جلادستون أو لنكولن فى التاريخ العصرى — هفت أنفسهم للقيام بواجب

---

(١) الديماجوج ومعناها زعيم الأحرار وهى مشتقة من ديموس **Demos** بمعنى الشعب وأجوجوس **Agogos** بمعنى قائد ، مرشد . وكانت فى البداية تدل على الزعيم المسيطر على الجماهير ثم حرفت فيما بعد فغدت تعبر عن زعيم الفوضى والتهريج . (المترجم)

إعادة بناء مدينتهم وتوسيع تجارتهم . وانقضت فترة من الزمان تهيأ لهم أثناءها أن يتبعوا فى سماحة زعيما كريم النفس سمحاً . وحباهم القدر بذلك الزعيم فى شخص بريكليس . وكان يجمع بشكل نادر المثال بين المقدرة السياسية والإحساسات الحية نحو كل ما هو عميق ورفيع رائع ، وظل قابضاً على ناصية الحكم ما يربى على الثلاثين عاماً . وقد أوتى قوة خارقة وحرية فكر تفوق ما ألفه الناس . فطبع زمانه بطابع تلك الصفات . وقد نوه وينكلر بأن « وجه بريكليس وطابعه » ظلا حيناً من الدهر مطبوعين على الديمقراطية الأثينية . وكان بريكليس يعتمد على صداقة ربما كانت نبيلة سامية ، عقدت أواصرها بينه وبين اسپازيا . وهى امرأة من ميليتوس عالية الروح ممتازة التربية ، وكان لا يستطيع الزواج منها بسبب القانون الذى يقصر حق المواطنية الأثينية على المولودين فى أرضها ، ولكنها كانت فى الواقع زوجة له . لعبت اسپازيا دوراً عظيما فى أن تجمع من حوله رجالا لهم مواهب غير عادية . فكان يعرفها كل عظماء الكتاب فى زمانها . وأثنى الكثير منهم على حكمتها . حقاً إن بلوتارك يتهمها بإضرام حرب خطيرة مروعة ضد ساموس وإن انتهت بالنصر ولكن الأمر كما بينه هو نفسه فيما بعد ، كان أمراً تحتمه العداوة البحرية التى أظهرها أهل ساموس والتى كانت تهدد تجارة أثينا فيما وراء البحار ، وكان يتوقف عليها كل رخاء الجمهورية ورفاهيتها .

وأطماع الرجال عرضة على الدوام أن تعكس صورة المعايير التى عليها قرناؤهم وخلطاؤهم . فقد كان بريكليس قانعاً على كل حال ، بأن يخدم أثينا زعيما عن أن يتسلط عليها طاغية . وبإرشاده وتدبيره عقدت المحالفات وتأسست مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من إيطاليا إلى البحر الأسود . ونقلت كنوز الحلف من ديلوس إلى أثينا . ولما كان بريكليس واثقاً من منعته وعصمته من خطر فارس ، فإنه أنفق مدخرات الحلفاء لحرب فارس فى تجميل مدينته . ولم يكن هذا تصرفاً قويماً إذا قيس بمعايير عصرنا هذا . على أنه لم يكن تصرفاً

وضيعاً أو قائماً على الطمع ، فإن أثينا تحملت بمفردها ما كان على حلف ديلوس من أعباء ، أفليس العامل جديراً بنيل أجره ؟ فاستيلاؤه على هذا المال هيأ له فرصاً استثنائية لاستخدام مهندسي العمارة والفنانين . وما كان البارثينون (Parthenon) الأثيني الذي ما تزال على خرائبه مسحة الروعة والجمال . إلا الإكليل الذي توج مجد أثينا التي أعاد بناءها بريكليس . وإن أمثال تلك النحائت والتماثيل التي تركها فيدياس (Phidias) ومايرون (Myron) وبوليكليتوس (Polyclitus) والتي ما تزال موجودة ، لتشهد بعظمة الفن في ذلك الزمن .

وعلى القارئ أن يتذكر تلك الملاحظة المشرقة التي أوضح بها وينكلر أن أثينا هذه المنبعثة بعثاً جديداً ظلت حيناً من الدهر تحمل طابع وجه بريكليس . فإن عبقرية هذا الرجل الفذة والجو الزاكي المحيط به هما اللذان أطلقا نبوغ من حوله من الرجال من عقاله ، واجتذب إلى أثينا رجالا ذوي عقليات جبارة . وقد تلثمت أثينا بوجهه فترة من الزمان ، كما يرتدي المرء أحد الأقنعة ، ثم داخلها الضجر وأرادت التخلص منه . وما كانت نفس الأثيني العادي تنطوي على مثقال ذرة من العظمة والسماحة . ولقد عرضنا عليك من قبل نموذجاً لروح الأثيني الحر أثناء الاستفتاء في نفي أريستيديس نفياً سياسياً . ويصرح لويد في كتابه « عصر بريكليس » بأن الأثينيين لم يكونوا يطيقون سماع اسم ملتيادس مقروناً بمعركة ماراتون . وسرعان ما دفع الاعتزاز الشديد بالكرامة عامة الناخبين إلى الثورة على تلك المباني الأنيقة التي ترتفع أمام أنظارهم إلى عنان السماء ، وعلى ما كان يلقاه أمثال فيدياس من المثالين من حظوة وتكريم يفوقان ما يناله نظراؤهم في الصنعة المحبوبون من الشعب ، وعلى المنح التي كانت تعطى لأجنبي محض مثل هيرودوت الهاليكارناسي ، وعلى خدش بريكليس لكرامتهم بإيثاره لصحبة امرأة ميليطية وتفضيله حديثها . وكانت

حياة بريكليس العامة منظمة تنظيما ملحوظاً أدى برجل الشارع أن يظن فى حياته الخاصة الفساد الشديد والرشوة . على أن الدلائل كلها تنبئ أن بريكليس كان ممتازاً مترفعاً فى سلوكه ، وقد أظهر فى بعض الأوقات احتقاره للمواطنين الذين كان يسهر على رعاية مصالحهم .

« ولم يوهب بريكليس فقط سمواً فى العاطفة ورفعة وتنزيهاً لأسلوبه برفعه تماماً عن تعبير السوقة الوضيع ، بل كان كذلك وقوراً عبوساً لا يلين ، ولا يجنح إلى ضحك أو تبسم ، كما كانت نبرات صوته ثابتة متزنة ، وسلوكه هيناً سهلا ، وكان ذوقه فى الثياب سليما فلم يؤثر عنه قط أنه تخلى عن حسن هندامه لحدة فى الحديث ، فهذه الأشياء وغيرها مما يماثلها فى طبيعتها ، قد استثارت إعجاب كل من رآه ، وعلى هذه الشاكلة كان خلقه وسلوكه عندما ظل أحد الأوغاد يلاحقه يوماً كاملا بألوان التقريع والسباب . فتحمل الأذى بالصمت والصبر ، واستمر يرسل الرسل أمام الملأ فى بعض الشئون الماسة ، ثم سار فى المساء إلى منزله فى هدوء يتبعه ذلك التعس الوقح ، وهو يهينه أثناء الطريق بأقذع لغات السباب . ولما كان الظلام قد خيم عندما وصل إلى باب داره ، فإنه أمر أحد خدمه بأن يأخذ مشعلا يضيء به للرجل الطريق حتى يعود إلى منزله . ومع ذلك يقول الشاعر أيون (Ion) : إنه كان متكبراً ومترفعاً فى حديثه ، ويخالط وقاره وعزة نفسه قدر عظيم من الغرور والاحتقار لمن سواه ، فكان لايبدو فى الشوارع إلا ساعة ذهابه إلى الفوروم (سوق المدينة[١]) أو دار الشيوخ[٢] . وكان يرفض دعوات أصدقائه ، ويمتنع عن

(١) الفوروم (**Forum**) هو سوق المدينة عند الرومان ، أما عند اليونان فيسمى ذلك السوق باسم الأجورا (**Agora**) . (المترجم)

(٢) هو مجلس المشورة (**Boulê**) عند اليونان ويقابله تقريباً السناتو عند الرومان . (المترجم)

كل حفلات السمر والنزهات الاجتماعية إلى حد أنه إبان توليته السلطة — وهو أمد طويل — لم يذهب قط ليتعشى مع أى صديق من أصدقائه إلا مرة واحدة، وذلك يوم زواج ابن أخيه يوريبطلميوس (Euryptolemus) ولم يلبث هناك إلا ريثما انتهى طقس صب النبيذ المقدس، وكان ممن يعتقدون أن حرية السمر تزيل كل جاه الوظيفة ووقارها، وأن الكرامة لا تستقيم مع رفع الكلفة ..... » .

ولم يكن هناك حتى ذلك الحين أية صحافة وضيعة تظهر العالم على دنايا الخاصة المبرزين والعلية الموفقين وخستهم . على أن الرجل العامى كان لما يدخله من الغرور والاعتداد بالنفس، يجد قدراً كبيراً من السلوى فى فن الملهاة (الكوميديا) التى ازدهرت أيما ازدهار . وأشبع كتاب الكوميديا تلهف العامة الشديد الذى يكاد يشملهم جميعاً على الحط من قدر أولئك الذين تجرح عظمتهم الظاهرة حب الناس لأنفسهم . لذا لم يكفوا البتة عن رمى بريكليس وأصدقائه بكل نقيصة دنسة . وحدث ذات يوم أن صور أحد المثالين بريكليس وعلى رأسه خوذة ، فأصبحت إشارة إليه ورمزاً تهكمياً عليه ، ولعله ألم بطرف من تلك القصة . وأثارت قصة الخوذة مرحاً ومزاحاً لا نهاية له عندما اقترح بعضهم الاستعاضة عن الرأس ببصلة مشوهة تشوهاً مخيفاً . وكانت « حركات أسپازيا وسكناتها » بالطبع كرمة مثمرة تنهشها تخرصات رجل الشارع .

ولطالما تمنت النفوس الحالمة حين تضيق ذرعاً بوضاعة زماننا هذا وانحطاطه لو نقلت إلى عصر پريكليس الرفيع . على أنهم لو قذفوا إلى أثينا المشتهاة تلك ، لوجدوا أنفسهم فى نفس الجو الوضيع الذى تتمرغ فيه الحياة فى أدنى أنواع صالات الموسيقى العصرية ، والذى يتجلى فى الصحف الشعبية تجلياً كبيراً ، ولوجدوا أفحش لفحات السباب والقذف العلنى الصاخب اللاذع ولصبت عليهم نفس التهم الدنسة والوطنية الشرهة والوضاعة العامة ، ولظلت

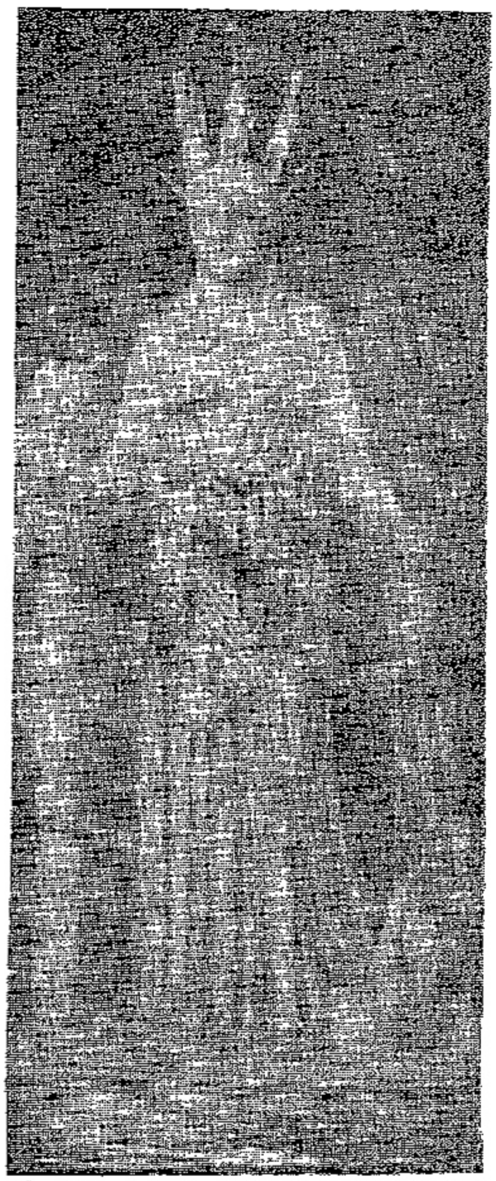
النغمة العصرية تتقفى آثارهم . حتى إذا اضمحلت ذكريات پلاتاتا وسالاميس ، وألفت عيون الناظرين المبانى الجديدة ، أخذ پريكليس وفخامة أثينا يثيران ثائرة الجمهور وتفكهه الوضيع شيئاً فشيئاً . أجل لم يحدث قط أنه نفى من أثينا نفياً سياسياً . لأن مكانته لدى المواطنين الأكثر اتزاناً وقته غائلة ذلك . بيد أنه لبث عرضة لهجمات تتزايد على الأيام جرأة وإصرارا . وقد عاش ومات رجلا فقيراً . ولعله أطهر وأنزه ديماجوج بين زعماء العامة . على أن هذا لم ينقذه من تهمة اختلاس الأموال فقدم من أجلها إلى محاكمة شوهاء عقيمة . فلما فشل أعداؤه فى ذلك لجأوا إلى وسيلة أكثر ضلالة والتواء ، فأخذوا يقصون عنه أصدقاءه .

والتعصب الدينى والتهم الأخلاقية إنما هى الأسلحة الطبيعية لمن أكل الحسد قلوبهم غيظاً من زعماء الرجال . فنفى صديقه دامون نفياً سياسياً من المجتمع الأثينى . وهوجم فيدياس بتهمة عدم التقوى . فإن فيدياس اجترأ أن يضع على درع التمثال العظيم للربة أثينا صوراً له ولپريكليس أضافها إلى صورة تمثل المتحاربين فى قتال بين الإغريق والأمازون . وكانت عاقبة ذلك أن مات فيدياس فى السجن . وهذا أناكساجوراس ذلك الأجنبى الذى رحب پريكليس بمقدمه إلى أثينا — يوم كان فيها عدد وفير من نزهاء الرجال فأقام فيها وهو على أتم الاستعداد لإشباع كل ما يخالج محبى الاستطلاع من رغبات كريمة — كان يقول أعجب الأشياء عن الشمس والنجوم ويلمح تلميحاً لا خفاء فيـــه أنه لا وجود للآلهة ، وإنما توجد فى العالم روح تبعث الحياة هى نوس[1] . عند ذلك تبين كتاب الكوميديا على حين فجأة أن لهم مشاعر دينية عميقة ، يمكن أن تنزعج انزعاجاً شديداً ، بل تنزعج بشكل خطر !! ، ومن ثم فر أناكساجوراس مما كان يحاك من تدبير لمحاكمته . ثم جاء دور أسبازيا وتجلى فى أثينـــا التصميم على طردها من المدينـــة . وكان پريكليس

(١) نوس (nous) ، هى كلمة يونانية معناها العقل أو المواهب . (المترجم)

موزعاً بين المرأة التى يهواها فؤاده وبين المدينة الناكرة للجميل والتى أنقذها ودافع عنها وجعلها أجمل شكلا وأخلد ذكراً من أية مدينة أخرى فى التاريخ . فوقف يدافع عن أسبازيا حتى غلبته عاصفة من العواطف الإنسانية الحقة . فانهلت الدموع من عينيه وهو يتكلم . وأنقذت عبراته أسبازيا إلى حين .

وقنع الأثينيون بما لحق بريكليس من إذلال . بيد أنه كان قد أسدى إليهم من الخدمات ما طال به الأمد حتى لم يعد فى إمكانهم الاستغناء عنــه . إذ مضى عليه وهو فى مقــام زعامتهم ثلث قرن .



٧٣ – تمثال الربة أثينا فى البارثنون

وفى (٤٣١ ق . م) نشبت الحــرب ضد إســبرطة . ويتهم پلوتارك پريكليس بأنه عمــل على إشعالها ، إذ أنه شــعر أن حب الجمهــور له قد ذوى بسرعة فأشبّ الحــرب ليتمســك به الناس . قال :

« ولما كان هو نفسه قد أصبح لديهم بغيضاً بسبب ما كان من فيدياس وكان يخشى أن يستدعى ليستجوب — فإنه عجل بالحرب وكانت حــتى ذلك الوقت أمراً غير محقق . فنفخ بذلك فى اللهيب الساكن تحت الرماد ، وكان يأمل أن يزيل عن نفســه بهذه الوسيلة التهم التى كانت تهــدده ،

وأن يخفف من ثورة الحاقدين عليه ، ذلك أنه بلغ من مهابته وسلطانه ، أنه كلما اعترى الجمهورية خطب عظيم ، أو تعرضت لخطر فادح كانت تودع كل ثقتها فيه دون سواه » .

على أن الحرب كانت حرباً بطيئة مخطرة حتى عيل صبر الشعب الأثيني . ونهض رجل طموح يدعى كليون (Cleon) يريد أن ينحي بريكليس عن زعامته . وقامت في المدينة ضجة تدعو إلى إنهاء الحرب عاجلا . وبذل كليون جهداً لينسب إلى نفسه أنه صاحب الفضل في كسب الحرب » . وأخذ الشعراء المحبيون إلى الشعب يلعبون على هذه النغمة وينشدون :

« وأنت يا ملك الساتير[1] ... لماذا تفاخر بشجاعتك ؟

ومع ذلك فأنت ترجف فرقاً لدى سماعك صليل السيوف المشحوذة ،

أعن غلّ ذلك منك على كليون المتوقد ؟ » .

وفشلت إحدى الحملات تحت قيادة بريكليس ، فانتهز كليون الفرصة وطالب بمحاكمته وأوقف بريكليس عن مباشرة عمله في القيادة وحكم عليه بالغرامة . وتقول القصة بعد ذلك بأن أكبر أبنائه — ولم يكن هذا ابن أسبازيا ، بل من زوجة سابقة — تنكر له وأخذ يكيل له اتهامات دنيئة لا يصدقها العقل . ثم قضى الطاعون على هذا الفتى ، ثم ماتت شقيقة بريكليس ثم آخر أبنائه الشرعيين ، وبينما هو يضع — على عادة ذلك الزمان — أكاليل الجنازة على جثمان ذلك الغلام أعول بالبكاء وسرعان ما انتقلت العدوى إليه هو نفسه فمات (٤٢٩ ق.م.) .

والحقائق البارزة في هذه الخلاصة الوجيزة تساعدنا على تبيان مبلغ تنافر بريكليس وعدم انسجامه مع الشيء الكثير من حياة مدينته . على أن النهضة الذهنية والفنية التي غمرت أثينا كانت تساعدها ولا شك الظروف السائدة

---

(١) الساتير (**Satyr**) : طبقة من الكائنات الا طازية (الميثولوجية) الإغريقية ، التي ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس وتمثل هذه الطبقة قوى الطبيعة الحيوية الوافرة . وتبدو الساتير بشعر خشن وأنف مستدير وأذن مدببة كآذان الحيوان وقرنين صغيرين وذنب وساقين كساق الماعز . وهي تمثل دائماً وبيدها الكأس (إيماء إلى حبها النبيذ والملذات الحسية) أو راقصة رقصاً تهتكياً أو ممسكة بإحدى الآلات الموسيقية ، وكان الناس يخشون شرها . (المترجم)

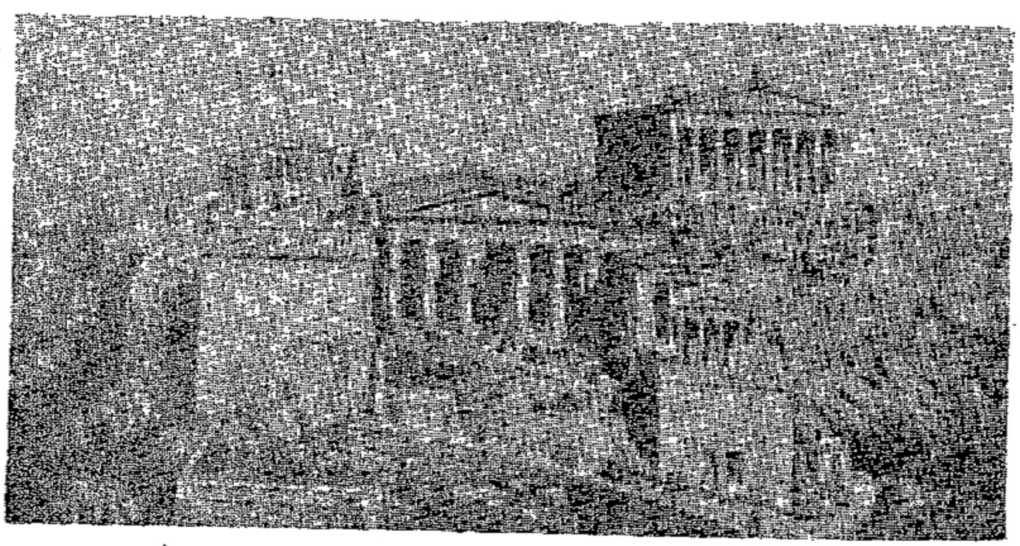
فى ذلك الزمان . وهى لم تكن حركة عامة ولكنها ترجع كذلك فى بعض نواحيها إلى ظهور بعض الشخصيات الفذة ممن أتيحت لهم فرص استثنائية وأوتوا مواهب فريدة .

٢ – سقراط

ومن الشخصيات القيادية الأخرى البارزة فى أثينا فى هذه النهضة الأثينية رجل اسمه سقراط ، وهو شخص أشد من بريكليس عدم انسجام مع حياة عصره كما أنه يعدله فى كونه مصدراً اشتهر بالأصالة والابتكار ، وكان عاملا منبهاً له أثره فى عظمة عصره الخالدة . وهو ابن أحد البنائين . ولد بعد هيرودوت بنحو ستة عشر عاماً . وكان صيته آخذاً فى الذيوع قرب الوقت الذى مات فيه بريكليس . وهو نفسه لم يكتب شيئاً . على أن عادته جرت أن يتكلم فى الأماكن العامة . وكان يدور فى تلك الأيام بحث عظيم عن الحكمة وكان بالبلاد جمهور مخلّط من المعلمين يسمى السفسطائيين ، كانوا يفكرون فى الصدق والجمال والحياة الصائبة . ويلقنون العلم عقول الشباب المستطلعة وأخيلتهم النامية . وكان هؤلاء يضطلعون بذلك العمل حيث لم تكن بالبلاد مدارس عظيمة الشأن يقوم عليها الكهنة . وإلى حلبة هذه المناقشات دخل هذا الرجل بسماجته وقبح منظره وتثاقله وحفاء قدميه فالتف من حوله حلقة من المعجبين والتلاميذ .

وكانت طريقته طريقة التشكك العميق . وكان يرى أن الفضيلة الوحيدة الممكنه إنما هى المعرفة الحقة . فهو لا يسمح بأى معتقد . ولا يجيز أى أمل لا يستطيع أن يصمد للامتحان النهائى المرير . وكان معنى ذلك فى نظره هو الفضيلة ، على أن ذلك كان معناه فى عين الكثيرين من أتباعه الضعاف النفوس ضياع المعتقدات والعادات الأخلاقية التى كانت تحد من نزعاتهم ودوافعهم الجامحة . وقد أصبح هؤلاء الضعاف النفوس أنذالا يتلمسون لأخطائهم المعاذير وينغمسون فى الملذات . وكان من بين خلطائه الشبان أفلاطون ، الذى خلد بعد ذلك

طريقة أستاذه فى سلسلة من المحاورات الفلسفية وأسس المدرسة الفلسفية « الأكاديمية » ، التى استدامت تسعمئة سنة . وكان أحدهم زينوفون قائد العشرة آلاف الذى دبج وصفاً لموته سقراط . ومن بينهم كذلك إيزوقراط (Isocrates) وهو من أحصف المفكرين السياسيين عند الإغريق وأرجحهم عقلا . ولكن كان منهم كذلك كريتياس (Critias)الذى أصبح عند ماهزمت إسبرطة أثينا هزيمة نهائية — زعيما على الطغاة الثلاثين الذين عينهم الإسبرطيون ليمرّغوا المدينة المقهورة فى حمأة الحضيض الأدنى من المذلة وليدمروا نظامها التعليمى . ومنهم خارميديس (Charmides) الذى قتل إلى جانب كريتياس عندما خُلع الثلاثون وغلبوا على أمرهم . وألسيبياديس ، وهو خائن عريق فى الخيانة وقاد الذهن خبيث الطوية قام بدور كبير فى دفع أثينا إلى القيام بالحملة على سيراقوزة ، تلك الحملة الخاسرة التى انتهت بتحطيم قواها ، فخانها عند ذلك وانضم إلى الإسبرطيين . ثم اغتيل آخر الأمر وهو فى طريقه إلى البلاط الفارسى حيث كان يبغى أن يدبر الشر لبلاد الإغريق . ولم يكن هؤلاء التلاميذ الأخيرون هم الشبان الوحيدين الذين لاح عليهم من الدلائل ما يبشر بمستقبل حسن ، والذين قضى سقراط على عقيدتهم السوقية ووطنيتهم



٧٤ — الاكربوليس قديما

وترك مكانها شاغراً فى نفوسهم . وكان ألد خصومة أنيتوس وهو شخص أصبح ابنه وهو تلميذ مخلص لسقراط ، سكيراً مدمناً لا يرجى صلاحه ، فسعى أنيتوس جاهداً حتى قدم سقراط آخر الأمر إلى المحاكمة بتهمة إفساد شباب أثينا ، وقضى عليه بالإعدام بشرب جرعة سامة مستخرجة من نبات الشوكران (٣٩٩ ق.م.) .

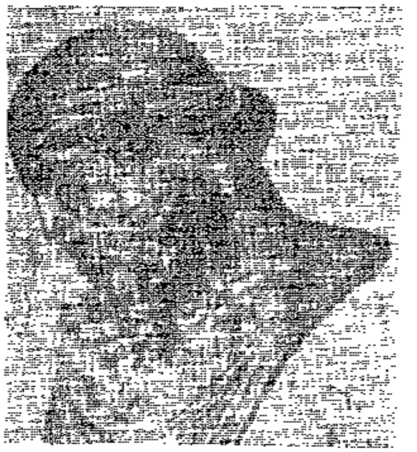
وفى محاورة أفلاطون المسماة باسم فيدون (Phaedo) وصف لوفاته بالغ درجة عالية من الروعة والجمال .

٣ – أفلاطون والأكاديمية

ولد أفلاطون فى (٤٢٧ ق.م.) وعـمـّر ثمانين عاماً .

وكان يخالف سقراط تماماً من حيث المزاج الفكرى . فقد كان كاتباً أشد الكتاب رقة وجمال ذوق ، على حين لم يكن سقراط ليستطيع أن يكتب شيئاً متصل الحلقات . وكان يعنى بالجميل من الأشياء على حين كان سقراط يزدرى الجمال . وكان يعنى عناية فائقة بتنظيم الشئون العامة ، وبتدبير الخطط لإقامة علاقات جديدة بين الناس تفضل ما فى العالم ، على حين كان سقراط يركز ذهنه وهو ساكن النفس فى إماطة حجب الخداع والأوهام عن العقول غير آبه بحر أو قر ولا برأى من يحيط به من الناس . كان سقراط يقول بأن الحياة خداع ، وأن الروح وحدها هى التى تعيش . وكان أفلاطون شديد التعلق بهذا المعلم الهرم الجاف الطبع . وقد وجد طريقته ذات قيمة قصوى فى تنقية الآراء وتخليصها من التعقيد ، فجعله الشخص الذى تدور عليه محاوراته الخالدة . على أن أفكاره ونزعاته الخاصة نأت به كثيراً عن الاتجاهات المتشككة التى عليها سقراط . ومن ثم يكون الصوت والاسم لسقراط ولكن الفكر هو فكر أفلاطون .

كان أفلاطون يعيش فى زمان شك وتساؤل يدوران حول كل مابين الناس من علاقات . والظاهر أن الناس فى أثينا فى أيام بريكليس العظيمة قبل



٧٥ — أفلاطون

(٤٥٠ ق . م) كان يخامرهم شعور الرضا التام عن النظم الاجتماعية والسياسية ولم يكن يبدو أى سبب للتشكك حين ذاك . إذ كان الرجال يشعرون بأنهم أحرار . وكان المجتمع فى رخاء . وكان الحسد أهم ما يشكو منه الناس . ولا يكاد تاريخ هيرودوت ينم عن شىء من عدم الرضا عن النظم السياسية الأثينية .

ولكن أفلاطون الذى ولد قرابة الزمان الذى مات فيه هيرودوت ، والذى ترعرع فى جو عسير تكاثرت فيه المحن ما بين حرب طاحنة وملمات اجتماعية شديدة وارتباكات عظيمة ، واجه منذ نعومة أظفارة ما بين الإنسانية من تنافر وما بين النظم الإنسانية من عدم تجانس . وكان أن استجاب عقله لذلك التحدى . ومن ثم نجد فى أول مؤلفاته وآخرها مناقشات جريئة نفاذة تستهدف إدخال التحسين على العلاقات الاجتماعية . وكان سقراط علمه ألا يقبل شيئاً مسلماً به ، حتى ولا العلاقات المشتركة : علاقات الزوج والزوجة والوالد والولد . وكتابه « الجمهورية » وهو أول الكتب التى تبحث فى اليوتوبيا[1] إنما هو بحث فى المدينة التى يحلم بها خيال الشباب ، وفيها تنظم الحياة الإنسانية على أساس خطة جديدة تفضل ما سلفها . ومؤلفه الأخير الذى لم يتمه وعنوانه « القوانين » ، هو مناقشة تستهدف وضع قواعد يوتوبية أخرى شبيهة بتلك . وإن هناك لقدراً كبيراً من آراء أفلاطون لا نستطيع هنا أن نلقى إليه حتى مجرد نظرة عابرة ، غير أنه — لا جرم — يمثل ركناً من الأركان الأساسية فى تاريخنا هذا ، ذلك أن ظهور فكرة فى عادة تشكيل ظروف مجتمعنا البشرى وصياغتها صياغة كاملة تتجلى فيها الإرادة والقصد ، كان شيئاً جديداً فى تطور الإنسانية . فكان البشر حتى ذلك الحين يعيشون بالتقاليد

---

(١) اليوتوبيا (utopia) أو الطوبى : كتاب يدعو إلى المدينة المثالية الفاضلة . (المترجم)

المتوارثة فى خشية من الآلهة . وها نحن الآن حيال رجل يقول للناس فى جرأة، وكأنما قوله هذا أمر طبيعى معقول : « تناولوا حياتكم بالبحث فإنكم تستطيعون أن تجتنبوا معظم تلك الأشياء التى تؤلمكم وإنكم لتستطيعون أن تلقوا عن كواهلكم نير معظم الأشياء التى تتسلط عليكم ، بل وإنكم لتستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون » .

وهناك شيء آخر ربما كان له — بالإضافة إلى منازعات ذلك العصر — الفضل فى استثارة عقل أفلاطون فى ذلك الاتجاه . فإن أثينا كانت أسست فى أيام بريكليس مستقرات كثيرة وراء البحار ؛ وكانت إقامة هذه المستقرات مما قرب إلى أذهان الناس كافة الفكرة القائلة بأنه لا حاجة بالمجتمع إلى النمو ، بل إن فى الإمكان خلقه وصنعه بأيدينا .

وكان بين خلطاء أفلاطون المقربين فتى أحدث منه سناً . أدار فيما بعد مدرسة فى أثينا ؛ وعاش عمراً يكاد يربى على عمره . هذا الفتى هو إيزوقراطيس (إيزوقراط) . وفى استطاعتنا أن نعد إيزوقراطيس هذا صحفياً وأن نعتبره كاتباً أكثر منه خطيباً . وقد اختص بمناصرة فكرة هيرودوت التى تنادى بتوحيد بلاد الإغريق ضد الإمبراطورية الفارسية واتخاذ ذلك علاجاً لما تفشى فى شئونها السياسية من اتضاع وفوضى ، ولما منيت به من الخسارة من جراء الحروب الطاحنة . وكان أفقه السياسى أرحب من بعض النواحى من أفق أفلاطون . وكان يتطلع فى سنيه الأخيرة إلى الملكية ، وعلى الأخص ملكية فيليب المقدونى ، بوصفها وسيلة لحكومة أكثر توحيداً للشعب أو أكثر اتساعاً من ديمقراطيات المدن . وكذلك اتجهت نفس زينوفون صاحب كتاب « الصعود » إلى التفكير فى الملكية . وكتب زينوفون وقد علت به السن قصة « الكيروپيديا Cyropeadia » وهو دفاع وتزكية نظرية وعملية تدعمها البراهين للملكية المطلقة التى تتجلى فى تنظيم الإمبراطورية الفارسية » .

---

(١) « الكيروپيديا » كتاب من تصنيف زينوفون كتبه على شكل قصة سياسية اعتمد فيها على تاريخ ملك الفرس قورش . (المترجم) .

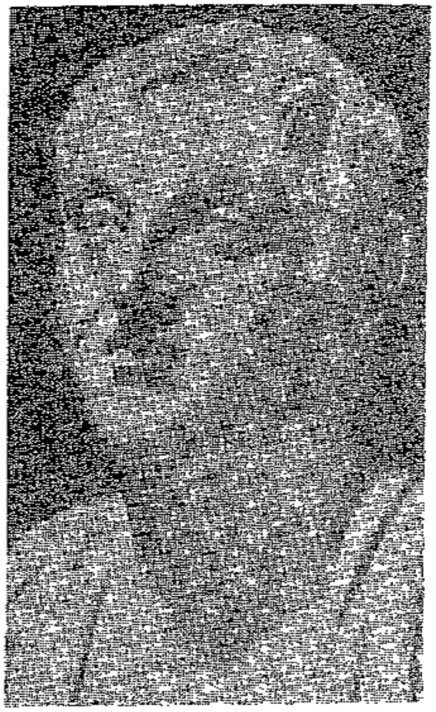
٤ — أرسطاطاليس والليسيوم

كان أفلاطون يعلم الناس فى الأكاديمية وقد وفد عليه وهو فى سن عالية فتى وسيم الطلعة قدم من استاجيرا فى مقدونيا ، هو أرسطاطاليس (أرسطو) ابن طبيب ملك مقدونيا ، وهو رجل له عقلية صيغت من معدن مختلف جداً عن عقلية ذلك الأثينى العظيم أفلاطون. وكان بطبعه ذا شكوك فى الإرادة التخيلية . وكان يكن عظيم الاحترام والفهم للحقائق الثابتة . وقد أنشأ بعد وفاة أفلاطون مدرسة فى الليسيوم[1] بأثينا ، وأخذ يعلم الناس منتقداً أفلاطون وسقراط فى شىء من العنف . وبينما هو يلقى تعاليمه كان شبح الإسكندر الأكبر يلقى ظلاله مخيما على حرية بلاد الإغريق . وكان يحبذ وجود الرق ونظام الملوك الدستوريين . ذلك أنه اشتغل حيناً من الدهر قبل ذلك مربياً للإسكندر فى بلاط فيليب المقدونى .

وكان الجزع قد استولى على النابهين من الرجال فى تلك الأيام ، إذ أن إيمانهم بقدرة الناس على صوغ ظروفهم الخاصة فى الحياة أخذ يتناقص ويفتر . فلم تعد تظهر بين ظهرانيهم أية يوتوبيا . وتبين لهم بجلاء أن اندفاع الحوادث وتتابعها كان من القوة بحيث لا تستطيع أن تصده تلك الجهود المنظمة التى كان فى الوسع أن ينفقها حينذاك ذوو الذكاء الممتاز من الرجال . فقد كان من المستطاع التفكير فى إعادة صوغ الجماعة البشرية حين كانت الجماعة البشرية مدينة صغيرة تضم بضع آلاف من المواطنين . على أن ما كان يحدث من حولهم من أحداث كان طوفاناً عظيما لا سبيل إلى دفعه ، هدفه صوغ شئون العالم المعروف كله فى قالب سياسى ومعها شئون جمهور من الناس لا بد أن عدده بلغ حتى فى تلك الأيام حداً يتراوح بين الخمسين والمئة مليون . وكانت عملية إعادة الصوغ هذه على مقياس لم يكن أى عقل إنسانى مهيئاً بعد لإدراكه . فكانت من ثم تدفع الفكر أدراجه إلى فكرة « القضاء والقدر » الهائل المحتوم . وصار الناس يحاولون التشبث بكل ما يخالونه عامل ترابط واستقرار . فقد كانت الملكية مثلا رغم ما يشوبها من رذائل

---

(١) أو اللوقيون : كما وردت فى الموسوعة العربية الميسرة . (المترجم)



٧٦ – أرسطاطاليس

ظاهرة — نظاماً للحكم فى وسع الملايين قبوله عقلا . وكثيراً ما وضعت من قبل موضع التنفيذ والاختبار إلى مدى معين . كانت تفرض إرادة حاكمة ، حيث تتجلى استحالة وجــود الإرادة الحشدية (الجماعية) . فهذا التغير الذى لحق مزاج الناس الفكرى عامة . كان يتسق مع احترام أرسطو الطبيعى للحقائق القائمة . فلئن جعله من ناحية يستصوب الملكية والرق وإخضاع النســاء بوصفها كلها نظماً معقولة ، فإنه جعـــله من الناحية الأخرى تواقاً إلى فهم الحقيقة والحصول على طرف من المعرفة المنظمة عن هذه الحقائق ، حقائق الطبيعة والفطرة البشرية التى كانت آنذاك فى حالة انتصار بيّن على ما ساور الجيل من أحلام خلاقة .

وأرسطو سليم العقل ناصع الذهن واضح إلى حد رهيب . وتعوزه الحماسة المضحية بالنفس إعوازاً رهيباً . فهو يناقش أفلاطون منكراً عليــه دأبه على استبعاد الشعراء من مدينته الفاضلة اليوتوبيا ، ذلك أن الشعر قوة . وهو يوجه كل قوته فى اتجاه يضاد على خط مستقيم تحقير سقراط لشخص أناكساجوراس . وكأنى به توقعاً يمهد السبيل لباكون (Bacon) والحركة العلمية العصرية ويبشر بهما فى إدراكه لأهمية المعرفة المنظمة . ذلك أنه نصب نفسه للقيام بواجب جمع المعرفة وتدوينها ، فكان أول عالم بالتاريخ الطبيعى . أجل إن رجالا آخرين من قبله طالما أمعنوا النظر فى طبيعة الأشياء . على أنه هو وكل شاب استطاع ضمه إليه أخذوا أنفسهم بتصنيف الأشياء ومقارنتها .

أجل إن أفلاطون يقول « فلنتناول الحياة ولنَصغها فى قالب جديد » . أما خليفته هذا الأثبت جناناً فيقول « علينا قبل كل شىء أن نزيد فى معرفتنا بالحياة وعلينا فى الوقت نفسه أن نخدم الملك وننتفع به » . ولم يكن فى ذلك القول مناقضة منه لأستاذه قدر ما كان تحديداً شديداً لآرائه .

تمكن أرسطو بفضل العلاقة الخاصة بينه وبين الإسكندر الأكبر من الحصول على موارد مالية لعمله لم تتهيأ بعد ذلك لباحث علمى مدى عصور طويلة . إذ كان تحت تصرفه مئات من التالنتات الذهبيــة (والتالنت يقارب فى القيمة ٢٤٠ جنيهاً) — يستطيع أن ينفقها فى أغراضه الخاصة . وجاء زمان كان تحت تصرفه ألف رجل متناثرين فى أرجاء آسيا وبلاد الإغريق يجمعون المواد لتاريخه الطبيعى . وبديهى أنهم كانوا مشاهدين تعوزهم الدربة تماماً ، بل كانوا جامعى أقاصيص أكثر منهم مشاهدين ، ولكن أحداً لم يحاول قبله على مدى الدهر شيئاً من هذا القبيل ، بل لم يفكر فيه قبل زمانه أحد قط ، على قدر ما وصل إليه علمنا . وابتدأ علم السياسة كما ابتدأ علم التاريخ الطبيعى . فان طلاب الليسيوم قاموا تحت إشرافه بتحليل مئة وثمانية وخمسين دستوراً سياســياً .

وكان هذا أول بارقة للبحث العلمى المنظم فى العالم . ولكن تلك الهبات ذات النطاق الضخم قضت عليها لمدة ألفين من السنين وفاة الإسكندر المبكرة وتقسيم إمبراطوريته وهى بعد فى المهد . ولم يتواصل البحث العلمى إلا فى مصر بمتحف الإسكندرية[1]، ولم يستمر هذا إلا بضع أجيال قليلة وسنحدثك عن ذلك من فورنا . ولم تمض على وفاة أرسطو خمسون سنة حتى تضاءلت الليسيوم وأصبحت غير ذات شأن .

٥ — الفلسفة تصبح غير دنيوية

لم يكن الاتجاه العام للحركة الفكرية فى السنين التى ختم بها القرن الرابع ق . م يساير أرسطو ، ولا كان يهدف إلى التجميع الضرورى المتــواصل

---

(١) ذلك المتحف هـ الأكاديمية المشهورة . (المترجم)

للمعرفة المنظمة . وربما لم يتهيأ لأرسطو أن يكون لنفسه غير شخصية ضئيلة فى التاريخ الفكرى لولا تلك الهبات التى كان يتلقاها من الملك . فإنه استطاع بفضلها أن يبرز ذكاءه الباهر فى صورة مادية ويجعل له أثراً محسوساً . فالرجل العادى يفضل الطرق السهلة ما دام فى استطاعته سلوكها ، وهو لا يكاد يأبه متعمداً بمـا تنتهى به تلك الطرق آخر الأمر حتى ولو أدت به إلى طريق مغلق . ولما أن وجد عامة معلمى الفلسفة أن تيار الحوادث أقوى من أن يستطيعوا ضبطه على الفور ، انصرفوا فى تلك الأيام عن إعداد خطط المدن النموذجية وتخطيط المناهج الجديدة للحياة ، وتحوّلوا إلى إتقان أساليب التهرب الجميلة التى تبعث العزاء والسلوى إلى النفوس .

وربما كان فى هذا القول ضرب من وضع الأشياء فى صورة خشنة فيها شىء من التجنى . والأولى أن نترك المجال للأستاذ جلبرت موراى ليحدثنا عن هذا الموضوع .

« لم يكن الكلبيون يعنون إلا بالفضيلة وعلاقة الروح بالرب . وكان العالم وعلومه ، ومراتب الشرف فيـه فى نظرهم خَبَثاً . وكان الرواقيـون والأبيقوريون ، وإن تباعدت الشقة بينهما لأول نظرة ، متشابهين جد التشابه فى غايتهم القصوى ، وكان ما يعنيان به حقاً هو علم الأخلاق . وكان سؤالهما العملى : كيف يجب أن ينظم الإنسان حياته ؟ وكلاهما ، لا جرم ، قد انصرف إلى بعض العلوم — فاتجه الأبيقوريون إلى الفوزيقى أو علم الطبيعة ، واتجه الرواقيون إلى المنطق وعلم البيان والبلاغة — ولكن بوصفها وسيلة توصـل إلى غاية . وحاول الرواقيون أن يفوزوا بقلوب الناس واقتناعهم بمحض اللباقة فى الجدل المجرد والتسامى البراق المتألق بالفكرة والعبارة . ووطـد الأبيقوريون العزم على أن يتركوا الإنسانية تشق طريقها دون الزلفى لآلهـة متقلبة الأهواء ودون التضحية بالإرادة الحرة . ويلخص أبيقور إنجيله فى مبادئ أربعة : « لا يجوز الخوف من الله . لا يمكن الشعور بالموت . يمكن الفوز بالخير . يمكن احتمال كل ما نخشاه والتغلب عليه » .

وفى نفس الوقت كان تيار الحوادث ينساب فى مجراه مبادلا الفلسفة عدم اهتمام بعدم اهتمام .

٦ – نوع الفكر الإغريقى وتحديداته

إذا أريد للدراسات الإغريقية القديمة أن تقرأ فى العصر الحديث قراءة مجدية ، وجب أن تقرأ بوصفها من تصنيف رجال يماثلوننا . وينبغى لنا أن نضع موضع الاعتبار تقاليدهم والفرص التى هيئت لهم والقيود التى حدت من جهودهم . ذلك أن الفطرة الإنسانية تنزع دوماً إلى المبالغة فى كل شعور بالإعجاب . ومعظم النصوص القديمة لدينا مهرأة مشوهة إلى حد كبير ، وكلها فى الأصل من عمل مخلوقات إنسانية اكتنفتها المصاعب وكانت تعيش فى زمان يحوطها فيه من ظلمات الأفق وضيق حدوده ما يجعل زماننا بالقياس إليه زمناً وضاء يكاد سنا ضيائه يخطف الأبصار . فكل ما سنفقده من احترامنا لهم فيما ستشهد وشيكاً من معالجة خالية من الكلفة ، ستعوضه بالعطف على تلك المجموعة من العقول المضطربة القلقة العصرية الروح . ذلك أن الكتاب الأثينيين كانوا — لا جرم — أول الرجال العصريين . فكانوا يتناقشون فى مسائل . يزال نتناقش فيها ، وهم الذين شرعوا يجاهدون فى معالجة المشاكل الكبرى التى تواجهنا اليوم ، وما كتاباتهم إلا مطلع فجر نهارنا .

ويجيد يونج (Jung) فى كتابه « علم نفس اللاشعور Psychology of the Unconscious » خير إجادة ، حين يتكلم عن الفروق بين الفكر القديم (قبل الأثينى) والفكر الحديث . وهو يسمى الأول باسم « التفكير غير الموجه » ويسمى الثانى باسم « التفكير الموجه » وكان الأول تفكيراً بالأخيلة شبيهاً بالأحلام ، بينما الآخر تفكير بالكلمات . وما العلم إلا تنظيم للتفكير الموجه . فأما الروح العتيقة (أعنى قبل المفكرين الإغريق) فقد خلفت الأساطير والرطازات (الميثولوچيا) لا العلم . وكان عالم الإنسان القديم عالم خيالات ذاتية (subjective) يشبه عالم الأطفال والشبان غير المتعلمين فى أيامنا

هذه ، كما يشبه عالم المتوحشين ودنيا الأحلام . وأفكار الطفولة وأحلامها إنما هى ترديد لصدى طرق التفكير عند المتوحشين فى عصر ما قبل التاريخ . ثم يقول يونج : « إن الرطازات هى كتلة الأحلام المتجمعة عند الشعوب ، وإن الأحلام هى رطازات الأفراد . ولقد وجهنا نظر القارئ من قبل إلى التشابه بين آلهة الحضارة الأولى وبين أوهام الأطفال وخيالاتهم الغريبة . وغنى عن البيان أن التفكير الشديد المنظم بواسطة الكلمات والجمل المحللة تحليل عناية ، ذلك التفكير الذى بدأه المفكرون الإغريق ، واستأنف العمل فيه الفلاسفة الذين اشتغلوا بالدرس والتحصيل فى القرون الوسطى — كان تمهيداً ضرورياً لتطور العلم الحديث » .

بدأ الفلاسفة الإغريق البحث بيد أنهم لم يصلوا إلى أية حلول . ولسنا بمستطيعين أن ندعى اليوم أننا وصلنا إلى حلول لمعظم المسائل التى أثاروها . فإن عقل العبرانيين كما أوضحنا آنفاً ، تنبه فجأة إلى التعاسات والاضطرابات اللانهائية التى تنغمس فيها الحياة ، ورأى أن تلك التعاسات والاضطرابات كانت فى معظم أمرها نتيجة للأعمـــال غير المشروعة التى يأتيها البشر ، فاستنتجوا أن الخلاص لا يمكن أن يجىء عن غير طريق إخضاعنا أنفسنا لخدمة الرب الأحد الذى يحكم السموات والأرض . فأما الإغريق فإنه وقد ارتفع إلى نفس المستوى الفكرى ووصل إلى نفس ذلك الإدراك — لم يكن مزوداً بنفس فكرة الألوهية الأبوية ، لأنه كان يعيش فى عالم لم يكن فيه إله واحد بل كان فيه آلهة . فإن حدث أن أحس أن الآلهة أنفسهم كانوا محدودين ، فإنه فكر عند ذلك فى القضاء والقدر يقف من ورائهم جامداً لا يميز بين شخص وآخر . ومن ثم فإنه وضع مشكلته فى صورة بحث عن ماهية العيش الصائب ، دون أى ارتباط محدود بين الرجل الذى يعيش عيشة صائبة وبين إرادة الإله .

وعندى وأنا أنظر إلى الأمر من زاوية تاريخية بحتة ، أن فى الإمكان عرض هذه المشكلة العامة على صورة مزدوجة — خدمة للأغراض التاريخية —

تكون شاملة للطريقتين اللتين صاغها فيهما كل من العبرانيين والإغريق على السواء . فلقد رأينا جنسنا البشرى ينهض من حالة عدم الوعى التى عليها الحيوانات إلى حالة مستمرة من شعور بشرى بالإحساس بالذات ، ويدرك التعاسة التى تعود على البشرية بسبب تعدد أغراضها الأهوج ، ويعرف ما لابد من حدوثه من مأساة انصراف الفرد إلى الجرى وراء نفسه ومصالحه ، وهو يتحسس طريقه فى عماية نحو فكرة ما يرتبط بها الناس ولها يخضعون : فكرة يأمل أن تنقذه من الآلام والحوادث المترتبة على الفردية المحضة . فمن هـذه الفكرات التى ادعت لنفسها الحق فى ولاء الناس لها وظفرت به إلى حين فكرة الآلهة والملك الرب وفكرة القبيلة وفكرة دولة المدينة ، وهى فكرات فقدوا من جرائها أنانيتهم الفردية شيئاً ما ، ولكنهم أفلتوا بفضلها وفروا إلى إدراك حياة أكثر استدامة واستقراراً . ومع ذلك فكما تشهد حروبنا وكوارثنا بأجلى بيان ، ما من واحدة من تلك الفكرات العظيمة بلغت حتى اليوم حد العظم الذى يكفل للناس الوقاية . فان الآلهة فشلت فى حمايتها لهم ، وأثبتت القبيلة على نفسها الدناءة والقساوة ، ونفت دولة المدينة خير أبنائها وأخلص أصدقائها نفياً سياسياً ، وجعل الملك الرب من نفسه وحشاً .

ونحن إذ نقرأ الأدب[١] التأملى (أعنى الفلسفة) فى هذا العصر العظيم للإغريق ، نلمس ثلاثة حواجز أقيمت من حول العقل الإغريقى ، ولم يكد ينجو منها إلا فى النادر ، وإن كنا الآن فيما يحتمل موشكين على الخلاص منها .

فأول هذه القيود هو تشبع العقل الإغريقى بفكرة أن المدينة هى الغـاية القصوى للدولة . ففى عالم تعاقبت فيه إمبراطورية إثر إمبراطورية ، وكانت الواحدة منها أعظم من سابقتها ، وفى عالم كان الناس والفكرات يزدادون تحرراً وتفكك عرى وحرية سراح يوماً بعد يوم ، وفى عالم نزعة التوحيد فيه ظاهرة للعيان حتى فى ذلك الزمان السحيق ، كان الإغريق بسبب ما يكتنفهم من

(١) لفظة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام الذى يعبر عما ظهر فى اللغة من مؤلفات بوجه عام . (المترجم)

ظروف جغرافية وسياسية خاصة لا يزالون يحلمون بذلك الحلم المستحيل الذى يأمل فى وجود « دولة مدينة » متماسكة لا تتطرق إليها المؤثرات الخارجية ، وهى آمنة فى شجاعة من العالم أجمع . وتقدير أفلاطون لعدد المواطنين الأحرار فى الدولة المثلى قد تراوح بين ألف فى كتابه « الجمهورية » وبين ٥٠٤٠ فى كتاب « القوانين » . ويقول أرسطو فى كتابه « السياسة » : « إنه من أجل إقامة العدل إقامة صحيحة ومن أجل توزيع السلطة ، يجب أن يتعرف كل مواطن أخلاق أخيه ، بحيث أنه إذا تعذر تنفيذ هذا فى مكان ما ، نجم عنه الشيء الكثير من الضرر والشر فى ناحيتى مباشرة السلطات وتوزيع العدالة . فليس من العدل أن نفصل فى الأمور بطريقة تعسفية ، وهو الوضع الذى لا مفر منه فى حالة وجود العدد الوفير من السكان » . فهذا النوع من الدولة المحصورة النطاق التى فصلنا معالمها على هذه الشاكلة كان عليها أن تخوض الحرب وأن تحافظ على كيانها من غائلة المدائن الأخرى التى فى مثل حجمها . وكان هذا كله ولما يمض غير جيلين اثنين على اجتياز جموع إجزرسيس معبرة الهلسپونت .

وكأنى بهؤلاء الإغريق وقد زعموا أن أيام الإمبراطوريات العالمية ولت إلى الأبد . على حين لم تكن تلك الإمبراطوريات بعد إلا فى مرحلة الابتداء وأقصى ما وصلت إليه أذهانهم هو المحالفات والأحلاف . ولا مراء أن بلاط إجزرسيس كان به رجال يتجاوز تفكيرهم إلى أبعد حد دائرة هذه الأفكار الصغيرة المحصورة فى نطاق الحور الصخرى أو الجزيرة المنعزلة أو الوادى المحوط بالجبال . على أن الحاجة إلى الاتحاد ضد القوى العظمى التى كانت تتحرك خارج نطاق العالم الناطق بالإغريقية ، قد تجاهلها العقل الإغريقى عمداً . فإن هؤلاء الأجانب كانوا فى نظرهم برابرة وهمجاً ، لا يجوز التفكير فيهم تفكيراً ليس إليه ضرورة . وها قد حال الآن بينهم وبين بلاد الإغريق حاجز أبدى لا يزول . فكان الواحد منهم يقبل النقود الفارسية ، بل كان الجميع يقبلون تناول تلك النقود الفارسية . فأى ضير فى ذلك ؟ أو

ينضوى ردحاً من الزمان تحت لواء جيوشهم (كما فعل زينوفون) مؤملا أن يسعده الحظ باصطياد أسير غنى . وتدخلت أثينا فى الشئون المصرية فناصرت مصر ، وأشبّت نار حروب قليلة الأهمية ضد فارس . ولكن لم تكن هناك فكرة تدعو إلى سياسة موحدة ، أو تهدف إلى مستقبل مشترك لبلاد الإغريق ......

حتى أخذ صوت يصيح فى أثينا آخر الأمر قائلا : « مقدونيا ! » وأن يجلب إجلاب الكلاب صائحاً : « مقدونيا ! » . وكان هذا صوت الخطيب والديماجوج ديموستنيس . وهو يقذف بالتحذيرات والتهديدات ، وينهال بالتهم على فيليب ملك مقدونيا الذى تعلم سياسته لا من أفلاطون وأرسطو فحسب ، بل من إيزوقراط وزينوفون كذلك ، ومن بابل وسوسا ، والذى كان يعد أهبته فى هدوء ومقدرة وثبات للسيطرة على كل بلاد الإغريق ، وليستطيع بوساطة الإغريق أن يغزو العالم المعروف .

وثمة أمر آخر شل العقل الإغريقى وهو نظام الرق المنزلى : إذ كان الاسترقاق أمراً مسلماً به متغلغلا فى الحياة الإغريقية .

فلم يكن الناس يستطيعون أن يتصوروا الراحة أو الكرامة والمهابة من غير وجود الرقيق . على أن الرق يحول دون عطف الإنسان ، لا عن طبقة من إخوانه فى الوطن فحسب ، بل يضع مالك الرقيق فى طبقة وهيئة مضادة لكل غريب ، وذلك لشعور الفرد بأنه من قبيلة مختارة . ولو أن أفلاطون استجاب لما يدفعه إليه ذهنه الصافى وسلامة روحه النبيلة من تجاوز أوضاع حاضره ، لألغى الرق . وكان الشىء الكثير من شعور الرأى العام وألوان الكوميديا الحديدة معادياً للرق . وكان الرواقيون والأبيقوريون ، وجلهم من العبدان يتهمون الرق بأنه نظام غير طبيعى . على أنهم لما أن وجدوه من القوة بحيث لا يستطيعون القضاء عليه ، قالوا إنه لا يؤثر فى الروح وأن فى الإمكان تجاهله وأن العاقل لا يفرق بين من هو مقيد ومن هو حر . فأما أرسطو الواقعى ومعظم

الرجال العمليين فيما يرجح ، فكانوا يرون أن إلغاءه أمر لايمكن تصوره . ولذا صرحوا بأن من الناس من هو « عبد بالفطرة » .

وأخيراً كان يعوق الفكر الإغريقي افتقاره إلى المعرفة افتقاراً لا نكاد نتصوره اليوم . إذ لم يكن لدى الإغريق أية معرفة البتة بماضى البشرية . وهم قوم كان كل ما لديهم فى أحسن الأحوال بضع تخمينات تنم عن فكر صائب . ولم تكن معرفتهم بالجغرافيا تتعدى دائرة حوض البحر المتوسط وحدود فارس . ونحن ندرى اليوم ما كان يجرى فى سوسا وپرسيبوليس وبابل وممفيس أيام پريكليس أكثر بكثير مما كان يعرفه الإغريقى نفسه . وكانت آراؤهم الفلكية ما تزال فى حالة تأملات وتخمينات بدائية . ولقد كان أناكساجوراس عظيم الجرأة حين زعم أن الشمس والقمر كرتان هائلتان ، يبلغ من ضخامتهما أن الشمس كانت فيما يرجح « قدر الپيلوپونيز[1] بأجمعها حجماً » . وكانت آراؤهم فى الفوزيقى والكيمياء نتيجة للتأمل العميق . ومن عجب أنه كانت لهم بالفعل تخمينات عن التركيب الذرّى .

ولا بد للإنسان أن يتذكر إعوازهم الشديد فى الأجهزة التجريبية . وقد لونوا الزجاج للزينة ، ولكنه ليس بالزجاج الصافى . وليس لديهم وسيلة دقيقة لقياس فترات الزمن الصغرى ، ولا أى ترقيم عددى يتسم بالكفاية الحقة ، ولا أى مقاييس شديدة الضبط ، ولا أى مبادئ أولية للتلسكوب أو الميكروسكوب . فلو دفع عالم عصرى إلى أثينا فى زمن پريكليس لوجد أقصى الصعوبة فى شرح عناصر علمه مهما عمد إلى التبسيط للرجال الذين كان يلتقى بهم هناك ، فعندئذ يضطره الحال إذن أن يعد أبسط الأجهزة فى ظروف غير ملائمة تماماً . على حين يتصدى سقراط لتبيان مبلغ سخافة البحث عن « الحقيقة » بقطع من الخشب والخيط والمعدن أمثال تلك التى يستعملها

---

(١) الپيلوپونيز : هى شبه الجزيرة اليونانية المكونة من عدة أشباه جزائر تتخللها الخلجان والمسماة فى التاريخ الحديث باسم شبه جزيرة المورة ، وتنسب إليها تلك الحرب الطاحنة التى نشبت ٤٣١ — ٤٠٤ ق.م. بين إسپرطة وأثينا . (المترجم)

الصغار فى صيد السمك . والفيلسوف يترفع عن الصانع ترفعاً أبعد يده من أن تصل إلى أى جهاز . وما كان أى سيد إغريقى ليقبل أن يدقدق فى الزجاج أو المعدن . ولم يكن بد لأستاذ العلوم العصرى المذكور من التعرض للمحاكمة بتهمة الزندقة والإلحاد . فلم تكن ديمقراطية أثينا لتتسامح مع « دارون » إلا بالقدر الضئيل الذى تسامحت به معه ديمقراطية مقاطعة تنسى (Tennessee) (بالولايات المتحدة) .

وينتهل عالمنا اليوم من أكداس هائلة نسبياً من المعرفة بالحقائق . فأما فى أيام بريكليس فإن الحجر الأول من صرحنا العلمى الهائل نسبياً — ذلك الصرح المشيد من مواد مدونة ومثبتة بالبرهان — لم يكد يوضع فى مكانه بعد . فإذا تأملنا هذا الفارق ، لم يعد عجيباً لدينا أن الإغريق مع كل ميلهم للتأمل السياسى كانوا صماً وعمياناً عن تقلقل مدنيتهم وعدم أمنتها من الخارج والداخل ، وعن ضرورة الاتحاد بطريقة فعالة وعن اندفاع الحوادث السريع الذى كان مقدراً له أن يأتى على هذه الحريات الأولى التى نعم بها العقل الإنسانى فترة قصيرة الأمد ويحرمه منها عصوراً طويلة .

وليست قيمة هذه الجماعة من متحدثى الإغريق وكتابهم فى النتائج التى حصلوا عليها ، ولكن فى المحاولات التى قاموا بها . وليس فضلهم فى أنهم أجابوا عن الأسئلة ، بل فى أنهم اجترأوا على توجيهها . إذ لم يحدث قط من قبل ، أن تحدى الإنسان عالمه وأسلوب معيشته التى أوجده فيها مولده . ولم يحدث من قبل أنه قال إنه يستطيع أن يغير الظروف المحيطة به ، لأن التقاليد والضرورة كما تبدو له — ربطته بالحياة كما وجدها مشتدة العود متمركزة فى قبيلته منذ أزمان سحيقة القدم . ولقد كان حتى ذلك الحين يتقبل العالم ، كما لا يزال الأطفال يتقبلون المنازل والعادات التى ينشأون عليها .

هكذا تتبين لنا بغاية الوضوح إبان القرنين الخامس والرابع ق . م بأرض اليهودية (Judea) وأثينا — وإن لم يقتصر الأمر على هذين المركزين بأى

حال — بدايات لعملية خلقية وفكرية عند الجنس البشرى قوامها مناشــدة الناس البر والصلاح ، ومناشدتهم الصدق والحق ، والإقلاع عن الشهوات والارتباكات وعن المظاهر المباشرة للوجود . وكأنى بذلك عملية بزوغ فجر الشعور بالمسئولية فى صدر أحد الشبان حين يكتشف فجأة أن الحياة لا هى باليسيرة ولا هى بالخالية من الهدف . فالجنس البشرى فى تقدم مستمر ، وظلت خيوط بقية التاريخ على مر عشرين وثلاثة من القرون تنتسج ســـدى ولحمة بانتشار تلك الفكرات الأساسية المسيطرة ووضعها فى القالب الأوضح بياناً والأشد تأثيراً . أخذ الناس على مهل يفهمون شيئاً فشيئاً حقيقة الأخوة الإنسانية ، وأن لا داعى للحروب والقساوات والتعسف ، ويفهمون ما يكمن وراء الهدف المشترك من إمكانيات بالنسبة لكل جنسنا البشرى . وإنك لتشهد فى كل جيل جاء بعد ذلك ما يدل على وجود رجال ينشدون ذلك النظام الأفضل الذى يشعرون أنه لابد لعالمنا من الوصول إليه

على أنك لو تأملت الناس فى كل مكان وحيثما تملكت الأفكار البنّاءة العظيمة زمام أى إنسان ، لشهدت المطامع الحادة والحسد والريبة والشبهات والجزع التى تنضح بها طبيعة كل فرد منا — فى نضال وكفاح ضد ما يجيش فى صدورنا من السعى إلى تحقيق غايات وأهداف أكبر وأوسع مدى . وكأن القرون الثلاثة والعشرين الأخيرة من التاريخ مجهود فرد مخلد متعجل يروم استباق الحوادث ، ويريد أن يفكر تفكيراً صافياً ويعيش عيشاً صالحاً . ويعقب الزلل الزلل ، وتنتهى البدايات المبشرة بالخير بخيبات أمل شوهاء تدعو إلى السخرية ، بينما ينابيع ماء الحياة يسممها الكوب الذى يحملها إلى شفاه الجنس البشرى المتلهفة عطشاً . بيد أن أمل الرجال لا يلبث أن ينتعش ثانية آخر الأمر إثر كل كارثة ملمة ...

٧ — أول أدب خائل عظيم

سبق أن أشرنا فى هذه « المعالم » إلى أن تطور الأدب كان لابد له من

انتظار تطور طريقة للكتابة تبلغ من المرونة حداً يؤهلها لنقل اتجاهات التعبير ومراميه وجمال الأصوات . وما كان الأدب المكتوب ليستطيع قبل هذا الزمان أن ينقل غير المعانى . فإن الشعوب الآرية الأولى ، كان لها كما أسلفنا ، أدب شعرى موزون محفوظ فى الصدور قبل أن عرفت الكتابة . فكانت لهم أغنيات المنشدين والشعراء المتجولين وأقاصيصهم وتواريخهم ونواميسهم الأخلاقية تحفظها طبقة اجتماعية خاصة ، هى الشعراء . ولم تصبح هذه المقتنيات المتواترة ثابتة حتى دونت فى أثبات[1] . ويبدو أن الملحمتين الإغريقيتين الرئيسيتين وهما « الإلياذة والأوديسيا » دونتا فى ثبت مكتوب حوالى سنة ٧٠٠ ق . م ، وكلتاهما مكتوبة باللغة الإغريقية ذات اللهجة الأيونية . ويقال إن « بيزستراتوس » هو الذى بدأ فى جمع القصائد الهومرية ، وكان لهذه الملاحم روايات متنوعة كثيرة . ولم يستقر النص الموجود الآن إلا فى القرن الثانى ق . م ، وهناك ملاحم أخرى لا تخرج عن ذيول وإطنابات « للإلياذة والأوديسيا » . هذا إلى قصص مغامرات منفصلة كادت اليوم أن تبيد تماماً .

وكان الإغريق عامة مجمعين على أن « الإلياذة والأوديسيا » من عمل شاعر واحد هو « هوميروس » . وهو رجل تقول الروايات إنه ولد فى سبع مدن مختلفة ، وفى تواريخ متباينة تتراوح بين ١١٠٠ ، ٨٠٠ ق . م ولا يجمع التواتر إلا على حقيقة واحدة فقط ، هى أنه كان ضريراً . وكانت هاتان الملحمتان تنزلان من قلوب الإغريق منزلة الحب والاحترام إلى حد أنه لم يحدث حتى القرن الثانى ق . م ، أن واحداً من الإغريق لاحظ الحقيقة الظاهرة ، حتى فى الترجمات نفسها ، وهى أن هذين المؤلفين العظيمين مختلفان تماماً فى الروح والأسلوب والنوع ، اختلاف صوت البوق عن صوت الناى . ولكن كما كان من المقبول لديهم عقلا أن يولد هوميروس فى أمكنة متعددة على مثل هذا المجال المتباعد ويمثل هذا المدى الزمنى المديد ، لم يكن فى امتلاكه

---

(١) الأثبات جمع ثبت وهو السجل الذى يدون فيه . (المترجم)

لعقلين وصوتين في وقت معاً ما يزيد ماله من تفرد بالعجائب والمعجزات إلا قليلا ! هذه مباحث تخص دارس الأدب القديم . فهو وحده الذى يستطيع أن يقدر هذه المؤلفات حق قدرها . وهو يؤكد لنا أن لها من الروعة والجمال والحكمة وحسن النغم والإيقاع ما لا تستطيع أن تنقله إلينا أية ترجمة . وما من ترجمة يمكن أن تنقل شيئاً يبرر نشوة العلماء وطربهم لهذه الدرر النفيسة الأولى فى الأدب الأوربى . فإن ضرباً معيناً من الإملال يتسرب إلى عمل كل مترجم كما يتسلل إليه ضرب معين من التفاهة ، بل إن الألحان الإغريقية الرائعة البهجة لتبدو للأذن حين يرتلها عشاقها المتحمسون لها على مسامع غير المثقفين من المتشككين المرتابين سقيمة الجرس نابية النغم تذكرنا بتلك الأصوات الكريهة التى تصدر عن أجهزة الماء الساخن المختلة . ومع كل هذا فإن هذه الملاحم تحوى الشىء الكثير من الجمال والإمتاع . وهى مشوبة بشىء لذيذ من الروح الصبيانية ، وفيها لمحات بارقة بأشد المشاعر حدة ، وأشد الملاحظات نصوعاً وإشراقاً . ومن الأسف أن الدارسين المعجبين الذين يتحدثون عنها بأنها شىء رفيع سام لا يلحق ولا يدانى وما إلى ذلك من قول ، يسرفون فى القول إسرافاً مضحكاً جلب عليها إهمال القارئ العادى الذى أرهبه الفزع منها .

وإلى جوار اسم هوميروس يذكر التاريخ اسم هسيود الذى كان على الأرجح شخصاً حقيقياً . وتاريخ ميلاده معروف فى مدى قرنين هما القرن التاسع والسابع ق . م . وملحمتاه وهما « الأعمال والأيام » ثم « البحث فى منشأ الآلهة » تخلد إحداهما الشىء الكثير من حياة الفلاح البوءوتى وكدحه ، وتبقى لنا الأخرى ما تواتر من الأخبار الجارية عن أصول آلهة الإغريق ، وعلاقاتها بعضها ببعض .

وكان شعر الملاحم فى بلاد الإغريق أساس كل ضروب الشعر الأخرى ، وانقضت قرون عدة لم يكن القوم يعنون أثناءها إلا بهذا الشعر . فهو الشعر الآرى الأصلى ، ثم ظهرت أنواع أخرى بأعيانها . فكان هناك شعر المراثى

وهو لطيف رقيق ، ويغنَّى بمصاحبة موسيقى الناى الليدى ، والشعر الغنائى وهو يغنى إلى الكنّارة ذات السبعة الأوتار . ومن المستحيل التوسع فى الكلام عن هذه الأشكال والضروب هاهنا . ومن العبث أيضاً أن نسرد لك أسماء الشعراء دون بعض الإشارة إلى طبيعة أشعارهم وكنهها . ولا يمكن أن يكون لاسمىْ پندار (Pindar) وسيمونيدس (Simonides) معنى إلا عند أولئك الذين يستطيعون أن يخصصوا قدراً كافياً من وقتهم إلى ما يزال فى متناول الأيدى من مؤلفاتهما . وربما جاز لنا أن نذكر الآن أن من بين أعظم شعراء الغزل الأولين ببلاد الإغريق امرأة هى سافو (Sappho) من أهل لسبوس .

وقد ابتدأت الدراما[1] المكتوبة مثلما ابتدأ الشعر المكتوب فى العالم الإغريقى. فنشأت المسرحية بوصفها جزءاً من الاحتفال الدورى لديونيسوس (Dionysus) إله الخمر . وكان الاحتفال فى الأصل أغنية جماعية يرتلها جوقة تشيد بأعمال الإله . ثم يتقدم قائد الجوقة وهو (الكوريفيوس) (corypheus) وينشد وحده وتجيبه الجوقة . ثم أدخل إيسكيلوس (Aeschylus) (المولود سنة ٥٢٥ ق.م) ممثلا ثانيا ، كان يتقدم عن الجماعة ويجيب الأول . وأخيراً جاء الممثل الثالث على يد سوفوكليس (Sophocles) (المولود فى ٤٩٥ ق . م) . وتطور الحوار والتمثيل وأصبحت الجوقة فى المحل الثانى من التمثيل . وكانت المسرحيات حتى ذلك الحين تمثل من فوق منصات خشبية . ولكن أخذت دور المسارح تبنى فى القرن السادس . وفى هذا القدر الكفاية فى « معالم تاريخية » كهذه . كذلك يسجل التاريخ أنه لم يكد يمضى قرن واحد ، حتى ظهرت أعظم أيام (الدراما) الإغريقية . وأسماء إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس (Euripides) (المولود سنة ٤٨٠ ق . م) ، هى الأسماء التى بلغت الذروة بالمأساة الإغريقية . ولكنها ليست إلا أسماء مجردة هنا ، لا يمكن أن يكون لها أى مغزى عند القارئ الذى لا يبحث عن مؤلفاتهم — إما فى الأصل أو فى الترجمات الشهيرة الموثوق بها — والذى لا يحاول أن يشهد تمثيل مسرحياتهم .

---

(١) يقصد بالدراما الأدب المسرحى بجميع أنواعه . (المترجم) .

وكان يدارج تطور المأساة وهى الناحية الجدية فى عبادة ديونيسوس شكل آخر للتمثيل أكثر سخراً وتسلية هو الملهاة (الكوميديا) , وكانت الملهاة منذ البداية أكثر مرونة من المأساة . وكانت تمسخ المأساة وتهزأ بها فى بعض الأحايين ، ولكنها فى البعض الآخر ، كانت تتحول إلى صور (إسكتشات) صريحة لطباع الناس وللنواحى المسلية من مظاهر الحياة . وقد ابتدع أرسطوفانيس (Aristophanes) فى القرن الخامس ق . م . خليطاً بهيجاً من الخيال والتهكم السياسى . وكان ميناندر (Menander) بعد ذلك بمئة سنة ، الأستاذ المبرز فى الكوميديا الأخلاقية . وكانت المأساة الإغريقية لوناً موقوتاً ذا طابع شكلى ، وقد تطورت حتى وصلت إلى أقصى إمكانياتها فيما يتجاوز القرن بقليل . على أن الكوميديا لازمة للجماعات البشرية ولا غنى لها عنها . وإنك لتجد التهكم والمحاكاة والكوميديا أنى اجتمع اثنان أو ثلاثة من بنى الإنسان منذ أن ابتدأ ظهور الجماعات الإنسانية . ولم يحدث قط أن وقف بالفعل تيار الكوميديا المكتوبة فى العالم ، منذ أن أمكن تدوين أول محاورة . ولم تبدأ القصة المكتوبة أن تنافس الكوميديا منزلتها من قلوب الناس إلا مع انتشار فن الكتابة . وكانت هناك فى بلاد الإغريق مجموعات من « القصص الصالحة » وما إليها . على أن تطور فن القصة والرواية (Fiction) بوصفها فناً عظيماً كان ينتظر جمهوراً واسع القراءة وينتظر تكاثر الكتب وانتشارها السريع . ومن سوء الطالع أن العدد الأكبر من كل من صنفى التراجيديا والكوميديا الإغريقية باد من العالم مرة أخرى .

وابتدأ الأدب النثرى لأول عهده على صورة التاريخ والمناقشة الجدية . ولعلك تذكر ما أسلفناه عن هيرودوت وما اقتبسناه من مؤلفه فى أول هذا الكتاب . ولسوف يلحظ القارئ أن « أبا التاريخ » زار أثينا زمن بريكليس وأنه عندما كان يصنف كتابه ، كانت المأساة الأثينية قد جاوزت من قبل أوج ذروتها . ثم تكلم ثوسيديدس (Thucydides) بعد ذلك التاريخ فروى

قصة حرب البيلوبونيز . كذلك أشرنا إلى زينوفون ، وكتابه « الصعود » (Anabasis) . وهناك شق هام آخر من الأدب الإغريقي ما يزال باقياً لنا ، وهو الخطب التي دونت عن مختلف الخطباء المفوهين النابهين . وأخيراً يجب أن نشير إلى البيانات النثرية الجدية والجدل النثري الذي يتجلى في الأدب العلمي على نحو ما دونه أرسطو ، وأن نلحظ تحوله إلى حوار مسرحي فني في محاورات أفلاطون . . .

وعلى هذا النحو من الاختصار نسجل هنا ألوان أول أدب عظيم في العالم . وهذا كل ما نستطيع أن نعمله في النطاق الذي تحت تصرفنا . فمن رغب من قراء الإنجليزية في المزيد فليطلبه ومعه قدر وفير من الاقتباسات الموصولة به وصلا يدل على المهارة في كتاب « الإغريق والبرابرة » تأليف ج . ا . ك . تومسون (J.A.K. Thomson) . على أن الطريقة المثلى للإحاطة الحقة بأي أدب ، إنما هي في القراءة الدقيقة لكتب خاصة فيه ومؤلفين معينـــين .

٨ – الفن الإغريقي

لبث العالم الحديث بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر أي قبل اكتشاف فن الشعوب الإيجية السابق على الفن الإغريقي ، وقبل المعـــرفة بالإنتاج الفني الهائل لدى الإمبراطوريات الأولى — يولي فن التشكيل[1] الإغريقي تقديراً لا يتناسب وما أنتجه ذلك الفن . فكان يرتسم وحده في أخيلة الناس ، كأنما هو شيء قفز إلى الوجود من العدم ، وكأنما كان كل ما جاء قبله قبيحاً مرذولا ، وكل شيء جاء بعده سوقياً وضيعاً . ولكم ولّد ذلك الفن في عقول المثقفين طرباً ، يملؤنا اليوم بالعجب أكثر مما يشيع في أنفسنا العطف .

وإنا لنعرف الآن أنه بينما تدل مبتكرات الإغريق الأدبية والفكرية على

---

(١) فن التشكيل (plastic art) هو فن صوغ الأشكال ويطلق على النحت وما شابهه من فنون تمييزاً لها عن التصوير أو الدهان (Painting) وما إليه من فنون الرسم . (المترجم)

بداية مظهر جديد مميز من مظاهر الخبرة الإنسانية ، فإن فن النحت الإغريقى لا يخرج عن كونه حلقة فى تطور المدنيات التى مضت قبله . ذلك أن صوغ الذهب والجواهر والأختام والدمى الصغيرة والزهريات وما إليها مما صنعه الإغريق فى هذا العصر المجيد يضارع تلك التى صنعها السكان الإيجيون السابقون وتلك الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة فى مصر وإن لم يتفوق عليهما . وإن فى فنهم المعمارى لرشاقة وإتقاناً اختص بهما . والظاهرة الغالبة فيه هى مجاميع الأعمدة (Colonade) فى شكلها الوقور النبيل بإكليلها (Capital) الدورى الضخم (Doric) أو منظرها الرشيق بإكليلها الأيونى (Ionic) أو هيئتها الزهرية بإكليلها الكورنثى (Corinthian) . وأصبح العمود الكورنثى بشعبه وتفريعاته فى الأزمنة الرومانية وحدة عالمية فى فن العمارة ؛ وهى وحدة كانت ولا تزال تنبت فى ذلك الفن كالعشب الطفيلى حيثما وجدت فروع المصارف أو الفنادق الفاخرة .

ومهما يكن من شىء فإن فن النحت الإغريقى هو وحده الذى كان علماً على ما يمتاز به ذلك العصر من إبداع . كان فى بادئ الأمر شكلياً متكلفاً ، ثم وصل فيما بين عهدى بيزستراتوس وبريكليس إلى حالة من الحرية والمطابقة للطبيعة لم يسبق لها مثيل . وفى أيام أخناتون اتخذ النحت المصرى اتجاهاً وتحولا نحو اليسر والمسابقة للواقع ، ولكن الناس لم يبلغوا فى فن النحت قبل ذلك درجة يمكن أن تقارن بما بلغه الفن الإغريقى من حرية انطلق فيها سراحه . ويحدثوننا أن معظم النحائت الإغريقية كانت مصبوغة بالأصباغ . فذلك الجمال الخاص الأبيض الصارم الذى أضفت عليه لمسة الموت والكمال نبلا ، والذى يملك علينا الآن مشاعرنا عند ما يواجهنا خير ما تبقى من الإنتاج الإغريقى ، لم يكن جزءاً من غاية الفنان . وكذلك المعابد فإنها على ما بها من خرائب ذات سحر رائع يشبه سحر ضياء القمر ، كما أن لها إبداعاً سمياً وبياً كان ينقصها ولا ريب إبان شبابها الغض البهيج .



٧٧ – ڤينوس

ولسنا نعرف عن فن الرسم والتصوير الإغريقى إلا القليـــل الطفيف . أجل ورد ذكر دررهم اليتيمة ، بيـــد أنها فنيت جميعها . لذا فلسنا نستطيع أن نقضى فيه برأى إلا بسبيل ما نلقاه باقياً منه أيام روما فى عصر الإمبراطورية فى صور تعتـــبر استمراراً لتيار التقاليد الفنيـــة المتدهور والتصـــوير الملون فى مدينتى پمپـــاى ، (Pompeii) وهركولانيوم (Herculaneum) بهيج ممتع تتجلى فيه المهـــارة ، وهو أقرب إلى الطبيعـــة والوثوق بالنفس ، إلى درجة لا تســـمح بمقارنته إلى أى من الإنتـــاج المصرى أو البابلى .

وكانت موسيقى ذلك الزمان عـــاملا ثانوياً وتابعاً مساعداً للأغنيـــة ، وكان يعوزها الانسجام اللحنى (الهارمونى) . ويتحدث الســـير و . ه . هادو (Hadow) عن « قبح نماذج الموسيقى الإغريقية التى ظلت محفوظة وأمكن استجلاء كنهها » .



٧٨ – آنية يونانية

الفصل الثانى والعشرون

سيرة الإسكندر الأكبر

١ – فيليب المقدونى . ٢ – مقتل الملك فيليب .
٣ – أول فتوح الإسكندر . ٤ – تحولات الإسكندر .
٥ – أكان الإسكندر عظيماً حقاً ؟ ٦ – خلفاء الإسكندر .
٧ – برجاموم ملاذاً للثقافة . ٨ – الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية .

---

١ – فيليب المقدونى

ليس البطل الحقيقى فى قصة الإسكندر ، بالإسكندر نفسه قدر ما هو أبوه فيليب. فإن مؤلف التمثيلية لا يتألق فى ضياء المسرح تألق الممثل . ففيليب هو الذى دبر الشيء الكثير من العظمة التى بلغها ابنه ؛ فهو الذى وضع أسسها وصاغ وسائلها وأدواتها وهو الذى أعد فى الحق العدة للبدء فى الحملة الفارسية قبيل وفاته . ولا ريب فى أن فيليب كان واحداً من أعظم الملوك



٧٩ – فيليب المقدونى

الذين شهدهم العالم على كر العصور . وكان رجلا على أقصى غايات الذكاء والكفاية . فأما مجال فكراته فيتجاوز دائرة زمانه تجاوزاً بعيداً فاتخذ من أرسطو صديقاً له . ولا بد أنه تناقش وإياه فى تلك الخطط المرسومة لتنظيم المعرفة الحقة التى قدّر للفيلسوف أن يحققها فيما بعد بواساطة هبات الإسكندر . ويبدو أن فيليب على قدر ما نستطيع أن نجزم ، كان « أمير » أرسطو ومولاه ،

وإليه كان يشخص أرسطو ببصره كما يرفع الرجال بصرهم إلى مقام أولئك الذين يعجبون بهم ويثقون . وإلى فيليپ أيضاً لجأ إيزوقراط بوصفه القائد العظيم الذى كان ينبغى عليه أن يوحد الوطن الإغريقى وأن يسمو بالحياة العامة لدى الإغريق بعد إذ شملتها الفوضى .

ويذكر الكثير من الكتب أن فيليپ كان رجلا اتصف بالاستخفاف إلى درجة لا يصدقها العقل . وكان على شهوات لا ضابط لها . حقاً إنه فى الولائم شأنه شأن كل معاصريه من المقدونيين ، كان يكثر من الشراب ، وكان يغدو فى بعض الأحيان مخموراً ثملا — إذ الراجح أن عدم الإكثار من الشراب فى الولائم كان يعد أمراً غير ودى . ولكن لم يقم دليل ثابت على التهم الأخرى الموجهة إليه . وليس بين أيدينا دليل عليها إلا قدح خصومه من أمثال ديموسثنيز (Demosthenes) ، الديماجوج والخطيب الأثينى ،وهو رجل ذو بيان لا يأبه بالعواقب . وقد يساعدنا اقتباس فقرة أو ما إليها على تبيان إلى أى حد كانت غضبة ديموسثنيز الوطنية تحمله . فهو ينفس عن نفسه فى إحدى « فيليپياته » — كما تسمى تنديداته بفيليپ — على هذا الأسلوب .

« وفيليپ ، ذلك الرجل الذى لا يقتصر أمره على أنه ليس إغريقياً ، ولا يمت بحال ما بصلة إلى الإغريق ، بل ليس هو حتى همجياً من قطر محترم — كلا ، وإنما هو شخص فاسد من مقدونيا ، ذلك القطر الذى لا نستطيع قط أن نحصل منه حتى على عبد لائق » . إلى غير ذلك من المثالب . ونحن نعرف على وجه التحقيق أن المقدونيين كانوا شعباً آرياً شديد القرابة للإغريق ، وأن فيليپ كان فيما يرجح أوسع رجال زمانه علماً . ولكن كانت هذه هى الروح التى كتبت بها القصص المعادية لفيليپ .

ولما آل إلى فيليپ مُلك مقدونيا (٣٥٩ ق.م.) ، كانت بلاده قطراً صغيراً ليس فيه مرفأ على البحر ولا أية مدينة هامة . وكان سكانها جميعاً من الفلاحين ، وتكاد لغتهم أن تكون إغريقية ، هذا إلى أنهم على أتم استعداد

لأن يكونوا إغريقاً في عواطفهم وميولهم ، ولكنهم خلّص في دمهم النوردى أكثر من أى شعب يقع إلى الجنوب منهم . ولقد حوّل فيليپ هذه الدويلة الهمجية الصغيرة إلى دولة عظيمة . وأنشأ أكفأ وأفضل نظام عسكرى رآه العالم حتى ذلك الحين ، وتمكن قبيل وفاته أن يضم شمل غالب بلاد الإغريق في عصبة واحدة بقيادته . على أن قوة تفكيره التى سما بها عن مألوف أفكار زمانه وما اتسم به من صفات خارقة للعادة ، لا تتجلى فى تلك الأمور العظيمة قدر ما تتجلى فى العناية التى جعل المربين يدربون بها ولده حتى يواصل من بعده السياسة التى ابتدعها . فهو واحد من أولئك الملوك القليلين فى التاريخ الذين عنوا بخلفهم . وكان الإسكندر — على صورة لم يصل إليها غير عدد قليل من الملوك فى الدهر كله — ملكاً قد ترّبى تربية خاصة تؤهله لتولى شئون إمبراطورية . ولم يكن أرسطو غير واحد من بين كثير من المربين الأكفاء الذين اختارهم أبوه له . وقد استودعه فيليپ سياسته وولاه الإمرة والحكم عند ما بلغ السادسة عشرة ، فقاد الفرسان فى موقعة خيرونيا (Chaeronea) تحت بصر أبيه فهو قد درب على السلطة تدريباً كريماً لا تشوبه شبهة أو ريبة .

ويتضح لكل من يقرأ تاريخ حياته بعناية ، أن الإسكندر تولى عمله مزوداً بعدة من التدريب ومن الأفكار القيمة التى لم يسبق لها نظير . فلما أن تجاوز حد الحكمة التى أهلته لها تربيته ، أخذ يقع فى الزلل ويظهر ألواناً من سوء السلوك — مع حماقة مروعة فى بعض الأحيان . وتبدت غلبة نقائصه الخلقية على تربيته قبل وفاته بزمن بعيد .

كان فيليپ ملكاً من الطراز القديم ، أى ملكاً قائداً ، وهو المقدم على نبلائه ذوى الطراز النوردى القديم . وكان الجيش الذى أوجده فى مقدونيا يأتلف من حشد عام من الجند المشاة ، وطبقة نبيلة من الفرسان تسمى « بالرفقاء » . وكان الشعب فلاحين وصيادين ، ألفوا بعض الشىء تناول الشراب ، على أنهم كانوا على ستعداد لقبول النظام وتعلم استخدام وسائل

القتال الحسنة . ولئن كان القوم على الفطرة وفيهم سذاجة ، فلقد عُرفت الحكومة بالفطنة واليقظة . وظلت لغة البلاط عدة أجيال هى الإغريقية ذات اللهجة الأتيكية (أى الأثينية) . وبلغ من حضارة البلاط أن كان يؤوى ويرحب بشخصيات عظيمة من أمثال يوريبيديس الذى مات هناك (٤٠٦ق.م) ، وزيوكسيس (Zeuxis) الفنان . وفضلا عن ذلك فإن فيليب قبل ارتقائه العرش ، أقام بضع سنين رهينة فى بلاد الإغريق . وقد نال من التربية والتعليم خير ما يمكن أن تقدمه إليه بلاد الإغريق فى ذلك الزمان ، فكان لذلك ملماً كل الإلمام بما نستطيع أن نسميه فكرة إيزوقراط — وهى فكرة إنشاء اتحاد عظيم للدول الإغريقية فى أوربا للسيطرة على العالم الشرقى . وكان يعرف أيضاً مبلغ عجز الديمقراطية الأثينية بسبب دستورها وتقاليدها عن انتهاز الفرصة الماثلة بين يديها . إذ أنها فرصة لابد له من الإسهام فيها . فأما مغـــزاها لدى الأثينيين أو الإسبرطيين فهو السماح « لعدد جم من الأجانب» بالتمتع بمزايا المواطنية . وإن فى هـــذا لتحقيراً لأنفسهم وإنزالهم إلى حد المساواة والزمالة مع المقدونيين — « وهم شعب لا نحصل منه حتى على عبد لائق » .

ولم تكن هناك أية وسيلة للحصول على إجماع الإغريق على ذلك المشروع الذى أزمع عمله إلا بوساطة القيام بعمل سياسى ثورى . ولم يكن حب السلام هو الذى يمنع الإغريق عن مثل هذه المغامرة ، بل هو تفرقهم وانقسامهم السياسى . وكانت موارد الدول العديدة مستنفدة فى سلسلة من الحروب الطاحنة فيما بينها ، وهى حروب طالما نشبت لأتفه الأسباب ، وزادت الخطب الرنانة فى تلهب أوارها . مثال ذلك أن حراثة الفوكيين (Phocians) لبعض الأرض المقدسة بالقرب من دلفى ، كانت ذريعة انتحلت لإشباب نار حرب دموية مقدسة .

وكرس فيليب سنى حكمه الأولى لتنظيم جيشه . وحتى ذلك الحين ، كان القتال الرئيسى فى أية موقعة يقوم بمعظمه فى أرجاء العالم قاطبة جند المشاة



ش (٨٠) اتساع رقعة مقدونيا فى حكم فيليب

وهم منتظمون فى تشكيلات . وإنا لنرى فى المعارك السومرية السحيقة القدم ، حاملى الرماح فى نظام متراص مكونين كتلة الجيش الرئيسى على نحو ما كان المشاة يفعلون فى جيوش الزولو فى القرن التاسع عشر . وكانت الجيوش الإغريقية فى زمان فيليب لا تزال تحارب على نفس ذلك الأسلوب . وكان الفيلق الطيبى كتلة من المشاة حاملى الرماح تطعن الصفوف الخلفية منها العدو برماح أطول تخترق الصفوف الأمامية . وكانت مثل هذه التشكيلة تستطيع أن تخترق كل ما يعترضها من جيش يكون أقل منها تنظيماً . وكان الفرسان من الناشبة (حاملى القسى) يستطيعون طبعاً أن ينزلوا خسائر جسيمة

بمثل هاته الكتلة من الرجال ، فلما أن استخدم الحصان فى الحرب ظهر الراكبة على كلا الجانبين بوصفهم عاملا ثانوياً مساعداً لهذا الجيش الرئيسى . ويجدر بالقارئ أن يتذكر أن الحصان لم يستخدم بطريقة فعالة تماماً فى حروب الغربيين حتى قيام الآشوريين ، ولم يتجاوز استخدامه فى مبدأ الأمر جر المركبات. وكانت المركبة تطعن بنفسها وبكل قوتها كتلة المشاة محاولة تحطيمها وكان التوفيق حليف المركبات ما لم يكن نظام كتلة المشاة قوياً متيناً . والقتال الذى يصفه شعر هومبروس قتال مركبات . ولا يبدأ ظهور الفرســان كقوة متميزة عن جنود المركبات وقائمة بدور خاص فى خوض المعارك والحروب إلا فى ألف السنة السابقة على الميلاد . ويبدو أنهم كانوا يقاتلون فى مبدأ الأمر متناثرين ، إذ يبلى كل رجل بمفرده أحسن ما يستطيع من بلاء . هكذا حارب الليديون قورش . ولكن يلوح أن فيليب كان أول من استحدث هجوم الفرسان فأمر « رفقاءه » أن يتدربوا على الهجوم حاشدين . كذلك قَوّى فيلقه بتزويد الرجال فى الصفوف الأخيرة برماح أطول مما كان بأيديهم حتى آنذاك . وبذلك زاد فى عدد صفوف فيلقه ولم يكن الفيلق المقدونى إلا مجرد صورة للفيلق الطيبى أقوى تماسكاً وأشد صلابة تَرادف . وإن واحدة من تشكيلات المشاة المحشودة هذه ، لم تكن مرنة مرونة تجعلها تصمد أمام هجوم من الجناح أو الخلف ، فإن قوتها على المداورة (المناورة) طفيفة جداً . ومن ثم كانت انتصارات فيليب وابنه ثمرة اتباعهما — مع شىء من التغيير والتعديل — خطة عامة من التعاون بين هذين السلاحين فيتمدم الفيلق فى الوسط ويشتبك مع جيش العدو الرئيسى . وتجرف هجمات الراكبة على *أحد الجناحين أو الآخر راكبة الأعداء أمامها ، ثم تدور فتنقض على جناح* فيلق العدو ومؤخرته ، بينما يكون الفيلق المقدونى قد أنزل من قبل ضربته على مقدمته . وعند ذلك تتحطم قوى جند العدو الرئيسية وتعمل فيها السيوف عملهـــا . ولما ازدادت خبرة الإسكندر العسكرية ، أضاف كذلك استعمال

المجانيق في الميدان ، وهي أداة كبيرة تقذف الأحجار لتمزيق مشاة العدو . وكانت المجانيق قبل زمانه تستعمل في الحصار ولكنها لم تستعمل في المعارك أبداً . فهو إذن أول من استحدث عملية « التمهيـــد بالمدفعية » .

حتى إذا أيقن فيليب من جدارة هذا الجيش الجديد شرع في استخدامه ، فاتجه بنظره بادئ بدء إلى شمال مقدونيا . فأنفذ الحملات العسكرية إلى إلّيريا (Illyria) وإلى الدانوب ومدّ سلطانه أيضاً على طول الشاطئ حتى الهلسبونت واستولى على ميناء أمفيبوليس (Amphipolis) وبعض مناجم الذهب المجاورة لها . وبعد أن قام بحملات عديدة في تراقيا أخذ يوجه اهتمامه الجدّيّ نحو الجنوب . فنصر قضية الحلف (الأمفكتيوني) الدلفي ضد أولئك الفوكيين الذين انتهكوا حرمة معبد دلفي وبذلك ظهر بمظهر راعي الديانة الهللينية .

ويجدر بنا أن نتذكر أن فريقاً قوياً من الإغريق كان ينادي بالكتلة الهللينية التي تلم شمل الجميع ، مؤيداً زعامة فيليپ للإغريق . وكان رأس كتاب هذه الحركة الداعية للكتلة الهللينية الشاملة هو إيزوقراط . وكانت أثينا من الناحية الأخرى ، على رأس جبهة المعارضة لفيليپ وشيعته . وكانت تربطها بفارس صلات المودة الصريحة ، حتى لقد أرسلت البعوث إلى « الملك العظيم » تحذره الخطر المحدق به من اتحاد بلاد الإغريق . وليس لنا في هذا المجال الضيق من سبيل إلى سرد قصة الغدوات والروحات التي دامت زهاء اثنتي عشرة سنة . وفي ٣٣٨ ق.م. وصل النزاع بين دعاة الانقسام ودعاة الكتلة الهللينية إلى نتيجة حاسمة يوم أوقع فيليپ بأثينا وحلفائها هزيمة منكرة بمعركة خيرونيا . ثم عقد مع أثينا صلحاً منحها شروطاً سخية سخاء يبعث على الدهشـــة . فأظهر نفسه بمظهر العازم عزماً أكيداً على إرضاء تلك المدينة التليدة . وفي ٣٣٨ ق.م. اعترف به مؤتمر من الدول الإغريقية قائداً عاماً في الحرب ضد فارس .

وكان عند ذلك قد بلغ السابعة والأربعين . وكأنما كان العالم مطروحاً

تحت قدميه . إذ جعل مملكته الصغيرة الدولة المزعمة فى اتحاد مقدونى إغريقى شامل وطيد ، وقدر لهذا التوحيد أن يكون مقدمة لتوحيد آخر أعظم منه ، هو توحيد العالم الغربى والإمبراطورية الفارسية فى دولة عالمية واحدة تضم كل الشعوب المعروفة . فمن ذا يستطيع أن يرتاب فى أن هذا الحلم كان يخالج فؤاده ؟ وكتابات إيزوقراط تقنعنا بأنه كان يملأ جوانب نفسه . ومن ذا يستطيع أن ينكر أنه ربما تمكن من تحقيقه ؟ وقد يخالجه أمل معقول فى أن تتــاح له فسحة من الأجل لعلها تبلغ ربع قرن أخرى من الزمن الملىء بالنشــاط . وفى ٣٣٦ ق.م. عبرت جنوده الأمامية إلى آسيا . على أنه لم يلحق بها لا هو ولا كتلة قواته الرئيسية ، إذ أنه قتل غيلة .

٣– مقتل الملك فيليب

من الضرورى الآن أن نلم بطرف من حياة الملك فيليب المنزلية . فإن حياة كل من فيليب وابنه ، كانت تخالطها شخصية امرأة قلقة شريرة لا يستقر لها قرار هى أوليمبياس (Olympias) أم الإسكندر .

كانت ابنة ملك إيبروس (Epirus) القطر الواقع إلى الغرب من مقدونيا ، وهو كمقدونيا ارض شبه إغريقية . التقت بفيليب أو لعلها قذفت فى طريقه فى أحد الاجتماعات الدينية فى ساموترافيا (Samotharce) . ويصرح بلوتارك بأن هذا الزواج كان يقوم على الحب المتبادل . ويبدو أن هذه على الأقل إحدى المآخذ على فيليب ، وهى أنه شأن الكثيرين من الرجال ذوى النشــاط الجم والخيال الرحب كان ميالا إلى هوائج الحب الجامح . تزوجها بعد أن اعتلى العرش ، وولد له الإسكندر بعد ذلك بثلاث سنوات .

ولم يمض طويل زمن حتى دب الخلاف بين فيليب وأوليمبياس عنيفاً مريراً . فإنها كانت تغار منه ، ولكن كان هناك مصدر ثان للمتاعب أشد خطورة من هذا ، هو *شغفها الشديد بالأسرار الدينية ذات الطقوس الخفية* . ولقد بينا من قبل أن ديانة الإغريق النوردية الممتازة ذات النطاق المحدود ،

كانت البلاد غاصة من دونها بنحل وعبادات من نوع أقتم وأقدم ، وهى عقائد أصيلة فى البلاد لها أسرار ومراسيم يلقنها من يمارسها ولها حفلات تهتكية خليعة وكثيراً ما تصحبها طقوس قاسية فاحشة . فعقائد الأشباح هـــذه ، وما كان يمارسه النساء والفلاحون والعبيد من أمور ، هى المصدر الذى تستقى منه بلاد الإغريق معتقداتها الأورفية[1] (Orphic) والديونيسية[2] (Dionysiac) والدميترية[3] (Demeter) . وهى قد كمنت فى ثنايا تقاليد أوربا حتى ما يدانى أزماننا هذه ، وما أعمال السحر فى القرون الوسطى وما بها من لجوء إلى دم الأطفال وإلى أجزاء من أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام والرقى والتعاويذ السحرية إلا المظاهر المتخلفة عن تلك الاحتفالات الدينية لدى البيض الداكنين . وكانت أوليمبياس حاذقة فى هذه الأمور ، خبيرة بها ومتحمسة لها . ويذكر بلوتارك أنها حازت شهرة واسعة لاستخدام الثعابين المستأنسة فى هذه الممارسات والطقوس الورعة !!!! وكانت الحيات تجتاح جناحها المنزلى . ولم يوضح لنا التاريخ هل كان فيليب يجد فيها مادة تثير سخطه أو تبعث فيه الرهبة الدينية ؟!!! ... ولا بد أن أعمال زوجة فيليب هذه كانت مصدر مضايقة خطيرة له ، لأن الشعب المقدونى كان لا يزال فى تلك المرحلة الحاسمة من مراحل التطور الاجتماعى التى لا يستحب فيها التحمس فى الورع والإفراط فى التدين ولا الزوجات العسيرات القياد .

---

(١) أورفيوس : شخصية خرافية لشاعر قبل هوميروس عاش فى تراقيا وصحب الأرجونوتس وهم البحارة الأبطال الذين أبحروا للبحث عن الجزيرة الذهبية (راجع المجلد الأول) . وهبه أبولو قيثارة وعلمته آلهة الفن التاسوعية Muses كيف يلعب عليها وسحرت لسماعه الحيوانات والأشجار والصخور وكانت تتحرك من أماكنها لتستمع إلى قيثارته الذهبية . (المترجم)

(٢) ديونيسوس : إله شاب بهى الطلعة متخنث ، كان يعتبر إله الخمر ويسمى أيضاً باكخوس وهو ابن زيوس . وينسب إلى هذا الإله أنه هو الذى علم الإنسان صناعة النبيذ ؛ والخمر هى رمز فتوته . (المترجم)

(٣) دميتر : هى إحدى الربات العظيمة عند الإغريق هى حامية الزراعة وما تخرجه الأرض من ثمار . ويقال إن مخترع المحراث ومن عرف القمح المبذور هو من أحب الناس إليها . وهى ابنة أخت زيوس . (المترجم)



(٨١)
مقاتل مقدونى
فى عهد فيليب
(عن صورة محفورة من بيلا)

وإن الدلائل على وجود عداوة مريرة بين الوالدة والوالد ، لتبدو لنا من خلال الكثير من الأشياء الصغيرة فى كتب التاريخ . وواضح أنها كانت تغار من فتوح فيليب . إذ كانت تكره له ذيوع الصيت ، وهناك من الشواهد كثير عن أن أوليمپياس كانت تبذل قصارى جهدها لتنفر ابنها من أبيه وتضمه إلى جانبها ضما كاملا . ويروى لنا كتاب (السير لپلوتارك» قصة تقول بأنه كلما وردت الأنباء بانتصار لفيليپ مثل فتح مدينة أو الفوز فى بعض المعارك الكبيرة ، لم يكن يبدو على الإسكندر أى فرح عظيم لسماعها ، بل كان على العكس يقول للداته وأترابه «سيحصل أبى على كل شىء مقدماً يا صبيان . ولن يترك أى عمل عظيم أشرككم معى فيه » .

وليس أمراً طبيعياً أن يحسد ولد أباه على هذه الشاكلة دون بعض الإيحاء . وكأنى بهذه العبارة ترن فى الأذن رنين الصدى المردّد .

ولقد أوضحنا من قبل كم كان تدبير فيليپ لمسألة توليه الإسكندر من بعده أمراً بيناً جلياً للعيان ، وإلى أى حد كان تواقاً إلى جلب الشهرة والسلطان إلى يد الغلام . فكان الأب دائب التفكير فى البناء السياسى الذى يعمل على تشييده — ولكن الأم كانت تفكر فيما تصيبه تلك السيدة العجيبة ، أوليمپياس ، من مجد وكبرياء . ولكنها أخفت كرهها لزوجها وأحاطته بستار من قلق الأم على مستقبل ابنها . ولما تزوج فيليپ ٣٣٧ ق . م . — على عادة الملوك وأسلوبهم فى تلك الأيام — زوجة ثانية مقدونية الأصل إسمها كليوبطرة «وكان يحبها حباً شديداً» أثارت أوليمپياس شيئاً كثيراً من المتاعب .

ويحدثنا پلوتارك عن منظر محزن حدث فى حفل زواج فيليپ من كليوبطرة فلقد عاقر القوم الخمر فى الوليمة ما شاءوا . وإذ كان أتالوس (Attalus) والد

العروس قد ثمل من الشراب ، فإنه كشف النقاب عن تلك العداوة التى كان يكنها الناس عامة لأوليمبياس وإپيروس بقوله : « إنه يأمل أن ينتج ذلك الزواج طفلا يكون وارثاً مقدونياً قحاً للعرش » . وعندها صاح الإسكندر وكان متوثب النفس سائر الأعصاب لمثل هذه الإهانة « فماذا أنا إذن ؟ » ثم قذف أتالوس بكأسه . ونهض فيليپ وقد ثارت ثائرته ، ويقول پلوتارك إنه جرد سيفه ولكنه عثر ووقع . وقام الإسكندر وقد أعماه الحنق والحسد فعيّر أباه وأهانه بقوله : « أيها المقدونيون ، انظروا هاهنا إلى القائد الذى يريد أن يزحف من أوربا إلى آسيا ، كيف ! ؟ ... إنه لا يستطيع أن ينتقل من منضدة إلى أخرى ! » .

فكم لا يزال هذا المنظر حياً عالقاً بالأذهان ، من ارتماء الملك على الأرض والوجوه المحمرة انفعالا وسكراً ، وصوت الغلام الغاضب . وفى اليوم التالى رحل الإسكندر مع أمه — ولم يحاول فيليپ منعهما . وذهبت أوليمپياس إلى وطنها إپيروس — ورحل الإسكندر إلى إلليريا ومن هناك أقنعه فيليپ بالعودة .

ثم لم يلبث أن نشب بينهما شغب جديد فقد كان للإسكندر أخ به ضعف فى قواه العقلية اسمه أريدايوس (Aridaeus)[1] رغب حاكم كاريا الفارسى فى أن يتخذه صهراً له . « هنالك أخذ أصدقاء الإسكندر وأمه يغرونه بأبيه ويبثونه الهواجس من جديد ، وإن لم يكن لها ظل من الحقيقة . مدعين بأن فيليپ بتدبيره هاته الزيجة النبيلة وما يترتب عليها من المساعدة ، كان يرمى إلى إعطاء التاج إلى أريدايوس ، ومن ثم أرسل الإسكندر — وقد أقلقته تلك الشبهات — شخصاً اسمه تسالوس (Thessalus) وهو ممثل مسرحى ، إلى كاريا ليطلب من عظيمها أن يعرض عن أريدايوس غير الشرعى المولد ، والناقص الإدراك ؛ وأن يتخذ وريث التاج الشرعى حليفاً له وصهراً . وبلغ سرور پكسوداروس (Pixodarus) بهذا المقترح أقصى غايته . ولكن

(١) يسمى فى كتب التاريخ التى تتناول ذلك العصر فيليپ أريدايوس (Philip Aridaeus)

لم يكد فيليب يسمع بالخبر ، حتى ذهب إلى جناح الإسكندر مصطحباً معه فيلوتاس (Philotas) ابن پارمنيون (Parmenio) وهو من أشد أصدقائه ورفقائه إخلاصاً ، وعنف الإسكندر بمحضر هذا الصديق على انحطاطه ودناءة روحه فى تفكيره أن يكون ختناً[1] لرجل من كاريا ، هو أحد عبيد ملك همجى . وكتب فى الوقت نفسه إلى الكورنثيين مشدداً عليهم بإرسال تسالوس إليه مكبلا بالقيود . وعمد الملك إلى هارپالوس (Harpalus) ونيارخوس (Niarchus) وفريجيوس (Phrygius) وبطلميوس Ptolemy وهم بعض رفقاء آخرين للأمير فنفاهم . على أن الإسكندر استدعاهم فيما بعد ، وعاملهم معاملة ملؤها التقـــدير » .

وهناك شيء مؤثر جداً فى هذه القصة ، قصة الوالد وهو يحاج الولد الذى كان حبه الأبوى له ظاهراً ملحوظاً ، وقد حيره ذلك المقترح الوضيع الذى نسج حول خيال الفتى .

أصيب فيليپ بطعنة فى حفل زواج ابنته من خالها ملك إپيروس وشقيق أولمپياس . إذ كان يسير فى موكب إلى أحد المسارح وهو أعزل من السلاح وعليه ثوب أبيض ، فطعنه أحد رجال حرسه . وكان هناك حصان ينتظر القاتل الذى حاول أن يفر ، لولا أن اشتبك حافر حصانه فى كرمة برية ، فألقته عثرة الجواد من سرجه ، وقتله متعقبوه .

وهكذا أصبح الإسكندر ملكاً على مقدونيا فى سن العشرين وانتهى قلقه على تبوئه العرش .

وعند ذلك عادت أولمپياس فظهرت فى مقدونيا كامرأة بررت موقفها تبرير المتكبرين ، ويقال إنها أصرت على أن تقدم لذكرى القاتل نفس مظاهر التكريم الجنازية التى أقيمت لذكرى فيليپ .

وسرى فى بلاد الإغريق سرور عظيم بذلك الحادث السعيد . فأما دموسثنيز فإنه لما أتاه هذا النبأ العظيم ، خرج إلى الجمعية العمومية بأثينا فى ثياب بهيجة

(١) الختن بفتح التاء هو زوج الابنة . (المترجم)

وعلى رأسه إكليل من الزهر ، ولما يمض على وفرة ابنته ما يجاوز السبعة الأيام .

ومهما يكن أمر ما فعلت أوليمپياس بشأن قاتل زوجها : فما تحيط أية شكوك تاريخية بتفاصيل معاملتها لضرتها كليوبطرة . إذ لم يكد الإسكندر يغادر مقدونيا (حين شغلته على الفور ثورة رجال التلال فى الشمال) — حتى قتل ابن كليوبطرة الحديث الولادة بين ذراعى أمه ، ثم خنقت كليوبطرة بعد أن وجهت إليها عبارات السباب والتقريع ولا ريب . ويقال إن هـذا الغلو فى المشاعر النسوية ، هال الإسكندر ولكنه لم يمنعه من بسط يدى أمه بسلطان عظيم فى مقدونيا . وقد كتبت إليه رسائل فى موضوعات دينية وسياسية وأظهر لها ابنها من الوفاء والبر ما جعله يرسل إليها على الدوام نصيباً كبيراً من الأسلاب التى كان يغنمها .

٣ – أول فتوح الإسكندر

اضطررنا إلى سرد هذه الأقاصيص اضطراراً إذ لا يستطاع فهم التاريخ بدونها . وهاهو ذا عالم واسع الأرجاء يعج بالناس ممتد بين الهند والبحر الأدرياتى وهو مستعد للوحدة متأهب إلى حد لم يسبق له مثيل للانصياع لحكم من يلم شمله . وها هى ذى الدولة العظيمة — دولة الإمبراطورية الفارسية بطرقاتها ونظام بريدها وسلمها المخيم على أرجائها وشامل رخائها — مهيأة تماماً للتأثر بما يشعه العقل الإغريقى وما ينتجه من قطوف دانية . ومع ذلك فهذه هى القصص التى تصور طبيعة المخلوقات البشرية التى أتيحت لها تلك الفرص العظيمة . فها هو ذا فيليب ، ذلك الرجل العظيم البالغ النبل ، ومع ذلك فهو سكير مدمن ، وهو لا يستطيع أن يضبط نظام داره . وهاكم الإسكندر وهو إنسان موهوب من كثير من النواحى ، مواهب أعلى مما لدى أى رجل فى زمانه ، ولكنه مغرور متشكك فى الناس . نزق حاد العواطف ، وله ذهن أحدثت أمه به انحرافاً وزيغاً .

وقد شرعنا الآن فى فهم شىء مما عسى أن كان يؤول إليه العالم ، وشىء مما عسى أن كان يصير إليه جنسنا ، لولا طبيعتنا البشرية التى ما تزال فجة غريرة ، ولم يكد يتجاوز ما مضى بين عصرنا وبين الإسكندر ما يزيد على سبعين جيلا ؛ كما لا يكاد يفصل بيننا وبين أجدادنا الصائدين المتوحشين الذين كانوا يضهّبون(١) طعامهم على الجمر أو يأكلونه نيئاً ، — ما يتجاوز الأربعمائة أو الخمسمائة جيل . ولن يتهيأ مجال كبير لدخول التعديل على نوع من الأنواع الحية فى مدى أربعمائة أو خمسمائة جيل . وما عليك إلا أن تثير فيمن حولك من الرجال والنساء مشاعر الغيرة أو الخوف أو السكر أو الغضب إلى درجة كافية حتى تبدو لك فيهم عيون رجال الكهوف الحمراء محملقة إليك اليوم . وقد تهيأت لدينا الآن المعرفة بالكتابة وتوفر التعليم والعلوم وتسخير القوى . وقد روضنا الوحوش وسخرنا البرق . ولكننا لا نزال ندلف(٢) نحو النور وئيداً فى تعثر . أجل روضنا الوحوش وربيناها . ولكن بقى علينا أن نروض أنفسنا ونربيها .



(٨٢) الإسكندر الأكبر

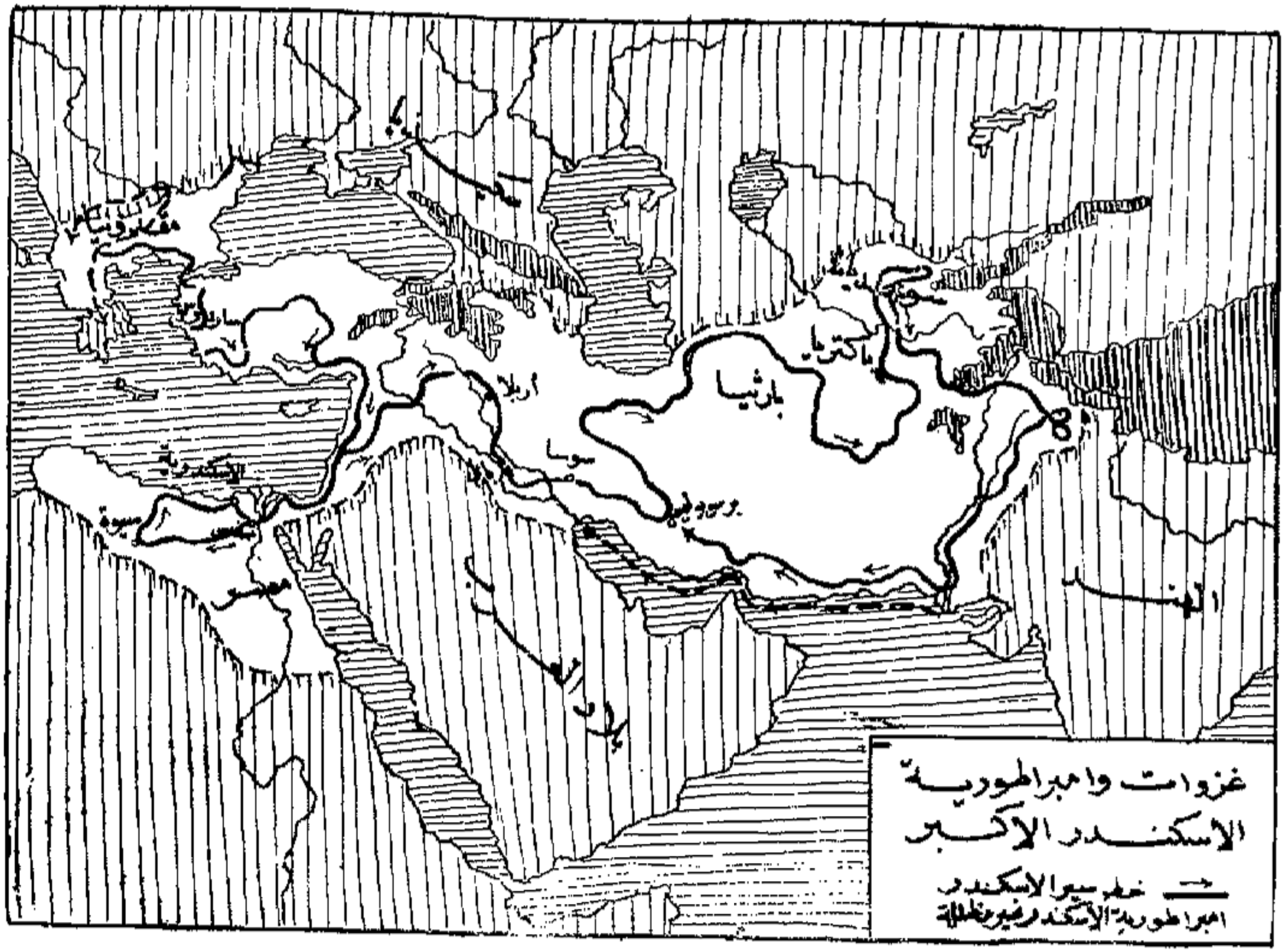
أظهرت أعمال الإسكندر منذ أول بدايات حكمه ، إلى أى حد كبير تمثل خطط أبيه وسار على نهجها ، وإلى أى حد كانت كفاياته عظيمة . ولا بد لنا من خريطة للعالم المعروف لتبين مجرى حياته . ففى أول الأمر بعد أن حصل على التأكيدات من بلاد الإغريق ، بأنه سيكون القائد العام للجيوش

(١) من ضهب اللحم إذا شواه قليلا ولم ينضجه . (المترجم)
(٢) دلف دلوفا : مشى كالمقيد وقارب الخطو فى مشيه . (المترجم)

الإغريقية ، سار مخترقاً تراقيا إلى نهر الدانوب ، وعبر النهر وأحرق إحدى القرى ، وبذا أصبح الملك العظيم الثانى الذى أغار على البلاد الإسكيذية فيما وراء الدانوب ، ثم عاد فعبره واتجه غرباً وبذا قفل بطريق إلليريا . وفى ذلك الوقت كانت مدينة طيبة أعلنت العصيان عليه ، فكانت ضربته التالية فى بلاد الإغريق . فإن طيبة — ولم تساعدها أثينا بالطبع — قهرت ونهبت وعوملت معاملة عنف مسرف . إذ هدّت كل مبانيها اللهم إلا المعبـــد ومنزل الشاعر پندار (Pindar) وبيع ثلاثون ألف نسمة من سكانها رقيقاً فى أسواق النخاسة . فصعقت بلاد الإغريق . وأصبح فى ميسور الإسكندر بذلك أن ينطلق حراً للقيام بالحملة الفارسية .

وكشف تدمير طيبة على هذا النحو عن مسحة من القسوة والعنف فى سيد أقدار البشرية الجديد . إذ كانت تلك ضربة أثقل من أن يقدم عليها إنسان بل كان إتيانها عملا وحشياً غشوماً . فلئن قضى بها على روح العصيان ، فقد قضى كذلك على روح العون . فإن دول المدن الإغريقية ظلت جامدة منذ ذلك الحين ، فلا هى تشغب عليه ولا هى تعينه . وأبت تلك المدن أن تمد الإسكندر بسفائنها ، وهو أمر كانت نتيجته مضايقة خطيرة له .

وهناك قصة يرويها پلوتارك عن هذه المذبحة الطيبية بوصفها أمراً يشرف الإسكندر . لكنها لعمرى تبين كيف أن جوانبه السليمة التى تنم عن التعقل وجوانبه الأخرى التى بها مس من الجنون كانت فى صراع . وهى تحدثنا عن ضابط مقدونى وسيدة من طيبة . كان هذا الضابط ينهب مع الناهبين ، فدخل إلى منزل هاته المرأة ، وأوقع بها من الإهانات والأضرار ما لا يمكن التعبير عنه ، ثم سألها آخر الأمر عما قد يكون لديها مخبأ من كنوز الذهب أو الفضة . فأخبرته بأن كل كنوزها مخبوءة فى البئر وقادته إليه ، وبينما هو ماثل يتأمل قاعه ، قذفته فيه على الفجاءة ثم قتلته بالقاء الأحجار الضخمة عليه . ووصل إلى المكان بعض الجنود الموالين ، وأخذوها إلى الإسكندر ليقضى فيها برأى .



ش (٨٣) غزوات الإسكندر الأكبر وإمبراطوريته

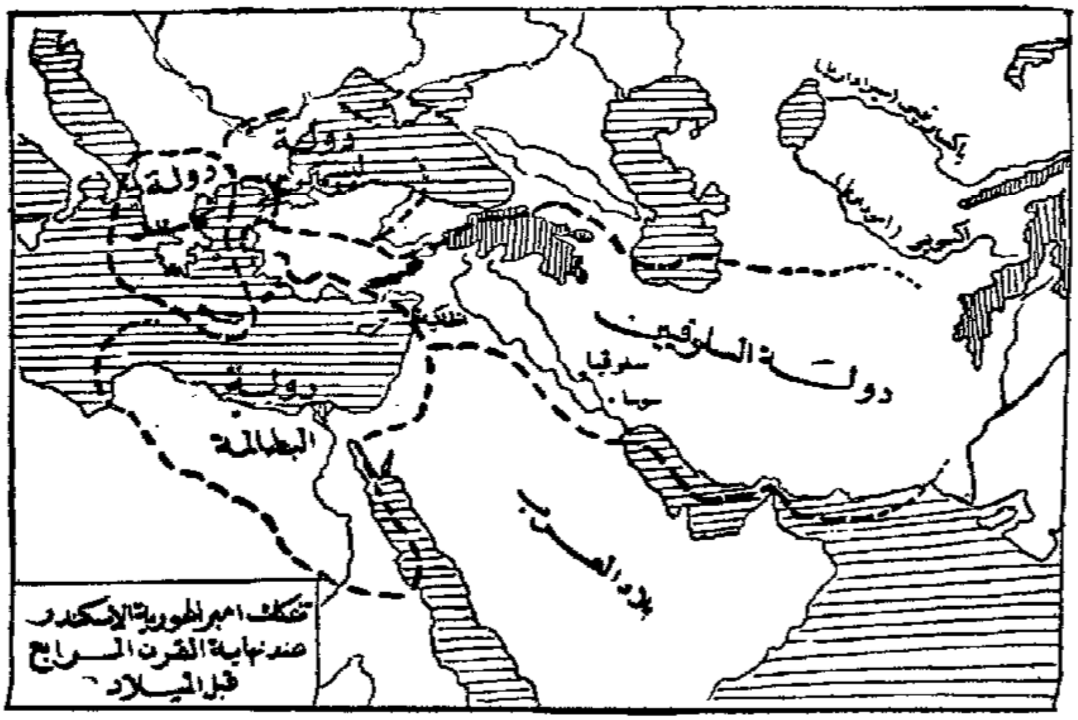
فتحدته ، وكان دافع الغلو والتطرف الذى حدا به إلى القيام بالمذبحة قد أخذ فى التناقص والتضاؤل . فلم يكتف الإسكندر بالعفو عنها ، بل أمر برد عائلتها وممتلكاتها وحريتها إليها . ويفسر پلوتارك هذا بأنه كرم خلق وسماحة نفس ولكن المسألة أعقد من ذلك . إذ أن الإسكندر هو الذى كان ينهب ويستعبد وينتهك حرمات طيبة بأكملها . فذلك الوحش المقدونى المسكين المتردى فى البئر . ما كان يفعل إلا ما قيل له إن له ملء الحرية أن يفعله . فهل يجوز لقائد أن يصـــدر فى مبدأ الأمر أوامر قاسية ، ثم يعود فيعفو عمن يقتلون أعوانه بل ويكافئهم ؟ إن هذه البارقة من وخز الضمير فى حالة امرأة واحدة ربما لم يكن يعوزها مظهر الكرامة الحزينة والجمال الأسيف ، إنما هى عوض زهيد فى مقابل هلاك مدينة عظيمة .

وقد اجتمع فى نفس الإسكندر خليط من جنون أوليمپياس الذى ورثه عنها وما أخذه عن أبيه من رجاحة عقل وما تلقاه عن أرسطو من تعاليم . ولا مراء أن حادث طيبة هذا أزعج خاطر الإسكندر . فكان كلما لقى الطيبيين فيما بعد حاول أن يظهر لهم عطفاً خاصاً . ومما يذكر له بالفضل أن شبح ما جنت يداه فى حق طيبة كان دائم الملاحقة له .

ومع ذلك فإن ذكرى طيبة لم تنقذ ثلاث مدن أخرى عظيمة من مثل تلك العاصفة العقلية الهوجاء . فإنه دمر صور (Tyre) وغزة ومدينة ببلاد الهند ، سقط أثناء فتحه إياها عنوة وجرح فى قتال شريف ، ولم ينج من هذه المدينة الأخيرة نفس واحدة ، حتى الأطفال . فلا بد أن ما استولى عليه من الذعر كان شديداً حتى اجترح مثل هذا الانتقام الذريع .

وعند ابتداء الحرب كان للفرس عليه ميزة فائقة . إذ كانوا فى واقع الأمر سادة البحر . لأن سفن الأثينيين وحلفائهم كانت معرضة غاضبة لاتعين الإسكندر . ولكى ينتقل الإسكندر إلى آسيا ، اضطر أن يطوف معرجاً حتى عبر عند الهلسپونت . فلو أنه تقدم متوغلا فى الإمبراطورية الفارسية ، لتعرض

لخطر قطع مواصلاته تماماً عن قاعدته . وعلى ذلك كان أول واجب عليه أن يقصم العدو فى البحر . ولم يكن هذا فى مستطاعه إلا بالمسير على محاذاة ساحل آسيا الصغرى والاستيلاء على الميناء تلو الميناء ، حتى يتم تدمير كل القواعد



ش (٨٤) تفكك إمبراطورية الإســكندر

البحرية الفارسية . فلو أن الفرس تجنبوا الالتحام معه فى المعارك وانصرفوا إلى غشيان خط مواصلاته الطويل ، لقضوا عليه فيما يرجح ولكنهم لم يفعلوا ذلك . فإن جيشاً فارسياً لا يزيد عن جيشه كثيراً اشتبك معه فى معركة على ضفاف نهر جرانيكوس (Granicus) (٣٣٤ ق.م.) فباء بالتدمير . وبذلك أصبح الإسكندر مطلق اليد فى الاستيلاء على ساردیس وإفيسوس وميليتوس ثم بعد قتال عنيف على هاليكارناسوس . وفى الوقت نفسه كان الأسطول الفارسى عن يمينه يفصل بينه وبين بلاد الإغريق ، وهو يهدده أكثر التهديد ولكنه لا يفعل شيئاً .

وفى (٣٣٣ ق. م .) وحين كان يتابع هجومه هذا على القواعد البحرية ، سار بمحاذاة الشاطئ حتى رأس الخليج المسمى اليوم « خليج إسكندرونة » . وكان هناك جيش فارسى جرار تحت قيادة الملك العظيم دارا

الثالث متغلغل فى داخلية البلاد إلى جوار خط سيره ، تفصله عن الشاطئ الجبال . وتقدم الإسكندر عن هذه القوة المعادية قبل أن يدرك هو أو يدرك الفرس ما بينهما من تدان ، إذ كانت أعمال الاستطلاع — كما هو واضح — على أسوأ حال لدى الإغريق والفرس على السواء وكان الجيش الفارسى حشدا هائلا سيئ النظام : من الجنود والدواب ووسائل النقل ومنتجعى المعسكرات(١) ومن إليهم . ونذكر على سبيل المثال : أن دارا كان مصحوباً بحريمه ، وكان هناك عدد حاشد من إماء الحريم والموسيقيين والراقصين والطباخين . وكان الكثيرون من كبار الضباط قد أحضروا عائلاتهم ليشهدوا مصرع الغـزاة المقدونيين . وقد جمعت الجيوش من كل ولاية فى الإمبراطورية ، ولم يكن لديهم تقاليد متعارف عليها أو مبدأ يجمعهم ويؤلف بينهم فى عمل موحد . وتملكت « دارا » فكرة قطع السبيل على الإسكندر إلى بلاد الإغريق فساق هذا الجمع الحاشد من فوق الجبال حتى البحر ، ومن بمن طالعه أن اجتاز الممرات دون أن يعترض سبيله معترض ، ثم عسكر فى سهل إيسوس (Issus) بين الجبال والساحل . وهناك هزمه الإسكندر وكان قد عاد ليلاقيه . إذ كر الفرسان وحطم الفيلق هذا الجيش العظيم الهش كما يهشم الحجر الزجاجة ، فتفرق بدداً . وفر « دارا » من مركبته الحديدية — تلك الآلة العتيقة الطراز — ممتطياً صهوة جواده ، تاركاً كل شيء حتى حريمه فى أيدى الإسكندر .

وكل الأقاصيص التى تروى عن الإسكندر بعد هذه المعركة تصوره على خير ما يكون الخلق الكريم فتظهره متحرزاً سمحاً . فعامل الأميرات الفارسيات بأقصى ما يكون من الأدب ، وتملك ناصية رشده ، واستمسك استمساكاً وثيقاً بخطته ، وترك دارا يهرب إلى سوريا ولم يتعقبه . ثم واصل مسيره على قواعد الفرس البحرية — أى على ميناءى صور وصيدا الفينيقيين ؛ فسلمت صيدا ، وقاومته صور .

فلئن أتيح لنا أن نجد فى مكان ما دليلا على مقدرة الإسكندر الحربية

---

(١) يراد بها من ينعقبون المعسكرات من رجال ونساء للاستفادة من الجند . (المترجم)

الفائقة ، فهاهنا موضعها ومجلاها . كان جيشه من صنع أبيه ، ولكن فيليب لم يظهر فى حصار المدن نبوغاً أبداً . ولما كان الإسكندر غلاماً فى السادسة عشرة رأى مدينة بيزنطة الحصينة على البوسفور تصد أباه . وهاهو ذا يواجه مدينة منيعة صمدت لحصار بعد حصار ، وقاومت نبوخذناصّر العظيم أربعة عشر عاماً . إذا أن الشعوب السامية صاحبة قصب السبق فى احتمال الحصارات . وكانت صور عند ذلك جزيرة تبعــد عن الشاطئ نصف ميل ، وأسطولها سليما لم يصب بسوء ، وكان الإسكندر من الناحية الأخرى ، قد سبق فتعلم الشيء الكثير أثناء حصاره قلعة هاليكارناسوس ، وضم إليه هيئة من المهندسين من قبرص وفينيقيا ، وكان أسطول صيدا معه . وما لبث ملك قبرص أن انضم إليه بمئة وعشرين سفينة جعلت سيادة البحر فى يده . وفضلا عن ذلك فإن قرطاجة الكبيرة لم ترسل أى عون — إما اعتماداً منها على قوة المدينة الأم أو خروجاً منها عن الولاء لها — فضلا عن أنها كانت مشتبكة فى حرب فى صقلية .

وكان أول ما اتخذه الإسكندر من تدابير أن بنى جسراً من أرض القارة إلى الجزيرة ، وما يزال هذا السد باقياً إلى يومنا هذا . وأقام الإسكندر على طرف هذا الجسر عند اقترابه من أسوار صور أبراجه ومجانيقه وأكباشه[١] . ثم شد كذلك إلى الأسوار سفناً ، أقيمت عليها الأبراج والمجانيق . واستخدم أهل صور الحراقات (سفن النيران) ضد هذا الأسطول الصغير ، وأخذوا يلاحقونه بالخروج المباغت من مينائهم . وحدث فى إحدى غاراتهم المفاجئة على السفن القبرصية أن أمسك بهم المغيرون وأوقعوا بهم أضراراً جسيمة ، وأصيب الكثير من سفنهم بقذائف المجانيق . ووقعت فوراً فى أيدى قوات الإسكندر سفينة كبيرة مخماسة ، أى ذات خمس طبقات من المجاديف ،

(١) الكبش : المنطاح (**battering ram**) آلة كانت تستعمل قديماً فى هدم أسوار الأماكن المحاصرة ، تتكون من عرق عظيم من الخشب برأس من حديد قريبة الشبه برأس الكبش ، ومنه اتخذ اسمها . (المترجم)

وأخرى ذات أربع طبقات — ثم فتحت آخر الأمر ثغرة فى الأسوار — وبعد أن تسلق المقدونيون الأنقاض من سفنهم فتحوا المدينة عنوة .

استمر هذا الحصار سبعة أشهر ، وقاومته غزة شهرين . وحدثت فى كلتا الحالتين مذبحة كما حدث أن نهبت المدينة وبيع الأحياء من أهلها بيع الرقيق . ثم دخل الإسكندر مصر قرب نهاية (٣٣٢ ق.م.) وثبتت له سيادة البحر . فأما بلاد الإغريق — وكانت طيلة ذلك الزمان تتأرجح فى سياستها — فإنها انتهت آنذاك إلى التصميم على الانحياز إلى جانب الإسكندر . وقرر مجلس دول المدن الإغريقية المنعقد فى كورنثة إهداء تاج نصر من الذهب « لقائده العام » . ومنذ ذلك الحين ظل الإغريق منضمين إلى المقدونيين .

وكان المصريون أيضاً فى صف المقدونيين ، على أنهم كانوا مع الإسكندر منذ البداية . فإن الحكم الفارسى أظلهم قرابة مئتى سنة . ولم يكن لمجىء الإسكندر من معنى عندهم سوى ذهاب سيد وقدوم آخر ، ولكنه تغيير كان فى جملته تغيراً إلى أفضل . فسلمت البلاد من غير قتال . وأظهر الإسكندر الاحترام البالغ نحو شعورها الدينى ، فلم يكشف اللفائف عن أى مومياء كما فعل قمبيز ، ولم يعتد على حرمة آبيس عجل ممفيس المقدس . وفى تلك البلاد لمس الإسكندر فى نفسه فى ظلال المعابد الضخمة وعلى نطاق واسع كثيراً من الشواهد والأدلة على وجود ميل إلى تدين خفى غير منطقى يذكره بأسرار وخفايا طالما اعتنقتها والدته وأثرت فى طفوليته أيما تأثير . وظل أربعة أشهر فى مصر يداعب العواطف الدينية وتداعبه .

ولا بد لنا أن نتذكر أنه كان لا يزال شاباً يافعاً ، مقسما على نفسه . أجل إن سلامة العقل القوية التى ورثها عن أبيه جعلت منه جندياً عظيماً . وحبته تعاليم أرسطو بشىء من النظرة العلمية إلى العالم . أجل إنه دمر صور . بيد أنه أنشأ فى مصر عند أحد مصبات النيل مدينة جديدة هى الإسكندرية ، لتحل محل ذلك المركز التجارى القديم . وأنشأ إلى الشمال من صور وبالقرب من

إيسوس ، مرفأ ثانياً هو الإسكندرونة . وما تزال كلتا هاتين المدينتين زاهرة إلى يومنا هذا . كما أن الإسكندرية انقضى عليها دهر ربما كانت فيه أكبر مدينة فى العالم . فلا بد إذن أن موقعيهما اختير اختياراً حكيماً . على أن الإسكندر كانت لديه كذلك روح التخيل العاطفية الهوجاء التى كانت لأمه . فإنه إلى جانب هذا العمل الإنشائى كان مستغرقاً فى مغامرات دينية إذ استحوذت آلهة مصر على لبه . وإذا هو يسافر أربعمائة ميل إلى واحة قصية لزيارة وحى آمون . ذلك بأنه كان يريد أن يبت فى شكوك معينة كانت تساوره عن حقيقة نسبه ومولده . فإن أمه طالما ألهبت ذهنه بالتلميح والإشارة والألفاظ المبهمة عن سر عميق يكتنف حقيقة أبوته . فهل كان إنسان عادى مثل فيليب المقدونى أباه حقاً ؟ .

وقد لبثت مصر قرابة أربعمائة سنة وهى قطر لا يعتد به من الوجهة السياسية ، يغزوها الإثيوبيون آونة ويغزوها الآشوريون أخرى والبابليون تارة والفرس طوراً . ولما أن أصبح تفكير المصريين فيما هم فيه من حاضر المهانة والاتضاع أمراً بغيضاً إلى نفوسهم ، أصبح الماضى والعالم الآخر أكثر روعة فى نظرهم . وما تنشأ الدعاية الدينية المتبجحة بالمفاخرة والاغترار بالماضى إلا عن طول شعور الشعوب بالمذلة المزمنة الأليمة . فإن المقهور يستطيع أن يقول للظافر « ليس هذا الظفر بشىء ذى بال فى نظر الآلهة الحقة » . وهكذا اضطر ابن فيليب المقدونى وسيد بلاد الإغريق العام إلى أن يحس صغاره وضآلة قدره بين المعابد الضخمة المشمخرّة . وكان للإسكندر نصيب غير عادى مما هو مألوف من طموح الشباب الطبيعى إلى التأثير فى كل من يحيط بهم من الناس . فكم كان ارتياحه واطمئنان نفسه عظيماً إذن حين يكتشف لتوه أنه ليس مجرد مخلوق موفق ، وليس واحداً من أولئك السوقة من هؤلاء الإغريق العصريين وإنما هو قـــديم أزلى قدسى ابن إله ، وهو الإله فرعون بن آمون رع !!! ...

ولقد سبق لنا أن قدمنا لك فى فصل سابق وصفاً لتلك المقابلة فى معبد الصـــحراء .

ولم يقتنع الشاب تمام الاقتناع . نعم أطافت به فى بعض الأحايين لحظات الاقتناع . كما كانت تنتابه فى أحيان أخرى أطوار من سلامة العقل ، عند ما كان الأمر أقرب إلى مزاح . فأبدى فى حضرة المقدونيين والإغريق الشك فى أنه إله حقاً . فلما انطلق دوى الرعد القاصف ، أقدم السفيه أريستارخوس (Aristarchus) على سؤاله « ألا تنوىّ أن تفعل شيئاً من هذا القبيل يابن زيوس ؟ » ، ولكن الفكرة الجنونية جعلت مع ذلك تطيف بذهنه منذ ذلك الحين وهى مستعدة لأن يلهب أوارها النبيذ أو الملق .

وفى الربيع التالى (٣٣١ ق.م.) عاد إلى صور ، وزحف من هناك نحو مملكة آشور جاعلا الصحراء السورية عن يمينه ، فوجد فى انتظاره عند خرائب نينوى المنسية جيشاً فارسياً عظيماً ، طفق دارا يجمعه منذ معركة إيسوس . وكان يتألف من خليط هائل آخر من فرق الجند ، ويعتمد فى قوته الرئيسية على ذلك السلاح البالى العتيق حتى فى ذلك الوقت : وهو المركبة الحربية . وكان لدارا من هذه قوة عدتها مئتان ، وقد ربطت بعجلات كل مركبة وإلى عريشها وجسمها مناجل . ويبدو أنه كان بكل مركبة أربعة خيول ، فبات واضحاً أنه إذا جرح أحد هذه الخيول بنبل أوسهم ، تعطلت المركبة . وكانت الخيول الخارجية تعمل أكثر ما تعمل كوقاية لخيول العجلة الداخلية . ولذا كانت تشبك إلى المركبة بسير خارجى مفرد يسهل قطعة ، ولكن إصابة أحد خيول العجلة (أى الخيل الداخلية) كان يفضى إلى تعطيل العربة كلية . ولمثل هذه العربة أثر ساحق عظيم إذا هى استعملت ضد جيش مفكك من المشاة أو نفر من المحاربين الفرادى . ولكن دارا ابتدأ المعركة بقذفها على الخيالة وعلى المشاة الخفاف ، فبلغ القليل منها هدفه وسرعان ما تم القضاء على هذه أيضاً بسهولة . وأجريت المناورات لتخير مواقع أفضل والاعتصام بها ، وانطلق المقدونيون المدربون أحسن تدريب يسيرون فى خط مائل صوب الجبهة الفارسية محتفظين بحسن نظامهم . فأما الفرس فإنهم فى تعقبهم لهذه الحركة حتى الجناح ، فتحوا فى صفوفهم ثغرات .

وعلى حين بغتة كر الفرسان المقدونيون المنظمون فى أحد هاته الصدوع وصدموا قلب الجيش الفارسى . وعلى أثر كرتهم مباشرة تقدم المشاة يتبعونهم ، فتمزق قلب الفرس وميسرتهم . وقد تقدمت الراكبة الخفيفة فى الميمنة الفارسية فترة من الزمان فاكتسبت من ميسرة الإسكندر أرضاً ، وكأنها لم تفعل ذلك إلا لكى تمزقها فرسان تساليا إرباً . وكانت فى ذلك الوقت أصبحت تقارب فى حسن دربتها نموذجها المقدونى المحتذى ، ولم تعد القوات الفارسية تشبه الجيش بالمعنى المعروف . فإنها انحلت إلى جمع غفير من الفارين تنساب ثلله تحت غمامات عظيمة من القتام . وليس بينها سبب واحد يلم شعثها وهى تسير عبر السهل الحار نحو أربيل (Arbela) . وانطلق المنتصرون بخيلهم خلال الغبار والجمهور الهارب وهم يقتلون ويذبحون حتى خيم الظلام ووضع للمذبحة حداً . وقاد دارا المتقهقرين .

تلك هى معركة أربيل (أربيلا) التى حدثت فى اليوم الأول من أكتوبر (٣٣١ ق.م.) . وإنا لنعرف تاريخها بمثل هذا الضبط الشديد ، لأن التاريخ سجل لنا أنه اتفق قبل حدوثها بأحد عشر يوماً أن كان المنجمون على كلا الجانبين فى شغل شاغل بخسوف القمر .

وفر دارا شمالا إلى بلاد الميديين ، وتقدم الإسكندر إلى بابل .

وكانت المدينة القديمة مدينة حمورابى (الذى حكم قبل ذلك بسبع عشرة مئة من السنين) ومدينة نبوخذناصّر العظيم ونابونيداس، لا تزال على العكس من نينوى مركزاً هاماً ناجحاً . والبابليون شأنهم فى ذلك شأن المصريين ، لم يكن ليعنيهم كثيراً أمر انتقال الحكم من الفرس إلى المقدونيين . وكان معبد بعل — مردك قد أصبح حطاماً وخرائب ومحجراً تؤخذ منه مواد البناء ، بيد أن تقاليد الكهنة الكلدان كانت ما تزال باقية ، وقد وعد الإسكندر بإعادة بناء المعبد .

ومن ثم سار إلى سوسا ، التى كانت يوماً ما مدينة العيلاميين البائدين المنسيين ، والتى أصبحت العاصمة الفارسية .

ثم سار إلى پرسيپوليس حيث أمر — وقد بلغ انتشاؤه بالخمر فى إحدى المآدب ذروته — باحراق بيت ملك الملوك . ثم أعلن فيما بعد أن هذا هو انتقام بلاد الإغريق لإحراق إجزرسيس أثينا .

٤ – تجولات الإسكندر

هنا يبدأ طور جديد من أطوار قصة الإسكندر . فإنه ظل السنوات السبع التالية يتجول بجيش معظمه من المقدونيين ، فى شمال وشرق الجزء الذى كان عند ذلك يعد العالم المعروف . ابتدأ أولا بالسير فى أعقاب دارا ، ثم لا ندرى بعد ذلك ماذا أصبح ... ؟ فهل كان الأمر أمر مسح منظم لعالم كان ينوى أن يوحد أجزاءه ويؤلف منه دولة كبرى . أم هو مجرد سير على غير هدى كطراد الأوز البرى فى صيد ؟ لقد كان جنوده أنفسهم بل خاصة أصدقائه يعتقدون فى الرأى الأخير ، وأخيراً أوقفوا مدرجه وراء السند . والواقع أن عمله هذا يبدو على الخريطة أشبه الأشياء بطراد أوز برى ، وكأنى بهذا الطراد لا يهدف إلى شيء بوجه خاص ولا يرمى إلى الوصول إلى مكان ما .

وسرعان ما انتهى به تعقبه دارا الثالث إلى مسرح خاتمته المحزنة . إذ يلوح أن قواد الملك العظيم أنفسهم ثاروا عليه بعد معركة أربيلا ، ناقمين منه ضعفه وعدم كفايته . فسجنوه وأخذوه معهم على الرغم من رغبته فى أن يلقى بنفسه بين يدى سماحة قاهرة ، واتخذوا من بيسوس (Bessus) حاكم باكتريا قائداً لهم . وانتهى الأمر بالإسكندر إلى طراد جدى حامى الوطيس يتعقب آثار القافلة الهاربة التى كانت تحمل ملك الملوك الأسير . وعند الفجر ، وبعد مطاردة دامت الليل كله ، لاحت القافلة فى الأفق البعيد . وأصبح الفرار جموحاً جنونياً ، فإن بيسوس وقواده تركوا المتاع والنساء وكل شيء آخر ، كما تركوا من خلفهم أيضاً عائقاً آخر ، فإلى جوار بركة ماء منعزلة عن الطريق العام سرعان ما وجد جندى مقدونى عربة متروكة ما تزال بغالها مشدودة إليها . فى تلك العربة كان يرقد دارا صريعاً ، وهو

مطعون فى عشرات الأماكن من جسمه والدم يتدفق منه حتى الموت . ذلك أنه رفض أن يواصل المسير مع بيسوس ، وأبى أن يمتطى الجواد الذى قدم إليه . ولذا طعنه قواده بحرابهم ثم تركوه ، فسأل آسريه بعض الماء . ولسنا ندرى إن كان قد قال شيئاً آخر غير هذا . على أن المؤرخين رأوا من اللائق أن يلفقوا عليه حديث النزع الأخير ، وهو ما لا يقبله العقل . ولعله لم يقل إلا الشىء القليل الطفيف .

ولما أن وافى الإسكندر بعد شروق الشمس بقليل كان دارا قد قضى نحبه . . .

ولتجوالات الإسكندر عند مؤرخ العالم أهمية خاصة بها ، منفصلة تماماً عن الضوء الذى تلقيه على أخلاقه . فكما أن حملة دارا الأول رفعت الستار من خلف بلاد الإغريق ومقدونيا ، وأظهرتنا على شىء مما يقع خلف الأستار الشمالية الصامتة من وراء تاريخ المدنيات الأولى الذى تنقله إلينا السجلات ، فإن حملات الإسكندر تنقلنا كذلك إلى أقاليم لم يكن أحد دون عنها حتى ذلك الوقت أى شىء جدير بالثقة .

فيتكشف لنا أنها لم تكن مناطق صحراوية ، بل كانت زاخرة بحياة جماعات ذات طابع خاص .

سار الإسكندر إلى شواطىء بحر قزوين ، ومن ثم اتجه شرقاً عبر ما يسمى الآن باسم « التركستان الغربية » ، وأسس مدينة تسمى الآن هيرات (Herat) ومنها سار شمالا بطريق كابول وما يسمى الآن باسم سمرقند ، حتى وصل إلى جبال التركستان الوسطى ، ثم عاد أدراجه جنوباً وانحدر إلى الهند مخترقاً ممر خيبر ، والتحم فى معركة عظيمة على السند الأعلى مع ملك شجاع مديد القامة ، هو الملك پوروس (Porus) وفيها التقت المشاة المقدونية بجمع من الأفيال وهزمته . ولعله كان يرغب فى مواصلة السير شرقاً عبر الصحراوات إلى وادى الجانج ، بيد أن جنوده أبت مواصلة السير ، ويحتمل أنهم لو لم يفعلوا

ذلك فى تلك الآونة أو بعدها ، لواصل السير حتى يبيد من التاريخ شرقاً ، ولكنه اضطر أن يحول وجهته مرتداً ، فبنى أسطولا انحدر به إلى مصب السند. وهناك قسم قواته ، فأخذ الجيش الرئيسى وسار على امتداد الشاطىء القاحل قافلا به إلى الخليج الفارسى ، وقاسى الجيش فى الطريق متاعب وأهوالا جمة ، ومات منه الكثير من الرجال عطشاً ، وتبعه الأسطول بحراً ، ولحق به عند مدخل الخليج الفارسى . وكان فى خلال رحلته أثناء هذه السنوات الست يشتبك فى معارك ، وتدين له بالخضوع كثير من الشعوب العجيبة ، وينشئ المدن . ولقد رأى جثة دارا فى يونية (٣٣٠ ق.م.) وعاد إلى سوسا (٣٢٤ ق.م.) فوجد الإمبراطورية فى اختلال . ووجد ولاة الأقاليم (الستاربة) ينشئون لأنفسهم جيوشاً خاصة بهم . وألفى باكتريا وميديا فى ثورة ، ووجد أوليمبياس جعلت مهمة الحكومة فى مقدونيا أمراً مستحيلا . كما أن هارپالوس خازن الملك فر بكل ما خف حمله من الخزانة الملكية ، وأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريق وهو يرشو الناس فى رحيله . ويقال إن بعض أموال هارپالوس وصل إلى جيب ديموستنيز .

على أننا قبل أن نعالج الفصل الختامى لقصة الإسكندر ، نرى أن نقول كلمة عن تلك الأقاليم الشمالية التى تجول فيها . وواضح أنه من أقليم الدانوب وعبر جنوب روسيا قدماً ، وعبر القطر الواقع إلى شمال بحر قزوين قدماً ، والقطر الواقع إلى شرق بحر قزوين فما تلاه حتى الكتل الجبلية فى هضبة الپامير ، ثم شرقاً إلى حوض نهر تاريم بالتركستان الشرقية ، — كانت تنتشر آنذاك سلسلة من قبائل وشعوب همجية (متبربرة) متشابهة كلها وهى جميعاً على مرحلة واحدة من الثقافة تقريباً ، وهى فى معظم أمرها آرية فى لغتها ، ولعلها نوردية فى جنسها . وكانت مدنهم قليلة العدد إذ هم فى الكثير الغالب من المترحلين ، وقد يستقرون فى بعض الأحيان استقراراً موقوتاً رغبة فى زراعة الأرض . ولاريب أنهم كانوا قبل ذلك يختلطون فى آسيا الصغرى بالقبائل المغولية . بيد أن تلك القبائل المغولية لم تكن آنذاك منتشرة هناك .

وقد تعرضت تلك الأجزاء من العالم لعملية هائلة مستمرة من جفاف الجو وارتفاع السطح ظلت تحدث طيلة العشرة آلاف السنة الأخيرة . فمنذ عشرة آلاف سنة كاملة كان هناك — فيما يرجح — حاجز مياه متصل الحلقات يمتد بين حوض نهر الأوبى (Obi) وبين بحر آرال — قزوين . وإذ أن هذا البحر قد جف ، وأصبحت أراضى المستنقعات قطراً شبه سهوبى ، فإن الرحل النورديين القادمين من الغرب والرحل المغول من الشرق التقوا واختلطوا وعاد حصان الركوب إلى العالم الغربى . وواضح أن هذه المنطقة المترامية أخذت تتحول إلى مركز تتجمع فيه هذه الشعوب البربرية . وكان ارتباطهم بالأرض التى يحتلونها ارتباطاً مفكك الأوصال ، فكانوا يعيشون فى خيام وعربات أكثر منهم فى منازل . وكانت دورة وجيزة من سنى الوفرة وانتشار الصحة أو انقطاع الحروب بين القبائل أثناء عهد أحد الحكام الأقوياء ، تؤدى إلى زيادة جسيمة فى عدد السكان . فإذا أتت سنتان أو ثلاث من العسيرات العجاف فإنها تكفى لعودة القبائل إلى تجوالها من جديد التماساً للغذاء .

ومن قبل بزوغ فجر التاريخ المدوّن ، كان إقليم التجمع البشرى هذا بين الدانوب والصين ، يلقى على التناوب قبائل تنهال مثل شآبيب المطر المتتابع زاحفة جنوباً ونحو الغرب . فكانت تلك المنطقة من خلف المناطق المأهولة بالسكان أشبه بسحب الغمام المتراكم ، يتجمع فيها الغزاة ثم ينفذون كالسيل الطامى . ولقد لاحظنا كيف هبطت الشعوب الكلتية غرباً كطل[1] خفيف ، وكيف أن الإيطاليين والإغريق وذوى قرباهم من سكان إبيروس والمقدونيين والفريجيين انحدروا جنوباً . ولاحظنا كذلك حركة الكمريين من الشرق وهى تندفع عبر آسيا الصغرى كشؤبوب فجائى من البرابرة ؛ كما شهدنا انحدار الإسكيذيين والميديين والفرس جنوباً وهبوط الآريين إلى الهند . وحدثت *قبل عهد الإسكندر بما يدانى القرن غزوة آرية جديدة لإيطاليا على يد شعب*

---

(١) الطل : المطر الخفيف ؛ والوابل الثقيل ؛ والشؤبوب : الدفعة الواحدة من المطر . (المترجم) .

كلتى ، هو الغال الذين سكنوا وادى نهر پو (Po) : فهؤلاء الشعوب ، على اختلاف أجناسهم ، هبطوا من غمرات الحجب الشمالية إلى ضياء التاريخ . وفى الوقت ذاته كان المستودع ، أعنى إقليم التجمع ، خلف ذلك الضياء لا يفتر عن تجميع الشعوب استعداداً لفيضانات جديدة . فمسير الإسكندر فى آسيا الوسطى يدخل الآن فى تاريخنا أسماء جديدة على أسماعنا ، هى أسماء البارثيين (Parthians) وهم شعب من الراكبة الرماة بالقسى ، كتب لهم أن يمثلوا دوراً هاماً فى التاريخ بعد ذلك بقرون تقريباً . والباكتريين ، الذين كانوا يعيشون فى الموطن الرملى للجمل . ويبدو أنه حيثما طاف الإسكندر لقى شعوباً تنطق بالآرية ، وكان البرابرة المغول فى الناحية الشمالية الشرقية لا يزالون مجهولين . ولا إخال أحداً كان يتصور أن هناك أيضاً مستودعاً آخر عظيماً من السكان فيما وراء الإسكيذيين وأقربائهم مقره شمالى الصين . قدر لهم أن ينسابوا هم أيضاً من توهم متدفقين تدفقاً جديداً نحو الغرب والجنوب ، ويختلطوا أثناء مجيئهم بالإسكيذيين (الأشقوذيين) النورديين وبكل من يلتقون به من شعوب أخرى ذات عادات مماثلة لعاداتهم . وحتى ذلك الحين لم يكن أحد غير أهل الصين يعرف شيئاً عن الهون (Huns) . ولم يكن هناك أتراك فى التركستان الغربية أو فى أى مكان آخر آنذاك . ولم يكن ثمة أى تتار فى العالم .

إن هذه اللمحة عن الأحوال السائدة فى التركستان فى القرن الرابع ق .م . لمن أمتع مظاهر تجولات الإسكندر . وهناك غارة أخرى ، هى غارته على أرض البنجاب . فإن مما يستثير غضب رواة القصة البشرية ، أنه لم يواصل مسيره حتى إقليم الجانج (الكنج) ، وأننا لم نحصل نتيجة لذلك على أوصاف وتفاصيل قائمة بذاتها دبجها كتاب الإغريق عن الحياة فى البنغال القديمة . على أن هناك مجموعة ضخمة من المؤلفات فى لغات هندية متنوعة تعالج تاريخ الهند وحياتها الاجتماعية ، وهى لا تزال فى حاجة إلى من ينفض عنها الغبار ، ويقدمها إلى القراء الأوروبيين .

٥ ـ هل كان الإسكندر عظيما حقا ؟

ظل الإسكندر ست سنوات يمتلك الإمبراطورية الفارسية غير منازع ، وكان عند ذلك بلغ الحادية والثلاثين . ولم يستحدث في هذه السنوات الست شيئاً يذكر . فاستبقى معظم نظم المقاطعات الفارسية ، وعين حكاماً (Satraps) جدداً أو استبقى السابقين منهم . وكانت الطرق والموانى ونظم الإمبراطورية لا تزال على ما تركها سلفه الأعظم قورش . واكتفى فى مصر باستبدال حكام الأقاليم القدماء بحكام جدد . وقهر فى الهند بوروس ملكها ثم تركه على قدر من القوة لا يقل عما وجده عليه ؛ اللهم إلا أن بوروس أصبح يسميه الإغريق ساتراب . وخطّط الإسكندر عدداً من المدن . قدر لبعضها أن تنمو وتزدهر فتصبح مدناً عظيمة . فإنه أسس ما يبلغ فى مجموعه سبعة عشر إسكندرية تعاورت على أسمائها تغيرات شتى — مثال ذلك قندهار (اسكندر) وسيكندر أباد . على أنه دمر صور . ودمر مع صور كل أمن وطمأنينة تستظل بها الطرق البحرية التى كانت حتى ذلك الحين المنفذ الرئيسى لبلاد ما بين النهرين نحو الغرب . ويقول المؤرخون إنه « هلّن » الشرق ، أى صبغه بالصبغة الهلينية . على أن مملكة بابل ومصر كانتا تعجان بالإغريق قبل زمانه . فهو إذن لم يكن السبب فى هذه العملية بل كان أحد عواملها . وبفضله ظل العالم بأسره ردحاً من الزمان ، من البحر الأدرياتى إلى نهر السند تحت لواء حاكم واحد . وبذا يكون قد حقق أحلام إيزوقراط وآمال فيليب أبيه . ولكن إلى أى حد كان يسعى إلى جعل هذا الاتحاد مستديماً وطيد الأركان ؟ وهل كانت إمبراطوريته حتى آنذاك إلا زخرفاً براقاً يبهر الأبصار ورواء موقتاً لشخصه العظيم الأخاذ ؟ .

لم يعمد إلى إنشاء طرق عظيمة ، ولا لإقامة مواصلات بحرية آمنة مضمونة . ومن السخف أن نتهمه بأنه أهمل التعليم ، لأن الفكرة القائلة بأن الإمبراطوريات يجب أن يربط التعليم أجزاءها ، كانت لا تزال غريبة عن الفكر البشرى . بيد أنه لم يحط نفسه بأية طائفة من الساسة ولا كان يفكر فى أى خلف له ،

ولم يعمل على ابتداع أى تقاليد ، بل إن ما أنشأه لا يعدو أن يكون أسطورة تدور حول شخصه . ويلوح أنه لم يدر بخلده أن الفلك سوف يواصل الدوران من بعده ، وأن العالم لن تشغله أمور أخرى عدا التحدث بفخامته وروعته . كان لا يزال صغير السن لا جرم . ولكن ألا ترى أن فيليپ قبل أن يصل إلى الحادية والثلاثين من عمره بزمن بعيد كان يفكر فى تعليم الإسكندر ؟

وقد يتساءل الإنسان عما إذا كان الإسكندر صاحب فكرة فى السياسة على الإطلاق ؟

إن بعض دارسى تاريخ حياته يؤكدون أنه كان من أرباب السياسة والتدبير ، وأنه شغل يوم كان فى سوسا بوضع الخطط لإقامة إمبراطورية عالمية ؟ . وأنه كان لا يرى فيما يعمل مجرد فتح مقدونى للعالم ، بل صهراً ومزجاً لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض . ومهما يكن من شىء فإنه فعل شيئاً واحداً ، يلمح إلى هذه الفكرة تلميحاً خفياً ، إذ أقام وليمة عرس كبرى ، تزوج فيها هو وتسعون من قواده وأصدقائه من عرائس فارسيات . فأما هو فقد تزوج بنت دارا ، وإن كانت لديه من قبل زوجة أسيوية هى روكسانا (Roxana) ابنة ملك سمرقند . وأقام لهذا الزواج الجماعى حفلا رائعاً جداً . وفى الوقت نفسه ، قدم هدايا العرس للجنود المقدونيين الذين تزوجوا من عرائس أسيويات ، والذين كان يبلغ عددهم عدة آلاف . وقد سمى هذا « زواج أوربا وآسيا » . إذ كان لا بد للقارتين من الارتباط على حد قول پلوتارك « برباط زواج شرعى وبجامع الاتصال والاشتراك عن طريق الذرية والنسل » . ثم أخذ بعد ذلك يدرب المجندين من فارس ومن الشمال ، أى من الفرس والباكتريين ومن على شاكلتهم — على فنون الحرب التى تتميز بها الأنظمة الخاصة بالفيلق والفرسان . فهل كان ذلك أيضاً لكى يتم مزج آسيا وأوربا ؟ أم كان يرمى من وراء ذلك إلى الاستقلال بنفسه عن رجاله المقدونيين ؟ لقد اشتموا منه رائحة الفكرة الثانية على كل حال ، فتمردوا عليه ، واستطاع فى شىء من

الصعوبة أن يرجعهم فى حال من الضراعة والندم ، واستمالهم إلى الاشتراك فى وليمة عامة جمعت بينهم وبين الفرس . ولقد أجرى المؤرخون على لسانه حديثاً بليغاً مستفيضاً لهذه المناسبة ... كان بيت القصيد فيه أنه أمر رجاله المقدونيين أن يرحلوا ، ولم يوضح لهم الطريقة التى يرى أن يخرجوا بها من فارس إلى وطنهم . فبعد أن قضوا ثلاثة أيام فى هلع ، خضعوا له والتمسوا منه الصفح والغفران .

والواقع أن هذا الموضوع يمكن أن يكون موضع بحث شائق . فهل كان الإسكندر حقاً ينوى إدماج الأجناس ومزجها بعضها ببعض . أم أن كل ما فى الأمر أن قلبه تعلق بحب ما يستمتع به الملك الشرقى من عظمة وقدسية ؟ وكان لذلك يريد أن يتخلص من هؤلاء الأوربيين الذين لا يعدونه إلا ملكاً قائداً ؟ على أن كتّاب عصر الإسكندر ، والكتاب الذين عاشوا فى زمن قريب من عصره أميل كثيراً إلى الأخذ بالفكرة الثانية . وهم يؤكدون لنا أنه كان مغروراً غروراً لا حد له . ويقصون كيف أنه أخذ يرتدى أثواب ملوك الفرس وتيجانهم . « يرتديهما أولا أمام البرابرة وعلى انفراد وبين خاصته ، ولكنه ما لبث حتى أخذ يرتديهما على الملأ عند جلوسه لتصريف الأمور » وسرعان ما طلب من أصدقائه مظاهر الخضوع والخشوع على الطريقة الشرقية .

ولعل هناك شيئاً واحداً يقوى الظن بوجود غرور شخصى عظيم فى الإسكندر . فإن صورته نقشت ونحتت مراراً كثيرة ، وهو يبدو فيها على الدوام فى صورة الشاب الجميل ذى الذوائب المدهشة التى تتدلى إلى الخلف كاشفة عن جبين عريض . وكان معظم الرجال فى سالف الزمان يرخون لحاهم . ولكن الإسكندر الذى فتن بجماله وغضارة شبابه كان يأبى أن تفارقه نضرة الصبا . لذا ظل غلاماً زائفاً فى سن الثانية والثلاثين فكان حليق الوجه وبذلك استن للإغريق وإيطاليا سنّة دامت قروناً كثيرة .

وقصص العنف والغرور فى سنيه الأخيرة تتجمع متكاملة حول ذكراه .

فإنه أصغى ذات مرة إلى هذر نمام وشى له بفيلوتاس بن پارمينيون أحد أشد قواده إخلاصاً وفوزاً بثقته . إذ أبلغه أن فيلوتاس، قال متفاخراً بنفسه أمام امرأة كان يغازلها : « إن الإسكندر إنما هو مجرد غلام . وأنه لولا رجال من أمثال أبيه وأمثاله لما تم له غزو فارس وأشباهها من البلدان » . ومثل هذه الروايات تنطوى على عنصر معين من الصدق . وأحضرت المرأة بين يدى الإسكندر ، فأصغى إلى غدرها وخيانتها . واتهم فيلوتاس للساعة بالتآمر عليه ، ثم أمر به فعذب وأعدم بناء على أدلة بتراء ناقصة . ثم فكر الإسكندر فى پارمينيون ، الذى مات ولداه الآخران من أجله (أى الإسكندر) فى ميدان القتال . فأرسل رسلا سراعاً ليقتلوا الشيخ المسن قبل أن يبلغه مقتل ولده . وكان پارمينيون هذا من أكثر قواد فيليپ تمتعاً بثقته وپارمينيون هذا هو القائد الذى قاد الجيوش المقدونية إلى آسيا قبل مصرع فيليپ . وليس هناك أقل شك فى صحة جوهر هذه القصة وصدق ما تروى . ولا فى إعدام كاليستنيز ابن أخت أرسطو الذى رفض أن يقدم للإسكندر مراسم التقديس . ثم « أخذ يسير فى كبرياء واختيال كمن دلك طغياناً ، على حين كان الشبان يتبعونه بوصفه الرجل الحر الأبى الوحيد بين آلاف الرجال » . ويختلط بأمثال هذه الحوادث تلك القصة التى لها دلالتها — قصة الشجار الذى قتل فيه الملك كليتوس أثناء معاقرتهما الخمر . ذلك أن الملك ورفاقه أكثروا ذات ليلة من الشراب . فأطلق الشراب الألسنة وجعل الحديث عالياً حراً وانطلقت ألسن بالملق الكثير « للإله الصغير » مع الإسراف فى الحط من من قدر فيليپ ، وابتسم الإسكندر لذلك ابتسامة الرضا . وكان ذلك الاغتباط النفسى المخمور فوق ما يطيقه المقدونيون ، فثارت له ثائرة كليتوس — وهو أخوه فى الرضاع — ثورة جنونية . فلام كليتوس الإسكندر على ارتدائه الثياب الميدية وأثنى على فيليپ . وعقب هذا شجار صاخب ، ودفع أصدقاء كليتوس به إلى خارج الحجرة لوضع حد لهذا الشجار . على أنه كان مع ذلك فى حالة السكر التى تبعث العناد فعاد من مدخل آخر

وسمع فى الخارج وهو ينشد مقتبساً هذه الأبيات من شعر يوريبيدس فى نبرة جريئة مليئة بالازدراء «أهذه عاداتكم ؟ أهكذا بلاد الإغريق تكافىء مقاتليها ؟ أيدعى رجل واحد الغنائم التى غنمها الآلاف ؟» .

وعند ذلك اختطف الإسكندر حربة من أحد حراسه وأنفذها فى جسم كليتوس وهو يرفع الستار ليدخل ...

والإنسان مضطر إلى الاعتقاد بأن هذا هو الجو الحقيقى لحياة الفاتح الشاب . ثم إن قصة مظاهر حزنه الجنونى الشديد على هيفايستيون Hephaestion لا يمكن أن تكون كلها اختلاقاً ولا من نسج الخيال تماماً ، فلئن صحت كلها ، أو كانت صحيحة فى بعض أجزائها ، فإنها تكشف عن ذهن مضطرب لا يعرف الاتزان ، ومحصور تماماً فى صغائر الأمور الشخصية ، ذهن لم تكن الإمبراطورية لديه إلا مجالا للمظهر الأنانى ، ولا موارد العالم بأسرها إلا مادة لنوبات من ذلك النوع من السماحة والكرم الذى يسرق ألف إنسان لكى ينتزع إعجاب شخص واحد مبهور بما يجزل له من عطاء .

فإن هيفايستيون الذى كان مريضاً فرضت عليه تغذية خاصة دقيقة — عمد أثناء غياب طبيبه فى المسرح إلى دجاجة محمرة فتناولها ، واحتسى قنينة من النبيذ المثلوج فمات على الأثر . وعند ذلك آلى الإسكندر على نفسه أن يقيم مظاهر الأسى والأحزان . وكان حزنه هذا حزن مجنون معتوه . فأمر بالطبيب فصلب ؛ وأمر بقص شعر كل حصان وبغل فى بلاد فارس وهدم جميع حصون وطوابى المدن المجاورة ، ومنع الموسيقى بتاتاً فى معسكره مدة طويلة . ولما أن استولى على قرى معينة من قرى القوزيين (Cusaeans) أمر بكل البالغين فيها فذبحوا قرباناً لروح هيفايستيون ، ثم خصص ما لا يقل عن عشرة آلاف تالنتوم (talentum) لإقامة قبر له . وكان هذا بالنسبة لتلك الأيام مبلغاً هائلا من المال . وليس فى واحد من هذه الأمور أى تكريم حقيقى لهيفايستيون ، بيد أنها أظهرت للعالم المأخوذ فرقاً ورعباً كم يكون حزن الإسكندر هائلا مروعاً !!

وقد تكون هذه القصة الأخيرة والكثير من أمثالها ترهات وأكاذيب أو تشويهات أو مبالغات ، بيد أن بينها سبباً يجمعها . وبعد حفل صاخب فى بابل اشتد فيه الشراب . ألمت بالإسكندر حمى مباغتة (٣٢٣ ق.م.) فاعتل ومات وهو بعد فى الثالثة والثلاثين لم يتجاوزها . ومنذ ذلك الحين نجد الإمبراطورية العالمية التى كان اختطفها وأمسك بها بين يديه ، كما يفعل الطفل بزهرية ثمينة قد سقطت إلى الأرض وتحطمت إرباً .

فاختفى بموته كل ما لاحت بوارقه فى مخيلة الناس من نظام حكم عالمى شامل . ووقعت البلاد من بعده بين براثن حكم استبدادى مطلق أو أوتوقراطى همجى يغشاه الاضطراب . وأخذ كل حاكم من حكام الأقاليم يشيد لنفسه ويعمل لحسابه . ولم تمض أعوام قليلة حتى أبيدت كل عائلة الإسكندر بأسرها فقد سارعت روكسانا زوجته الأعجمية إلى قتل ضرتها ومنافستها ابنة دارا . ثم وضعت — للوقت — ابناً للإسكندر ولد بعد وفاته ، وكان يسمى هو أيضاً الإسكندر . ثم ما لبث أن لقى مصرعه معها بعد ذلك ببضع سنين (٣١١ ق.م.) . وقتل أيضاً هرقل (Hercules) الإبن الآخر الباقى للإسكندر ؛ وكذلك قتل أيضاً أريدايوس أخو الإسكندر غير الشقيق الضعيف العقل . ولم يفت بلوتارك أن يلقى لمحة أخيرة إلى أوليمبياس فى أثناء فترة وجيزة استمتعت فيها بالقوة والسلطان فى مقدونيا . وقد أخذت تتهم هذا الشخص أولا ثم ذاك ، بتهمة دس السم لولدها الرائع ، فقتلت الكثيرين فى ثورة حنقها ، وأمرت بجثث بعض خاصته الذين ماتوا بعد وفاته ، فاستخرجت من قبورها . ولسنا ندرى هل ألقى هذا البحث والنبش لجثث الموتى أى ضياء جديد على وفاة الإسكندر . وأخيراً قتلت أوليمبياس فى مقدونيا ، إذ اغتالها أصدقاء أولئك الذين قتلتهم .

٦ — خلفاء الإسكندر

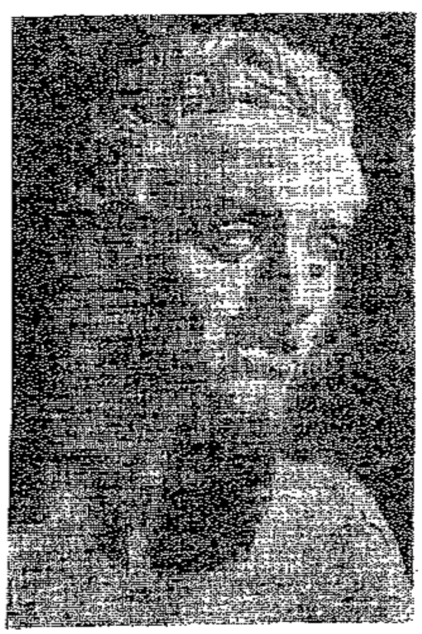
وسرعان ما برزت من حمأة الإجرام هذه شخصيات رئيسية ثلاث .

فإن شطراً كبيراً من الإمبراطورية الفارسية القديمة يمتد حتى السند شرقاً ، وحتى ما يكاد يداني ليديا غرباً ، تملكه قائد واحد اسمه سلوقوس (Se eucus) أسس أسرة مالكة هي الأسرة السلوقية . وانتقلت مقدونيا إلى يد قائد مقدوني آخر هو أنتيجونوس (Antigonus) . واستحوذ على مصر مقدوني ثالث هو بطلميوس (Ptolemy) . فجعل من الإسكندرية قصبة



(٨٥) سلوقوس الأول

لبلاده وأسس قوة بحرية متفوقة تكفل له الاحتفاظ بقبرص ومعظم ساحل فينيقيا وآسيا الصغرى في حوزة يده . ودامت إمبراطوريتا بطلميوس وسلوقوس زماناً طويلا . على أن أوضاع الحكم في آسيا الصغرى والبلقان كانت أقل استقراراً . وإنا لموردون للقارىء خريطتين لتساعداه على تفهم ما كان يطرأ على الحدود السياسية في القرن الثالث ق. م. من التقلبات الكثيرة . وهزم أنتيجونوس وقتل في معركة إبسوس (Ipsus) (٣٠١ ق.م.) تاركاً ليسيماخوس (Lysimachus) والي تراقيا وكساندر (Cassander) والي مقدونيا وبلاد الإغريق ، خلفين له وإن لم يمكثا في الحكم طويلا . واقتطع حكام أقل شأناً



(٨٦) بطلميوس سوتر

ولايات صغرى لأنفسهم . وفي نفس الوقت كان البرابرة يتدفقون من الغرب والشرق إلى عالم المدنية المفكك الأوصال الواهن القوى . وجاء الغال من الغرب ، وهم شعب وثيق القرابة بالكلت ، فأغاروا مجتاحين مقدونيا وبلاد

الإغريق حتى دلفى (٢٧٩ ق . م .) وعبر فرعان منهم البوسفور إلى آسيا الصغرى . كانوا فى مبدأ الأمر يستخدمون جنوداً مرتزقة ، ثم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص كناهبين مستقلين . وبعد أن مضوا فى غاراتهم حتى جبال طوروس تقريباً ، استقروا فى أرض الفريجيين (Phrygians) القديمة ملزمين من حولهم من الناس بدفع الجزية . (وقد أصبح غال فريجيا هؤلاء هم الغلاطيين (Galatians) المذكورين برسالة القديس بولس) وأصبحت أرمينيا والسواحل الجنوبية للبحر الأسود منطقة مضطربة لكثرة من تقلب عليها من حكام . وظهر فى كپادوكيا (Cappadocia) وفى بلاد بونتش (Pontus) وهى الساحل الجنوبى للبحر الأسود وفى بيثونيا (Bithynia) وفى برجامة ، ملوك شبوا متشبعين بالأفكار الهللينية . ومن الناحية الشرقية تقدم كذلك نحو الجنوب الإسكيذيون والپارثيون والباكتريون . واستدامت هناك دول باكترية يحكمها الإغريق لم تنفك تتحول تدريجياً إلى الطابع الشرقى . وفى القرن الثانى ق . م . ، أغار بعض مغامرى الإغريق من باكتريا منحدرين حتى شمال الهند . وأسسوا هناك ممالك قصيرة الأجل ، وهى آخر موجة للإغريق نحو الشرق ، ثم أخذت الهمجية (البربرية) تتدلى تدريجيا كالستار وتحجب الهند عن المدنيات الغربية[1] .

٧ – برجامة ملاذاً للثقافة

هناك دويلة صغيرة تنهض بارزة بين أشلاء هذه الإمبراطورية الهللينية المحطمة وتطالبنا بأن نفرد لها قسماً وجيزاً على الأقل — تلك هى مملكة برجامة (Pergamun) . وقد سمعنا باسم هذه المدينة لأول مرة بوصفهامركزاً مستقلا إبان النزاع الذى انتهى بمعركة إبسوس . وبينما كان سيل غزو الغـــالة يرغى ويزبد ويدور جيئة وذهاباً فى آسيا الصغرى بين سنتى ٢٧٧ و ٢٤١ ق. م. ، ظلت برجامة تدفع الجزية للغالة حيناً من الزمان ، على أنها احتفظت باستقلالها العام . وانتهى الأمر فى موقعتين فاصلتين . وظلت برجامة بعدها حرة طليقة مدة تزيد على قرن من الزمان (أى حتى ١٣٣ ق. م.) ، ولعلها كانت خلال تلك المدة أسمى دول العالم مدنية . وقد

---

(١) عن تفاصيل العصر بعد وفاة الإسكندر ، انظر للمترجم : « الحضارة الهللينسية » : الألف كتاب والأنجلو .

أقيمت على تل الأكروبوليس مجموعة فخمة من المبانى والقصور والمعابد ، كما أقيم متحف ومكتبة ينافسان متحف ومكتبة الإسكندرية اللذين سنتكلم عنهما من فورنا ، ويكادان يكونان أول ما ظهر من نوعهما فى العالم . وقد ازدهر الفن الإغريقى للمرة الثانية بفضل رعاية أمراء برجامة . وإن فيما صنع هناك من النقوش البارزة بمذبح معبد زيوس ، ومن تماثيل الغالة المقاتلين ، وتماثيل الذين فى النزع الأخير لجزءاً خالداً من ذخر الإنسانية الفنى .

ولم يمض طويل زمن كما سنبين ذلك فيما بعد ، حتى أخذ الناس يشعرون فى شرقى البحر المتوسط بسلطان قوة جديدة ، هى الجمهورية الرومانية ، التى كانت ترتبط ببلاد الإغريق وبالمدنية الإغريقية بشعور المودة . ووجدت الجاليات الهللينية ببرجامة ورودس ، فى تلك الجمهورية الرومانية حليفاً طبيعياً نافعاً ومعيناً لها على الغلاطيين والإمبراطوريه السلوقية المصطبغة بصبغة شرقية . وسنقص عليك فيما بعد كيف انتهى الأمر بأن امتد نفوذ الدولة الرومانية إلى آسيا ، وكيف أنها هزمت الإمبراطورية السلوقية فى معركة ماجنيزيا (١٩٠ ق.م.) وطردتها من آسيا الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس ،وكيف انتهى الأمر (١٣٣ ق.م.) بأن استسلم أتالوس الثالث آخر ملوك برجامة إلى إحساسه بالمصير المحتوم ، فجعل الجمهورية الرومانية وارثة لمملكته التى أصبحت عند ذلك ولاية « آسيا » الرومانية .

٨ — الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية

يكاد كل المؤرخين تقريباً ينزعون إلى اعتبار سيرة الإسكندر الأكبر مؤذناً بعهد جديد فى الشئون البشرية . فإنها ضمت شتات العالم المعروف كله باستثناء الجزء الغربى من البحر المتوسط فجعلت منه مسرحية واحدة . على أن الآراء التى كونها الناس عن الإسكندر ذاته ، تتفاوت تفاوتاً بعيداً . فإنهم ينقسمون فى غالبيتهم إلى مدرستين رئيسيتين . ففريق من العلماء يسحره شباب ذلك الفتى وبهاؤه وجلاله . ويبدو أن هؤلاء القوم من عباد الإسكندر ميالون لقبوله على أساس التقدير الذى يقدره هو لنفسه متغاضين

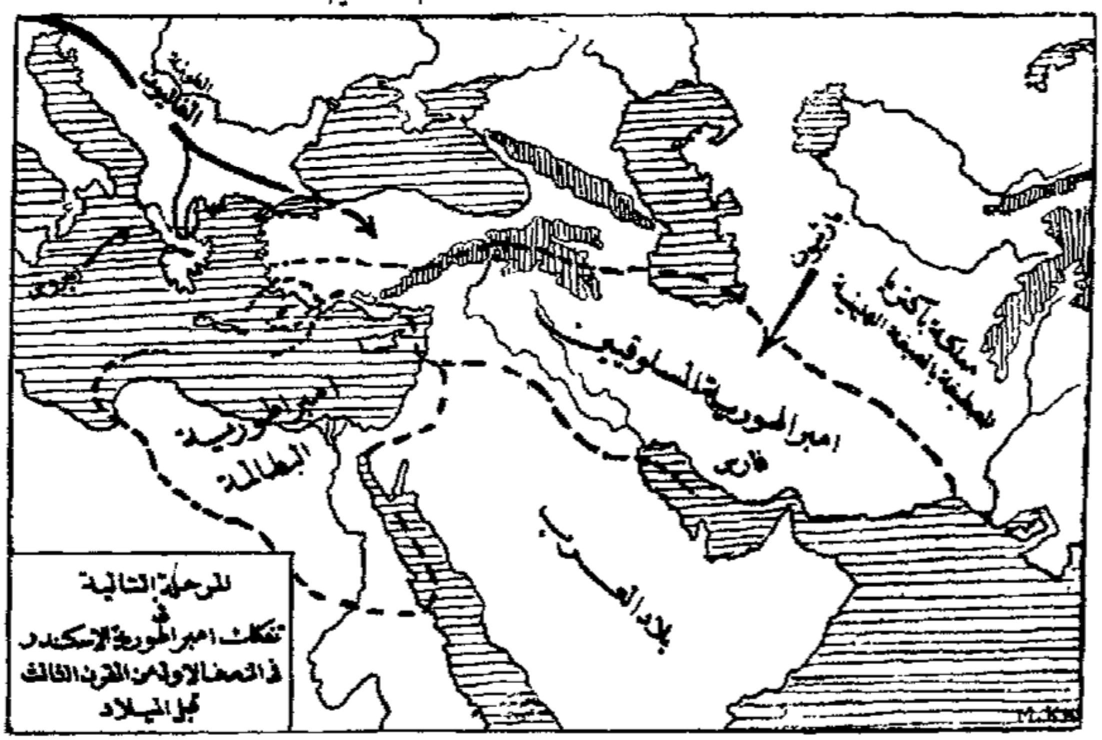
عن كل جريمة ارتكبها وكل طيش ونزق بدر منه ، إما بعدّها مجرد ثوران لطبيعة خصبة أو أشياء اقتضتها الضروريات المريرة التى حتمتها إحدى الخطط الهائلة ، واعتبار حياته مصوغة فى خطة مرسومة من الحنكة والسياسة والتـدبير بصورة لا تكاد معها معرفتنا الواسعة وأفكارنا الفسيحة الآفاق فى هـذه الأيام الحديثة تكفى لإدخالها فى مجال فهمنـا وإدراكنا !!؟ ! ... وهناك من الجانب الآخر ، من يرون فيه مجرد محطم لما كان يتكون ويستحصد من احتمالات لتحقيق عالم حر هادىء مهلّن .

ويحسن بنا قبل أن ننسب إلى الإسكندر أو إلى أبيه فيليب وضع خطط للسياسة العالمية جديرة بأن يقرها المؤرخ الفيلسوف فى القرن العشرين ، أن نتأمل بغاية العناية أقصى ما كان فى إمكان المعرفة والفكر أن يبلغاه فى تلك الأيام . فإن عالم أفلاطون وإيزوقراط وأرسطو ، لم يكن لديه بالفعل أى تراث تاريخى ينتهل منه على الإطلاق ، فإلى ما قبل العصر الحديث بقرنين ، لم يكن لدى العالم ذلك الشىء المسمى بالتاريخ ، وأعنى به التاريخ مميزاً عن مجرد المدوّنات التاريخية الكهنوتية . ولم يتهيأ لأوسع الناس علماً ومعرفة إلا أضيق الفكرات عن الجغرافيا والبلدان الأجنبية . إذ كان العالم ما يزال نظر معظم الناس مسطحاً لا تُعرف له نهاية . وكانت الفلسفة السياسية الوحيدة المنسـقة تقوم على تجارب دويلات مدن صغيرة ، فلم تأبه بالإمبراطوريات ولم يكن أحد ليعرف شيئاً عن أصول المدنية ، ولم يسبق لأحد قط أن تأمل فى الشئون الاقتصادية قبل ذلك الزمان . ولم يكن أحد قد استنبط نتيجة تفاعل إحدى الطبقات الاجتماعية فى الأخرى . وإنا لنسرف فى ميلنا إلى اعتبار حياة الإسكندر وأعماله تاجاً على مفرق بعض عمليات كانت قائمة على قدم منذ زمان بعيد ، وأن نعتبرها أوج رفعة وصعود ، ولا شك أنه كان كذلك من ناحية ما . بيد أننا نكون أقرب كثيراً إلى الصدق حين نقرر أنها لم تكن نهاية قدر ما كانت بداية . فكانت أول وحى أوحى إلى الخيال الإنسانى عن وحدة الشئون البشرية . وكان أقصى ما بلغه فكر بلاد الإغريق قبل زمانه ، هو النظر فى فكرة صبغ الإمبراطورية الفارسية بصبغة هللينية ، وفى بسط سيادة المقدونيين والإغريق على العالم .

ولكن قبل أن يقضى الإسكندر نحبه ، بل وبعد أن مات وتهيأ للناس الزمن لإعادة التفكير فى أمره ، كانت فكرة إيجاد قانون ونظام للعالم أصبحت فكرة عملية تستطيع عقول الناس أن تتمثلها .

وظل الإسكندر الأكبر بضعة أجيال وهو فى عين العالم رمز النظام والسلطان العالمى وعنوانهما الماثل ، فأصبح كائناً خرافياً . وإن رأسه المزدانة بالرموز المقدسة لهرقل نصف الإله أو للإله أمون رع ، لتظهر على عملة كل من استطاع من خلفائه أن يدعى لنفسه أنه وارثه . ثم حمل لواء فكرة السيادة العالمية ، شعب آخر عظيم هو الرومان ، وهو شعب أظهر طوال عدة قرون نبوغاً سياسياً يعتد به . وقد حجبت شخصية مغامر بارز آخر هو قيصر ، ضياء الإسكندر فى أنظار النصف الغربى من العالم القديم .

وعلى هذا فإنا عند مستهل القرن الثالث ق.م. ، نجد أن ثلاثاً من الفكرات البناءة العظيمة التى تتسلط على عقل الجنس البشرى المعاصر ، قد أخذ عودها يشتد فى المدنية الغربية للعالم القديم . ولقد تتبعنا فيما سلف تحرر الكتابة والمعرفة وتخلصهما مما كان يحيطهما به كهنة العالم القديم من أسرار وخفايا ،



ش - (٨٧)

وأشرنا إلى تدريج المبتدئين فى الكهنوت فى درجات الأسرار المقدسة خطوة

خطوة ، كما تعقبنا تطور فكرة جعل المعرفة فى متناول الجميع وفكرة التاريخ والفلسفة اللذين يمكن فهمهما ونقلهما بين الناس كافة . واتخذنا من شخصى هيرودوت وأرسطو شاهدين نموذجيين على هذه الفكرة العظيمة الأولى ؛ فكرة العلم ، مع استعمال كلمة « العلم » بأوسع معانيها وأصحها لتشمل التاريخ وتدل على صورة واضحة للإنسان فى علاقته بالأشياء المحيطة به . وقفونا أيضاً تعميم الديانة عند البابليين واليهود وغيرهما من الشعوب السامية ؛ أى نقلها من العبادة الخفية فى المعابد والأماكن المقدسة لبعض الأرباب المحليين أو القبليين إلى عبادة علنية « لإله واحد للكون كله تدعو للصلاح والبر » معبده العالم بأسره . وتتبعنا أيضاً منذ هنيهة كيف نبتت لأول مرة فكرة « سياسة عالمية » . أما باقى تاريخ الجنس البشرى فهو فى معظمه تاريخ لهاته الفكرات الثلاث فكرة العلم وفكرة البر والصلاح الشامل وفكرة إقامة حكومة عامة للجنس البشرى كافة — فى أثناء ذيوعها وانتشارها من أذهان النادرين الأفذاذ من الأفراد والشعوب التى نبتت فيها لأول مرة ، إلى أن استقرت فى الوعى العام للجنس البشرى ؛ وحين أسبغت عليه فى مبدأ الأمر لوناً جديداً ، ثم أعارته روحاً جديدة ، ثم وجهته توجيهاً جديداً فى الشئون الإنسانية .

الفصل الثالث والعشرون

العلم والدين فى الإسكندرية

١ – علم الإسكندرية . ٢ – فلسفة الإسكندرية .
٣ – الإسكندرية مصنعاً للديدنات . ٤ – الإسكندرية والهند .

١ – علم الإسكندرية

كانت مصر من أشد أجزاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الوجيزة الأمد ، نجاحاً ورفاهة . وكانت من نصيب بطلميوس الذى عرفنا فيه من قبل صديقاً من أصدقاء الإسكندر الذين نفاهم الملك فيليب . وكان القطر على بعد يجعله فى حرز حريز من الغالة السالبة وبارثيا الناهبة . وكان تدمير صور والقضاء على البحرية الفينيقية وإنشاء الإسكندرية ، قد أتاحا لمصر سلطاناً ورفعة بحرية موقوتة فى شرق البحر المتوسط . فنمت الإسكندرية نمواً هيأ لها أن تنافس قرطاجة وأصبح لها فى الناحية الشرقية تجارة خارجية عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب والهند . ونافست تجارتها فى الناحية الغربية التجارة القرطاجية . وكتب لأهميتها التجارية أن تعمر قروناً عديدة قدر لها كذلك أن تبلغ بالفعل أقصى حد لنموها فى ظل أباطرة الرومان .

ووجد المصريون فى حكام البطالمة من مقدونيين وإغريق حكومة أشد عطفاً وأكثر تسامحاً من أية حكومة عرفوها منذ أن انتهى عهدهم بحكومتهم الإمبراطورية المستقلة . وفى الحق إن القول أن مصر هى التى غلبت البطالمة سياسياً وضمتهم إليها أدنى إلى الصواب من القول بأن المقدونيين هم الذين سادوا مصر وحكموها .

والحق إن الذى حدث كان عودة إلى الأفكار السياسية المصرية أكثر منه محاولة لصبغ حكومة البلاد بصبغة هللينية . وأصبح بطلميوس هو الفرعون ، الملك الإله ، كما أن نظامه الإدارى كان امتداداً للتقاليد القديمة من عهد بيبى

وتحتمس ورمسيس ونخاو . وكان للإسكندرية مع ذلك دستور من طراز دساتير المدن الإغريقية يصرِّف الشئون الداخلية للمدينة مع خضوعها لسيادة فرعون الإلهية . وكانت لغة البلاط والحكومة هي اللغة الإغريقية الأتيكية[١]. كما أن اليونانية صارت اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين في مصر إلى حد أن الجالية اليهودية هناك وجدت لزاماً عليها أن تُتَرجِم التوراة إلى تلك اللغة ، إذ لم يعد كثير من بني جنسهم قادرين على فهم العبرانية . ولبثت اليونانية الأتيكية بضعة قرون قبل المسيح وبعده لغة جميع المتعلمين من البحر الأدرياتي إلى الخليج الفارسي .

ويبدو أن بطلميوس وهو أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر ، قد انفرد وحده ببذل أقصى جهده في تحقيق الأفكار المنطوية على تنظيم المعرفة تنظيماً دقيقاً كما أوحاها وبثّها أرسطو في بلاط فيليب المقدوني . وكان بطلميوس رجلا أوتي مواهب عقلية خارقة ؛ يجمع بين قوة الابتكار والتواضع ويخامر نفسه استخفاف — لا يغيب عنا سببه — بالأثر الوراثي الذي خلفته أوليمبياس في عقل الإسكندر . وقد اندثر كتابه الموسوم « التاريخ المعاصر لحملات الإسكندر » ولكنه كان مصدراً استقت منه جميع الروايات الباقية وكانت مدينة له بأعظم الفضل .

وكان المتحف الذي أقامه في الإسكندرية بمثابة أول جامعة في العالم . وكان المتحف كما يدل عليه اسمه (باللغات الأجنبية Museum) مكرساً لخدمة التاسوع الإلهي (Muses)[٢] وكذلك كان شأن مدرسة المشائين في أثينا . ولكنه كان هيئة دينية من الناحية الشكلية فقط . وذلك رغبة في التغلب على الصعوبات القانونية المتعلقة بالهبات المالية في عالم لم يسبق له أن توقع شيئاً من طراز هذه الحركة الفكرية العلمانية . وكان في جوهره كلية مكونة من علماء يعنون بصفة خاصة بالبحث العلمي والتدوين على أنهم يشتغلون أيضاً إلى حد ما بالتعليم . وأنتج المتحف الإسكندري بادئ ذي بدء ، وفي مدى جيلين أو ثلاثة ، نخبة من العلماء لم تستطع أية مدينة أن

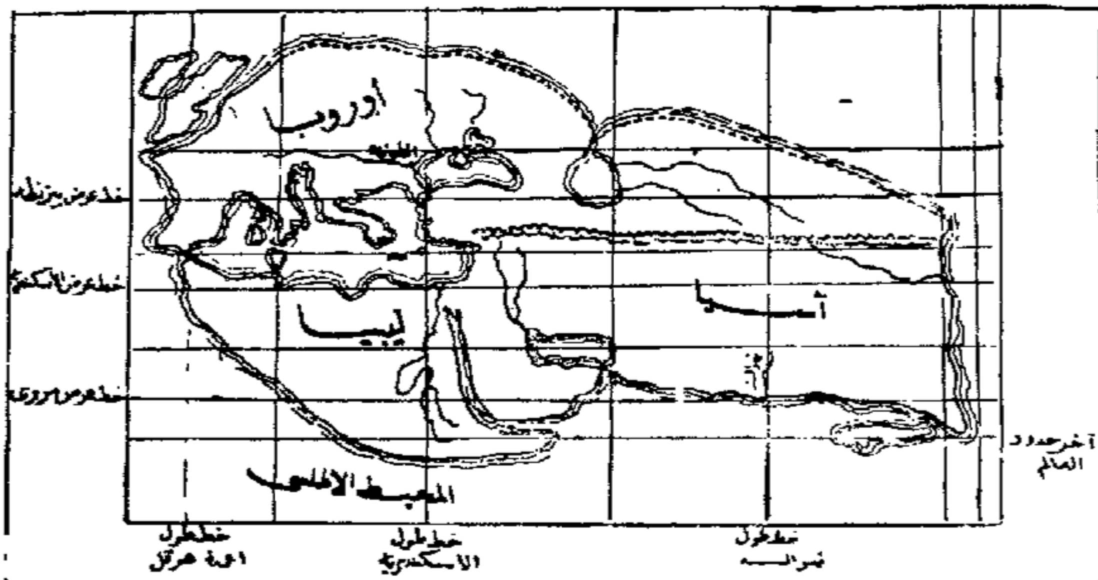
---

(١) الأتيكية نسبة إلى أتيكا وهي المنطقة المحيطة بأثينا . (المترجم)

(٢) الآلهة التسعة وهي عرائس الشعر والأدب وسائر الفنون . (المترجم)

تضارعها حتى أثينا فى أزهى عصورها . وكان الإنتاج الرياضى والجغرافى بالغ الصحة والدقة بوجه خاص . وإن أسماء إقليدس (Enclid) المعروف لكل تلميذ وإراتوسثنيز (Eratosthenes) الذى قاس حجم الأرض ووصل إلى ما يدانى القطر الحقيقى بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى كتب عن القطاعات المخروطية ، لتبرز ظاهرة مرموقة . وقام هيپارخوس (Hipparchus) بأول محاولة لعمل سجل للنجوم وإثباتها على خريطة يمكن الرجوع إليها بغية تسجيل ما عساه أن يحدث فى السماء من تغيرات . واستحدث هيرون (Hero) أول آلة بخارية . وجاء أرشميدس (Archimedes) إلى الإسكندرية

خريطة العالم فى نظر إراتسثنيز (۲۰۰ ق . م)



(٨٨) العالم فى نظر إرتسثنيز (۲۰۰ ق.م.)

يطلب العلم ، وظل يراسل المتحف بين الآونة والأخرى . ولا تقل مدرسة الطب بالإسكندرية عن المتحف شهرة . ولأول مرة فى تاريخ العالم وضع بها المستوى العلمى اللازم لمحترفى مهنة الطب . ويقال إن هيروفيلوس (*Herophilus*) أعظم رجال التشريح الإسكندريين قام بعمليـــة تشريح المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام وهم أحياء ، وانبرى معلمون آخرون للطعن على دراســـة التشريح معارضة منهم لهيروفيلوس وســـاهموا فى تطور علم العقاقير .

على أن هذه الشعلة العلمية التى انبثقت فى الإسكندرية لم تستمر فى خملتها أكثر من قرن . إذ أن نظم المتحف لم يراع فى رسمها أن تضمن الاستمرار فى الإنتاج الفكرى ، لأنه كان كلية « ملكية » يعين الفرعون من بها من الأساتذة والزملاء (كما يجوز لنا أن نسميهم) ويمنحهم مرتباتهم . ويقول الأستاذ (ماهافى) : « إن الطابع الجمهورى الذى اتسمت به الهيئات الخاصة التى تسمى بالمدارس والأكاديميات فى أثينا كان أكثر ثباتاً وأشد استقلالا بكثير » . إذ كانت الرعاية الملكية شيئاً مقبولا مستساغاً ما دام الفرعون هو بطلميوس الأول أو الثانى . على أن السلالة اعتراها الضعف وسرعان ما طغت تقاليد الكهانة القديمة العهد بمصر على البطالمة وابتلعتهم ابتلاعاً وقضت على عقلية المتحف الأرسطاطالية قضاءً تاماً . ولم يكد يمضى على المتحف مئة سنة حتى خبا نشاطه العلمى .

وإلى جوار المتحف وبالإضافة إليه ، أنشأ بطلميوس الأول لنفسه أثراً أخلد وأبقى هو المكتبة العظيمة . وكانت تجمع بين مكتبة الدولة ودار نشر الدولة حيث يجرى العمل على نطاق لم يسمع بمثله الناس حتى ذلك الحين . وقد روعى أن تكون ذات طابع موسوعى تهدف إلى الإحاطة الشاملة بكل شىء . فلو أحضر أى شخص غريب إلى مصر كتاباً غير معروف ، كان لزاماً عليه أن يقدمه لينسخ ويضاف للمجموعة ، وكانت طائفة كبيرة من الناسخين تستخدم على الدوام فى عمل نسخ من جميع التواليف ذات الشهرة والأهمية الواسعة . وكان للمكتبة — شأن مطبعة الجامعة — تجارة مع الخارج ، فكانت مهمتها بيع الكتب . وكان تنظيم ما يتجمع من الكتب وترتيبها وكتابة الفهارس لها عملا يتم بغاية الضبط والنظام تحت إشراف كاليماخوس رئيس المكتبة أيام حكم بطلميوس الثانى والثالث .

ولا بد لنا أن نتذكر أن الكتب لم تكن فى تلك الأيام تتألف من صفحات بل كانت لفات ملفوفة كاللفائف الموسيقية عند لاعبى البيانو العصريين . وكان القارئ الذى يبغى أن يرجع إلى أية فقرة معينة يضطر أن يلف

الكتاب خلفاً أو يلفه أماماً لفاً متعباً ، وهى عملية كانت تبلى الكتب وتبعث السآمة فى القراء . وربما فكر المرء من فوره فى آلة صغيرة بسيطة قريبة إلى الذهن يمكن أن تلف بها مثل تلك اللفة جيئة وذهاباً حين تعن الرغبة فى الرجوع إلى الكتب ، ولكن لم نسمع أن القوم استخدموا شيئاً من ذلك القبيل . فى كل مرة يقرأ فيها الكتاب تتناوله يدان تسحان عرقاً . وقد اهتم كاليماخوس بتقليل ما يضيع من الوقت والتعب ، فقسم المؤلفات الطويلة أمثال تاريخ هيرودوت إلى « أسفار » أو أجزاء كما قد نسميها ، وجعـــل كل سفر لفة منفصلة . واجتذبت مكتبة الإسكندرية إليها من الطلاب عدداً يفوق كثيراً جداً عدد من استهواهم معلمو المتحف . وكان إسكان هؤلاء الزوار القادمين من كافة أصقاع المعمورة وتموينهم عملا تجارياً يعود بجزيل الخير على سكان الإسكندرية .

وربما أخذنا العجب إذ نلحظ مبلغ ما يتصف به تقدم جهاز الحيـــاة العقلية من بطء . وما على القارئ إلا أن يفاضل بين ما يلقاه من تسهيلات فى المكتبة العادية بمنزل إنجليزى من طبقة متوسطة ، مثل التى يشتغل فيها الآن كاتب هذه السطور ، وبين المتاعب ونقص المعدات اللذين كان يكابدهما كاتب إسكندرى ، حتى يتبين له مبلغ مضيعة الوقت والجهد الجثمانى وفرط العناية والانتباه التى ظلت تنفق خلال كل القرون التى ازدهرت فيها تلك المكتبة . وبين يدى الكاتب الآن ستة كتب ، لثلاثة منها فهارس جيدة ، فهو يستطيع أن يتناول أيا من هذه الكتب شاء ، وأن يرجع فى سرعة إلى خبر من أخبارها ، ويحقق اقتباساً يقتبسه ، ثم يتابع كتابته . وما عليك إلا أن توازن بين هذا العمل الخفيف وبين الجهد الممل المسئم من فك طيات المخطوطات الملففة . وفى متناول يدى الآن موسوعتان وقاموس وأطلس للعالم ، وقاموس تراجم حياة الشخصيات وغيرها من كتب المراجع ؛ وليس بها والحق يقال فهارس هامشية ، ولكن لعل فى هـــذا طلباً لأكثر مما ينبغى فى الوقت الحاضر . ولم تكن أمثال تلك المراجع توجد فى العـــالم فى ٣٠٠ ق. م. و لم تكن الإسكندرية قد أنتجت بعـــد أول أجرومية ولا أول قاموس .



(ش ٨٩) خريطة للعالم المعروف حوالى ٢٥٠ ق . م .

وكتابى هذا الماثل بين يدى يكتب باليد فى مخطوط ، ثم يأخذه من يكتبه على الآلة الكاتبة بأعظم الدقة ، ويمكن عند ذاك أن يقرأ وأن يراجع بأقصى غاية اليسر ، وأن يصحح تصحيحاً وافياً ويعاد تصحيحه . فأما المؤلف الإسكندرى فكان عليه أن يملى أو ينسخ كل كلمة كتبها وقبل أن يرجع إلى ما قد كتب آنفاً ، كان عليه أن ينشف آخر كلماته بتلويحها فى الهواء أو صب الرمل عليها ، فلم يكن لديه حتى ورق النشاف . وكل ما يكتبه المؤلف كان لا بد من نسخه مراراً وتكراراً قبل أن يصل إلى محيط واسع من القراء . وكان كل ناسخ يدخل فى الكتاب بضع غلطات جديدة . وكانت

الكتب الجديدة تملى على حجرة مملوءة بالنساخين ، وبذلك تصدر فى طبعة أولى عدتها بضع مئات على الأقل . ويلوح أن أشعار هوراس (Horace) وفرجيل (Virgil) كانت تصدر فى روما فى طبعات كبيرة جداً . فإذا احتاج الأمر إلى الخرائط والرسوم البيانية قامت صعوبات أخرى جديدة . وإن علماً كعلم التشريح مثلا فى اعتماده المعروف على الرسم الدقيق كان يعوقه لا محالة إلى حد كبير ضعف مقدرة النساخين . ولا بد أن انتقال الحقائق الجغرافية كذلك ، كان أمراً شاقاً إلى حد لا يكاد يتصوره عقل . ولا ريب أنه سوف يأتى يوم تبدو فيه مكتبة خصوصية ومكتب من طراز سنة ١٩٢٥ ب . م ، سمجين متأخرين إلى حد عجيب ، بيد أنهما إذا قيسا بمعايير الإسكندرية اتضحت فيهما السرعة والوفاء بالغرض والاقتصاد فى الطاقة العصبية والعقلية إلى درجة مدهشة .

وليس يبدو أن أحداً فى الإسكندرية حاول البتة طباعة أى شىء . وهى حقيقة ربما بدت لنا عجيبة جداً . ذلك أن العالم كان يصيح فى طلب الكتب صيحة تملأ الآفاق ، ولم تكن صيحة طلباً للكتب وحدها ، إذ كان بالناس عامة حاجة ماسة إلى البيانات والإعلانات والتصريحات والإشهارات وما إليها . ومع هذا فلم ينجم فى تاريخ الحضارات الغربية شىء يستطيع الإنسان أن يسميه طباعة حتى القرن الخامس عشر الميلادى . ولا يرجع ذلك إلى أن الطباعة كانت فناً مستعصياً أو كانت متوقفة على ظهور مستكشفات أخرى تسبقها وتمهد لها ، وإنما الطباعة من أشد الحيل وضوحاً ، وكانت فكرتها معروفة على الدوام . وكما سبق أن ذكرنا آنفاً ، فإن هناك دلائل تحملنا على الاعتقاد بأن رجال الفترة المجدلينية فى العصر الحجرى القديم ، ربما كانوا يطبعون أشكالا على أثوابهم الجلدية . وهل كانت أختام « سومر » القديمة إلا ضرباً من وسائل الطباعة ؟ وما العملة إلا معادن مطبوعة . كما أن الأميين فى كل عصر يستعملون فى توقيعاتهم أختاماً من الخشب أو المعادن . ويروى التاريخ أن وليم الأول فاتح انجلترة النورماندى مثلا ، كان يستخدم مثل هذا الخاتم مع الحبر فى توقيع الوثائق . وكانت الآداب القديمة فى الصين تطبع

إبان القرن الثانى ق . م . ومع ذلك فإن الطباعة لم تستعمل قط ، بل لم تستعمل حتى فى الإنتاج المضبوط المتعلق بالصور التوضيحية ، وذلك إما لسبب يرجع إلى مجموعة من الصعوبات الصغيرة حول الحبر أو ورق البردى أو حول شكل الكتب ، أو بسبب المقاومة التى قد يبديها أصحاب العبيد النساخين وقاية منهم لمصالحهم ، أو لأن النسخ كان من السرعة والسهولة بحيث لا يحفز الناس إلى التفكير فى طريقة للكتابة تفوقه سهولة ، كما كانت الكتابة الصينية والحروف القوطية تحفز الناس على التفكير فى ذلك ، أو بسبب وجود ثغرة فى النظام الاجتماعى تباعد بين رجال الفكر والمعرفة من ناحية وبين رجال المقدرة الفنية والممارسة اليدوية من ناحية أخرى .

ولا مراء أن السبب الرئيسى فى هذا النكوص عن النهوض بالطباعة بطريقة منظمة يرجع إلى حقيقة واحدة هى عدم وجود كمية كبيرة من مواد صالحة للطباعة ذات نسيج منتظم وقطع مريح مناسب . وكان مقدار الإنتاج من ورق البردى محدوداً أضيق تحديد . إذ كان لا بد من لصق السلخة إلى السلخة ، ولم يكن هناك حجم معيارى لفرخ الورق . فكأن العالم كان ملزماً أن ينتظر ورود الورق العادى من بلاد الصين ليطلق ذهن أوربا من عقاله . فلو كانت هناك مطابع لاضطرت أن تنتظر فى خمول وركود حتى تصنع لها لفات البردى على عاداتها من البطء والمهل . على أن هذا التفسير لا يبين أسباب النكوص عن استعمال الطباعة بالكتل فى حالة الصور والرسوم البيانية والتوضيحية .

وهذه المصاعب والتحديدات تعيننا على أن نفهم لماذا لم يكن للإسكندرية إلا ما لا يكاد يذكر من الأثر على مجرى السياسة أو على حياة وأفكار الناس من حولها رغم أنها استطاعت على الفور تحقيق أشد الانتصارات الذهنية خرقاً للمعتاد وهو أمر يجعل عملا عظيماً كعمل إراتوسثنيز مثلا ، — إذا راعينا افتقاره إلى الأجهزة — كافياً لرفعه إلى مصاف نيوتن وپاستير . وكان متحفها ومكتبتها مركزاً للنور ، بيد أنه كان نوراً فى فانوس معتم مخبأ عن العالم جميعاً . ولم تكن لديها وسيلة لإبلاغ نتائج أبحاثها إلى الناس عامة ومن يتجاوبون معها منهم فى الخارج خاصة ، إلا بطريقة مملة هى كتابة

الرسائل . ولم يكن فى الإمكان نقل ما كان معروفاً هناك من العلم إلى جموع الناس عامة . وكان لزاماً على الطلاب أن يحضروا متكبدين باهظ النفقات إلى هذا المركز المزدحم ، إذ لم يكن ثمة أى وسيلة أخرى للتحصيل مهما صغر قدره . وكان فى أثينا والإسكندرية مكتبات صغيرة لبيع الكتب يمكن أن تشترى منها دفاتر المذكرات المخطوطة من مختلف الأصناف والقيم بسعر معقول . ولكن أى توسع فى التعليم يجعله ميسوراً لمجموعات أوفر عدداً ويحمله إلى مراكز أخرى كان ينتج على الفور نقصاً فى ورق البردى يضيّق على ذلك التوسع ويحدده . وإذن فلم يصل التعليم البتة إلى الجماهير . وكان لزاماً على المرء إن شاء أن يكون تعليمه عميقاً غير سطحى ، أن يعتزل حياة دنياه العادية ، وأن ينتقل إلى الإسكندرية ليعيش فيها سنوات طويلة عيش الحائم فى جوار حكماء مزودين بأسوأ أنواع المعدات ومرهقين بالأعمال أيما إرهاق . ولم يكن التعليم فى الحقيقة انسحاباً تاماً من الحياة العادية على نحو ما كان الدخول فى الكهانة ، بيد أنه يعدّ مع ذلك شيئاً من هذا القبيل .

وما أسرع ما ذوى من الإسكندرية ذلك الشعور بالحرية ، وتلك الصراحة والاستقامة فى الإدلاء بالعلم التى هى الجو الحيوى للحياة الذهنية الحقة : ذلك أن الرعاية الملكية حتى تلك التى يبذلها بطلميوس الأول نفسه أفضت إلى إحاطة المناقشات السياسية منذ البداية بجو من التضييق . وسرعان ما أدت الشحناء بين مختلف المدارس إلى تسرب خرافات سوقة المدينة وسوء تحاملهم وتحزباتهم إلى مضمار شئون العلم والعلماء .

لذلك زالت الحكمة من الإسكندرية وخلفت وراءها الحذلقة ، واستعيض عن *استعمال الكتب* بعبادة *الكتب* . وسرعان ما أصبح العلماء طبقة متخصصة عجيبة اتسمت بصفات مميزة كريهة . ولم ينقض على المتحف ستة أجيال حتى عرفت الإسكندرية طرازاً جديداً من المخلوقات البشرية : رأت فيه مخلوقاً خجولاً شاذ الطباع غير عملى لا يقدر على القيام بضرورات الحياة ، شرساً أعجب الشراسة على التوافه المتعلقة بالتفاصيل الأدبية واللفظية ،

يغار من زميله فى الداخل مرير غيرته من الجاهل فى الخارج — ذلك هو الرجل اللوذعى العلامة ! ! كان والكاهن فرسَىْ رهان فى التعصب وعدم التسمح ، وإن لم يكن صاحب مذبح . يميل إلى الغموض والإبهام ميل السحرة ، وإن لم يكن له كهف يكتهفه ولم تكن أية وسيلة من وسائل النسخ مهما صعبت شاقة عليه . ولا كان أى كتاب مهما ندر بعيد المنال على يده ، وكأنى به فى عقمه وفُسُولته ضرباً من الإنتاج الطفيلى النامى على هامش الحياة فى التطور الفكرى . وقد كتب لشعلة الذكاء البشرى الحديثة الاشتعال أن تحد حداً كبيراً بقيود خطرة بسبب هذا « الإنتاج الطفيلى » طوال أجيال كثيرة نفيسة ذهبت على الإنسانية هباء .

٢ — فلسفة الإسكندرية

كانت عمليات النشاط العقلى الإسكندرى فى بداية الأمر تتمركز حول المتحف ، وهى حركة علمية فى جل أمرها . أما الفلســفة التى كانت فى عصر سابق يفوق هــذا العصر حيوية وقوة تقوم على مبادئ القوة والسيطرة على النفس والعالم المادى ، فقد تحولت فى الحقيقة إلى مبدأ من مبادئ السلوى الخفية ، وإن لم تتنكر لالتزاماتها ومرعياتها . فكأن الحافز قد تحول إلى مسكِّن . فإن الفيلسوف ترك العالم « ينعى من بناه » كما يقول العامة ، وهو العالم الذى كان الفيلسوف جزءاً منه ، ثم أخذ يعزى نفسه بعبارات وصيغ جذابة ومنمقة جداً قائلا إن العالم وهم باطل ، وأن به هو شيئاً من جوهر السمو وخلاصة الحكمة يخرج به عن العالم ويرفعه عنه . وكانت أثينا أنسب المراكز لمثل هذا النوع من التعاليم الفلسفية ، فإنها أصبحت من الناحية السياسية غير ذات وزن ، وإن ظلت سوقاً عظيماً مكتظاً طوال القرن الرابع ، كما داخلها الانحلال وإن لم يكد يحس به أحد ما بقيت للمدينة المظاهر الخارجية القديمة . كما أنها أخذت تعامل باحترام عجيب مشوب بشىء من الاحتقار من جميع القوات المتحاربة ومن مغامرى

العالم كافة ، ومضى قرنان برمتهما قبل أن أصبحت لمدارس الإسكندرية نفس الدرجة من الأهمية فى المناقشات الفلسفية .

٣ – الإسكندرية مصنعاً للديانات

ولئن تأخرت الإسكندرية فى تطوير فلسفة تتميز بها ، فإنها سرعان ما برزت كمصنع عظيم وسوق كبيرة لتبادل الفكرات الدينية .

ذلك أن المتحف والمكتبة كانا يمثلان ناحية واحدة من النواحى الثلاث لمدينة الإسكندرية ، حيث كانا يمثلان العنصر الأسطورى والهللينى والمقدونى. على أن بطلميوس الأول كان قد جاء بعاملين آخرين جمعهما فى هذا المركز الغريب . فقد كان هناك أولا عدد عظيم من اليهود جيء ببعضهم من فلسطين . ولكن الكثير الغالب منهم أتوا من مصر نفسها من تلك المستقرات والمهاجر اليهودية التى لم يعد أهلها قط إلى بيت المقدس . وكان هؤلاء الأخيرون هم أشتات اليهود المنتشرين فى أرجاء الأرض (Diaspora) ، وهم سلالة اليهود الذين لم يشتركوا فى الأسر البابلى ؛ وإن كانوا مع ذلك يحتفظون بالتوراة ويراعون أحكامها ويتابعون بدقة مراسلة إخوانهم فى الدين فى كافة أقطار العالم . وكان هؤلاء اليهود يسكنون فى حى من الإسكندرية بلغ من عظمه أن أصبحت المدينة أكبر المدن اليهودية فى العالم ، وبها من اليهود عدد يفوق عدتهم فى أورشليم ذاتها . ولقد ذكرنا من قبل أنهم وجدوا من الضرورى أن يترجموا كتبهم المقدسة إلى اللغة الإغريقية .

وكان هناك أيضاً عدد عظيم من الأهالى المصريين تتكلم غالبيتهم اليونانية ولكنهم يحتفظون فى قرارة أنفسهم بتقاليد أربعين قرناً من ديانة المعابد وقرابين المعابد . وبذلك التقت فى الإسكندرية ثلاثة أنماط من العقل والروح، هى الأنماط الرئيسية الثلاثة للجنس الأبيض . وهى تضم النقد المتفهم البصير لدى العقلية الإغريقية الآرية ؛ والحماسة الأخلاقية والتوحيد اليهودى السامى ؛ وتقاليد الخفايا والقرابين القديمة التى رأيناها من قبل تعمل فى

العقائد السرية والممارسات الغامضة فى بلاد الإغريق ؛ وهى أفكار قوية متسلطة كانت تختال صراحاً وجهاراً فى المعابد العظيمة فى مصر الحامية .

تلك هى العناصر الثلاثة الدائمة فى الخليط الإسكندرى . ولكن المرافئ والأسواق أماكن يختلط فيها رجال من كل جنس معروف ، ويوازنون بين آرائهم الدينية وعاداتهم . بل إنه يروى أنه حدث فى القرن الثالث قبل الميلاد أن حضر مبعوثون بوذيون من بلاط الملك أسوكا ببلاد الهند ، وكان هناك فيما بعد على التحقيق جالية من تجار الهنود فى المدينة . ويلاحظ أرسطو فى كتابه « السياسة » أن المعتقدات الدينية لدى الناس عرضة لأن تقتبس صيغتها من النظم السياسية ، « فالرجال لا يقل تمثلهم لحيـــاة الأرباب فى حياتهم الخاصة عن تمثلهم لأشكالها الجثمانية » . وهذا العصر ، عصر الإمبراطوريات العظيمة الناطقة بالإغريقية فى ظل ملوك مستبدين (أوتوقراطيين) لم يكن يتفق البتة مع قيام مشاهير محليين مثل آلهة القبيلة والمدينة القدماء . إذ كان الناس يبتغون آلهة تبلغ من رحابة الأفق مبلغ اتساع الإمبراطوريات على الأقل ؛ لذا فإن عملية عجيبة من التمثّل بين الآلهة كانت دائمة الحدوث فى كل مكان فيما عدا الأماكن التى تقف فيها مصالح الكهانات القوية حائلا دون ذلك . إذ وجد الناس أنه وإن كثر عدد الآلهة ، فالتشابه بينها جميعاً شديد جداً . وحينما وجدت آلهة كثيرة ، أخذ الناس يظنون أنه لابد أن يكون هناك فى الحقيقة إله واحد فقط له أسماء متعددة ، وأنه إنما يتسمى فى كل مكان باسم جديد . فإن چوپيتر (Jupiter) الرومانى وزيوس (Zeus) الإغريقى وبعل مردك البابلى وآمون المصرى — (وهو نفسه آمون أبو الإسكندر المنتحل والخصم القديم لأمنحوتب الرابع) — متشابهة كلها تشابهاً يكفى لكى تدل جميعها على ذاتية واحدة .

« أبو الجميع ، فى كل عصر
المعبود فى كل قُطر

يعبده القديس ، والمتوحش والحكيم
يَهوَه أو چوپيتر أو المولى » .

وحيثما وجدت فروق واضحة تغلب الناس على الصعوبة بقولهم بأن تلك إنما هى صور أو أشكال (أقانيم) مختلفة لإله واحد . وكان بعل مردك مع ذلك أصبح آنذاك إلهاً مضمحلا جداً بالفعل ، لا يكاد يعيش ولو تحت اسم مستعار . فأما أشور وداجون ومن إليهما — وهى آلهة مسكينة تقادم عليها العهد لشعوب مقهورة — فقد محيت من الذاكرة منذ زمن بعيد ، ولم يعد لها محل فى ذلك المزج . فأما أوزيريس وهو رب محبوب لدى عامة المصريين ، سبق فعرف بأنه « أبيس » وهو العجل المقدس فى معبد « منف » فيخلط الناس بعض الشيء بينه وبين آمون . وهو الذى صار تحت اسم سيرابيس الرب العظيم للإسكندرية الهلينية . وكان هو « چوپيترسيرابيس » . وكانت البقرة الربة المصرية « هاتور أو إيزيس » تمثل أيضاً فى صورة إنسانية كزوجة لأوزيريس ، وولدت له الطفل حورسَ الذى نما فأصبح أوزيريس ثانية . ولا ريب أن هذه الأقوال الصريحة تبدو ذات رنة عجيبة فى العقل الحديث ، بيد أن مطابقة هذه الشخصيات بعضها مع بعض وهذا المزج بين رب وآخر يوضح جيداً ذلك الكفاح الذى كانت تقوم به الفطنة البشرية الناهضة لكى تزيد من تعلقها بالديانة وروابطها العاطفية — وزمالتها الأخوية ، على حين كانت تجعل آلهتها أقرب إلى العقل وأكثر شمولا .


(ش ٩٠) — سيرابيس

فهذا الخلط والمزج بين رب وآخر يسمى باسم اتحاد الآلهة[١] (Theocrasia). ولم يحدث هذا المزج فى أى مكان بقوة تفوق ما جرى فى الإسكندرية ، ولم يقاومه فى تلك الفترة إلا شعبان هما اليهود الذين كانت لهم من قبل عقيدتهم فى إله واحد هو يهوه رب السموات والأرض ، والفرس الذين كانوا يدينون بعبادة إله الشمس الواحد .

وبطلميوس الأول هو الذى أقام لا متحف الإسكندرية وحده بل السيرابيوم (Serapeum) المكرّس لعبادة ثالوث من الآلهة كان يمثل نتيجة إحدى عمليات اتحاد الآلهة أعنى الثيوكرازيا ، مطبقة على الأخص على آلهة بلاد الإغريق ومصر .

وكان هذا الثالوث يتكون من الرب سيرابيس (= أوزيريس + أبيس) والربة إيزيس (= هاتور الربة البقرة القمر) ، والرب الطفل حورس . وبطريقة أو بأخرى كانت تتم المطابقة بين أى من الأرباب الأخرى تقريباً ، وبين أى واحد من هذه الصور الثلاث للرب الواحد ، لا يستثنى من ذلك حتى إله الشمس ميثراس (Mithras) عند الفرس ، وكان كل واحد منها هو الآخر ، كانت ثلاثة آلهة ، ولكنها أيضاً إله واحد . وكانت تعبد بحمية عظيمة ، وكانت جلجلة آلة خاصة هى الصلاصل (sistrum) ، وهى إطار علقت به مجموعة من الأجراس ويستعمل على نسق يقارب طريقة استعمال الدف فى مراسم «جيش الخلاص» العصرى ، لازمة تميز الاحتفالات الدينية .



(ش ٩١) — إيزيس وحورس

---

(١) وقد أسميناه أيضاً فى ترجمتنا لكتاب «موجز تاريخ العالم» للمؤلف نفسه الذى نشر فى ١٩٥٨ باسم «توحيد الآلهة» . (المترجم)

وإنا لنجد الآن لأول مرة فى التاريخ فكرة الخلود وقد صارت فكرة الدين الرئيسية وامتدت خارج مصر ؛ وليس يبدو أن الآريين الأول ولا الساميين الأول اهتموا كثيراً بأمر الخلود ، كما أن هذه الفكرة لم تؤثر فى العقل المغولى إلا أثراً طفيفاً جداً ، على أن استمرار حياة الفرد بعد الموت كان منذ أقدم العهود الشغل الشاغل للمصريين . وكان لهذا التفكير عندئذ دور كبير فى عبادة سيرابيس ؛ وتصفه « المؤلفات » الدينيـة التى ألفت عن مذهبه ، والخاصة بعبادته بأنه « مخلّص الأرواح ومرشدها وهو الذى يقود الأرواح إلى النور ثم يتلقاها من جديد » ؛ وتذكر عنه أنه « يبعث الموتى ويعرض نور الشمس الذى يتلهف الناس شوقاً إليه على الذين يبصرون ، وهم من تحتوى قبورهم الطاهرة على أكداس من الكتب المقدسة » ، كما تصفه كذلك « ولسنا بمستطيعين أن نهرب منه أبد الدهر ، فإنه سوف يخلصنا ، ونحن لن نبرح بعد الموت موضع عنايته ورعايته » . وكانت طقوس إحراق الشمع وتقديم النذور — وأعنى به تقديم نماذج مصغرة من أجزاء الجسم الإنسانى تكون فى حاجة إلى العون والشفاء — جزءاً من مراسم العبادة فى السيرابيوم . واجتذبت إيزيس إليها كثيراً من العبّاد المتبتلين الذين نذروا لها أرواحهم ؛ وكانت تماثيلها تقوم فى المعبد وهى متوجة بوصفها ملكة السموات وهى تحمل طفلها حورس بين ذراعيها والشموع تخفق وتذوب أمامها ، وتماثيل أجزاء الجسم الشمعية تتدلى حول المقصورة . وكان على الكاهن المستجد أن يتم مرحلة إعداد وتلمذة طويلة ذات تفاصيل محكمة ويقسم الأيمان على العزوبة ، وعند ما يلقن مبادئ الأسرار ويثبّت كانت تحلق رأسه ويلبس ثوباً من الكتان . . .

وكان حورس بن أوزيريس (سيرابيس) الوحيد المحبوب ، وهو أيضاً إله الشمس ، وكان الجعران ذو الأجنحة المنشورة رمزاً له . وعند حدوث الكسوف ، عند ما تظهر الهالة الشمسية ، يكون لها شبه قوى بجناحى

الجُعل (الجعران) المنتشرين . وكان حورس «شمس الصلاح والبر وفى جناحيه البرء» وأخيراً «صعد إلى الرب» وأصبح والأب واحداً . وهو فى الديانة المصرية القديمة شفيع الخاطئين عند الأب ، وهو يصور فى «كتاب الموتى» الذى كان يدفن مع كل إنسان يستطيع دفع ثمن نسخة منه مدافعاً عن الموتى . وكثير من التراتيل التى تنشد لحورس تشبه بشكل فذ التراتيل المسيحية فى روحها وعبارتها . فتلك الترتيلة الجميلة التى مطلعها «ياشمس حياتى ، يا أيها المخلّص العزيز» ، كانت تغنى لحورس يوماً ما فى مصر .

إن عبادة سرابيس هذه التى انتشرت انتشاراً عظيماً فى جميع أقطار العالم الممدّن فى القرنين الثالث والثانى ق . م. ، تُرى فيها أعجب الطلائع والظواهر المؤذنة بعادات وطرق العبادة التى قدِّر لها أن تتسلط على العالم الأوربى طوال الحقبة المسيحية . غير أن الفكرة الجوهرية للمسيحية وهى الروح الحى فيها — كانت كما سنبين من فورنا — شيئاً جديداً فى تاريخ عقل الإنسان وإرادته . على أن ثياب الطقوس والرمز والصيغة الاصطلاحية التى اتخذتها المسيحية ، والتى ما برحت ترتديها إلى يومنا هذا فى كثير من الأقطار ، قد نسجت ، ولا مراء ، فى عقائد ومعابد چوپيتر سرابيس وإيزيس التى انتشرت عند ذلك من الإسكندرية إلى كافة أصقاع العالم الممدن فى عصر الثيوكرازيا (أعنى اتحاد الآلهة) فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد .

٤ — الإسكندرية والهند

استمرت أهمية الإسكندرية التجارية والفكرية قروناً طويلة . ونحن إذ نتسلف الحوادث وما سندلى إليك به من فورنا عن قيام الدولة الرومانية ، نستطيع أن نخبرك هاهنا أنه حدث فى عهد الإمبراطورية أن أصبحت الإسكندرية أعظم مركز للتجارة فى العالم . وكان للتجار الرومان الإسكندريين

مستقرات عديدة فى جنوب الهند . إذ كان هناك فى كرانجانورعلى ساحل مالابار معبد مكرس لأوغسطوس وكان يدافع عن المستقر فصيلتان رومانيتان . وقد أرسلت البعوث من لدن الإمبراطور إلى مختلف الملوك والأمراء فى جنوب الهنـــد . زد على ذلك أن كليمان (Clement) وكريسوستوم (Chrysostom) وآخرين من الكتاب المسيحيين الأوَل ، أشاروا إلى الهنود فى الإسكندرية وتحدثوا عن عقائدهم .

الفصل الرابع والعشرون

قيام البوذية وانتشارها

---

١ – قصة جوتاما

من الشائق أن ينتقل الإنسان من أوجه النشاط العقلية والأخلاقية فى أثينا والإسكندرية والنمو الفكرى للإنسان فى عالم البحر المتوسط إلى حياة الهند العقلية التى تكاد تكون منفصلة انفصالا تاماً . فقد قامت بتلك البلاد مدنية يظهر أنها نمت من أول أمرها على أسسها الخاصة بها وعلى طابع مميز خاص بها أيضاً ، مدنية كانت منقطعة الصلة عن كل ما عداها من مدنيات الشرق والغرب بفواصل جبلية هائلة وبأقاليم صحراوية فسيحة . وسرعان ما فقدت القبائل الآرية التى هبطت شبه الجزيرة ، اتصالها بذوى قرباها فى الغرب والشمال وتطورت فى اتجاهات خاصة بها . واتضح ذلك بنوع خاص فيمن توغلوا حتى أرض الجانج (الكنج) وما وراءها . إذ وجدوا مدنية منتشرة من قبل فى بلاد الهنـــد هى المدنية الدراڤيدية . نشأت هذه المدنية مستقلة من كل ما عداها مثلما يبدو أن قد نشأت المدنيات السومرية والكريتية والمصرية ، إذ قامت منبعثة عن ذلك التطور الفسيح المدى الذى ألم بثقافة العصر الحجرى الحديث التى وصفنا خصائصها من قبل ، فبعثوا فى هذه

المدنية الدراڤيدية حياة جديدة وغيروها مثلما فعل الإغريق فى المدنية الإيچية ، أو الساميون بالحضارة السومرية .

وكان هؤلاء الآريون الهنود يعيشون فى ظروف مختلفة عن تلك التى كانت سائدة فى الشمال الغربى . فكانوا يعيشون فى مناخ أكثر دفئاً وحرارة ، يجعل الطعام المكون من لحم البقر والشراب المخمر ضاراً فتاكاً ، فاضطروا لذلك أن يلتزموا فى طعامهم تغذية نباتية محضة ، وأمدتهم تربة الأرض الخصبة من تلقاء نفسها بكل ما يحتاجون إليه تقريباً من طعام ، فلم يعد لديهم بعد ذلك ما يحدوهم على التجوال ، لأن المحاصيل والفصول مضمونة تبعث على الطمأنينة ، ولان حاجتهم إلى الكساء والمأوى طفيفة ، كما أن احتياجاتهم كانت قليلة إلى حد لم يساعد على ارتقاء التجارة . وكان لا يزال هناك متسع من الأرض لكل إنسان يريد أن يزرع وكانت الرقعة الصغيرة تكفيه . أما حياتهم السياسية فبسيطة مأمونة نسبياً . فلم تنشأ فى الهند حتى ذلك الوقت أى قوى فاتحة عظيمة ، على حين كانت حدودها الطبيعية قمينة بالحد من أطماع الإمبراطوريات الاستعمارية الأولى فى غربها وشرقها . وانتشرت فى أنحاء البلاد آلاف من الجمهوريات القروية والرياسات الصغيرة الهادئة نسبياً ، ولم تقم فيها حياة بحرية ولا أغار عليها مغيرون من القراصنة ولا تجار غرباء . فإن المرء يستطيع أن يسطر تاريخاً كاملا للهند يصل إلى ما قبل يومنا هذا بأربعمئة عام ولا يكاد يذكر شيئاً عن البحر .

لبث تاريخ الهند قروناً عديدة أسعد حالا وأقل اضطراباً وعنفاً وأقرب إلى عالم الأحلام من أى تاريخ آخر . فكان النبلاء أى الراچاوات يمضون أوقاتهم فى الصيد . وكانت الحياة فى غالب أمرها تقوم على أقاصيص غرام ، وقد ينهض هنا وهناك « مهراجا » بين الراچاوات ويبنى مدينة ويصيد كثيراً من الفيلة ويستأنسها ويقتل كثيراً من النمور ويترك عن أبهته ومواكبه الفخمة سجلا حافلا بالروايات الرائعة .

ومع ذلك فقد كان هناك بين الآريين المتجهين شرقاً حركة فكرية على أشد ما تكون من النشاط ، فألفت ملاحم عظيمة تناقلها الخلف عن السلف بطريق التواتر الشفوى — إذ لم تكن هناك أية كتابة حتى ذلك الحين . وكان لديهم كذلك الشيء الكثير من التأمل الفلسفى العميق الذى لا يزال بحاجة إلى أن توضح علاقته بأنظمة الغرب الفلسفية .

وحدث فى وقت ما بين سنتى ٦٠٠ و ٥٠٠ ق . م . عندما كان حكم كرُويْسوس مزدهراً فى ليديا ، وبينما قورش يعد العدة لاغتصاب بابل من نابونيداس ، — أن ولد مؤسس البوذية فى الهند . ولد فى مجتمع قبلى جمهورى صغير فى شمالى البنغال تحت سفح الهملايا فى ما هو الآن أرض آجام كثيفة على حدود نيبال . وكانت تحكم هذه الدويلة الصغيرة عائلة هى عشيرة ساكيا التى كان سيذاتا جوتاما أحد أفرادها . وكان سيذاتا هو اسمه الشخصى مثل كايوس أو چورچ . أما جوتاما فهو لقبه أو اسم عائلته مثل قيصر أو سميث . فى حين أن ساكيا اسم عشيرته مثل يوليوس . ولم يكن نظام الطوائف استقر بعد فى الهنـــد تماماً ، ولم يكن البراهمة كافحوا بعد حتى تبوءوا رياسة هذا النظام وإن كانوا ذوى امتيازات ونفوذ . ولكن كانت هناك بالفعل فوارق بين الطبقات شديدة ملحوظة كما كان هناك فاصل يفصل تماماً طبقة الآريين النبلاء عن طبقة العامة الأقتم لوناً . وكان جوتاما ينتسب إلى الجنس الأول . وربما استلفت أنظارنا أن تعاليمه كانت تسمى « النهج الآرى أو الحق الآرى » .

ولم يلم العالم إلماماً صحيحاً بحياة جوتاما وآرائه الحقيقية إلا فى نصف القرن الأخير وذلك نتيجة لازدياد الاهتمام بدراسة اللغة البالية (Pali)[1] التى دونت فيها معظم المراجع الأصلية عنه ، وكان يكتنف قصته قبل ذلك أكداس هائلة من الأساطير . ولقد أساء الناس فهم تعاليمه أيما إساءة . على أن لدينا عنه الآن بياناً يفيض إنسانية ويسهل فهمه .

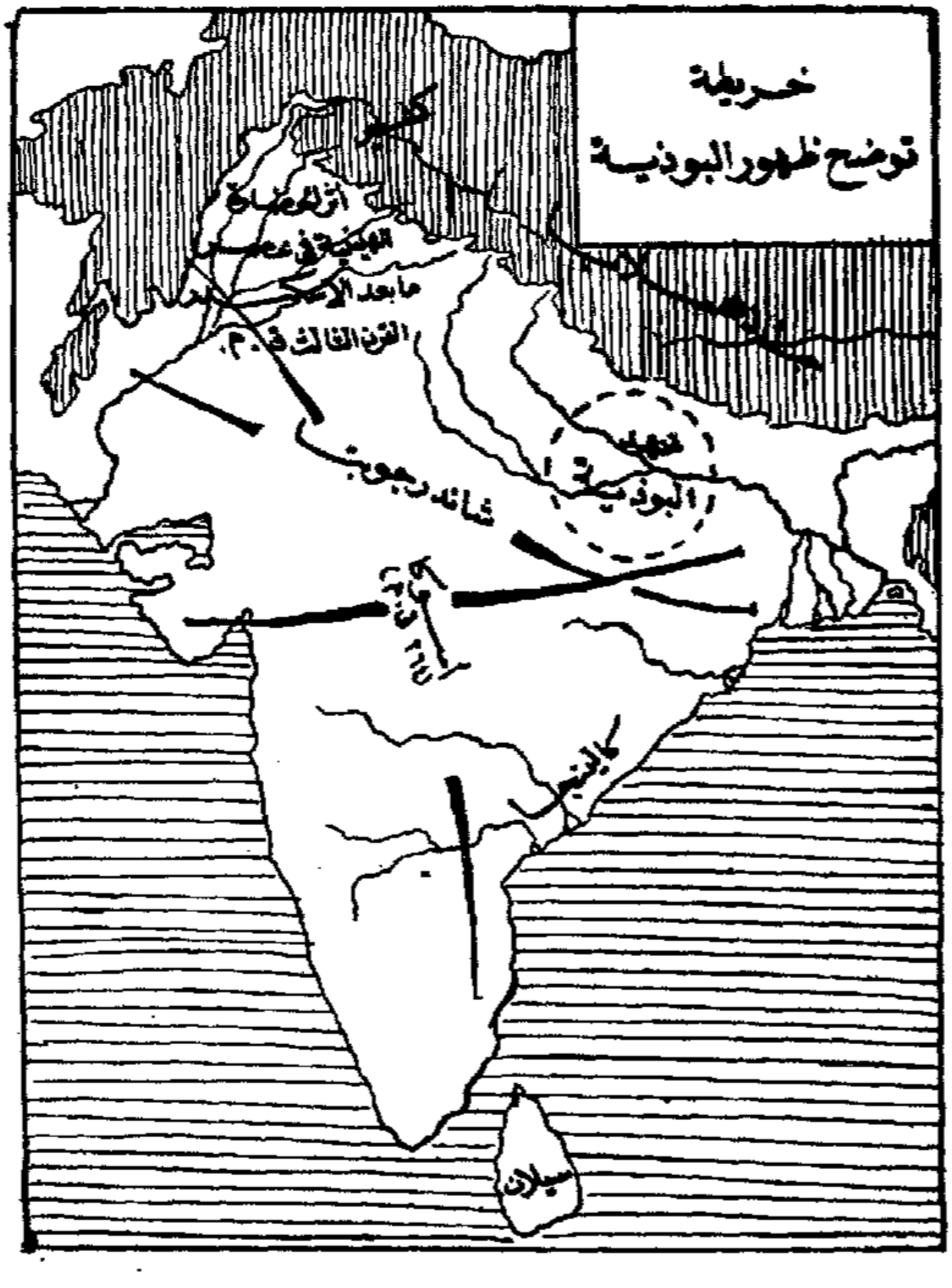
---

(١) اللغة البالية : هى اللغة المقدسة التى كتبت بها نصوص الشريعة البوذية . (المترجم)

كان جوتاما رجلا وسيم الطلعة قدراً ميسر الحال . وقد ظل حتى بلغ سن التاسعة والعشرين يعيش عيشة زمانه الأرستقراطية المألوفة . ولم تكن هذه الحياة من الناحية الذهنية مما يبعث على تمام الرضا . ولم يكن هناك « أدب » اللهم إلا روايات شفوية للملاحم الفيدانتية (Vedantic Epics). وهذه كان البراهمة يحتكرونها بنوع إخاص ، فأما « المعرفة » فكان مقدارها أدنى من ذلك أو يكاد . وكان العالم فى نظر من حوله من الناس تحده الهملايا المكسوة بالثليج شمالا ، ثم هو يمتد نحو الجنوب امتداداً لا آخر له . كما كانت مدينة بنارس التى يحكمها أحد الملوك تبعد عن مستقر عشيرته نحو مئة ميل . وكانت أهم وسائل التسلية القنص والغزل . واستمتع جوتاما بكل ما حفلت به الحياة من طيبات . تزوج فى سن التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة وظلا بلا أطفال بضع سنين لبث أثناءها يتصيد ويلهو ويتنقل فى ربوع عالم مشمس بهيج ، يحظى ببساتينه ومروجه ويروى حقول أرزه . وبينا هو ينعم بهذه الحياة وبهجتها حل به على الفجاءة تبرم وسخط عظيم . وما كان ذلك إلا مظهراً لشقاء ذهن ممتاز متوقد يطلب العمل . كان جوتاما يتقلب بين ألوان من الوفرة وخفض العيش والجمال ، ويتنقل من إشباع شهوة إلى إشباع أخرى ولم تكن روحه لتقنع أو ترضى ؛ وكأنما كانت مقدرات الجنس البشرى تهيب به ، وكان يشعر أن الحياة التى يحياها ليست هى حقيقة الحياة وإنما هى عطلة — طال أمدها أكثر مما ينبغى .

وإنه لعلى تلك الحال ، إذا به يرى أشياء أربعة أدت إلى توجيه أفكاره وجهة جديدة ، فبينما هو يقود عربة فى إحدى رحلاته طلباً للذة والسرور ، إذ صادف رجلا قد أدنفته السن إدنافاً ذريعاً ، وقد اجتذب ذلك المخلوق المسكين المقوس القناة الواهن القوى انتباهه وحرك خياله ، وقال شانَّا (Channa) سائق عربته « هكذا نهج الحياة ولا مفر لنا من هذا المصير » . وبينما كانت هذه الصورة ما تزال ماثلة فى ذهنه ، صادف رجلا يعانى

آلاماً مبرحة من مرض وبيل ، فقال شانتًا « هكذا نهج الحياة » وكان ثالث ما رآه جثة لم توار التراب وقد انتفخت وفقئت عيناها ونهشها الطير والوحش المار بها وهي في جملتها فظيعة كل الفظاعة فقال شانتًا « هكذا نهج الحياة » .



(ش ٩٢) — خريطة توضيح ظهور البوذية وانتشارها

عند ذلك ران على قلب جوتاما الشعور بالمرض والفناء وتعرض كل سعادة للزوال وامتناع كل إرضاء للنفس فيها . ثم رأى هو وشاناً واحداً من أولئك الزهاد المتجولين الذين كان يوجد منهم فى ذلك الزمان أعداد كبيرة بالهند . كان هؤلاء الرجال يعيشون طبقاً لقواعد قاسية ويقضون الزمن الطويل فى التأمل والنقاش الدينى . وذلك أن رجالا كثيرين ممن عاشوا قبل جوتاما فى تلك الأرض الوادعة أرض الشمس الساطعة الوهاجة ، وجدوا الحياة محفوفة بالأحزان والأسرار الغامضة . وكان الظن السائد أن هؤلاء الزهاد بأجمعهم إنما ينشدون فى الحياة حقيقة أشد عمقاً وأبعد غوراً . فتملكت جوتاما رغبة عنيفة أن ينحو نحوهم .

وتقول القصة إنه كان يفكر فى عزمه هذا عند ما بلغه أن زوجته وضعت له بكر أبنائه ، فقال جوتاما : « وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها » .

عاد إلى القرية يحف به تهليل رجال عشيرته واغتباطهم وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات احتفالا بمولد هذا الرباط الجديد . واستيقظ جوتاما فى الليل وهو فى آلام روحانية كأنما هو « إنسان روعه التهام النار منزله » . وكانت الراقصات راقدات فى الردهة وقد علتهن خطوط متعاقبة من الظلمة وضوء القمر ، فنادى شاناً وأمره أن يعد حصانه ثم انسل إلى عتبة غرفة زوجته ، ورآها فى نور سراجٍ زيتى صغير تنام نوماً هادئاً يحيط بها الأزهار وبين ذراعيها ابنه الرضيع فأحس فى نفسه حنيناً شديداً إلى تناول الطفل فى عناق وحيد يكون الأول والأخير قبل رحيله ، بيد أن خشيته إيقاظ زوجته منعته . وأخيراً حول عنهما ناظريه وانطلق إلى ضياء القمر الهندى المتلألئ وكان شاناً ينتظره بالخيل فامتطى جواده وانطلق به يخبط على غير هدى .

وبينا هو يسير تحت جنح الليل مع شاناً ، خيل إليه أن « مارا » الشيطان مغرى الجنس البشرى يملأ عليه فجاج السماء ويدافعه ويصارعه

كان « مارا » يهيب به أن « عُد حيث كنت أجعلك ملكاً ولسوف تكون أعظم الملوك ، أو سر فى طريقك تفشل لا محالة فإنى لن أكف — الدهر — عن اقتفاء أثرك وملاحقتك وسيستهويك آخر الأمر الطمع أو الحقد أو الغضب فى بعض فلتات خطئك ولتصبحن مِلك يمينى إن عاجلا وإن آجلا » .

وقطعا فى تلك الليلة مسافة شاسعة ، فلما أن أشرق الصباح توقف بعد أن اجتاز أرض عشيرته وترجل إلى جوار نهر رملى الشاطئين ، وهنالك قطع بسيفه ذوائبه المهدلة وأماط عنه كل حلية وردها مع جواده وسيفه إلى أهله بصحبة « شانَّا » . حتى إذا واصل مسيره التقى من فوره برجل فى أسمال بالية فتبادل وإياه الثياب بعد أن أماط عن نفسه كل العوائق الدنيوية ؛ وبذلك أصبح حراً فى أن يتابع بحثه عن الحكمة فاتخذ طريقاً جنوبيا إلى مأوى للنساك والمعلمين فى طنُف[١] يؤدى إلى البنغال فى شمال جبال القندهيا بالقرب من مدينة راجچير . وهنالك كان يعيش عدد من الحكماء فى أرض للصيد ذات كهوف يترددون على المدينة لقضاء مطالبهم وينشرون المعرفة بين من يحرصون على التردد عليهم .

ولا بد أن هذا التعليم كان إلى حد كبير على نسق المحاورات السقراطية التى أخذ الناس يتجاذبونها فى أثينا بعد ذلك بقرنين من الزمان . وألم جوتاما بكل غيبيات (متافيزيقا[٢]) عصره . ولكن فطنته المرهفة لم تكن لتقنع بالحلول التى قدمت إليه .

ولقد كان العقل الهندى نزاعاً على الدوام إلى الاعتقاد أن القوة والمعرفة يمكن أن يجتلبا بالزهادة المتطرفة والصيام البالغ والامتناع عن النوم وتعذيب النفس ؛ فأخذ جوتاما يضع تلك الفكرات فى بوتقة الاختبار ، فانطلق ومعه خمسة من رفقائه المتلمذين عليه إلى الأجمة الموجودة فى أحد

(١) الطنف : ما نتأ فى الجبل . (المترجم)

(٢) المتافيزيقا : دراسة بداية كل ما فى الوجود والبحث عن طبيعة الأشياء وفطرتها وإله الكون وخصائصه وغير ذلك من الغيبيات أو ما وراء الطبيعة . (المترجم)

خوانق جبال الڤندهيا ، وهناك استسلم للصيام والكفارات المريرة ، فدوى اسمه فى الآفاق « دوى ناقوس عظيم يتدلى من قبة السماء » . بيد أن التقشف لم يجلب إليــه أى شعور بالوصول إلى الحقيقة . وبينا هو يسير فى أحد الأيام جيئة وذهاباً محاولا أن يفكر بالرغم مما حل به من ضعف وضنى ؛ إذا به يترنح فجأة ويسقط على الأرض مغشياً عليه ، فلما أن أفاق اتضحت له سخافة تلك الأساليب السحرية فى سبيل الوصول إلى الحكمة .

وذهل منه تلاميذه الخمسة وشملهم الفزع عندما طلب الطعام العادى . على أنه رفض أن يواصل قتل شهوات نفسه . ذلك بأنه أدرك أنه مهما يكن مقدار ما يبلغه أى إنسان من الحقيقة فإن خير ما يوصله إليها عقل يتغذى فى جسم سليم . وكانت مثل هذه الفكرة غريبة غرابة مطلقة عن فكرات البلاد والعصر ، فاعتزله تلاميذه وانصرفوا إلى بنارس فى حزن وأسى . وتوقف طنين الجرس العظيم وهوى جوتاما الرائع .

ثم طفق يتجول وحيداً ردحاً من الزمان مناضلا يبتغى النور وهو أشد شخص فى التاريخ وحشة فى وحدته وانفراده .

والعقل عندما يصطرع مع مسألة جليلة معقدة يخطو خطوات ويتثبت من مواطئ قدميه خطوة فخطوة ، وهو لا يدرك المغانم التى غنمها إلا إدراكاً يسيراً ، حتى يفوز بالنصر بغتة فى شىء من الإلهام غير المنتظر الذى ينير له الطريق . وهذا كما يخيل إلينا هو ما حدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه تحت دوحة عظيمة إلى جوار نهر عندما جاءه ذلك الشعور بالرؤية الصافية والبصيرة النافذة . إذ خيل إليه أنه يرى الحياة صافية شفيفة . ويقال إنه جلس طيلة ليله ونهاره مستغرقاً فى فكر عميق ، ثم نهض يذيع على العالم رؤياه وما هبط عليه من وحى .

٢ — التعاليم والأساطير فى نزاع

تلك هى قصة جوتاما البسيطة كما استنتجناها من مقارنة مختلف الكتابات

القـــديمة ، ولكن عامة الناس لابد لهم من المعجزات والأعاجيب الرخيصة .

فليس يعنيهم أن يخرج هـــذا الكوكب الصغير آخر الأمر رجلا يفكر فى الماضى والمستقبل وفى طبيعة الوجود الحقة . لذا لم يكن بد من أن نحصل على مثل الرواية التالية التى سطرها كاتب « پالى » موقر . . . واســـتغل فيها أقصى ما يمليه عليه خياله ، كما يتضح مما يلى :

« عند ما ابتدأ النزاع بين « مخلّص العالم » وبين « أمير الشر » سقط ألف من الشهب المخيفة ، وتراجعت الأنهار تجرى مياهها نحو منابعها ، فأما القنن والجبال المرتفعة حيث كانت تنمو أشجار لا حصر لها مدى عصور كثيرة فقد خرت إلى الأرض هدًّا . . . وكست الشمس نفسها بظلمة مرعبة وامتلأ الجو بجيش من الأرواح غير ذات الرءوس » .



(ش ٣٩) — آلهة هندية : فيشنو — براهما — سيفا

وهى ظواهر لم يترك لنا التاريخ عنها دليلا واحداً يؤيد صحتها . وإنما نجد بدلا من ذلك صورة رجل يسير وحيداً نحو بنارس .

وقد اهتم الناس اهتماماً خارقاً بالشجرة التى جلس من تحتها جوتاما ساعة

أن أطاف به ذلك الشعور بصفاء الذهن . كانت هذه الشجرة من فصيلة أشجار التين . وكان لها فى قلوب الناس منذ البداية احترام خاص وهى تعرف باسم شجرة البو (Bo Tree) . ولقد بادت هذه الشجرة من زمن بعيد ، ولكن لا تزال تعيش إلى جوارها دوحة أخرى ربما كانت سليلتها . وتنمو فى سيلان إلى يومنا هذا شجرة هى أقدم شجرة تاريخية فى العـالم ، نعرف عنها على وجه التحقيق أنها زرعت من فرع من شجرة البوسنة ٢٤٥ ق . م . ، وظلت منذ ذلك الزمان إلى وقتنا هذا تلقى ألوان الرعاية وتسقى بعناية وتسند الأعمدة الضخمة فروعها العظيمة وتعلى الأرض حولها فى مدرجات ومساطب حتى استطاعت أن تمد على الدوام جذوراً جديدة . ومما يساعدنا على إدراك ما عليه التاريخ الإنسـانى بأجمعه من قصر ، رؤيتنا لمثل هذا العدد الكبير من الأجيال الإنسانية تمضى تباعاً عبر امتداد أجل شجرة واحدة . ومن سوء الحظ أن تلاميذ جوتاما عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنايتهم بالحفاظ على أفكاره التى أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسخوها .



(ش ٩٤) — آلهة هندية : كريشنا — كالى — جانيسا

بحث جوتاما فى بنارس عن تلاميذه الخمسة حتى وجدهم ، وكانوا ما يزالون يعيشون عيش الزهادة . وهناك قصة تروى ترددهم فى استقباله عندما رأوه يقترب منهم ، ذلك أنه كان مارقاً مرتداً عن دينه . على أنه كان على شىء من قوة الشخصية تغلب به على فتورهم ثم استطاع أن يحملهم على الإصغاء إلى معتقداته الجديدة . واستمرت المناقشة خمسة أيام حتى إذا أقنعهم آخر الأمر بأنه استنار حقاً حيوه وهتفوا له ونادوا به البوذا . وكان يسود الهند فى تلك الأيام اعتقاد بأن « الحكمة » سوف ترجع إلى الأرض على فترات متباعدات ، وأنها سوف يكتشفها للبشرية شخص مختار يسمى البوذا . وبناء على هذا الاعتقاد الهندى ظهر كثيرون من أمثال هذا البوذا . فجوتاما بوذا إنما هو آخر فرد فى سلسلة البوذوات . على أنه من المشكوك فيه أنه هو نفسه قبل ذلك اللقب أو اعترف بتلك النظرية ؛ فإنه فى أحاديثه لم يسم نفسه قط باسم بوذا .

ثم أسس هو وتلاميذه الذين استردهم إليه ضرباً من الأكاديمية فى حديقة الغزلان ببنارس . فأنشأوا لأنفسهم أكواخاً وجمعوا من حولهم أتباعاً آخرين تزايدوا حتى بلغ عددهم ستين أو يزيدون ، وكانوا يقيمون على الحديث والمباحثة فى مستقرهم هذا إبان موسم المطر ويتفرقون فى أنحاء البلاد أثناء موسم الجفاف فيبشر كل منهم بالتعاليم الجديدة على الصورة التى يراها . وكان كل تعليمهم يتم ، كما يلوح ، بطريق المشافهة . ولم يكن هناك على الراجح أية كتابة فى الهند على الإطلاق، بل إننا لنرتاب فى أن تكون الإلياذة نفسها دونت إبان بوذا ، والراجح أن أبجدية البحر المتوسط — وهى أساس معظم الخطوط الهندية — لم تكن وصلت بعد إلى الهند — فكان المعلم الأكبر إذن ينتج ويؤلف قصائد وحكماً مأثورة وقوائم بالنقط الهامة قصيرة كثيرة اللباب ، فيوسعها تلاميذه فى أحاديثهم . وساعدهم استعمال الأرقام على استيعاب هذه القصائد والحكم المأثورة مساعدة جليلة . وقد يضيق العقل العصرى ذرعاً بنزوع الفكر الهندى إلى بيان أخبار الأشياء بالأرقام مثل

« الطريق المثمن الجوانب » — و « الحقائق الأربعة وهلم جرا » . بيد أن هذا العد كان ضرورة مساعدة للذاكرة فى عالم لا وثائق لديه ولا كتابة .

٣ — إنجيل جوتاما بوذا

إن تعاليم جوتاما الأساسية ، كما تبينها لنا اليوم دراساتنا للمصادر الأصلية ، هى تعاليم واضحة بسيطة منسجمة انسجاماً وثيقاً مع الآراء الحديثة ، وهى بلا نزاع ثمرة ذكاء نفاذ من ألمع ما عرف العالم .

ولدينا الآن ما نكاد نجزم بأنه النقط الرئيسية الصحيحة لعظته إلى تلاميذه الخمسة ، وهى تحتوى على جوهر عقيدته ، فهو ينسب كل ما فى الحياة من شقاء وتذمر إلى الأنانية التى لا تشبع ولا تقنع . ويقول إن الآلام ترجع إلى الذاتية الجشعة المتلهفة وإلى العذاب الناشئ عن الشهوة النهمة . وإلى أن يستطيع المرء أن يكبح كل ما بنفسه من نوازع الاشتهاء والتلهف الشخصى تظل حياته عناءً واضطراباً ويصبح ختامه أسى وعذاباً . وهناك ثلاثة أشكال أساسية يتخذها التلهف على الحياة وهى كلها شر : أولها الرغبة فى إشباع الحواس وهى الرغبة الشهوانية ؛ وثانيها هو الرغبة فى الخلود الشخصى ؛ وثالثها هو الرغبة فى النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا . ولا بد من التغلب على هذه كلها ، أعنى أن الرجل يجب أن يكف عن أن يعيش من أجل نفسه ، قبل أن يتيسر للحياة الصفاء والسكينة . ولكن عند ما تقهر هذه الرغبات بالفعل ولا تعود تسيطر على حياة الفرد ، وعند ما يمحى ضمير المتكلم « أنا » من أفكاره الخاصة ، فإنه يكون عند ذاك قد وصل إلى الحكمة العليا ، إلى السعادة الخالدة ، إلى النرڤانا (Nirvana) *التى هى صفو الروح وسكينته . ذلك أن النرڤانا ليس معناها الفناء كما* يعتقد الكثيرون من الناس خطأ ، وإنما معناها فناء الأغراض الشخصية الباطلة التى تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة أو مروعة .

والآن صار لدينا ولا مراء ، أتم تحليل لمسألة السكينة الروحية . فكل دين جدير بذلك الاسم يهيب بنا ، وكل فلسفة تنادينا أن نفنى أنفسنا فى شىء

أجلّ من أنفسنا وأعظم « فكل من شاء منا أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها » وإنك لتجد هنا هذا الدرس نفسه بالضبط .

ذلك أن تعاليم التاريخ كما تكشفها لك فى كتابنا هذا تتمشى بدقة مع تعاليم بوذا هذه . فلن يتحقق — كما نشاهد بأنفسنا — أى نظام اجتماعى ولا أمان ولا سلام ولا سعادة ولا زعامة رشيدة أو ملكية صالحة ، حتى يفنى الناس أنفسهم فى شىء أجل من أنفسهم . كذلك تكشف لنا دراسة التقــدم البيولوجى الحجب عن نفس العملية بالضبط ، أعنى اندماج الدائرة الضيقة لتجارب الفرد فى محيط أكبر وأوسع . وإن نسيان المرء لذاته فى أثناء اهتمامه بمصالح أعظم منها إنما هو فرار من سجن مطبق .

ويجب أن يكون إنكار الذات كاملا . فإن ذلك الفزع من الموت ، وذلك النهم فى طلب استمرار لا نهائى لحياة الفرد الدنيـة الصغيرة ، وهو الذى دفع بالمصرى ومن تعلم منه ، أن يدخل إلى المعابد حاملا التعاويذ ووسائل الاستغفار ، كل ذلك كان فى نظر جوتاما شيئاً يعادل فى فنائه وفى قبحه وشرهه ، الشهوة أو الشح أو الحقد . وديانة جوتاما تتنافى تماماً وديانات « الخــلود » . وتعاليمه تنهض كالحجر الصلد ضد التقشف والزهادة بوصفها مجرد محاولة للفوز بالقوة الشخصية عن طريق الآلام الشخصية .

أما عن قاعدة الحياة ودستورها : « النهج الآرى » الذى قد نستطيع به أن نهرب من الشهوات والتلهفات الوضيعة فى صـــورها الثلاث التى تصم الحياة الإنسانية بوصمة العار ، فإن التعاليم بشأنها ليست على نفس الدرجة من الوضوح ، وذلك لسبب بيّن جداً ، هو أن جوتاما لم يكن له أى علم ولا بصيرة بالتاريخ ، ولم يكن لديه شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة الكثيرة الجوانب فى انطلاقها فى أرجاء الزمان والفضاء . كان ذهنه محصوراً فى دائرة فكرات عصره وقومه ، وقد جمدت عقولهم حول فكرات التكرار الدائم المتواصل ، والعالم الذى يتلو عالما سبقه ، والاعتقاد بظهور بوذا فى

إثر بوذا ، وهو دوران للكون يتسم بالركود والجمود . أما الفكرة التى تجعل من الجنس البشرى أخوّة كبيرة تتجه نحو مصير لا نهاية له تحت رعاية إله البر والصلاح ، وهى الفكرة التى كان فجرها أنشأ من قبل يطلع فى أذهان الساميين فى بابل فى ذلك الزمان ، فلم يكن لها وجود فى عالمه . ومع ذلك فإن حديثه عن « الطريق المثمن الجوانب » ، يعتبر رغم هذا وبغض النظر عن هذه التحديدات على جانب عظيم من الحكمة والصواب .

وسنلخص فى إيجـــاز العناصر الثمانية للنهـج الآرى : فأولها « الآراء الصائبة » — حيث جعل جوتاما مسألة فحص الآراء والفكرات بإمعان شديد ، والإصرار على الحق والصدق أول مطلب لأتباعه . فينبغى الكف عن التعلق بالخرافات المزوقة القبيحة المخبر . فكان مثلا يستنكر العقيدة السائدة القائلة بتناسخ الأرواح . وتحتوى إحدى المحاورات البوذية الشهيرة الأولى على تحليل مدمر لفـــكرة وجود روح فردية مستديمة . ثم تأتى « الأمانى الصائبة » بعد « الآراء الصائبة » ، فإن الطبيعة تمقت الفراغ . ولمـــا كانت التلهفات والشهوات الوضيعة شوائب لا بد من إقصائها ، فإنه ينبغى أن تحل محلها فى النفوس رغبات سامية من أمثال الرغبة فى خدمة الناس والرغبة فى إقامة العدل وتثبيت أركانه وما شابهها . ولم تكن البوذية البدائية التى لم يتطرق إليها الفساد تجعل هدفها تدمير الرغبة بل استبدالها بأخرى . فمن الجلى أن التعلق بالعلم أو الفن أو بالتحسين والإصلاح ينسجم انسجاماً تاماً مع « الأمانى الصـــائبة » فى البوذية الحقة بشرط أن تـكون تلك الغايات خلواً من الغـــيرة أو من التلهف على الشهوة .

وليست موضوعات « الحديث الصائب » — و « السلوك الصائب » — و « الارتزاق الصائب » بحاجة إلى إفاضة فى البحث هاهنا . ثم يأتى فى البند السادس لهذه القائمة « الكد الصائب » ، إذ أن جوتاما لم يكن ليتسامح بأى حال حيال حسن النية المصحوب بالتوانى فى التنفيــذ . فكان لزاماً على التلميذ أن يقيم على مناشطه عيناً يقظة نفاذة . والعنصر السابع فى

« النهج » وهو « التنبه الصائب » إنما هو الحارس الواقى لنا من الانزلاق إلى الشعور الشخصى أو المجد الذاتى المنبعث عن أى شىء تم أو لم يتم . وأخيراً يأتى « الجدل الصائب » الذى يبدو أنه مصوب ضدّ النشوة العقيمة لدى القانت المتبتل ، أى ضد ذلك الغرور الأحمق مثلا ، الذى كان ينطلق مع جلجلة آلة الصلاصل (السيسترّوم) الموسيقية بمعابد الإسكندرية .

ولن نناقش هنا عقيدة « كرما » (Karma) البوذية لأنها تنتمى إلى عالم فكرى آخذ فى الزوال . فإن الخير والشر فى حياة فرد كانا فى زعمه يحددان السعادة والشقاء فى حياة تالية تكون مطابقة لسابقتها (أى تكون هى هى بنفسها) بطريقة لا يمكن تفسيرها . وإنا لندرك فى زماننا هذا أن حياة الفرد تستمر فى ذريته إلى الأبد . بيد أنا لا نجد أية ضرورة تدعونا لفرض أن أية حياة فردية معينة تستأنف . وكان العقل اهتدى مليئاً بفكرة التكرر الدورانى . إذ كان يزعم أن كل شىء لا بد أن يدور فيعود . وهذا فرض من الطبيعى جداً أن يفترضه الناس . فعلى هذه الشاكلة تلوح لنا الأشياء كلها حتى نحللها . ولقد أوضحت لنا العلوم الحديثة أنه لا وجود لشىء من هذا التكرار أو التعاقب المضبوط ، الذى نميل لافتراضه . فإن كل يوم يكبر سابقه بمقدار متناهٍ فى الصغر ، وما من جيل يكرر سابقه تكراراً دقيقاً مضبوطاً .

والتاريخ لا يعيد نفسه أبداً . إذ أننا نعلم الآن علم اليقين أن ألوان التغير التى تلحقه لا تنتهى ولا يكاد يدركها حصر . فكل شىء جديد جدة أبدية لا نهائية . على أن الفوارق التى تفرق بين آرائنا بصفة عامة وبين آراء بوذا ينبغى أن لا تمنعنا بأى حال عن تقدير حكمته المبتكرة التى لم يسبقه إليها أحد ، وعن معرفة الخير والعظمة اللذين يتجليان فى هذه الخطة التى رسمها جوتاما لحياة طليقة محررة فى زمن ما من القرن السادس قبل الميلاد .

فلئن فشل من الوجهة النظرية فى جمع كلمة جميع من اعتنقوا مذهبه وربط إرادتهم بعضها ببعض فى منشطة واحدة متعددة النواحى لجنسنا البشرى الذى يكافح الموت والحمود فى الزمان والفضاء ، فلقـــد استطاع بالفعل أن يوجه حياته هو ذاته وحياة تلاميذه الأقربين نحو مغامرة واحدة تسير فى سبيل التقدم ، مغامرة كان عليها أن تبشر بمبادئ وأساليب « النرفانا » أى صفو النفس وتنشرها فى كل أرجاء عالمنا المحموم . فكان تعليمه لهم هم على الأقل كاملا موفوراً . على أنه ليس كل الرجال بقادرين على أن يبشروا وأن يعلموا . وليست المذاهب والمعتقدات إلا وظيفة واحدة من وظائف الحياة ، تلك الوظائف التى يقوم جوهرها على البر والصلاح . ويبدو أن الفكر الحديث لا يكاد يفرق بين أن يقوم امرؤ وإن واجهته صعاب كبرى بازدراع الأرض أو بحكم مدينة من المدن أو بتعبيد الطرق أو ببناء البيوت أو بانشاء الآلات ، أو بطلب المعرفة ونشرها على حال من نكران الذات وهدوء النفس التام بل إن هذه الأمور كلها لديه سواء . وكل هذه الأمور تتضمنها بطبيعتها تعاليم جوتاما . ولكن لا شك أن الاهتمام والتشديد كان يوجه إلى التعاليم نفسها ، وإلى الانسحاب من شؤون حياة الناس العادية أكثر منه إلى التسامى بها فى مراقى النبل والكمال .

هذه البوذية البدائية تختلف من أوجه أخرى معينة عن أى دين من الأديان التى بحثناها حتى الآن . فهى قبل كل شىء ديانه خُلُق وسلوك ، لا ديانة طقوس وقرابين . ولم تكن لها معابد . ولما لم تكن لها قرابين لم يكن لها هيئة مقدسة من الكهان وكذلك لم يقم لها أى لاهوت ، وقد وقفت موقفاً محايداً من آلهة الهند التى كان يعبدها الناس فى ذلك الزمان ، تلك الآلهة التى لا تحصى ، والتى غالباً ما كانت غريبة الشكل — فلا هى أكدتها ولا هى اعترفت بها ولا هى أنكرتها ، بل غضت الطرف عنها جميعاً .

٤ – البوذية وأسوكا

أساء الناس فهم هذه التعاليم الجديدة منذ مستهل بدايتها نفسها . وربما كان هناك ناحية فساد واحدة كامنة فى طبيعة تعاليمها . فإن الناس لم يكن لديهم حتى آنذاك أى شعور بأن الحياة مجهود متواصل مطرد ، لذلك كان من أيسر الأمور الانزلاق من فكرة التخلى عن النفس أو نبذها إلى فكرة التخلى عن حياة النشاط والعمل . وكما أظهرت التجارب الخاصة التى مر بها جوتاما ، يكون الفرار من هـــذا العالم أيسر من الفرار من النفس . وكان تلاميذه الأوائل مفكرين مجدّين ومعلمين مجتهدين ، ولكن الانزلاق إلى مجرد عزلة الرهبنة كان أمراً هيناً جداً ، ولا سيما فى مناخ كمناخ الهنـــد تكون فيه بساطة العيش التامة أمراً جذاباً ترتاح إليه النفوس ، وحيث المجهود أتعب للجسم منه فى أى مكان آخر فى العالم .

ولقد شاعت المقادير لجوتاما منذ بداية دعوته ، كما شاعت لكل مؤسسى الديانات منذ زمانه ، أن يحولهم تلاميذهم الأقل ذكاء إلى أعجوبة من الأعاجيب ليؤثّروا بهم فى العالم الخارجى . ولقد ذكرنا من قبل كيف أن تابعاً مخلصاً ، لم يسعه إلا الاعتقاد بأن لحظات الإشعاع العقلى لأستاذه لابد أن تكون بحكم الضرورة مصحوبة بنوبة صرع أصابت عناصر الطبيعة . ذلك مثل صغير للمجموعة الهائلة من الأعاجيب المبتذلة التى سرعان ما تزاحمت حول ذكرى جوتاما .

ومما لا سبيل إلى الشك فيه أن مجرد فكرة الانطلاق والتحرر من النفس ، كانت عند ذاك كما هى الآن فكرة بالغة العسر على أفهام الغالبية العظمى من جمهور الكائنات البشرية . والراجح أن كثيراً من المعلمين الذين كان بوذا يرسلهم من بنارس لم يستطيعوا هم أنفسهم أن يفهموا ويدركوا مراميها ، وأقل منهم من كانوا يستطيعون أن ينقلوها إلى سامعيهم .

فمن الطبيعى إذن أن يصطبغ تعليمهم بصبغة الخلاص ، لا من النفس — إذ كانت الفكرة أبعد عليهم منالا — بل من الشقاوات والآلام فى هذا العالم والعالم الآخر . ولقد وجدوا فى خرافات القوم الموجودة من قبل ، وبخاصة فى فكرة تقمص الروح بعد الموت (وإن كانت هذه الفكرة تناقض تماماً تعاليم أستاذهم الكبير نفسه) مادة من الخوف يستطيعون أن يبنوا فوقها . فاستحثوا الناس على الفضيلة لكيلا يعودوا إلى الحياة ثانية فى أشكال منحطة أو مُتعَسة ، أو أن يقعوا فى أحد أنواع العذاب وهى كثيرة لا يبلغها الحصر ، — وهى الأفكار التى كان المعلمون البرهميون ملأوا بها عقولهم من قبل . ومثلوا البوذا على صورة المنقذ للناس مما لا يكاد يحصيه الحصر من ألوان العذاب .

ويلوح أنه ليس هناك حد للأكاذيب التى كان يذيعها الأتباع الأمناء والأغبياء أيضاً ، رغبة منهم فى تمجيد أستاذهم وبلوغ ما يعدونه نجاحاً لدعاياتهم . فالرجال الذين يترفعون عن قولة الكذب فى حياتهم اليومية يصبحون غشاشين كذابين لا يتورعون عن الدنايا حين يكرسون أنفسهم للدعاية . وذلك من السخافات المحيرة فى طبيعتنا البشرية . فمن عجب أن مثل هاته النفوس الأمينة — وغالبيتهم كانت ولا مراء من الأمناء — تسارع إلى إخبار سامعيهم بالمعجزات التى صحبت مولد البوذا ، وإن أحداً منهم لم يعد يسميه جوتاما ، إذ كان اسماً رُفعت منه كل كلفة واحتشام ، أطلق عليه وهو فى عنفوان قوته وأوج نزاوته . وهم لا يتورعون أن يقبلوا على الناس منبئين لهم بأعاجيب حياته اليومية ، معرجين على ما ظهر على جسمه من النورانية فى ساعته الأخيرة .

وبديهى أنه كان من المستحيل أن يعتقد الناس أن بوذا كان ابناً لأب فانٍ ، بل حملت فيه أمه بمعجزة حيث رأت فى منامها فيلا أبيض جميلا ! وكان هو نفسه فيما سلف فيلا جميلا له ستة أنياب ، تكرم فمنحها كلها إلى صياد فقير ؛ بل لقد ساعده على قطعها من جسمه ... وهكذا .

وفضلا عن ذلك فإن ضرباً من اللاهوت نشأ حول البوذا . فاكتشف الناس أنه إله ، وأنه واحد من سلسلة من كائنات قدسية هي البوذوات . وأن « لكل البوذوات روحاً خالدة » لا تمتد إليها يد الموت . فهناك سلسلة من البوذوات مضت مع الغابرين وأخرى من البوذوات ستتلوها في اللاحقين . بيد أننا لا نستطيع أن نذهب إلى بعد من هذا في معتقدات اللاهوت الأسيوى وبحسبنا أن نشير إلى أن : « تعاليم جوتاما الأخلاقية كادت تختفي عن الأنظار تحت تأثير القوى الخارقة لتلك التخيلات السقيمة . وسرعان ما كانت النظريات تنمو وتزدهر ، فكل خطوة جديدة وكل فرض جديد يستلزم شيئاً آخر جديداً ، حتى أصبحت السماء بأكملها مليئة بمزيفات من نسج الخيال واختفى ما ألقاه مؤسس الديانة من دروس أسمى وأبسط تحت كتلة المعميات الميتافيزيقية البراقة » .

وفي القرن الثالث ق . م . كانت البوذية تكتسب الثروة والسلطان . وكانت مجاميع الأكواخ البسيطة التي يتجمع فيها معلمو المذهب في الموسم المطير ، تخلي مكانها لمبان للأديرة شامخة البنيان وطيدة الأركان . وإلى هذه الفترة تنتمي بداية الفن البوذى . وإذا تذكرنا كم كانت مغامرة الإسكندر حديثة العهد ، وأن كل البنجاب كان ما يزال تحت الحكم السلوقى ، وأن الهند بأكملها كانت غاصـــة بالمغامرين الإغريق ، وأن المواصلات مع الإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ميسورة براً وبحراً ، إذا تذكرنا كل ذلك فليس هناك كبير عجب أن نرى ذلك الفن البوذى الأول متصفاً بخصائص إغريقية قوية ، وأن تكون نحلة الإسكندرية الجديدة : نحلة سيرابيس وإيزيس عظيمة الأثر في تطوره إلى درجة خارقة للعادة .

كانت مملكة جندهارا (Gandhara) الواقعة على الحدود الشمالية الغربية بالقرب من بيشاوار (Peshawar) والتي ازدهرت في القرن الثالث ق . م . ، خير مثال يمثل التقاء العالمين الهلليني والهندى . فهنا يوجد أول ما ظهر من

أعمال النحت البوذية ، وقد انتسجت معها أشكال يمكن للمرء أن يميز فيها أشكال سيرابيس وإيزيس وحورس التى اتخـــذت سبيلها إلى شبكة الأساطير التى اجتمعت حول بوذا . ولا شك أن فنانى الإغريق الذين وفدوا إلى جندهارا عز عليهم أن يهجروا ماألفوه . ولكن يقال لنا إن إيزيس هنا لم تعد إيزيس وإنما هى هاريتى (Hariti) ، وهى ربة وباء وأذى هداها بوذا وجعلها من الصالحات الخيّرات المحسنات ، ويقفو فوشر (Foucher) أثر إيزيس من هذا المكان إلى الصين . بيد أن مؤثرات أخرى كانت تعمل عملها هناك أيضاً . وتصبح القصة أعقد من أن نستطيع تبينها وشرحها فى هذه « المعالم » . كانت للصين ربة تاوية (Taoist) هى الأم المقدسة ، مليكة السماء التى اتخذت لنفسها اسم كوان ين (Kuan-Yin) (وهو فى الأصل اسم مذكر) وهى التى تصادف أن شابهت هيئة إيزيس مشابهة وثيقة . وإنا لنشعر أن شكل إيزيس لابد أن قد أثر فى معالجة كوان ين ، ومن أشباه إيزيس كذلك مليـــكة البحار ســـتيلامارس (Srella Maris) ، وكانت تسمى فى اليابان كوانُن (Kwannon) . ويبدو أنه كان هناك تبادل مستمر فى المظاهر الخارجية للديانات بين الشرق والغرب . فإنا نقرأ فى رحلات هَك (Huc) ، كيف تحير فكره وفكر زميله فى البعثة الدينية لما شاهداه فى العبادات من التقاليد المشتركة بين الشرق والغرب ، حيث يقول : « إن الصليب وتاج الأسقف والثوب الكهنوتى الرسمى والبطرشيل ، التى يلبسها اللامات العظام فى رحلاتهم أو عندما يقومون بطقوس خارج المعبـــد ، والصلاة المصحوبة بجوقتين من المرتلين وترنيم المزامير والتعويذات والرقى والمبخرة المدلاة من خمس سلاسل ، والتى تستطيع أن تفتحها وتغلقها ، والبركات التى يمنحها اللامات بمد يدهم اليمنى على رأس المؤمنين والسبحة والعزوبة الأكليروسية ، والانزواء الروحى ، وعبادة القديسين والصيام والمواكب والأوراد الكنسية ، والماء المقدس ، — كل هذه مماثلات يشترك معنا فيها البوذيون » .

ثم أخذت عقيدة جوتاما ومبادوه ، وهى تجمع المفاسد وتستقبل التغيرات

من البرهمية والهللينية على السواء ، — تنتشر فى أنحاء الهند على يد حشد متزايد من المعلمين فى القرنين الرابع والثالث ق . م . وظلت بضعة أجيال على الأقل محتفظة بالكثير من جمالها المعنوى وبشيء من بساطة طورها الأول . وكثير من الناس ممن لا تستطيع أذهانهم إدراك معنى إنكار الذات وتجاهل مصالحها ، لديهم رغم هذا ، المقدرة على تقدير الروعة التى تنطوى عليها مطابقة هـــذه الصفات للحقيقة والواقع . كانت البوذية الأولى تنتج ولا مراء نفوساً نبيلة ، ولا يخفى أن وسيلة استثارة كامن الاستجابة للنبل فى أذهاننا لا تقتصر على العقل وحده ، بل الواقع أن تلك الاستجابة انتشرت لا بفضل ما قدمت من إذعان للأوهام المبتذلة بل على الرغم من ذلك انتشرت لأن الكثيرين من البوذيين الأوائل كانوا أناساً عذبى الشمائل ، رقيقى العواطف ، يبذلون لغيرهم العون ، ويتجلى فى سجاياهم النبل والمرءة . وهذا أرغم الناس على الاعتقاد بإيمانهم الوطيد الصامد .

اشتبكت البوذية وهى لا تزال فى مستهل حياتها مع ادعاءات البراهمة المتزايدة . وكما سبق أن لاحظنا ، كانت تلك الطائفة الكهنوتية لا تزال فى كفاح من أجل التسلط على الحياة الهندية منذ أيام جوتاما نفسه . وكانت لها من قبل مزايا عظيمة ، فكانت التقاليد والقرابين الدينية حكْرة فى أيديهم لا ينازعهم فيها أحد ، ولكن تطور الملكية كان فى الواقع تحدياً لسلطانهم لأن الرجال الذين أصبحوا زعماء للعشائر وملوكاً ، لم يكونوا فى العادة من طائفة البراهمة .

وتلقى نظام الملكية من غزوات الفرس والإغريق للبنجاب دفعة قوية . وقد ذكرنا من قبل اسم الملك پوروس الذى هزمه الإسكندر بالرغم من أفياله ، وحوّله إلى « ساتراپ » تابع له . وكذلك وفد على المعسكر الإغريقى على نهر السند مغامر آخر يدعى قندراجوبتا موريا أوجندركپت (Chandra gupta Maurya) وهو الذى يسميه الإغريق ساندراكوتوس (Sandracottus) يحمل مشروعاً لفتح منطقة الجانج (الكنج) . ولم تلق الخطة ترحاباً من المقدونيين ، الذين كانوا قد تمردوا ورفضوا متابعة الســـير

داخل بلاد الهنـــد ، فاضطر الرجل أن يغادر المعسكر فراراً وتجول بين القبائل على الحدود الشمالية الغربية ، وحصل على تأييدهم ، فلما رحل الإسكندر اجتاح البنجاب طارداً ممثلى المقدونيين . ثم فتح بلاد الجانج (الكنج) (٣٢١ق. م.) وخاض حرباً (٣٠٣ ق. م .)ضدسلوقوس الأول ، عند ما حاول الأخير أن يسترد البنجاب . وأرسى دعائم إمبراطورية عظيمة تمتد عبر سهل الهند الشمالى بأجمعه من البحر الغربى إلى البحر الشرقى . ثم اشتبك مع قوة البراهمة المتزايدة فى ذلك النزاع بين التاج والكهانة ، الذى سبق أن لاحظنا نشوبه فى بابل ومصر والصين . فرأى فى مبادئ البوذية الآخذة فى الانتشار حليفاً يعينه على إيقاف نمو قوة الكهانة ونظام الطوائف فظاهر النظام البوذى ومنحه العطايا وشجع تعاليمه .

وخلفه على العرش ابنه ، ثم جاء بعده أسوكا (٢٦٤ — ٢٢٧ ق .م .) وهو من أعظم الملوك فى التاريخ . امتدت ممتلكاته من أفغانستان حتى ما يسمى الآن ولاية مدراس . وهو الملك العسكرى الوحيد الذى يشهد التاريخ بأنه تخلى عن الحرب بعد النصر . ذلك أنه غزا كالنجا (Kalinga) (٢٢٥ ق . م .) وهى قطر على امتداد ساحل مدراس الشرقى ، ولعله كان عازماً على إتمام فتح شبه الجزيرة الهندية . وتوجت الحملة بالتوفيق ، ولكنه اشمأز مما رأى من فظائع الحرب وأهوالها . فأعلن فى بعض النقوش التى لا تزال موجودة أنه لن يطلب الغزو عن طريق الحرب بعد هذا ، بل عن طريق الدين . فكرس بقية حياته لنشر البوذية فى كافة أصقاع العالم . ويبدو أنه حكم إمبراطوريته الفسيحة فى سلام شامل وبكفاية عظيمة . لم يكن مجرد متعصب دينى . بيد أنه فى السنة التى حدثت فيها حربه الأولى والأخيرة ، انضم إلى المجتمع البوذى بوصفه رجلا علمانياً عادياً . وبعد ذلك ببضع سنوات أصبح عضواً عاملا فى الهيئة ، وكرس نفسه للوصول إلى النرفانا بواسطة « الطريق المثمن الجوانب » . فكم كانت طريقة العيش هذه تتفق تماماً مع ما تكشفه لنا حياته من جهود وضروب نشاط عظيمة النفع

حافلة بالبر والإحسان . لقد كانت سيرة حياته تمتاز « بالأماني الصائبة » و« الجهود الصائبة » — و « الارتزاق الصائب » . فنظم حركة عظيمة لحفر الآبار في الهند ولزراعة الأشجار طلباً للظل وعين موظفين للإشراف على أعمال الإحسان . وأسس المستشفيات والحدائق العامة . وأمر فأنشئت حدائق لزرع الأعشاب الطبية . فلو أتيح له فيلسوف كأرسطو يوحي إليه بآرائه لحبا البحث العلمي بالعطايا السنية على أوسع نطاق ولا مراء . واستحدث وزارة للعناية بالسكان الأصليين والأجناس المقهورة . واتخذ التدابير اللازمة لتعليم النساء . وكان أول ملك في التاريخ قام بمحاولة لتربية شعبه تربية توحد نظرتهم إلى غايات الحياة وسُبُلها ووهب هيئات التعليم البوذية منحاً جزيلة . وحاول أن يستنهضهم إلى دراسة أدبها الخاص دراسة أوفى وأحسن ، وأقام في طول البلاد وعرضها نقوشاً مستفيضة تسرد على الناس تعاليم جوتاما . وكان ما سطره هو التعاليم البسيطة الإنسانية ، لا الزيادات المحشوة بالسخافات المخالفة للمعقول ، وما تزال خمس وثلاثون من نقوشه باقية إلى اليوم . وفضلا عن ذلك فإنه أرسل المبشرين لنشر تعاليم أستاذه النبيلة المعقولة ، في جميع أنحاء العالم : في كشمير وسيلان كما بعث بهم إلى السلوقيين والبطالمة . فكانت إحدى تلك البعثات هي التي حملت إلى سيلان القطعة المأخوذة من « شجرة البو » التي سبق أن تحدثنا عنها .

وظل أسوكا مدة ثمانية وعشرين عاماً يعمل بعقله الراجح لسد حاجات الناس الحقيقية . وإنك لترى بين عشرات الآلاف من أسماء الملوك التي تزدحم بها قوائم التاريخ بين أصحاب الجلالة والعطوفة والعظمة وأصحاب السمو الملكي ومن إليهم ، اسم « أسوكا » يتلألأ ، بل يكاد يتلألأ وحده كالنجم الثاقب ، ولا يزال اسمه موضع التكريم من الفولجا إلى اليابان . ولا تزال الصين والتبت وحتى الهند نفسها (وإن كانت قد هجرت مبادئه) محتفظات له بالتقاليد العظيمة والذكرى الخالدة . وإن الرجال الأحياء الذين يعتزون بذكراه اليوم لأكثر عدداً من كل من سمعوا أسماء قسطنطين أو شرلمان .

٥ — معلمان صينيان عظيمان

يرى بعض الناس أن ما أغدقه «أسوكا» على البوذية من عطايا عميقة انتهت بها آخر الأمر إلى الفساد ، بما اجتذبته إلى حظيرتها من عدد كبير من الأتباع المرتزقة وغير المخلصين ، ولكن لا سبيل إلى الشك أن امتدادها وانتشارها فى كل أصقاع آسيا يعود معظم الفضل فيه إلى تأثيره هو .

شقت البوذية طريقها إلى آسيا الوسطى عابرة أفغانستان وتركستان وبذا وصلت إلى الصين . ويقول الأستاذ پراماثاناث بوز إن البوذية وصلت إلى الصين قرابة ٦٤ ميلادية فى عهد الإمبراطور مج تى (Ming Ti) من أسرة هان ، وكان الپانديت كاسياپا رسولها إلى الصين ثم تلته سلسلة من المعلمين الآخرين العظماء . وكانت أيام الدعاية البوذية العظيمة فى الصين هى القرنان الثالث والرابع الميلاديان ثم لقيت اضطهادات محزنة ثم عادت فنشطت من جديد وأخذت تبرز وتشتهر قبيل ظهور أسرة تانج .

على أن البوذية وجدت فى بلاد الصين ديانة شعبية منتشرة قد توطدت أركانها من قبل ، هى الديانة التاوية (Taoism) وهى صورة متطورة لما كان يزاوله ذلك الشعب منذ سحيق الأزمان من سحر بدائى عتيق وممارسات خفية . وأعاد تشانج تاولنج (Chang Taoling) تنظيمها كعبادة متميزة فى زمان أسرة هان . ومعنى كلمة تاو (Tao) هو الطريق ، وهذا يشاكل فكرة «النهج الآرى» مشاكلة وثيقة . وابتدأ الأمر بأن نشب الكفاح بين الديانتين ، ثم لم تلبثا أن انتشرتا جنباً إلى جنب ولحقتهما تغييرات متشابهة ، حتى لقد أصبحت المظاهر



(ش ٩٥) هاريتى

متشابهة ، حتى لقد أصبحت المظاهر الخارجية لشعائرهما فى الوقت الحاضر بالغة التشاكل . والتقت البوذية أيضاً بالكونفوشيوسية أو الكونفوشيانية وهى عقيدة تكاد تكون أقل من التاوية من حيث الطابع اللاهوتى وأقرب إلى قانون للسلوك الشخصى . ثم التقت آخر الأمر بتعاليم لاوتسى (Lao Tse) وهو « فيلسوف أخلاقى فوضوى يناصر السلام ومذهب النشوء والارتقاء » . ولم تكن عبادته هذه ديانة قدر ما كانت دستوراً فلسفياً للحياة . ثم اندمجت تعاليم لاو تسى أو (لاهو تسى) فيما بعد فى الديانة التاوية على يد تيشن توان (Chen Tuan) مؤسس التاوية الحديثة .

وكان كونفوشيوس (Confucius) مؤسس الكونفوشيوسية يعيش كذلك فى القرن السادس ق . م . شأن المعلمين العظيمين الجنوبيين (لاو تسى وجوتاما) . وتتجلى فى سيرته بعض أوجه شـبه شائقة بينه وبين بعض الفلاسفة الإغريق فى القرنين الخامس والرابع وإن فاقوه نزوعاً إلى السياسة .



ش ٩٦ — صورة صينية لكوانئين

ويقع القرن السادس ق . م . فى المدة التى يخصصها المؤرخون الصينيون لأسرة تشاو (Chow) ولكن كان حكم تلك الأسرة لا يتجاوز أيامئذ الحكم الإسمى إلا قليلا . فكان الإمبراطور يقوم بالقرابين التقليدية المقدمة من ابن السماء ، ويحظى ببعض مظاهر الاحترام الشكلى . وليت الأمر وقف به عند حد الولاية الإسمية على بلاد الصين بل إن رقعة ملكه لم تكن لتعادل سدس الصين فى الوقت الحاضر . ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى مجريات الأمور فى الصين فى ذلك الزمان . وإذ كانت الصين بالفعل مجموعة من الولايات المتحاربة مفتوحة الفجاج للبرابرة الشماليين . وكان كونفوشيوس فرداً من الرعايا فى إحدى تلك الولايات ، وهى ولاية « لو »

(Lu) وهو أرستقراطى المولد وإن نشأ رقيق الحال . وبعد أن تقلد عـــدة مناصب حكومية ، أقام فى « لو » ضرباً من الأكاديمية يعنى به اكتشاف الحكمة وبثها فى الناس . كذلك نجد كونفوشيوس يجول من ولاية إلى ولاية فى الصين لعله يجد أميراً يتخده مستشاراً ناصحاً له ، ويجعل بلاطه مركزاً لعالم يعمه الإصلاح . وكذلك ذهب أفلاطون بعد ذلك بقرنين وبين جنبيه نفس تلك الأمنية والروح بالضبط إلى الطاغية ديونيسيوس فى صقلية ليصبح مستشاراً له . ولقد ذكرنا من قبل موقف أرسطو وإيزوقراط حيال فيليب المقدونى .

قامت تعاليم كونفوشيوش حول فكرة الحياة النبيلة التى تمثلها فى شخص معيارى أو مثل أعلى هو الرجل الأرستقراطى . وغالباً ما تترجم هذه العباره فى اللغة الإنجليزية باسم الشخص الأسمَى ، ولكن لما كانت كلمتا « الأسمَى » و « الشخص » قد صارت ككلمات « المحترم » و « الموقر » و « الوجيه » من زمان بعيد ألفاظاً تتضمن معنى السباب والسخرية التى تنطوى على شىء من التهكم ، فليس فى ترجمتها على هذه الشاكلة إنصاف للكونفوشيوسية ، فإن مؤسسها قدم بالفعل إلى زمانه المثل الأعلى للرجل المخلص الذى وقف حياته على الخدمة العامة . وكانت الناحية سعامة على أقصى درجة من الأهمية فى نظره . وكان الرجل مفكراً سياسياً إنشائياً أكثر من جوتاما أو لاو تسى . وكان ذهنه فى شغل شاغل بحالة الصين ، فحاول أن يخلق الرجل الأرستقراطى مبتغياً بن ذلك بوجه خاص إنشاء الدولة النبيلة . وإنا لنستطيع أن نقتبس هنا بعض ما قال . « من المستحيل أن يعتزل المرء العالم ، وأن يخالط الطيور والوحوش التى لا يجمعنا وإياها تشاكل ولا تآلف ، فمن ذا الذى ينبغى لى أن أخالطه من الناس إن لم أخالط من يتألمون ويشقون ؟ ، ذلك أن هذه الفوضى التى تعم الدنيا هى الشىء الذى يحتاج إلى جهودى ، ولو أن المبادىء الحقة كانت هى السارية فى أرجاء المملكة ، لما كانت بى أى حاجة إلى تغيير حالتها » .

ويبدو أن الدعامة السياسية التى تقوم عليها تعاليمه تدخل فى خصائص التعاليم الأخلاقية لأهل الصين . ففيها من الاهتمام بالدولة والإشارة المباشرة إليها أكثر مما فى معظم العقائد الهندية والأوربية : الخلقية منها والدينية سواء . وعُين حاكماً فترة من الزمان فى تشنج تو (Chung-tu) وهى إحدى مدن دوقية « لو » وهناك حاول أن ينظم الحياة تنظيماً خارقاً للعادة ، وأن يخضع بالفعل كل علاقة وكل عمل لقواعد ثابتة من أدب اللياقة المحكم التفاصيل . لقد صارت تعاليمه تفرض على الناس كافة ، وهى « مراسم ومرعيات فى كل جزء من تفاصيلها كالتى لا تُرى إلا فى بلاطات الملوك وقصور علية القوم . وأصبحت كل شئون الحياة اليومية خاضعة لقواعد جامدة ، حتى الطعام الذى قد تتناوله طبقات الناس المختلفة امتدت إليه يد التنظيم ، كذلك فرق بين الذكور والإناث فى الطرقات . بل إن سُمْك النعوش وشكل القبور وموقعها ، قد خضعت هى أيضاً للتنظيم » .

وكل هذا ، على حد قول الناس ، صينى[1] جداً . فما من شعب آخر عالج النظام الأخلاقى والاستقرار الاجتماعى قط عن طريق آداب السلوك كالشعب الصينى ، ومع ذلك فقد كان لأساليب كونفوشيوس أثر هائل فى الصين على كل حال ، وما من شعب فى العالم اليوم له مثل هذه التقاليد العامة الشاملة من آداب اللياقة وضبط النفس .

ثم تقوضت بعد ذلك سلطة كونفوشيوس على مولاه الدوق ، فاعتزل الحياة العامة من جديد . وتكدر صفو أيامه الأخيرة بوفاة نفر من أنجب تلاميذه الذين كان يرجى منهم خير عظيم . وقد قال : « ليس هناك من حاكم ذكى ينهض ليتخذنى معلماً له ، وها قد دنا أجلى ! » .

على أنه مات ليخلد . ويقول هيرث (Hirth) : « لا مجال للريب أن كونفوشيوس كان له فى تطور الخلق القومى الصينى أثر أعظم مما لكثير من

(١) صينى هنا بمعنى عقيم أو عجيب . (المترجم)

الأباطرة مجتمعين ، فهو لذلك أحد الشخصيات الأساسية التى يجب تأملها فى كل تاريخ يكتب عن بلاد الصين . فأما تمكنه من التأثير على قومه إلى مثل هذه الدرجة ، فإنه كما يبدو لى راجع أكثر ما يرجع إلى صفات الشعب أكثر منه إلى شخصيته هو نفسه . فلو أنه عاش فى أى جزء آخر من العالم فلربما نسى الناس اسمه . وكما رأينا ، أقام ذلك الرجل خلقه وآراءه الشخصية عن حياة الإنسان بعد أن درس دراسة وافية بعض الوثائق المتصلة اتصالا وثيقاً بالفلسفة الأخلاقية التى أنبتتها الأجيال الســابقة ، فالذى بشر به بين معاصريه لم يكن إذن جديداً كل الجدة عليهم . بيد أنه — بعد أن سمع بنفســه أثناء دراسته للسجلات المدونة القديمة صوت حكماء الماضى خفيضاً خافتاً — أصبح بوقاً يسمع الصم وحاكياً ينقل للشعب تلك الآراء التى استخلصها من التطور الأول للشعب نفسه . . . وليس ما بلغته شخصية كونفوشيوس من الأثر العظيم فى الحياة القومية الصينية راجعاً فحسب إلى كتاباته وتعاليمه كما سجلها أناس آخرون ، بل يرجع كذلك إلى أفعــاله . فقد أصبح خلقه الشخصى كما وصفه لنا تلاميذه وكما توضحه لنا بيانات من تلاه من الكتَّاب — وليس بعيداً أن يكون بعضها بأجمعه من بنات الأساطير — المثال الذى يحتذيه ملايين ممن جبلوا على تقليد السلوك الظاهر لرجل عظيم . . . فكل ما كان يأتيه على الملأ من أفعال ، كان ينظم ويصاغ بأدق تفاصيله طقوساً ومرعيات ، ولم يكن ذلك من مستحدثاته ، لأن التزام المرعيات فى الحياة ظل على الدوام موضع عناية الصينيين قبل كونفوشيوس بقرون كثيرة . ولكن سلطانه ومثاله المحتذى كان لهما أثر كبير فى تخليــد ما كان يعتبره واجبات اجتماعية لازمة .

وكانت تعاليم لاو تسى (لاهو تسى) ، الذى ظل زماناً طويلا أميناً للمكتبة الإمبراطورية فى عهد أسرة تشاو ، أكثر إبهاماً وخداعاً وتملصاً من تعاليم كونفوشيوس . ويلوح أنه دعا المجتمع دعوة الرواقيين (Stoics) إلى عدم المبالاة بما فى العالم من مسرات وسلطان ، كما دعا إلى العودة إلى حياة بسيطة

تخيلها للماضي السحيق . وخلف لنا كتابات ، إلا أنها مقتضبة جداً فى أسلوبها ، شديدة الغموض فى معانيها . حتى لكأنى به يكتب فى ألغاز . وبعد وفاة لاوتسى ألم بتعاليمه ما ألم بتعاليم جوتاما بوذا من قبل من فساد ، وأضيف إليها الشيء الكثير من الأساطير وأدخلت إليها أفكار خرافية ومرعيات شديدة التعقيد والشذوذ . على أن تعاليم كونفوشيوس لم تثقل بمثل هذه الإضافات لأنها كانت واضحة محدودة مستقيمة صريحة لا تسمح بتدسس مثل هذه التشويهات الملتوية .

ويتحدث الصينيون عن البوذية وعن مبادئ لاوتسى وكونفوشيوس باسم التعاليم الثلاثة . وهى تكوّن مجتمعة الأساس ونقطة التحول لكل ما تلاها من تفكير صينى . ودراستها بدقة إنما هى توطئة ضرورية لتأسيس أى رابطة ذهنية وخلقية صحيحة بين الشعب العظيم فى الشرق وبين العالم الغربى .

ويلاحظ أن هناك أموراً معينة يتفق فيها جميع هؤلاء المعلمين الثلاثة ، الذين يعتبر جوتاما أعظمهم وأعمقهم غير منازع ، وهو الذى تتسلط تعاليمه إلى يومنا هذا على فكر الغالبية العظمى من الكائنات البشرية كما أن هناك مظاهر بعينها تتباين فيها تعاليمهم مع الأفكار والمشاعر التى قدر لها أن تسيطر على العالم الغربى على الفور . فهى أولا تعاليم شخصية سمحة ، تعاليم طريق ونهج وطبقة نبيلة ، وليست مبادئ كنيسة ولا هى تسن قاعدة عامة . وهى لاتحبذ عبادة الآلهة الشائعين كما أنها لا تنكر وجودها . ويجب أن نلحظ أن الفلاسفة الأثينيين ، كانوا على نفس الانفصال عن النواحي اللاهوتية ، فكان سقراط على أتم الاستعداد أن ينحنى فى أدب لأى إله تقريباً وأن يقرب القرابين طبقاً للأوضاع المألوفة مع احتفاظه بأفكاره الخاصة . وهذا الاتجاه هو النقيض الصراح للحالة العقلية التى كانت تنبثق وتنمو فى مجتمعات اليهود فى أرض اليهودية ومصر وبلاد بابل ، التى كانت فكرة الرب الواحد لديها هى الأولى المقدمة على كل ما سواها . ولم يظهر لدى كل من جوتاما أو لاهوتسى أو كونفوشيوس أى أثر مهما صغر لفكرة « الرب الغيور » :

ذلك الرب الذى لا يسمح بوجود « أى أرباب أُخَر معه » رب للصدق المر والحق الصارم لا يسمح بأى اعتقاد خفى فى السحر أو العرافة أو العادات القــديمة أو أى قربان يقرب للملك الرب أو أى عبث بالوحدة المطلقة للأشــياء .

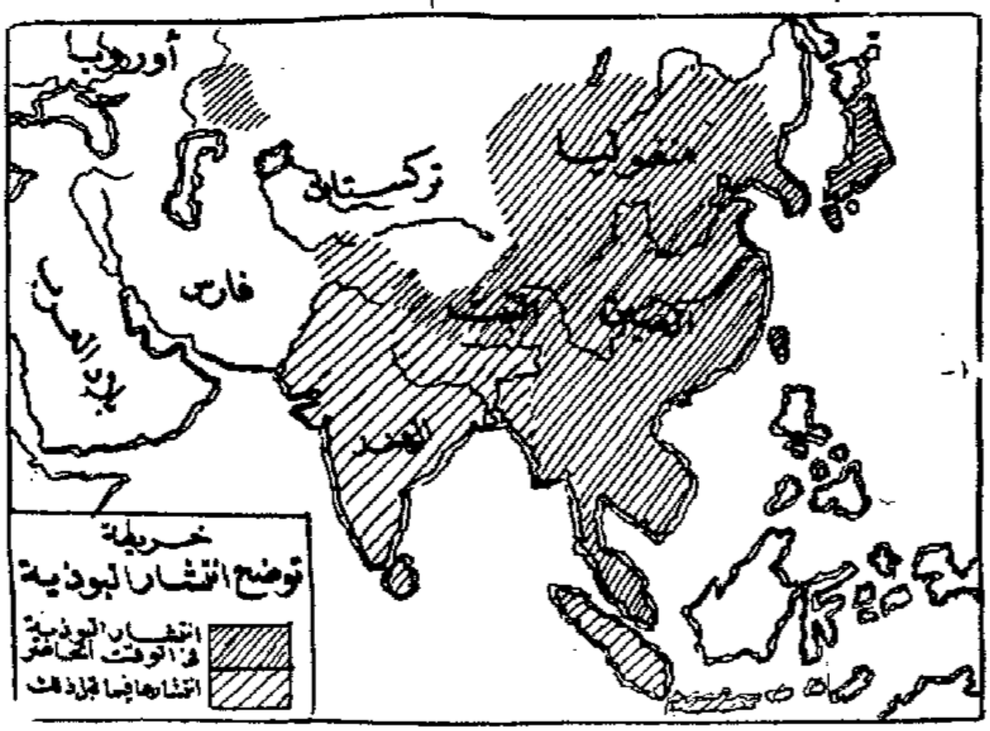
٦ – مفاسد البوذية

كانت عاقبة تعصب العقل اليهودى وعدم تسامحه ، أن احتفظ بعقيدته الأساسية صافية نقية . فإن إغفال المعلمين الشرقيين العظاء اللاهوت ووقوفهم منه على حال لا يحبذونه فيها ولا ينكرونه ، قد أتاح من الناحية الأخرى الفرصة منذ البداية الأولى أمام التفسيرات التفصيلية المحكمة وتجمع الطقوس . وفيما عدا إصرار جوتاما على تحرى « الآراء الصائبة » ، وهو المبدأ الذى كان من السهل إغفاله لم يكن هناك أى عنصر « لتطهير النفس » فى أى من البوذية أو التاوية أو الكونفوشيوسية . ولم يكن هناك أى تحريم فعال لممارسة الخرافات وإنهاض الأرواح واستدعائها والتعازيم والسجود والعبادات الإضافية (النوافل) . ومن ثم سرت فى العقيدة منذ مراحلها الأولى إضافات وزيادات اطردت وتواصلت على مر الزمان . فإن العقائد الجديدة التقطت معظم الأدواء المعيبة بالديانات الفاسدة التى حاولت أن تحل محلها . فأخذت عنها الأصنام والمعابد والمذابح والمباخر .

والتبت اليوم قطر بوذى ، ومع ذلك فلو أن جوتاما بُعث من قبره حياً لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثاً عن تعاليمه بلا جدوى . وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر ، وهو الملك الرب متوجاً وممثلا فى شخص الدالاى لاما (Dalai Lama) الذى هو (البوذا الحى) . وسيجد فى لهاسا (Lhasa) معبداً فخماً غاصاً بالكهنة والرهبان واللامات — وهو (أى جوتاما) الذى لم تكن مبانيه إلا الخصاص والذى لم يكن له أى كهنة .

وإنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنما ذهبياً ضخماً يخبرونه أنه يسمى « جوتاما بوذا » . وإنه ليسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب ، ويرى نواميس وسنناً فيها آثار مبهمة لأشياء مألوفة لديه وتتمّ على ســبيل الاستجابة . وتلعب الأجراس والبخور والسجود دورها فى هذه المراسم المدهشة . ويدق جرس فى لحظة من لحظات الصلاة وترفع مرآة ، بينما تزيد الجماعة بأسرها فى انحنائها إمعاناً فى المهابة والتوقير !!

وإنه ليستكشف حول هذه المنطقة القروية البوذية كثيراً من الآلات الصغيرة ، وهى عجلات هوائية (١) ومائية صغيرة تدور ، وقد كتبت عليها صلوات مختصرة . وسيعلم منهم أنه كلما دارت هذه الأشياء الصغيرة دورة احتسبت بمقتضاها صلاة . وهو لا بد سائل : « لمن ؟ » . وفضلا عن ذلك فإنه سيجد عدداً من ساريات الأعلام فى البلاد تحمل رايات جميلة من الحرير ، رايات حريرية نقشت عليها هذه العبارة المحيرة «Om Mani padme hum» ومعناها « الجوهرة فى اللوتس » . وسيعلم أنه كلما رفرفت الراية كتبت



(ش ٩٧) خريطة توضح انتشار البوذية

(١) وهى العجلة التى يصنعها الأطفال فى مصر ويسمونها أبو رياح (المترجم)

صلاة نافعة جداً للسيد الذى دفع ثمن الراية وللبلاد عامة . وهناك جماعات من العمال يستخدمهم الأتقياء من الناس ليضربوا فى أرجاء البلاد وهم يحفرون هذه العبارة النفيسة فوق جوانب الصخر والأحجار . وسيدرك آخر الأمر أن هذا هو كل ما استخلصه العالم من ديانته !! وتحت هذا البريق الخلاب المتألق دفن « النهج الآرى » الموصل إلى صفو النفس وسكونها .

سبق أن أشرنا إلى خلو البوذية البدائية من كل فكرة تقدمية ، وهى فى هذا أيضاً مباينة لليهودية . ففكرة الوعد أضفت على اليهودية صفة لم تظهر فى أية ديانة سابقة أو معاصرة ، صفة أصبحت اليهودية بسببها ديناً تاريخياً أخاذاً ، كما بررت عدم تسامحها العنيف لأنها كانت ترمى إلى هدف . وبالرغم من صدق تعاليم جوتاما وعمق الناحية السيكولوچية فيها ، فإن البوذية ركدت وأسنت وفسدت بسبب خلوها من تلك الفكرة التوجيهية . ولا بد لنا من الاعتراف بأن اليهودية فى أدوارها الأولى ، لم تتغلغل إلا قليلاً فى نفوس الناس ، فتركتهم سادرين فى شهواتهم وأشحاء مقترين وعلمانيين قد استهوتهم الدنيا أو معتقدين فى الخرافات . ولكن اليهودية بفضل ما بذلته من وعد مقنع وما توافر لها من زعامة ربانية لخدمة غايات قدسية ظلت بالمقايسة إلى البوذية نشطة متوقدة متطلعة إلى المستقبل ، مثل حسام يجد على الدوام من يُعنى بصقاله .

٧ — مجال البوذية الحالى

ازدهرت البوذية فى الهند ردحاً من الزمان . بيد أن البراهمانية بما لها من آلهة كثيرة وأضرب شتى من عقائد لا نهاية لها ، ظلت على الدوام مزدهرة إلى جوارها ، ثم أخذت هيئة البراهمة تزداد قوة ، حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلبوا على هذه العبادة التى تنكر الطوائف ، وأن يطردوها من الهند طرداً تاماً . وليس هذا موضع قصة هذا الكفاح . فقد حدثت

اضطهادات استتبعت ردود أفعال ، ولكن ما كاد القرن الحادى عشر يبزغ ، حتّى كانت تعاليم البوذية خمدت فى الهند اللهم إلا فى ولاية أوريسا . على أن الشيء الكثير من وداعتها وإحسانها قد أدمج فى البرهمانية .

وهى ما تزال على قيد الحياة فى مناطق متّرامية من العالم . ولعل تعاليم جوتاما الأصلية عند ما تتصل بالعلم الغربى وعندما ينفخ فيها التاريخ من روحه ، وحين تنتعش وتنقّى من الشوائب — تستطيع أن تقوم مع ذلك بدور عظيم فى توجيه مستقبل البشر ومصيرهم .

على أنه عند ما أفلتت الهند من يد « النهج الآرى » زال سلطانه من حياة كل الشعوب الآرية . ومن عجب أن يلحظ المرء أنه بينما الديانة الآرية الوحيدة العظيمة تكاد اليوم تكون مقصورة قصراً تاماً على الشعوب المغولية ، فإن الآريين أنفسهم أصبحوا تحت سلطان دينين هما المسيحية والإسلام وهما كما سنرى ساميان خالصان . وتتخذ البوذية والتاوية والمسيحية على السواء أثواباً من الطقوس والمراسم التى يلوح أنها مستقاة عن طريق الهلّينيين من مصر — أرض المعابد والكهانات ، ومن العقلية الأشد بدائية وأولية ، عقلية الشعوب الحاميّة السمراء .

الكتاب الخامس

قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها

الفصل الخامس والعشرون

الجمهوريتان الغربيتان

١ – بدايات اللاتين

من الضرورى الآن أن نتناول تاريخ الجمهوريتين العظيمتين للاتين ظهرتا فى البحر المتوسط الغربى ، وهما روما وقرطاجة[1] وأن نبين لك كيف نجحت روما فى الاحتفاظ طوال أجيال كثيرة بإمبراطورية تكاد تكون أعظم من تلك التى حققها الإسكندر الأكبر بفتوحه . بيد أن هذه الإمبراطورية الجديدة كانت كما سنحاول أن نوضح لك بناء سياسياً يختلف فى طبيعته أبلغ اختلاف عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات الشرقية التى سبقتها . وقد انقضت أجيال عدة كانت تجرى فى غضونها تغيرات هائلة فى تكوين المجتمع الإنسانى وفى أحوال العلاقات الاجتماعية بين طبقاته . وكانت مرونة التعامل بالنقود وقابليتها للتداول قد أخذت تصبح قوة يعتد بها ، ولها ككل القوى فى الأيدى غير الخبيرة خطرها على الشئون البشرية ، فكانت آخذة

(١) قرطاجة : جرت عادة كثير من المؤرخين بكتابتها (قرطاجنة) وهو خطأ ذائع . والصحيح هو (قرطاجة) أو (قرطاج) كما يسميها أهل تونس أنفسهم . أما قرطاجنة فهى مدينة بأسبانيا . (المترجم)

بأسباب تغيير العلاقات بين الأغنياء والدولة وبينهم وبين إخوانهم المواطنين الفقراء . لم تكن هذه الإمبراطورية الجديدة وأعنى بها الإمبراطورية الرومانية ، من صنع فاتح عظيم ، على النقيض من كل الإمبراطوريات السابقة . لم يكن منشؤها راجعاً إلى عاهل كسرجون أو تحتمس أو نبوخذ ناصّر أو قورش أو الإسكندر الأكبر أو قندراجوبتا (جندركبت) ، وإنما هى من صنع جمهورية . ثم إنها تولدت واتسعت بحكم نوع من الضرورة ونتيجة لقوى جديدة تعمل على التركيز والتوحيد وتتجمع ويتزايد نفوذها باطراد فى شئون البشر .

على أنا نرى أن نبدأ الحديث بإلمامة بسيطة بالأحوال السائدة فى إيطاليا فى القرون السابقة لظهور روما فى قصة العالم .

والراجح أن إيطاليا قبل سنة ١٢٠٠ ق. م. أعنى قبل قيام الإمبراطورية الأشورية وحصار طروادة وتدمير كنوسوس النهائى وبعد عصر أمنحوتب الرابع كانت كأسبانيا لايزال يسكنها فى معظم الأمر شعب أبيض داكن ينتمى إلى الجنس الأيبيرى الأصلى الذى هو جنس البحر المتوسط الأساسى القديم . والراجح أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا متأخرين قليلى العدد . ولكن الآريين كانوا قد أخذوا من قبل ينحدرون جنوباً فى إيطاليا كما فعلوا فى بلاد الإغريق . ولم تأت سنة ١٠٠٠ ق. م. حتى كان المهاجرون من الشمال استقروا وانتشروا فى معظم شمال إيطاليا ووسطها . وكما حدث فى بلاد الإغريق اختلطوا زواجاً بسابقيهم الداكنين وأسسوا مجموعة من اللغات الآرية هى المجموعة الإيطالية وهى أقرب إلى الكلتية الجايلية (Gaelic) منها إلى أية مجموعة أخرى من اللغات . وأهم هذه اللغات من وجهة النظر التاريخية هى تلك التى تتكلمها القبائل اللاتينية النازلة فى السهول الواقعة جنوبى وشرقى نهر التيبر . وكان الإغريق فى نفس الوقت قد أخذوا يستقرون فى بلاد الإغريق وأخذوا عند ذاك يتطلعون إلى البحر ويعبرونه إلى جنوبى إيطاليا وصقلية مستقرين فيهما هناك ، ثم أنشأوا

فيما بعد المستعمرات على طول ساحل الريڤيرا الفرنسي وأسسوا مرسيليا فى بقعة كانت تشغلها مستعمرة فينيقية عتيقة . وثمة شعب شائق آخر هبط إيطاليا بحراً وهم شعب قوى الشكيمة متين العضل ضارب إلى السمرة كما يستنتج مما خلفوه من صور لأنفسهم . وأغلب الظن أنهم قبيلة من أولئك الإيچيين البيض الداكنين الذين كان الإغريق يدفعونهم دفعا خارج بلاد اليونان وآسيا الصغرى والجزر الواقعة فيما بينهما . لقد ذكرنا من قبل قصة كنوسوس وأهالى كريت واستقرار ذوى قرباهم الفلسطينيين فى أرض فلسطين . فهؤلاء الإترسك : (الإتروريون) كما كانوا يسمون فى إيطاليا عُرفوا حتى فى الأزمنة القديمة بأنهم من أصل أسيوى . ولعل من المغرى — وإن لم يكن له على الراجح ما يبرره — أن نربط هذه الفكرة المتواترة بالإينيادة (Aeneid) وهى ملحمة الشاعر اللاتينى ڤرچيل التى تنسب فيها المدنية اللاتينية إلى نازحين طرواديين من آسيا الصغرى (على أن الطرواديين أنفسهم كانوا فيما يرجح شعباً آرياً يمت إلى الفريچيين ببعض الأواصر) . وقد فتح هـذا الشعب الإتروسكى معظم إيطاليا شمالى نهر التيبر منتزعين



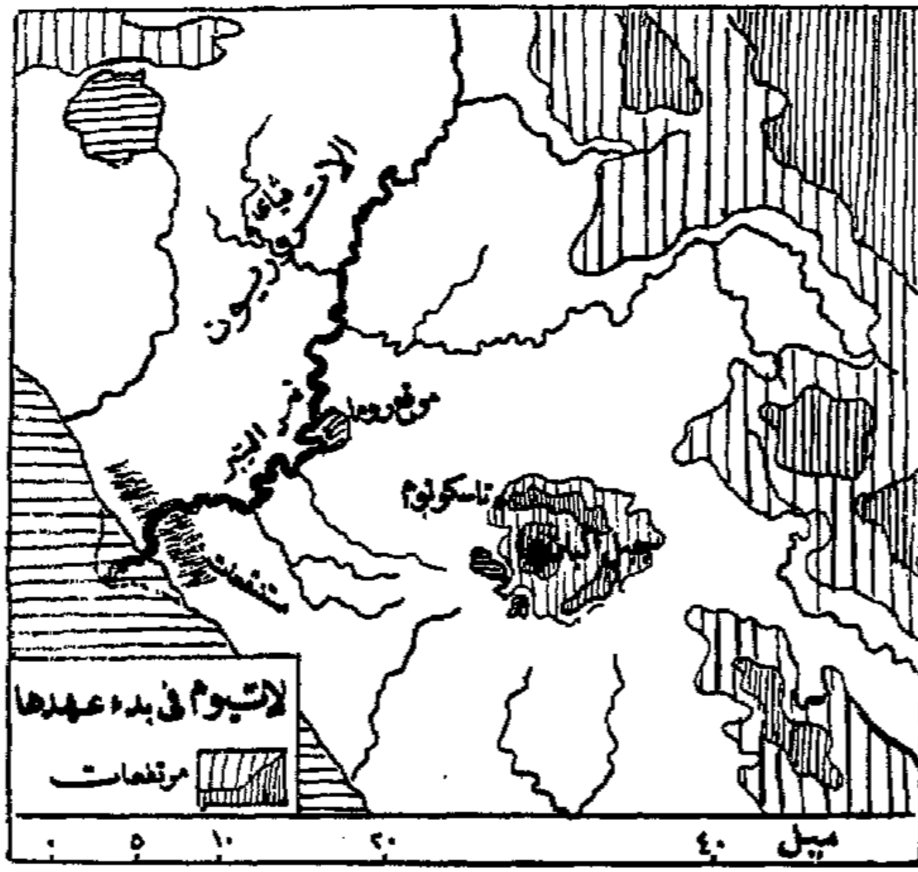
(ش ٩٨) خريطة الحوض الغربى للبحر المتوسط

إياه من القبائل الآرية التى كانت متناثرة فى أرجاء تلك البـــلاد . ولعل الإترسك كانوا يحكمون شعوباً إيطالية مقهورة وبذلك قلبوا الوضع الذى كان جارياً فى بلاد الإغريق حيث كان الآريون هم الأعلَوْن .

وربما كانت خريطة حوض البحر المتوســـط الغربى تمثل على وجه التقريب الحالة السائدة حوالى ٧٥٠ ق. م. وهى تبين أيضاً مستقرات التجار الفينيقيين على امتداد شواطئ أفريقيا وأسبانيا التى كانت قرطاچة أعظمها شأناً .

كان الإترسك أشد الشعوب المقيمة فعلا فى إيطاليا مدنية وحضارة . فكانوا يبنون قلاعاً منيعة على طراز فن العمارة الميسينى وضربوا فى صناعة المعادن بسهم ، وكانوا يستعملون خزفاً إغريقياً فاخراً . وكانت القبائل اللاتينية على الضفة الأخرى من التيبر همجية بالقياس إليهم .

كان اللاتين لا يزالون شعباً زراعياً متأخراً خشناً . وكان مركز عبادتهم معبداً أقيم لرب القبيلة چوپيتر أى المشترى على جبل ألبان كما هو مبين بخريطة « اللاتيوم فى عهده الأول (ش ٩٩) » . وهناك كانوا يجتمعون لإقامة كبريات حفلاتهم على نحو يشبه كثيراً الاجتماعات القبلية القديمة التى تخيلناها من قبل فى آفبورى (Avebury) . ولم يكن موضع اجتماعهم هذا مدينة من المدن بل مكاناً عالياً صالحاً لأن يجتمعوا فيه ، ولم يكن به سكان يقيمون هناك بصفة مستديمة . ومهما يكن من شىء فإن الحلف اللاتينى كان يضم اثنى عشر بلداً . وكان هناك عند نقطة معينة من التيبر مخاضة تتبادل عندها التجارة بين اللاتين والإترسك . وعند هذه المخاضة نشأت بدايات روما حيث يلتقى المتجرون ، ووجد اللاجئون من البلدان الاثنى عشر فى هـــذا المركز التجارى ملاذاً ومرتزقاً . ونشأ على التلال السبعة بالقرب من المخاضة عـــدد من المستقرات اندمجت آخر الأمر فأصبحت مدينة واحدة .



(ش ٩٩) اللاتيوم فى عهــده الأول

وقد ترامى إلى سمع معظم الناس قصة الأخوين روموالوس (Romulus) وريموس (Remus) اللذين أسسا روما ، والأسطورة التى تروى كيف تعرضا فى طفولتهما للهلاك وكيف آوتهما ذئبة وأرضعتهما . والمؤرخون العصريون لا يعيرون هذه القصة أدنى قيمة . ويذكر عام ٧٥٣ ق.م. بوصفه تاريخ تأسيس روما . ولكن وجدت تحت الفوروم الرومانى قبور للإتروريين يرجع تاريخها إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، وما يسمونه قبر رومولوس إنما يحمل كتابة إترسكية لم يستطع أحد حل رموزها .

ولم تكن شــبه جزيرة إيطاليا أصبحت بعدُ تلك الأرض الباسمة بالكروم وحدائق الزيتون التى صار إليها حالها منذ ذلك الحين ، بل كانت لا تزال أرضاً موحشة مليئة بالمستنقعات والغابات ، يرعى الفلاحون فيها

أغنامهم ويقطعون الغابات للاستفادة بالأرض . ولم تكن روما — وموقعها كما نعلم على الحدود بين اللاتين والإتروريين — فى موقع شديد المنعة يساعد على الدفاع ، وربما كان هناك فى بادئ الأمر ملوك لاتينيون فى روما . ثم يبدو أن المدينة سقطت فى أيدى عواهل الإتروريين الذين أدى طغيانهم آخر الأمر إلى طردهم ، ومن ثم أصبحت روما جمهورية ناطقة باللاتينية ، وكان طرد الملوك الإتروريين من روما فى القرن السادس ق.م. على حين كان خلفاء نبوخذ ناصّر يتولون الأمر فى بابل برضاء الميديين ، وبينما كان كونفوشيوس يبحث عن ملك يصلح من فوضى بلاد الصين ، ويوم كان جوتاما يعلم « النهج الآرى » لتلاميذه فى بنارس .

ولسنا بمستطيعين أن نتحدث هنا فى أى تفصيل عن الكفاح بين الرومان والإتروريين ، كان الإتروريون أحسن تسلحاً وأكثر تمدناً وأوفر عدداً . وكان الراجح أن تدور الدوائر على الرومان لو أنهم اضطروا إلى مقاتلتهم منفردين . ولكن مُنِى الإترسك (الإتروريون) بكارثتين أوهنتا قواهم إلى حد أن الرومان استطاعوا آخر الأمر أن يغلبوهم غلبة تامة . وكانت أولى هاتين الكارثتين حرباً مع إغريق سيراقوزة بصقلية انتهت بتدمير الأسطول الإتروري (٤٧٤ ق. م .) . والكارثة الثانية هى غارة عظيمة شنها الغال من الشمال على إيطاليا . احتشـــد هؤلاء القوم وانتشروا فى شمال إيطاليا واحتلوا وادى نهر پو حوالى نهاية القرن الخامس ق . م . كما احتشد ذوو قرباهم بعد ذلك بقرنين وهبطوا على بلاد الإغريق وآسيا الصغرى واستقروا فى غلاطيا وبذلك وقع الإتروريون بين المطرقة والسندان . وبعد حرب طويلة فى فترات متقطعة استطاع الرومان أن يستولوا على ڤياى وهى قلعة إترورية على بضع أميال من روما ، ما فتئت حتى ذلك الحين مصدر تهديد ومضايقة لهم .

وإلى فترة الكفاح هذه بين الرومان وبين « التاركوينين » من ملوك الإتروريين يشير كتاب اللورد ماكولى : «أناشيد روما القديمة Lays of Ancient Rome » المعروف لدى كل تلميذ فى انجلترة .

على أن غزوَ الغال كان إحدى تلك الأعاصير التى تعصف بالشعوب عصفاً فلاتذر شيئاً على حاله . فإنهم واصلوا غاراتهم قُدُماً فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وهم يخربون كل شبر فى إترووريا[١] حتى استولوا على روما ونهبوها (٣٩٠ ق.م.) . وقاومتهم قلعة الكابيتول (كما تقول الأساطير الرومانية التى يلقى عليها الشك بعض ظلاله) ، وهذه أيضاً كاد الغال أن يأخذوها على غرة ليلا لو لم توقظ حركة تسللهم بعض الأوزات فصاحت صيحات عالية أيقظت الحامية . وبعد ذلك افتدى الغال أنفسهم بالمال وعادوا أدراجهم إلى الشمال ، إذ كانوا غير مزودين بالقدر الكافى مما يلزم عمليات الحصار من عتاد ، وربما كان تفشى المرض فى معسكرهم سبباً آخر فيما أصابهم من كوارث . ومع أنهم قاموا بغارات تالية فإنهم لم يصلوا بعد ذلك قط إلى روما .

وكان قائد الغال الذين نهبوا روما يدعى برينوس (Brennus) . ويروى عنه الرواة أنه بينما كان ذهب الفدية فى الميزان تنازع القوم حول صحة وزن الصنجة وتعادل الكفتين . فما كان منه إلا أن ألقى بسيفه فى كفة الميزان قائلا : « الويل للمغلوب Voe victis » . وهى عبارة لزم شبحها حتى وقتنا هذا كل مناقشة جرت فى شئون الفديات والتعويضات .



(ش ١٠٠ —) إحراق الموتى « احتفال إتروورى »

شُغلت روما خلال نصف القرن التالى لهذه المحنة فى سلسلة من الحروب أرادت بها أن تجعل من نفسها زعيمة للقبائل اللاتينية . إذ يلوح أن احتراق المدينة الكبرى

(١) إترووريا : إقليم قديم فى الجزء الغربى من أواسط إيطاليا . وهو موطن الإتروورين (الإترسك) . (المترجم)

استنهض همتها بدلا من أن يخمد نشاطها ويقعدها عن العمل . ومهما يكن مقدار ما لقيت من الآلام — فالظاهر أن معظم جيرانها عانوا من الويلات أكثر مما عانت . ولم تأت سنة ٢٩٠ ق.م. حتى كانت روما سيدة بلاد إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى جنوبي نابولى ، فإنها قهرت الإتروريين قهراً تاماً ، وأخذت حدودها تنتقل شمالا تبعاً لتقهقر حدود الغال ، وتمتد جنوباً بارتداد تخوم أصقاع إيطاليا الواقعة تحت السيادة الإغريقية (وهى ماجنا جرايكيا أى بلاد الإغريق العظمى) . وبثت الحاميات ومدن المستقرات على امتداد الحدود بينها وبين الغال . ولا شك أن هذا الخط الدفاعى يرجع إليه الفضل فى انحراف غارات الغال وجهودهم نحو الشرق إلى بلاد البلقان .

ولن يدهش القارئ حين يعلم — بعد الذى سبق أن قلناه عن تاريخ اليونان وعن دساتير مدنها — أن الإغريق بصقلية وإيطاليا كانوا منقسمين إلى عدد من دول المدن المنفصلة ، على رأسها سيراقوزة وتارنتم (وهى تارنتو الحديثة) ، وأنهم لم تكن تربطهم قاعدة عامة لتوجيه الجهود أو السياسة . بيد أنهم لما أزعجهم آنذاك امتداد الدولة الرومانية شخصوا بأبصارهم وراء الأدرياتى طلباً للمعونة ، ووجدوها فى مطامع پيروس (Pyrrhus) ملك إپيروس . وكان موقف هؤلاء الإغريق ، سكان الماجناجرايكيا حيال الرومان وپيروس ، هو نفس الموقف الذى وقفته بلاد الإغريق الأصلية بين الفرس والمقدونيين قبل ذلك بنصف قرن .

ويذكر القارئ أن إپيروس وهى أدنى جزء فى بلاد الإغريق إلى عقب (كعب) إيطاليا ، كانت موطن « أوليمپياس » أم الإسكندر . ثم تلت وفاة الإسكندر تقلبات فى خريطة بلاد الإغريق سريعة خاطفة لا عداد لها . فكان المقدونيون يغشون إپيروس أحياناً أو هى تظل مستقلة أحياناً أخرى . وكان پيروس من ذوى قربى الإسكندر الأكبر كما كان ملكاً ذا مقدرة وإقدام . ويلوح أنه كان يعد أهبته لغزو إيطاليا وصقلية . وكان تحت

إمرته جيش جدير بالإعجاب . فكان جنود الرومان القليلو الخبرة نسبياً ضعاف الأثر لا يقدرون على شيء بإزائه فى أول الأمر . إذ كان جيشه يحتوى على كل الوسائل والمعدات الحربية المعروفة فى زمانه ، من فيالق المشاة والفرسان التساليين وعشرين فيلا مقاتلا أحضرت من الشرق . فبدد شمل الرومان فى معركة هيرَقْليا (٢٨٠ ق . م .) ، ثم تعقبهم بشدة وهزمهم مرة ثانية فى معركة أوسكولوم (Ausculum ٢٧٩ ق. م.) فى نفس بلادهم ، ولكنه بدلا من أن يواصل تعقبهم تهادن وإياهم . ووجه همه نحو إخضاع صقلية ، وبذلك اضطر دولة قرطاچة البحرية إلى التحالف ضده : ذلك أن قرطاچة لم تكن تستطيع أن تسمح بتأسيس دولة قوية فوق أرض صقلية الشديدة القرب منها . وكان القرطاچيون يرون فى روما حتى ذلك الحين مصدراً للتهديد أقل خطراً عليهم من ظهور إسكندر أكبر آخر فى أرض صقلية — ومن ثم ظهر أمام مصب التيبر أسطول قرطاچة ليشجع الرومان ويحملهم على استئناف القتال . ثم تحالفت روما وقرطاچة تحالفاً وثيقاً ضد الغزاة .

وقضى تدخل قرطاچة على پيروس فانحلت عرى جيشه دون أن يشتبك فى معركة فاصلة . واضطر أن يتراجع إلى إپيروس (٢٧٥ ق .م .) بعد أن منى بكارثة فى هجوم له على المعسكر الرومانى فى بنيڤنتم (Beneventum) .

ويسجل لنا التاريخ أن پيروس عندما غادر صقلية قال إنه يغادرها لكى تصبح ميداناً للقتال بين روما وقرطاچة . ثم قتل بعد ذلك بثلاث سنوات فى معركة بشوارع آرجوس .

ويرجع الفضل فى انتصار الرومان على پيروس إلى الأسطول القرطاچى ، واجتنت روما نصفاً كاملا من ثمرة النصر ، الذى انتقلت بسببه صقلية بأكلها إلى قرطاچة وتقدمت حدود روما جنوباً حتى أصابع إيطاليا وعقبها . وأخذت روما ترمق ببصرها منافستها الجديدة عبر مضيق مسينا . ولم تمض إحدى عشرة سنة (٢٦٤ ق.م .) حتى تحققت نبوءة پيروس ، وابتدأت

الحرب الأولى مع قرطاجة ، وهى أولى الحروب البونية الثلاثة (وكلمة البونية Punic مشـــتقة من الكلمة اللاتينية بيونيكوس (Punicus) أى القرطاجية أعنى الفينيقية) .

٢ - نوع جديد من الدولة

على أنا نكتب لفظتى « روما » — و « الرومان » وما يزال لزاماً علينا أن نفسر لك أى خلق من الناس كان هؤلاء الذين يلعبون دوراً من الفتوح لم يقم به حتى ذلك الحين غير ذوى الاقتدار والنزعات العدوانية من الملوك .

كانت دولة الرومان فى القرن الخامس ق . م . جمهورية من الطراز الآرى شديدة الشبه بجمهورية إغريقية أرستقراطية . وأقدم الروايات عن حياة روما الاجتماعية تمثلها لنا على صورة مجتمع آرى بدائى جداً . « وفى النصف الثانى من القرن الخامس ق.م. كانت روما لا تزال مجتمعاً أرستقراطياً من الفلاحين الأحرار يشغلون مساحة قدرها أربعمئة ميل مربع ، وبها من السكان ما لا يزيد على وجه التأكيد عن مئة وخمسين ألفاً ، يكادون ينتشرون انتشاراً تاماً فى الريف وينقسمون إلى سبعة عشر حياً أو قبيلة ريفية . وكانت معظم العائلات تمتلك مساحات صغيرة من الأرض وكوخاً صغيراً خاصاً بها يعيش فيه الوالد وأولاده ويشتغلون معاً ، زارعين القمح فى أغلب أمرهم ، مع قطعة صغيرة من الكرم أو الزيتون هنا وهناك . وكانت الماشية القليلة لعدد لديهم ترعى فى الأراضى المشاعة المجاورة — فأما ثيابهم وأدواتهم البسيطة اللازمة للزراعة فكانوا يصنعونها بأنفسهم فى المنازل . ولم يكن فى مستطاعهم الاختلاف إلى المدينة المحصنة إلا فى القليل النادر وعلى فترات متباعده وفى مناسبات خاصة جداً . وكانت المدينة مركز ديانتهم ومقر حكومتهم على السواء . وبها معابد الآلهة ومنازل الأثرياء وحوانيت الصناع

والتجار ، حيث يمكن المقايضة على كميات صغيرة من القمح أو الزيت أو النبيذ بالملح والأسلحة الحديدية[1] أو الآلات البدائية الخشنة » .

وقد جرى هذا المجتمع على التقاليد المألوفة التى تقسم المجتمعات إلى أرستقراطية وعامة . وكان يطلق عليهم فى روما اسم البطارقة (Patricians) والپلبز (الپلبيان Plebeians) . وكان هؤلاء وحدهم المواطنين فيها . إذ لم يكن نصيب العبد أو الأجنبي فى شئون الدولة بأعظم من نصيبه فى فى بلاد الإغريق . بيد أن الدستور كان يخالف أى دستور إغريقى حيث ركز قسطاً كبيراً من السلطة الحاكمة فى قبضة هيئة تسمى السناتو (مجلس الشيوخ) . ولم يكن السناتو هيئة خالصة من الأعضاء الوراثيين ولا هو هيئة تمثيلية منتخبة بطريقة مباشرة . بل كان هيئة تقوم على « التعيين » . واقتصر الترشيح لها فى العصر الأول على البطارقة وحدهم . وكان هذا المجلس قائماً قبل طرد الملوك ، وكان الملك عند ذاك هو الذى يعين أعضاء السناتو . ولكن بعد طرد الملوك (٥١٠ ق.م.) انتقلت سلطة الحكومة العليا إلى يد حاكمين منتخبين هما القنصلان (Consuls) . فتولى هذان أمر تعيين أعضاء السناتو . وفى الأيام الأولى للجمهورية كان حق الانتخاب لوظائف القناصل أو عضوية مجلس الشيوخ مقصوراً على البطارقة ، أما العامة « الپلبيان » فلم يتعد نصيبهم من الحكم حق التصويت لانتخاب القناصل وغيرهم من الموظفين العموميين . ولكن لم تكن لأصواتهم حتى فى هذا الأمر نفس القيمة التى كانت لزملائهم المواطنين البطارقة . بيد أن أصواتهم كان لها على كل حال الوزن الكافى لحمل الكثيرين من المرشحين البطارقة على التودد للعامة وإظهار قدر من الاهتمام بآلامهم ومظالمهم تتفاوت درجة إخلاصه . هذا إلى أن العامة فى العهود الأولى للدولة الرومانية لم يحرموا من تولى الوظائف العمومية فحسب ، بل من التزاوج مع طبقة البطارقة . وبديهى أن إدارة

---

(1) نقلا عن كتاب «عظمة روما واضمحلالها The Greatness and Decline of Rome» تأليف فريرو .

شئون الحكم كانت قبل كل شيء شأناً اختص به البطارقة

فكأن الطور الأول من أطوار الشئون الرومانية كان والحالة هــذه أرستقراطياً لا شك فيه ، وكان تاريخ روما الداخلي في فترة القرنين ونصف القرن الممتدة بين طرد « تاركوين الصَّلِف » آخر ملك إترورى وبين بداية الحروب البونية الأولى (٢٦٤ ق.م.) فترة صراع على السيادة بين هاتين الطبقتين البطارقة والپلبز أى النبلاء والعامة . كان في الواقع عظيم الشــبه بالصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية ، في دول المدن الإغريقية . وكما هو الحال في بلاد الإغريق كانت بالمجتمع طبقات بأسرها بين أرقاء وعبيد معتقين ورجال أحرار لا أملاك لهم وغرباء ومن إليهم وهم جميعاً بمعزل عن الكفاح ودونه في الدرك الأسفل . ولقد لاحظنا من قبل الفارق الجوهرى بين الديمقراطية الإغريقية وبين ما يسمى باسم الديمقراطية اليوم في العالم . وثمة كلمة أخرى يساء استعمالها وهى اصطلاح البروليتارية (Proletariat) الرومانى الذى تطلق في مصطلح عصرنا هذا على كل من ليس لهم ممتلكات في دولة حديثة . فإن جماعة البروليتارية كانت تدل في روما على قسم من المواطنين ذوى المؤهلات الكاملة ممن لهم الحق في التصويت على شريطة أن لا تقلّ قيمة ممتلكاتهم عن ١٠,٠٠٠ آس نحاسى As (أى ٢٥٧ جنيهاً) . وكانوا طبقة مقيدة في السجلات تقوم قيمتهم في نظر الدولة على تكوينهم عائلات من المواطنين (إذ أن معنى كلمة (Proles) هو النسل والذرية) . وكان يؤخذ من بين صفوفهم سكان المستعمرات الذين يذهبون لتكوين مدن لاتينية جديدة أو جند حاميات المراكز الهامة ، على أن طبقة البروليتارية كانت من حيث الأصل منفصلة تمام الانفصال عن الأرقاء أو العتقاء أو ذلك الخليط النازح إلى ما بالمدن من الأحياء الفقيرة المكتظة . ومما يؤسف له كثيراً أن يختلط الأمر على الناس في المناقشات السياسية العصرية فيستعملوا لفظاً

كهذا استعمالا خاطئاً غير مضبوط وهو لا يعبر عن شيء واقعي صحيح في تصنيف الطبقات في المجتمع الحديث .

وفي إمكاننا أن نتجاهل في هذه « المعالم » تفاصيل هذا الكفاح بين النبلاء والعامة . فإنه كان كفاحاً أظهر ما للرومان من حصافة غريبة إذ لا يدفعون بالأمور أن تبلغ حد الأزمة المهلكة بل يظلون مستمسكين بأهداب الأناة والحكمة قابضين تماماً على الغلاة المتشددين . ولكم أساء البطارقة استغلال امتيازاتهم السياسية استغلالا دنيئاً ليجمعوا الثروات عن سبيل الفتوح القومية ، لا على حساب العدو المنهزم فحسب ، بل على حساب العامة الفقراء الذين أهملت مزارعهم والذين وقعوا في ربقة الديون أثناء خدمتهم العسكرية فحرم هؤلاء العامة (البلبيان) من كل نصيب في البلاد التي فتحوها والتي اقتسمها النبلاء فيما بينهم . والراجح أن استحداث النقود وانتشار تداولها زاد في تيسير الأمر على المرابين وفي زيادة الصعوبات على المدينين المقترضين .

واستخدم العامة ثلاثة ألوان من الضغط على النبلاء ظفروا بواسطتها بنصيب أوفى في حكم البلاد وفي الخيرات التي أخذت تنساب إلى روما بتسنمها ذروة المجد والقوة . وأول هـذه الضغوط هو (١) الإضراب العام فإنهم ثاروا مرتين حتى خرجوا من روما خروجاً تاماً مهددين بإقامة مدينة جديدة في أعالي نهر التيبر ، وأثبت هذا التهديد مرتين أنه حاسم فعال . وكانت طريقة الضغط الثانية هي (٢) التهديد بإقامة حكم طاغية ، كما حدث بالضبط في أتيكا (وهي الولاية الصغيرة التي كانت أثينا عاصمتها) يوم تسلم پيزستراتوس مقاليد السلطان مستنداً إلى تأييد الأحياء الفقيرة . فقياساً على هذا لم تكن البلاد لتعدم البتة في معظم عصور تذمر العامة رجلا ذا طموح مستعداً لتولى الزعامة وانتزاع السلطان من مجلس السناتو . على أن نبلاء الرومان ظلوا زمناً طويلا قادرين بفضل ما أوتوا من المهارة على التغلب على أي طاغية محتمل الظهور بتساهلهم مع العامة إلى حد معين . وثالث هذه الأمور : (٣) أنه ظهر بين البطارقة النبلاء من بلغ من سعة العقل وبُعْد

النظر مبلغاً دفعه إلى الإصرار على ضرورة إرضاء العامة (البلبز) ومصالحتهم وتمشياً مع هذه الروح أصدر القنصل فاليريوس پوبليكولا (ويتعلق هذا بالأمر الثالث) قانوناً سنة (٥٠٩ ق.م.) يقضى بأنه إذا تعرضت حياة أى مواطن أو حقوقه للخطر وجب أن يقدّم استئناف عن الحكم من الموظف العمومى إلى الجمعية العمومية . وكان هذا القانون الفاليرى بمثابة (قانون حماية الفرد وضمان حريته Habeas CorPus)[1] . وهو القانون الذى أنقذ العامة الرومان من أسوأ أخطار روح الانتقام بين الطبقات فى المحاكم .

وحدث فى (٤٩٤ ق.م.) إضراب (ويتعلق هذا بالأمر الأول) لأن عبء الديون أصبح بعد الحرب اللاتينية باهظاً لا يطاق ولأن العامة غضبوا حين شهدوا أصدقاءهم الذين كثيراً ما خدموا الدولة بشجاعة فى صفوف فرق الجيش يكبّلون فى أغلال الديون والفاقة وينزلون إلى دركات العبودية بناء على طلب دائنيهم النبلاء . وكانت الحرب ضد الفولسكانيين (Volscians) محتدمة الوطيس ؛ فلما أن خمد أوارها رفض جنود الكتائب الرومانية عند عودتهم مظفرين أن يطيعوا القناصل بعدها أبداً ، وساروا فى نظام تام إلى « الجبل المقدس » ، وراء الأنيو « فى أعلى التيبر) . وهناك أعدوا العدة لإنشاء مدينة جديدة . ما داموا قد حرموا حقوق المواطنين الأحرار فى المدينة القديمة . فاضطر البطارقة إلى الإذعان ولما عاد العامة إلى روما بعد « اعتصامهم الأول » نالوا الحق فى أن يكوّن من بينهم موظفون ، فيولون عليهم ترابنة أى نقباء (Tribunes) وأيادلة (Aediles)[2] .

وفى (٤٨٦ ق . م . (قام سپوريوس كاسيوس (Spurius Cassius) وهو أحد القناصل بإصدار قانون عقارى يضمن للعامة الحق فى أراضى الدولة (ويتعلق هذا بالأمر الثانى) ، ولكنه اتهم فى السنة التالية بأنه يهدف إلى الملكية ، وقضى عليه بالإعدام ولم ينفذ قانونه قط .

---

(١) يشير المؤلف بهذا إلى قانون حماية الأفراد من الحبس التعسفى (Hebeas Corpus Act) الذى صدر فى انجلترا فى ١٦٧٩ . (المترجم)

(٢) « موجز تاريخ روما حتى وفاة أغسطس » تأليف ج . ولز (J. Wells) والأيادلة جمع آيديل وهو موظف يشرف على المبانى والطرق والموازين والمهرجانات . (المترجم)

ونشب عقب ذلك كفاح طويل قام به العامة لتدوين قوانين روما ، حتى لا يضطروا بعد ذلك إلى الاعتماد على ذاكرة النبلاء . وصدر قانون الألواح الاثنى عشر (٤٥١— ٤٥٠ ق . م .) وهو أساس القانون الرومانى كله .

ولكن صوغ الألواح الاثنى عشر استلزم تعيين لجنة من عشرة رجال (The Decemvirate)[1] فى مكان الحكام العاديين . ثم عينت لجنة ثانية من عشرة لتخلف الأولى ، فحاولت أن تقيم شبه ثورة أرستقراطية رجعية برئاسة أپيوس كلوديوس (Appius Claudius) فانسحب العامة من جديد إلى الجبل المقدس ، وانتحر أپيوس كلوديوس بعد ذلك فى السجن .

وحلت بالبلاد مجاعة فى (٤٤٠ ق.م.) وحاول الناس مرة ثانية أن ينصبوا على البلاد طاغية شعبياً استناداً إلى ما يحيق بالشعب من مظالم ، وكان على رأس هذه المحاولة سپوريوس مَيْليوس (Spurius Maelius) أحد أثرياء العامة ولكن المحاولة انتهت بقتله غيلة .

وبعد أن نهب الغال روما (٣٩٠ ق.م.) ، تقدم إلى مكانة الزعامة الشعبية ماركوس مانليوس (Marcus Manlius) الذى كانت بيده إمرة الكاپيتول ، يوم أن أنقذه صياح الإوز . وكان الپلبيان فى أشد العسر والعناء لما لقوا من البطارقة بعد الحرب من ربا فاحش واستغلال للنفوذ فى جنى الأرباح الطائلة ، فليس من العامة من لم يقع فى ربقة الديون الباهظة التى استدانوها ليبنوا بها قراهم من جديد ويعمروها بالماشية والأغنام . وأنفق مانليوس ثروته فى تخليص المدينين من ديونهم . فاتهمه النبلاء بأنه يهدف إلى أن يكون طاغية ، وصدر الحكم بإدانته ، ولقى من روما نصيب الخونة الآثمين ، بأن أُلقى من أعلى الصخرة التارپية (Tarpeian)[2] وهى حافة الهاوية فى نفس تل الكاپيتول الذى دافع عنه .

---

(١) كلمة لاتينية مكونة من **Decem** ومعناها عشرة ، و **Vir** بمعنى رجل .

(٢) كان الكاپيتول فى العصور الأولى يطلق عليه اسم جبل تارپيو س **Mons Tarpeius** ثم أصبح الاسم فى العصور المتأخرة يطلق على جزء من صخرة الكاپيتول . (المترجم)

وفى (٣٧٦ ق.م.) بدأ ليسينيوس (Licinius) أحد ترابنة الشعب العشرة مرحلة كفاح طويل الأمد مع البطارقة بأن قدم مقترحات معينة تسمى القوانين الليسينيه (Licinian Rogations) ، وهى تقضى بأن يكون هناك حد أقصى لمقدار ما يأخذه مواطن واحد من أراضى الدولة ، وبذلك يتبقى لكل امرئ شيء منها ؛ وأن ما تبقى من الديون غير المسددة يجب التنازل عنه وعن فائدته متى دفع الأصل ؛ وأنه منذ ذلك الحين فصاعداً يجب أن يكون واحد على الأقل من القنصلين من طبقة العامة . فأفضت هذه الطلبات إلى التعجيل بكفاح دام عشر سنوات . واستخدم العامة (البلبيان) حقهم كاملا فى تعطيل دولاب الأعمال بتطبيقهم حق النقض أو الفيتو المخول لممثليهم الترانة . وقد جرت العادة فى حالات الأزمات والملمات القومية أن ينحى كل الحكام عن العمل وأن يعين زعيم واحد ، هو الدكتاتور . وقد فعلت روما فيما سلف شيئاً من هذا القبيل إبان الملمات الحربية ، على أن البطارقة أقاموا إذ ذاك دكتاتوراً فى وقت كان السلام فيه شاملا بقصد القضاء التام على ليسينيوس . فعينوا كاميلّوس (Camillus) الذى حاصر فياى واستولى عليها من الإتروريين ، بيد أن كاميلوس كان رجلا أوسع من أنصاره بصيرة وأشد حنكة فحمل الطرفين على قبول « وفاق » منح فيه العامة معظم مطالبهم (٣٦٧ ق.م.) . وأقام لتخليد ذكرى هذا الصلح معبداً يرمز إلى الوفاق (Concord) ثم اعتزل منصبه .

ومن ذلك الحين هدأت حدة النزاع بين الطبقتين . هدأت لأن الفروق الاجتماعية بين البطارقة والعامة أخذت فى النقصان ، فضـــلا عن مؤثرات أخرى كثيرة خففت من حدة الخلاف . وكانت التجارة تزداد وروداً إلى روما بتزايد نفوذها السياسى ، وكان الكثيرون من العامة قد أخذوا يثرون ، وأصبح كثير من البطارقة فقراء نسبياً . وغدت المصاهرة بين الطبقتين من الأمور الممكنة وذلك بإدخال شيء من التعديل على القانون . وأخذ الاختلاط

الاجتماعي يجرى مجراه . وعلى حين شرع العامة الأغنياء يصبحون على الأقل أوليجركيين فى عاداتهم وعواطفهم إن لم يصبحوا أرستقراطيين ، أخذت تنشأ فى روما طبقات جديدة لها مصالح جديدة وليس لها أية منزلة سياسية . وكان عدد الأرقاء الذين أعتقوا — وهم المحررون — وفيراً وفورة خاصة ، معظمهم من الصناع ، وإن كان بعضهم من التجار الذين أخذوا يثْرون . ولم يعد مجلس السناتو هيئة مقصورة على البطارقة وحدهم — نظراً لأن مناصب متنوعة غدت عند ذلك مباحة للپلبيان ، وأصبح من تقلدوا هـــذه المناصب من العامة أعضاء فى السناتو حتى غدا ذلك المجلس آنئذ جمعية تضم كل ذوى الثراء والاقتدار والهمة والنفوذ من رجال الدولة . وطفقت الدولة الرومانية تزداد قوة واتساعاً وكلما ترامت أطرافها أصبحت هذه الخصومات القديمة بين طبقات المجتمع اللاتيني الأول شيئاً لا معنى له . فأخذت تحل محلها تكتلات وارتباطات جديده وخصومات جديدة . وكان الأغنياء أيّاً كانت أصولهم يتحزبون وينضمون بعضهم إلى بعض بدافع المصلحة المشتركة التى كانت تجمعهم ضد آراء الفقراء ذات الطابع الاشتراكى .

وفى (٣٩٠ ق.م.) كانت روما مدينة صغيرة بائسة على حدود إتروريا تمتد إليها يد الغـــال بالنهب ، ولكن ما وافت (٢٧٥ ق . م) حتى كانت مسيطرة على كل إيطاليا وقد وحدتها ولمت شملها من نهر الأرنو إلى مضيق مسينا . وكان « الوفاق » الذى أبرمه كاميلّوس (٣٦٧ ق . م) قد قضى على الخلافات والمنازعات الداخلية ، وترك كل قواها طليقة يمكن استخدامها فى التوسع ، وكان الجمع الغريب بين الحصافة والأنانية العدوانية ، الذى امتازت به الحرب بين طبقاتها فى الداخل والذى هيأ لسكانها أن يحتفظوا بتوازن القوى دون الوقوع فى أى كارثة ، هو رائد سياستها فى الخارج وعنوانها وميزتها . فإنها أدركت قيمة الحلفاء وعرفت كيف تتمثل غيرها . وكانت تستطيع فى تلك الأيام على الأقل أن تتبادل المنافع مع الغير وأن

« تعطى وتأخــذ » فى الداخل والخارج على حد سواء متوخيه بعض العدالة وشيئاً من الحكمة وهذا هو سر قوة روما الخاصة التى بها استطاعت أن تفلح حيث فشلت أثينا فشلاً بيّناً .

لقد قاست ديمقراطية الأثينيين كثيراً من جراء ضيق الأفق الذى اتسمت به « روح الوطنية » فيها ، والذى طالما جلب الدمار للأمم جميعها . فإن أثينا كانت موضع الكراهية والحسد من إمبراطوريتها لأنها بوصفها مدينة كانت تحكمها بروح ضيق من الأنانية ، ولم تكن المدن الخاضعة لها لتشعر بكوارثها وتشاركها فيها . هذا بينما أعضاء السناتو الأكثر حصافة ونبلا إبان سنوات روما العظيمة ، قبل أن تنهك الحروب البونية الأولى قوتها المعنوية وتبث فيها الانحلال ، — لم يقتصروا فى بذلهم لآخر سهم فى جعبتهم — على الرغبة فى إبداء الاستعداد عن طيب خاطر لإشراك عامة قومهم فيما كانوا يتمتعون به من امتيازات بل كانوا كذلك تواقين إلى ضم أشد أعدائهم مراساً إلى صفوفهم على أساس من المساواة التامة المستديمة بين الطرفين. ولقد توسعوا فى منح الحرية المدنية أعنى حقوق المواطنية متوخين الحرص والحذر مع الاطراد والاستمرار . فأصبحت بعض المدن تتمتع بالمواطنية الرومانية بل منحت نصيباً من التصويت فى أداة الحكم . ومُنح الحكم الذاتى لبعضها الآخر مع منحها حق الاتجار أو الزواج فى روما دون أن تحظى بحقوق المواطنية الرومانية كاملة . وكانت الحاميات من المواطنين المستكملى الحقوق تنشأ فى المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية وتقام المستقرات الصغيرة التى تتمتع بمختلف الامتيازات بين ظهرانى الشــعوب المغلوبة . وكانت الحاجة إلى الاحتفاظ بالمواصلات مفتوحة بين هذه الكتلة العظيمة المتزايدة من المواطنين أمراً ملموساً ظاهراً للعيان منذ البداية . ولم تكن الطباعة ولا الورق قد تيسرا بعد لتقريب الناس بعضهم من بعض ، على أن شبكة من الطرق الرئيسية ترسمت خُطَى اللسان اللاتينى والحكم الرومانى حيثما حلا . وكان أول هذه

الطرق وهو الطريق الأپيانى (Appian Way)[١] يمتد من روما حتى يصل إلى نهاية عقب إيطاليا . وقد شرع فى إنشائه الرقيب[٢] (Censor) أپيوس كلوديوس ٣١٢ ق . م . (الذى يجب ألا نخلط بينه وبين عضو مجلس العشرة الرجال أپيوس كلوديوس الذى عاش قبله بقرن) .

ويدل الإحصاء الذى تم فى (٢٦٥ ق . م .) ، على أنه كان يوجد فى المناطق التى يحكمها الرومان ، أعنى فى إيطاليا جنوبى الأرنو ، ثلاثمئة ألف مواطن حر ، تجمعهم جميعاً مصلحة مشتركة فى خير الدولة ورفاهيتها ، وكلهم لم يتأثر إلا قليلا بسلطان منصب الملك ، الذى توزعت اختصاصاته فى عهد الجمهورية بين أيد كثيرة . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذا كان شيئاً جديداً تمام الجدة فى تاريخ الجنس البشرى . ذلك أن جميع الدول والممالك والإمبراطوريات الضخمة كانت حتى ذلك الحين مجتمعات تقوم على مجرد الطاعة لبعض الرؤساء أو الملوك الذين كانت سعادة الشعب ورفاهيته تعتمد على مزاجهم وطباعهم اعتماد العاجز الذى لا حيلة له . فلم تفلح أية جمهورية حتى ذلك الحين أن تتجاوز مرتبة دولة المدينة . ولم يكن ما يسمونه « بالإمبراطورية » الأثينية إلا مجرد دولة مدينة توجه حلفاءها والمدن الخاضعة لها . ولكن الجمهورية الرومانية تسنى لها أن تمد مواطنيتها فى بضع عشرات من السنين إلى وادى نهر پو ، وأن تتمثل ذوى قرباها من الغال ، وأن تستبدل بلغتهم لاتينيتها ، وأن تقيم مدينة لاتينية هى آكويليا على ناصية البحر الأدرياتى نفسها . وفى (٨٩ ق.م .) أصبح كل سكان إيطاليا الأحرار ، مواطنين رومانيين . وفى (٢١٢ بعد الميلاد) شملت المواطنية كل رجال الإمبراطورية الأحرار .

ومن البين أن هذا التطور السياسى الخارق هو البشير المؤذن بظهور

---

(١) اسمه عند الرومان « Via Appia » أى طريق آپيا أو الطريق الأپيانى . (المترجم)

(٢) الرقيب أو السنسور ج سناسرة : موظف رومانى مكلف بجمع الإحصاءات وحماية الأخلاق العامة . (المترجم)

كل الدول الحديثة ذات الطراز الغربي . ومن ثم فهو نظام شائق يستحق من عناية دارس السياسة ما يستحقه من الباحث في التطور الحيواني أي كائن برمائي[1] من عصر الرواسب الفحمية أو أي مجنح أقدم (أركيو بتريك)[2] فهو الطراز البدائي للنظام السائد اليوم . وعن خبرات روما وتجاريبها ينبعث ضياء ينير معالم التاريخ السياسي في كل العصور التالية .

وهناك نتيجة طبيعية واحدة لهذا التطور الذي تهيأ لديمقراطية قوامها مئات الآلاف من المواطنين المنتشرين في أرجاء الجزء الأكبر من إيطاليا وهي نمو قوة مجلس الشيوخ (السناتو) . وقد ظهرت أثناء تطور الدستور الروماني أضرب كثيرة من أشكال مجلس الأحرار منها مجلس العامة (الپلبز) ، والمجلس القَبَلي والمجلس المئوي إلى غير ذلك ، وهي أضرب ليس في وسعنا أن نتناولها بأي تفصيل واف . وبحسبك أن تعلم أن الفكرة المستقرة هي أن مجلس الأحرار كان صاحب الحق في اقتراح القوانين . ويلاحظ أن هذا النظام كان يحوي ضرباً من الحكومة المزدوجة . ذلك أن المجلس القبلي أو المجلس المئوي كان جمعية تضم هيئة المواطنين كافة : النبلاء منهم والعامة معاً . ومن البديهي أن مجلس الپلبيان كان جمعية مكونة من طبقة العامة وحدهم . ولكل مجلس موظفوه الخاصون . فالموظفون في الحالة الأولى هم القناصل وغيرهم ؛ وهم في الثانية التراينة . ويوم كانت روما دويلة صغيرة ، ذرعها عشرون ميلا مربعاً ، كان في الإمكان أن يلتئم مجلس تتوفر فيه الروح التمثيلية لمجموع الشعب ، ولكن من الواضح أن صعوبة وسائل المواصلات في إيطاليا آنذاك ، كانت تجعل من المحال على الغالبية العظمى من السكان حتى أن

---

(١) ، (٢) عن البرمائي والمجنح الأقدم (ذي الأجنحة القديمة) انظر المعالم ج ١ ص ٤٤ — ٤٨ ط ٣ (المترجم)

يحيطوا علماً بما يجرى فى روما ، فما بالك بأن يساهموا بأى نصيب فعال فى الحياة السياسية هناك . وقديماً أوضح آرسطو فى كتابة « السياسة » ما عساه أن يلحق الناخبين الذين يعيشون خارج المدينة ، والذين تشغلهم شئون الزراعة عما سواها ، من الحرمان الفعلى من الحقوق المدنية . كما أنه أشار إلى أن هذا النوع من الحرمان من مباشرة الحقوق الانتخابية بسبب الصعوبات المادية ، كان ينطبق على الغالبية العظمى من المواطنين الرومانيين . ومن ثم دب إلى الحياة السياسية مع نمو رقعة روما ضعف غير منتظر يرجع إلى هذه الأسباب ، واستحال مجلس الأحرار شيئاً فشيئاً إلى جمع من المأجورين السياسيين وغوغاء المدينة ، وأخذ ينحط شيئاً فشيئاً عن مرتبة التمثيل الحق للمواطنين العاديين الجديرين بالاحترام . وقد أصبح مجلس الأحرار أقرب ما يكون إلى القوة والهيبة فى القرن الرابع ق.م. ومنذ ذلك التاريخ أخذ نفوذه يذوى ذوياً متواصلا ، فأما مجلس السناتو الجديد — الذى لم يعد بعد ذلك هيئة من البطارقة النبلاء تسودها تقاليد متجانسة ذات طابع متوائم نبيل على وجه العموم ، بل غـدا هيئة من أغنياء الرجال والحكام السابقين والموظفين الأقوياء والمغامرين الجرآء ومن إليهم ، كما أمسى يسوده ميل قوى إلى العودة إلى فكرة اعتبار المؤهل الوراثى أساساً ، — فإنه (أى مجلس السناتو) أصبح طوال ثلاثة قرون السلطة الحاكمة فى العالم الرومانى .

وهناك وسيلتان عرفتا منذ ذلك التاريخ فى العالم ، ربما كان يتأتى لها تمكين حكومة روما الشعبية من أن تستمر فى تطورها إلى أبعد من الذروة التى بلغتها أيام أبيوس كلوديوس الرقيب عند ختام القرن الرابع ق . م . ، بيد أن واحدة منهما لم تخطر للعقل الرومانى على بال . وأولى هاتين الوسيلتين هى استخدام الطباعة استخداماً صحيحاً . فلقد لاحظنا من قبل فى بياننا عن الإسكندرية فى عصرها الأول تلك الحقيقة الغريبة وهى أن الكتب المطبوعة لم تظهر فى العالم فى القرن الرابع أو الثالث ق. م. ويضطرنا هذا الحديث

عن الشئون الرومانية إلى تكرار هذه الملاحظة . ومن الجلى فى التفكير الحديث أن الحكومة الشعبية العديدة الأنصار تتطلب كشرط ضرورى لسلامة بنيانها أن تزود كل المواطنين بقدر ثابت من المعلومات الصحيحة فى الشئون العامة وأن تحرص على دوام اهتمامهم بتلك الشئون . فلم يتيسر قيام الحكومات الشعبية فى الدول العصرية التى نشأت على جانبى المحيط الأطلسى فى القرنين الأخيرين ، إلا بواسطة معالجة الشئون العامة بالنقد بواسطة الصحافة « وتهوية » الآراء بدرجة متفاوتة من الأمانة والدقة . ولكن الذى حدث بإيطاليا هو أن الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها الحكومة فى روما أن تتصل بأية هيئة من هيئات مواطنيها فى مكان آخر هى إرسالها الرسل ، فأما المواطن الفرد فما كانت لتستطيع أن تتصل به بأية حال .

والوسيلة الثانية التى يرجع الفضل الأكبر فيها إلى الإنجليز فى تاريخ البشر والتى لم يستخدمها الرومان قط ، والتى تكاد تعادل الأولى فى وضوحها هى الحكومة التمثيلية أو النيابية . ذلك أنه كان فى الإمكان أن يحل اجتماع من المندوبين محل مجلس الأحرار القديم (فى أشكاله الثلاثة) . وقد أدرك الإنجليز هذه الضرورة مع نمو الدولة فيما تلا ذلك من حقب التاريخ . فإن رجالا بعينهم هم فرسان المقاطعات كانوا يدعون إلى وستمنستر للتكلم وإبداء الرأى تعبيراً عن الشعور المحلى ، وكانوا ينتخبون لتلك الغاية انتخاباً شكلياً إلى حد ما . ويبدو للعقل الحديث أن الوضع الرومانى كان ينادى بأعلى صوته مطالباً بمثل هذا التعديل بيد أنه لم يتم قط .

كانت طريقة اجتماع المجلس القبلى (Comitia Trbuta) — أحد الأشكال الثلاثة لمجلس الأحرار — تم بواسطة إعلان من مناد قبل تاريخ الاجتماع بسبعة عشر يوماً ، على أن هذا المنادى لا يمكن أن يصل صوته بطبيعة الحال إلى مسامع معظم سكان إيطاليا . وكان العرافون وهم كهنة التنبؤ بالمستقبل الذين ورثتهم روما عن الإتروريين يقومون بفحص أحشاء الذبائح والقرابين

فى الليلة السابقة للاجتماع ، فإن رأوا من الأوفق أن يقولوا إن هاته الدلائل أو النذر الملطخة بالدماء كانت غير موائمة ، تفرق المجلس القبلى . فإن قال العرافون إن الأكباد راضية متعطفة صدر عن الكابيتول وأسوار المدينة نفخ عظيم فى الأبواق له دوى عظيم ، وواصل المجلس عمله . وكان ينعقد فى الهواء الطلق إما فى الفوروم[1] (Forum) الصغير أسفل الكابيتول ، أو فى منعكف أصغر منه يتفرع من الفوروم أو على أرض التدريب العسكرى ، وهى ساحة الإله مارس (Campus Martius) ، وهى الآن أشد أجزاء روما الحديثة ازدحاماً بالسكان ، ولكنها كانت عند ذاك أرض براح . وكان المجلس يبدأ عمله عند الفجر بالصلاة . ولم يكن هناك مقاعد ، ولعل ذلك كان مما يساعد على طمأنة المواطنين إلى ما جرت عليه العادة من انتهاء كل شىء عند الغروب .

وبعد صلاة الافتتاح تدور المناقشة فى التدابير التى يتعين على المجلس أن ينظر فيها ، وتقرأ المقترحات المطروحة أمام الاجتماع . أو ليس مما يبعث على الدهشة أنه لم تكن توزع هناك نسخ مطبوعة ؟ فلو وجدت نسخ تتداولها الأيدى فهى لا بد مخطوطة ولا بد أن كل نسخة كانت عرضة للأخطاء والتحريف المقصود . ولا يبدو أنهم كانوا يسمحون بإلقاء الأسئلة ، على أنه كان يجوز للأفراد بصفتهم الشخصية أن يخطبوا فى الاجتماع بإذن من الموظف الذى يرأسه .

ثم ينتقل الجمع بعد ذلك إلى أماكن مسورة تشبه حظائر الماشية ، لكل قبيلة محلها ، فتعطى كل قبيلة صوتها فيما طرح على بساط البحث من التدابير . وكان القرار النهائى يؤخذ بغالبية عدد القبائل لا بغالبية أفرادها من المواطنين ، وعند ذلك يعلنه المبلّغون .

---

(١) الفوروم (Forum) هو سوق المدينة فى روما ، وكانت تجرى فيه أعمال البيع والشراء وهو ملتقى الاجتماعات العامة ، ولما اتسعت المدينة زاد عدد الأسواق بها ، وكانت تقوم به المنشئات والأبنية العامة . (المترجم)

أما مجلس الأحرار المئوى وهو الكوميتيا ،كنتوّرياتا Comitia Centuriata فهو شديد الشبه بهذا فى خصائصه ، اللهم إلا أن المجلس القبلى كان يتألف فى القرن الثالث ق . م . من خمس وثلاثين قبيلة ، بينما كان قوام المجلس المئوى ٣٧٣ وحدة مئوية (centuria) ، كما كانت تقدم عند الافتتاح قرابين علاوة على الصلاة . وكان المئويون ، وهم فى الأصل من العسكريين (شأن مئوبى الحكومة المحلية البدائية الإنجليزية) ، قد فقدوا من زمن بعيد كل اتصال بينهم وبين الرقم مئة . إذ كان بعض الوحدات المئوية لا يضم إلا بضع نفر من الناس ، وبعضها يضم العدد الجم . وكان هناك ثمانى عشرة وحدة مئوية أعضاؤها من الفوارس (epuites) ممن كانوا فى الأصل رجالا ذوى مكانة تؤهلهم أن يقتنوا حصاناً وأن يخدموا فى فرقة الفرسان ، وإن صارت الفروسية الرومانية فيما بعد — شأن الفروسية فى انجلترة — امتيازاً مبتذلا ، ليست له أية دلالة عسكرية أو عقلية أو خلقية . (وأصبح هؤلاء الفوارس مع اشتغال روما بالتجارة وزيادة ثرائها طبقة هامة جداً ؛ فلبثوا دهراً وهم الطبقة النشيطة الحقيقية فى المجتمع . ولم يبق لديهم من الفروسية إلا بمقدار ما لا يزال لدى فرسان « قائمة الشرف » وكشوف الرتب والنياشين فى انجلترة اليوم . ولقد أقصى أعضاء مجلس الشيوخ عن التجارة منذ نحو عام ٢٠٠ ق.م. ، ومن ثم أصبح هؤلاء الفوارس رجال الأعمال والمال العظام (Negotiatores) [١] وكانوا الملتزمين (Publicani) الذين بيدهم جباية الضرائب) . وكان هناك بالإضافة إلى هؤلاء ثمانون وحدة مئوية من الأثرياء (وهم من يملكون ما يربى على مئة ألف آس — وهو فى أصله رطل من

(١) **Negotiator** كلمة لاتينية معناها تاجر على نطاق واسع أو رجل من رجال المال يشتغل بأعمال المصارف . أما **Publicani** : فهى لفظة لاتينية معناها ملتزمو الضرائب وهم فى الغالب من طبقة الفرسان ، اشتهروا بافتنانهم فى أساليب جباية الضرائب فى ولاية آسيا .
(المترجم)

النحاس ووحدة العملة الرومانية — واثنان وعشرون وحدة مئوية من الرجال يملك كل منهم ما يعادل خمسة وسبعين ألف آس) وهكذا . وكان هناك وحدتان مئويتان ، إحداهما من الميكانيكيين ، والثانية من الموسيقيين . وكذلك كان لطبقة « البروليتارية »(١) وحدة مئوية واحدة . وكان قرار المجلس المئوى (الكوميتيا كنتورياتا) يصدر بغالبية الوحدات المئوية .

أعجيب إذن ان ينتقل السلطان بعد نمو الدولة الرومانية وتعقد أعمالها عائداً من مثل مجلس الأحرار هذا إلى السناتو الذى كان هيئة متماسكة نسبياً يتراوح عددها بين ثلاثمائة كحد أدنى وبين تسعمائة عضو كحد أقصى (وهو العدد الذى رفعه إليه قيصر) ، وهم رجال كان لزاماً عليهم أن يتصرفوا فى شئون الدولة وكبار الأعمال ، ويعرف أحدهم الآخر إلى حد ما ، ولديهم فى أصول الحكم والسياسة تقاليد متوارثة ينتهجون نهجها ؟ وكانت سلطة تعيين أعضاء مجلس السناتو ودعوتهم إلى الاجتماع موكولة فى الجمهورية فى أول الأمر إلى القناصل . ولما أن أنشئت بعد ذلك بزمن يسير وظيفة الرقيب (السنسور Censor) ، ونقل الكثير من اختصاصات القناصل إليهم ، وكل إليهم كذلك القيام بهذه المهمة . وقام أپيوس كلوديوس وهو من أوائل من شغلوا منصب الرقيب واضطلعوا بهذه المهمة ، بتقييد أسماء الأرقاء المعتقين فى سجل القبائل ، ودعا أبناء الرجال المعتقين إلى عضوية مجلس السناتو . غير أن هذا العمل جاء صدمة أزعجت ذلك المجتمع المحافظ بغريزته على القديم . فأبى القنصلان أن يعترفا بمجلسه ، واستبعد من عقبه من الرقباء (٣٠٤ ق. م.) مرشحيه بطريقته هذه . وكيفما كان الأمر فإن محاولته تساعدنا على تفهم

---

(١) البروليتارية (Proletarii) : وهم بروما طبقة فى أسفل السلم الاجتماعى والسياسى ، وظيفة الواحد منهم أن يخدم الدولة لا بممتلكاته وثرائه بل بأولاده ونسله ومن هنا جاءت تسميتهم .   (المترجم)

مدى تقدم السناتو عن حاله الأصلية حين كان هيئة صرفة من البطارقة . فأصبح شأن مجلس اللوردة المعاصر جمعاً من رجال الأعمال الكبار والسياسيين ذوى النشاط الجم والمغامرين الموفقين وكبار أصحاب الأراضى والأملاك ومن على شاكلتهم . فأما ارتداؤه ثوب النبل وكرامته وانتحاله سمة البطارقة ، فزيف جميل وخداع خلاب . على أنه على عكس مجلس اللوردات البريطانى لم يكن يحد سلطته من الناحية القانونية أى شىء اللهم إلا مجلس الأحرار الذى نعتناه من قبل بالعجز والتقصير ، وإلا الترابنة الذين كان ينتخبهم مجلس البلبز . على أن رقابة مجلس السناتو القانونية على القنصلين ونواب القناصل[1] كانت غير كبيرة . وكانت سلطته التنفيذية ضئيلة لا تذكر على أن قوته ونفوذه إنما تستمدان من هيبته وخبرته . وطبيعى أن مصالح أعضائه تناقض بالطبع مصالح هيئة المواطنين عامة . ولكن انقضت أجيال عدة وهــذه الكتلة العظيمة من عامة الناس عاجزة غير الترجمة عن عدم رضاها عن إجراءات هذه الأوليجركية . ومن ثم فإن الحكومة الشعبية المباشرة لأى دولة أكبر من دولة المدينة ، كان مصيرها إذن هو الفشل والخذلان فى إيطاليا لأنه لم يتهيأ للناس حتى آنذاك أى تعليم عام ولم تنهض لهم صحافة ولا تم لهم أى نظام تمثيلى . باءت هذه الحكومة المباشرة بالفشل لمجرد وجود هذه الصعوبات المادية قبل شبوب الحرب البونية الأولى . ولكن فى ظهورها أهمية كبرى ، لأنها تمثل بوادر ظهور مجموعة من المشاكل التى لا تزال فطنة العالم السياسية جمعاء تناضل وإياها إلى اليوم محاولة إيجاد حل لها .

كان السناتو يجتمع عادة فى دار أعدت له بالفوروم ، غير أنه كان يدعى للاجتماع فى الظروف الخاصة فى هذا المعبد أو ذاك ، فإذا ما كان داعى الاجتماع هو الاتصال بالسفراء الأجانب والنظر فى شئون قواده (الذين كان

---

(١) نائب القنصل (Proconsul) هو قنصل سابق كان يعين حاكماً على إحدى الولايات الرومانية بعد توليه وظيفة القنصلية سنة أو أكثر فى روما . (المترجم)

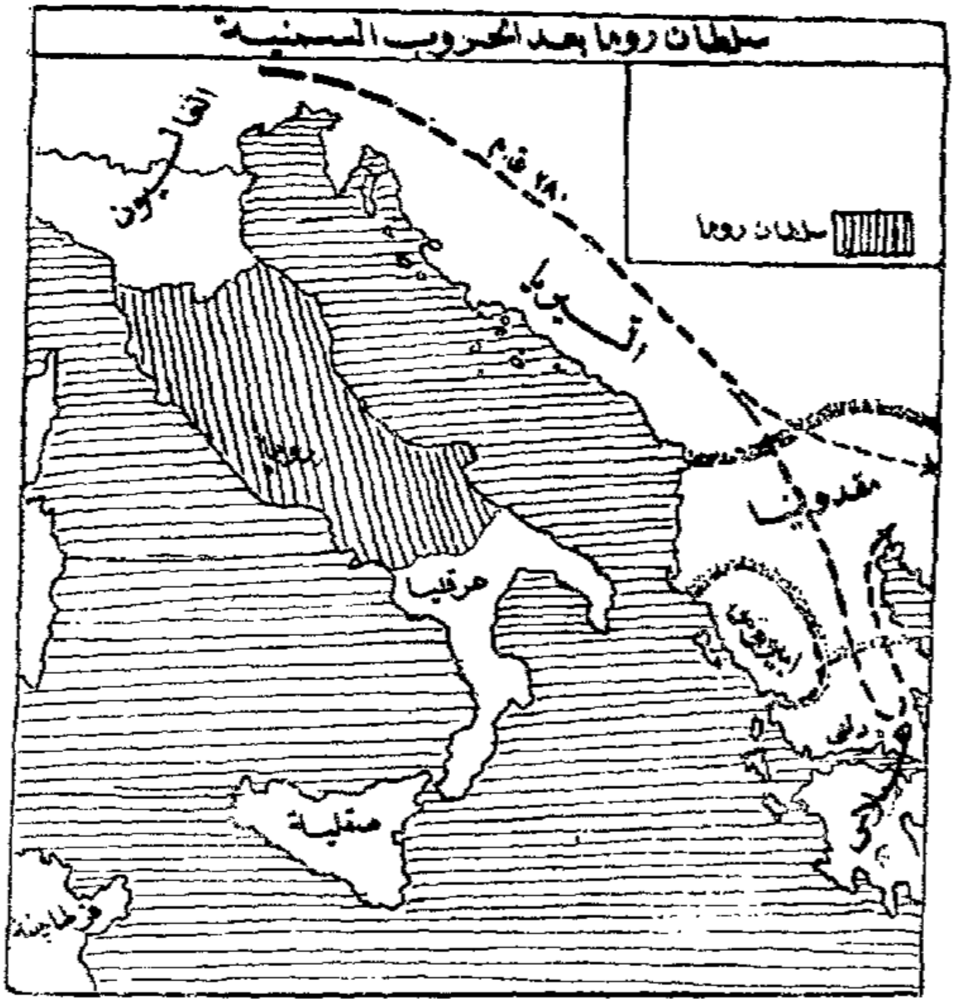
محرماً عليهم دخول المدينة وهم على إمرة جنودهم) ، كان مكان اجتماعه هو ساحة الإله مارس (Campus Martius) خارج أسوار المدينة .

٣ – جمهورية الأغنياء القرطاجية

كان من الضرورى أن نسهب شيئاً ما فى موضوع التكوين السياسى للجمهورية الرومانية بسبب استمرار أهميتها الهائلة إلى يومنا هذا . وليس دستور قرطاجة بحاجة إلى أن نطيل إليه الوقوف .

كانت إيطاليا وهى تحت سيطرة روما قطراً جمهورياً . وكانت قرطاجة تسير على غرار ذلك النظام العريق فى القدم ، وأعنى به المدينة الجمهورية . وكانت لها «إمبراطورية» مثلما كانت لأثينا «إمبراطورية» من الدول التابعة التى لم تكن تضمر لها أية مودة . وكان بها جمهرة ضخمة من الرقيق الصناع ممن لا يخلصون لها سليقة وطبعاً .

وكان للمدينة ملكان يتوليان الحكم بالانتخاب يسميهما أرسطو بالسوفيتين (Suffetes) كانا فى الحقيقة يعادلان الرقباء (السناسرة) عند الرومان . وكان لقبهما باللغة السامية هو نفس اللقب الذى يطلق على القضاة اليهود . وثمة جمعية عمومية لا حول لها ، ومجلس سناتو يضم الشخصيات من الزعماء البارزين ، بيد أن لجنتين من هذا السناتو ، وهما منتخبتان انتخاباً اسمياً — ولكن بوسائل تسهل الهيمنة عليها والتأثير وهما لجنة المئة والأربعة ولجنة الثلاثين ، كانتا تُكوِّنان فى الحقيقة أوليجركية ضيقة وثيقة البنيان مكونة من أغنى الرجال وأوسعهم نفوذاً . وكانوا لا يبلّغون الأخبار إلى حلفائهم وزملائهم فى المواطنة إلا فى أضيق الحدود ، ولا يستشيرونهم إلا فى أقل حد مستطاع . وكانوا يتبعون أساليب وخططاً تخضع فيها مصلحة قرطاجة ورفاهيتها بلا ريب لمصلحة طائفتهم هم . كانوا يناصبون العداء كل رجل ناهض جديد وكل إجراء مستحدث ، كما كانوا على يقين أن السيادة البحرية التى استدامت لبلادهم قرنين من الزمان لا بد أن تكون جزءاً من طبيعة الأشياء .



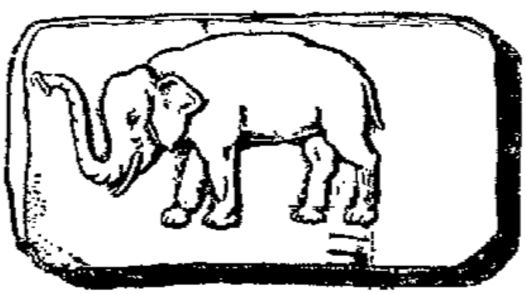
(١٠١) اتساع رقعة روما بعد الحروب السمنية

٤ – الحرب البونية (الفينيقية) الأولى

فى اعتقادنا أن من الشائق – وليس من العبث وإضاعة الوقت فى شىء – أن نتأمل ما كان يحصل للجنس البشرى لو أن روما وقرطاجة استطاعتا تسوية ما بينهما من خلافات وتمكنتا من أن تقيا حلفاً دائماً فى العالم الغربى . فلو قد طال الأجل بالإسكندر الأكبر ، فلعله كان يسير غرباً ويكره هاتين القوتين (: الدولتين) على سلوك هذا السبيل الذى يدمج بين المصلحتين . على أن هذا الأمر ما كان ليتفق والخطط الخصوصية للأوليجركية القرطاجية ولا أبهتها وبذخها ؛ كذلك كان سناتو روما العظمى بوضعه الجديد قد أخذ

يغدو مغرماً بتذوق طعم غنائم النهب ، ويرمق بعين الحسد الممتلكات القرطاچية فى صقلية وراء مضيق مسينا . فكان أعضوه يتطلعون إليها جشعاً ولكنهم يخشون قوة قرطاچة البحرية . وكانت « وطنية » عامة الشعب الرومانى مع ذلك تتأجج غيرة وخوفاً من أولئك القرطاچيين ، على أنها كانت أقل من السناتو ميلا أن تقيم لنفقات القتال وزناً . دامت المحالفة التى قضى بإبرامها بين روما وقرطاچة ظهور پيروس إحدى عشرة سنة . على أن روما كانت على تمام الأهبة لما يسمى فى لغة السياسة العصرية وأسلوبها العقيم باسم الحرب « الهجومية الدفاعية » . ثم سنحت الفرصة فى ٢٦٤ ق. م .

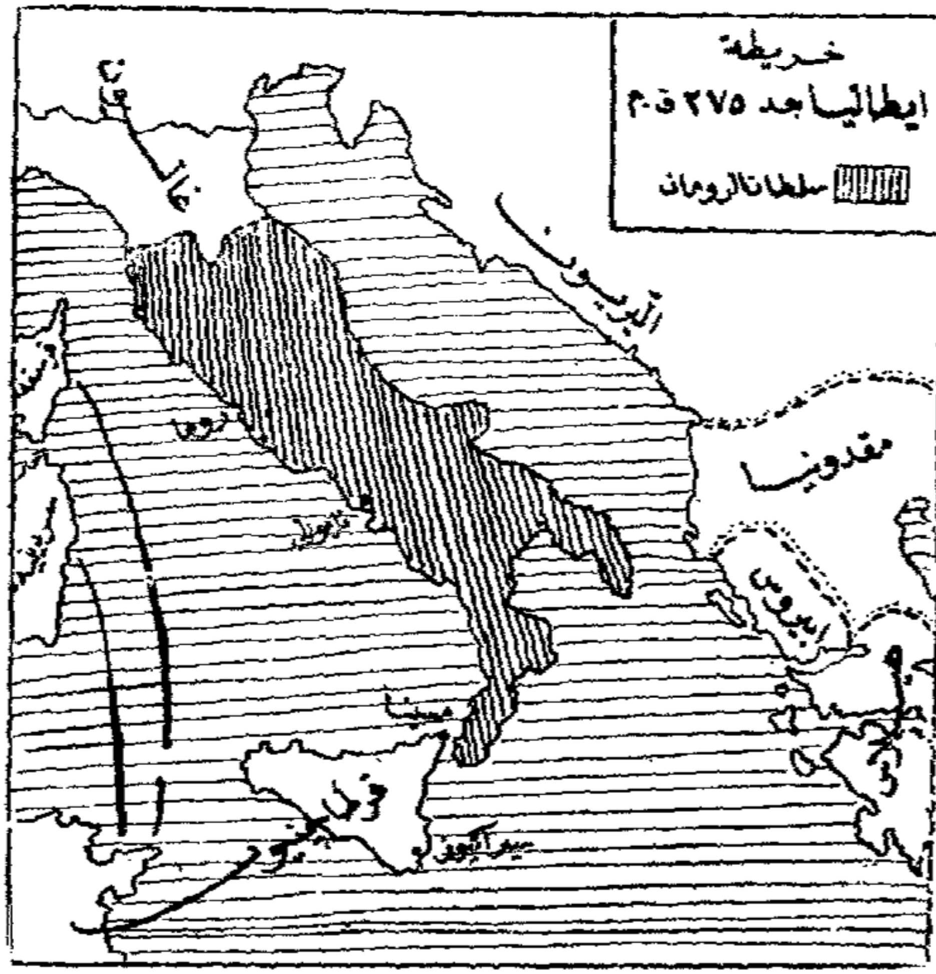
وفى ذلك الوقت لم تكن صقلية كلها فى قبضة قرطاچة . إذ كان طرفها الشرقى لا يزال تحت حكم هيرون ملك سيراقوزة الإغريقى ، وهو خلف لذلك الملك ديونيسيوس (Dionysius) الذى ذهب إليه أفلاطون كفيلسوف لبلاطه . وقد استولت فى (٢٩٨ ق.م.) على مسينا جماعة من الجند المرتزقة كانوا فى خدمة سيراقوزة ، ثم أخذوا يغيرون على تجار سيراقوزة حتى اضطر هيرون آخر الأمر أن يتخذ التدابير للقضاء عليهم (٢٧٠ ق . م .) . وعند ذلك هبت لمساعدته قرطاچة التى كانت تهتم اهتماماً حيوياً بالقضاء على القرصنة ، ووضعت فى مسينا حامية قرطاچية . وكان هذا ولاشك إجراء له كل مبرراته . فإن قرطاچة أصبحت بعد تدمير مدينة صور ، هى الحارس المقتدر الوحيد لقانون البحار فى مياه البحر المتوسط . كما أن القضاء على القرصنة كان واجبها بحكم العادة كما هو التزام أملته عليها التقاليد المتوارثة .



١٠٢ — عملة رومانية لذكرى الانتصار على بيروس

وهرع قراصنة مسينا يلتمسون المعونة من روما ، وهنا تحركت الحشية

والغيرة التى طالما أفعمت قلوب الشعب الرومانى نحو قرطاجة فدفعته إلى أن يقرر مساعدة المستجيرين . ومن ثم أرسلت حملة عسكرية إلى مسينا بإمرة القنصل أپيوس كلوديوس (وهو ثالث أپيوس كلوديوس ، اضطررنا إلى ذكره فى هذا الكتاب) .



(١٠٣) خريطة إيطاليا بعد ٢٧٥ ق . م .

وبذلك ابتدأت الحلقة الأولى فى سلسلة من أشد الحروب جموحاً وتدميراً وأحفلها بالكوارث وأحلكها فى تاريخ البشر صحيفة . وها نحن نظهرك على الطريقة التى كان يكتب بها أحد المؤرخين معبراً عما يملأ جوانب نفسه من غريب الأفكار الشائعة فى عصرنا هذا ، إذ قال مترجماً عن سروره بحملة الشر هذه : « كان الرومان يعرفون أنهم مقدمون على الحرب مع قرطاجة ،

بيد أن غرائز القوم السياسية كانت صائبة ، إذ أن وجود حامية قرطاچية على المضيق الصقلى ، كان مصدر تهديد خطر على السلام فى إيطاليا » . لذا وقوا سلام إيطاليا من هذا « التهديد » بحرب دامت ربع قرن تقريباً ؛ فحطموا فى أثناء ذلك « خُلقهم » السياسى الذى لم يتكامل لهم تكوينه إلا بعد دهور وأجيال .

استولى الرومان على مسينا ، وتخلى هيرون عن القرطاچيين وانضم إلى الرومان . ثم تركز القتال زماناً حول مدينة أجريجنتوم (**Agrigentum**) . فحاصرها الرومان ، وأعقب ذلك مدة من حرب الخنادق . وقاسى الطرفان أعظم الآلام من الطاعون ومن عدم انتظام المدد ، وخسر الرومان ثلاثين ألف رجل . على أن القرطاچيين أخلوا مراكزهم آخر الأمر (٢٦٢ ق.م.) وانسحبوا إلى مدنهم الحصينة الواقعة على شاطئ الجزيرة الغربى ، وأهمها مدينة ليليبايوم (**Lilybaeum**) . إذ أنهم كانوا يستطيعون أن يمدوا هذه بالمدد من أرض القارة الإفريقية فى يسر وسهولة ، ويكون من اليسير عليهم ما بقيت لهم سيادتهم البحرية ، أن يستنفدوا كل جهد يبذله الرومان ضدهم .



١٠٤ — عطـارد

وعند ذلك دخلت الحرب فى طور جديد لا عهد للناس بمثله . فإن الرومان خرجوا إلى البحر ثم هزموا الأسطول القرطاچى ، فأدهشوا بذلك القرطاچيين وأنفسهم على السواء . وقد تطور فن بناء السفن وتقدم تقدماً عظيماً منذ أيام سالاميس . فكان طراز سفينة الحرب الغالب هو المثلاثة (**trireme**) أى السفينة ذات الصفوف الثلاثة من المجدفين ؛ فأما السفينة الحربية الرئيسية القرطاچية فكانت المخماسة (**Quinquereme**) ، وهى سفينة أكبر

بكثير لها خمس مجاميع من المجاديف تستطيع أن تصك أو تقطم مجاديف أية سفينة أضعف منها . ولقد دخل الرومان الحرب وليس لديهم من أمثال هذه السفن شيء . فأخـذوا يجدّون فى إنشاء ربات الخمسة صفوف أى الخماسات ، وأعانهم على ذلك كما يقال أن البحر قذف إحدى هذه السفن القرطاچية إلى شاطئهم . ولم ينقض شهران حتى صار لديهم مئة من تلك الخماسات وثلاثون من الثلاثات . بيد أنهم لم يكن لديهم الملاحون المهرة المدربون ولا المجدفون الخبيرون ، فعالجوا هذا النقص علاجاً جزئياً بالاستعانة بحلفائهم الإغريق ، وعالجوه من ناحية أخرى باختراع أضرب جديدة من « التكتيكات » . فبدلا من الاعتماد على الصك أو على قطم مجاديف الخصم ، وهو أمر يتطلب براعة فى الملاحة فوق ما لديهم ، رأوا أن ينزلوا على سفن الأعداء ، وابتنوا على سفنهم ضرباً من الكبارى الطويلة القابلة للرفع ، تشدها بكرة إلى سارية ، وبنهايتها خطاطيف وخوازيق تمسك بسفن الأعداء وتتشبث بها . وكذلك حمّلوا سفنهم بالجنود . حتى إذا صكت سفن القرطاچيين سفنهم أو احتكت بجوانبها أنزل هذا الكوبرى (Corvus) ثم تقدم عليه مَن على ظهر السفينة من الجنود حاشدين .

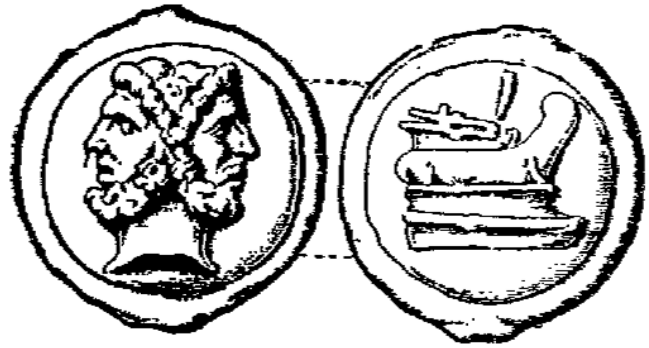
ومع أن هذه الوسيلة كانت بسيطة كما ترى ، فإنها أوتيت نجاحاً تاماً . فغيرت مجرى الحرب ومصير العالم . وواضح أنه لم يكن فى طاقة عقول الحكام القرطاچيين ابتكار وسيلة بسيطة لإحباط أثر هذا الكوبرى . وفاز الرومان فى معركة ميلاى (Mylae) (٢٦٠ ق . م .) بأول نصر بحرى لهم واستولوا على خمسين سفينة أو دمروها . وفى معركة إكنوموس الكبرى (Ecnomus) (٢٥٦ ق . م .) — « وهى فيما يرجح أعظم موقعة بحرية نشبت فى العالم القديم »[1] ، وفيها التحمت سبعمئة أو ثمانمئة من السفن الكبيرة ، أظهر القرطاچيون أنهم لم يتعلموا شيئاً من كارثتهم السابقة . أجل إنهم جريا على

(1) J. Wells : "Short History of Rome to he Death of Augustns"

قديم عادتهم بزوا الرومان فى المداورات ، فحق لهم لذلك أن يهزموهم ، بيد أن الكوبرى عاد مرة ثانية فهزمهم . وأغرق الرومان ثلاثين سفينة واستولوا على أربع وستين .

ثم واصل الطرفان بعد ذلك الحرب وأخذت كفتا الحظ تتأرجحان عنيفاً ، ولكن لم ين الرومان عن إظهار ما هم عليه من تفوق فى الهمة والتماسك والمبادأة وروح الابتكار . وبعد « إكنوموس » غزا الرومان إفريقيا بحراً ، وأرسلوا جيشاً ناقص العون والعدة هزم هزيمة تامة بعد أن أحرز كثيراً من الانتصارات ، وبعد استيلائه على تونس (وهى على بعد عشرة أميال من قرطاچة) . ثم ما لبثوا أن خسروا سيادتهم البحرية فى إحدى العواصف ثم استعادوها بتشييد عمارة بحرية أخرى من مئتين وعشرين سفينة فى مدى ثلاثة شهور . واستولوا على بالرمو وهزموا هناك جيشاً قرطاچياً عظيماً (٢٥١ ق.م.) مستولين على مئة وأربعة من الأفيال ، وعادوا إلى روما بموكب نصر هائل لم تره تلك المدينة من قبل . ثم ضربوا على مدينة ليليبايوم حصاراً باء بالفشل ، وهى المعقل الرئيسى الباقى فى أيدى القرطاچيين بصقلية . ثم فقدوا أسطولهم الثانى فى معركة بحرية عظيمة فى دريبانوم (Drepanum) (٢٤٩ ق .م .) ، إذ خسروا مئة وثمانين سفينة من مئتين وعشرة . وفقدوا أسطولا ثالثاً عدته مئة وعشرون سفينة حربية وثمانمئة ناقلة جنود فى نفس السنة ، ضاع بعضه فى الحرب والبعض الآخر فى إحدى العواصف .

ثم انقضت سنوات سبع واصل فيها الطرفان — وقد كادت قواهما أن تنهك — حرباً فاترة ، قوامها الغارات الكليلة والحصار الواهى ، كان للقرطاچيين فيها اليد العليا فى البحر . ثم قامت روما بمجهود أخير متفوق ، فأنزلت إلى البحر أسطولا رابعاً عدته مئتا سفين . وسحقت آخر ما لدى القرطاچيين من قوة فى معركة الجزر الأيجاتية (٢٤١ ق . م) . هنالك طلبت قرطاچة الصلح (٢٤٠ ق . م) .



١٠٥ — آس رومانى

وبمقتضى شروط هذا الصلح ، أصبحت صقلية كلها فيما عدا ممتلكات هيرون السيراقوزى « ضيعة » من أملاك الشعب الرومانى . ولم يمارس الرومان فى تلك الجزيرة عملية التمثل التى مارسوها فى إيطاليا ؛ بل صارت صقلية ولاية مقهورة ، تدفع الجزية وتدر عليهم الأرباح ، شأن مستعمرات الإمبراطوريات الأقدم عهداً . وفضلا عن ذلك ، ألزمت قرطاجة بدفع تعويضات حرب قيمتها ٣٢٠٠ تالنتوم، أى ما يعادل (٧٨٨ ألف جنيه) .

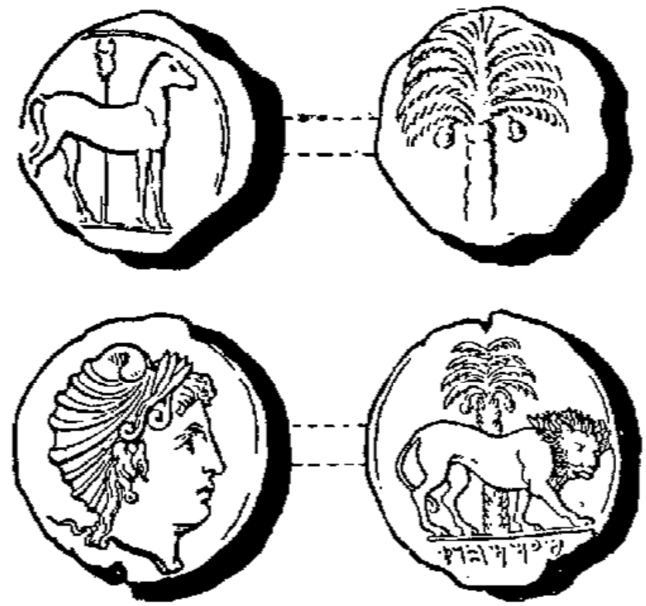
٥ — كاتو الأكبر وروح كاتو

دام السلام بين روما وقرطاجة اثنتين وعشرين سنة . وكان سلاماً لا رخاء فيه ولا رغد . قاسى فيه كلا المتحاربين آلام العوز وانحلال النظام التى تتلو بالضرورة والطبيعة كل الحروب العظيمة . وكانت أراضى قرطاجة تضطرم بالفوضى العنيفة . فإن الجنود العائدين لم يستطيعوا الحصول على أعطياتهم ، فتمردوا وأخذوا ينهبون ويسلبون . وتركت الأراضى بوراً لا تجد من يزرعها . وإنا لنقرأ فى سجل التاريخ صفحات رهيبة من القساوات المروعة التى حدثت إبان إخماد هاملكار (Hamilcar) القائد القرطاجى لهذا الشغب ؛ فنسمع برجال يُعدمون صلباً بالألف دفعة واحده . وثارت سردينيا وقورسيقا . ولم يكد « سلام إيطاليا » أن يكون أسعد من هذا حالا . فقد ثار الغال وتقدموا جنوباً ؛ ولكنهم هزموا وقتل منهم أربعون ألفاً عند تيلامون (Telamon) . وغنى عن البيان أن إيطاليا لا تتم وتكتمل وحدتها حتى تصل إلى جبال الألب . ولذا أنشئت المستعمرات الرومانية فى وادى نهر البو ، وبدئ فى إنشاء الشريان الكبير المتجه شمالا وهو الطريق الفلامينى

(Via Flaminia) . ولكن مما يدل على مبلغ ما وصل إليه الرومان من انحطاط خلقى وعقلى فى هذه الفترة التى أعقبت الحرب أنه بينما كان الغال يهددون روما تقدم البعض باقتراح تقديم القرابين البشرية ، ونفذ ذلك فعلا . ثم إن القانون البحرى القرطاچى القديم انهار ، نعم ربما بدا قانوناً ينطوى على الأنانية والاحتكار ، بيد أنه كان على الأقل مصدراً للنظام . فزخر البحر الأدرياتى بالقراصنة الإلليريين ، وكانت نتيجة تلك الحال نشوب نزاع بسبب هذه القرصنة أفضى إلى نشوب حربين تمخضتا عن إلحاق إلليريا بروما كولاية ثانية . ومهد الرومان السبيل للحرب البونية الثانية بإرسالهم الحملات لضم سردينيا وقورسيقا ، وهما ولايتان قرطاچيتان اندلعت فيهما نار الثورة .

كانت الحرب البونية الأولى قد كشفت عما لدى كل من روما وقرطاچة من قوى نسبية وعجمت عودهما . فلو أوتى الطرفان من الحكمة حظاً أوفر قليلا ، ولو طبع الرومان على مقدار من التسامح وعلو النفس أكثر قليلا ، لما دعت حاجة إلى تجديد النضال . بيد أن روما كانت قاهراً لا يرحم . فاستولت على قورسيقا وسردينيا بغير وجه حق . وزادت التعويض بمقدار ١٢٠٠ تالنتوم وجعلت من نهر الإبرو حداً أقصى للتوغل القرطاچى فى أسبانيا . وكان فى قرطاچة حزب قوى يتزعمه هانو ، يدعو إلى استرضاء روما . على أن من البديهى أن الكثير من القرطاچيين أصبحوا ينظرون إلى خصمهم الطبيعى نظرة الحاقد اليائس .

والحقد أحد الشهوات التى قد تتسلط على حياة فرد من الأفراد ، وإن هناك لطرازا من الأمزجة أشد ما يكون تعرضاً له . وهذا المزاج على أتم استعداد للنظر إلى الحياة نظرة تقوم على الميلودراما الانتقامية العنيفة ، كما أنه على أتم أهبة لالتماس الدافع المثير وشفاء الغليل فى صورة المظاهر الرهيبة للعدالة ولروح الانتقام . وما برحت مخاوف الجثم والكهف تثمر فى حياتنا حتى اليوم زهراتها السود ، فلسنا بعدُ على مبعدة من العصر الحجرى القديم



١٠٦ — عملة قرطاجية

الا بمقدار أربعمئة جيل . والحروب العظيمة — كما تعلم أوربا بأجمعها — تفسح المجال لهذه الروح « الحقود الشريرة » وتلهب أوارها إلى أقصى حد . وفى ذلك الحين أخذ الشره والكبرياء والقساوة التى أطلقت لها الحرب البونية الأولى العنان ، تنتج ثماراً وفيرة من روح كراهية الأجنبي فى إفراط بلغ حد الجنون ، وكان أبرز الشخصيات فى الجانب القرطاجى قائداً عظيماً وإداريا بارعاً . هو هاملكار بارقا ، الذى نصب نفسه آنذاك للكيد لروما وتمزيقها إرباً . كان حماً لهاسدروبال ، وأباً لغلام هو هانيبال ، وهو الذى قدر له أن يكون أخطر الأعداء الذين أرعبوا مجلس السناتو الرومانى أبد الدهر . وكان أوضح طريق أمام قرطاجة هو إعادة بناء أسطولها وإدارتها البحرية واستعادة قوتها فى البحر . على أن هاملكار لم يستطع تنفيذ ذلك فيما يبدو . فاعتزم أن يستعيض عنه بتنظيم أسبانيا ، وجعلها قاعدة لهجوم برى على إيطاليا . فذهب إلى أسبانيا والياً (٢٣٦ ق .م .) . ويقص هانيبال بعد ذلك أن أباه جعله — وهو إذ ذاك غلام فى الحادية عشرة — يقسم أغلظ الأيمان على العداء الأبدى للدولة الرومانية .

وإن تركيز أسرة بارقا لمواهبها ولأرواحها وتوفرها على الانتقام على مثل هذا النحو شبه الجنونى إن هو إلا مثال واحد لما كان يقض مضاجع الناس من مرارة العيش وتضييق على الحياة ، بثهما فى أفئدتهم ويلات ذلك

الكفاح العظيم والشعور العام بعدم الطمأنينة . فإن ربع قرن من الحروب خلّف العالم الغربى برمته تعساً متسماً بالخشونة . وبينما هانيبال الغلام ذو الأحد عشر عاماً يقسم يمينه تلك بالكره المقيم لروما ، كان يدرج حول بيت ريفى فى توسكولوم[١] طفل فى الثانية من عمره صغير السن ، إلا أنه بغيض كريه فيما يحتمل ، اسمه ماركوس پوركيوس كاتو . عاش هذا الغلام حتى بلغ الخامسة والثمانين ، ولعل أعظم العواطف سلطاناً عليه ، بغضه لكل سعادة يصيبها أى إنسان إلا شخصه هو . كان جندياً ماهراً ، كما كان موفقاً فى حياته السياسية أيما توفيق . وعقد له لواء القيادة فى أسبانيا ، فذاع صيته بما أظهره من ضروب القساوات . واتخذ لنفسه موقف المتظاهر بحماية الديانة والأخلاق العامة . ثم قضى بقية أيام حياته يشن — وهو مستتر تحت ثيابه الزاهية تلك — حرباً عواناً على كل شىء يرى فيه الفتوة أو السماحة أو الجمال . وكلما استثار غيرته أحد من خصومه تعرض لسخطه واستنكاره فى سلوكه نحوه . وكان جم النشاط فى سن وتنفيذ جميع القوانين المكافحة لأزياء السيدات والمضادة لزينتهن ، والمناهضة للملاهى والمناقشات الحرة . ومن حسن حظه أنه تولى منصب الرقيب (السنسور) ، وهو أمر أتاح له سلطة عظيمة على الحياة الخاصة للرجال العموميين . وبهذه الوسيلة تمكن من القضاء على خصومه فى الحياة العامة عن طريق التشهير بفضائحهم الخاصة . فطرد مانليوس من مجلس السناتو لأنه قبّل امرأته نهاراً بمرأى من ابنتهما . واضطهد الأدب الإغريقى الذى ظل على جهـــل مطبق به حتى بلغ سناً متأخرة . ثم قرأ ديموستنيز وأعجب به . وألف باللاتينية عن الزراعة وعن « القديم الضائع من فضائل روما » . وتلقى كتاباته ضياء كاشفاً يظهرك على صفاته . ومن أمثاله المأثورة قوله : إذا لم يكن العبد نائماً وجب أن يكون قائماً يعمل . وثمة مثل آخر هو : إن الثيران والعبدان المسنة يجب أن تباع . وقد ترك

---

(١) مدينة بإيطاليا .

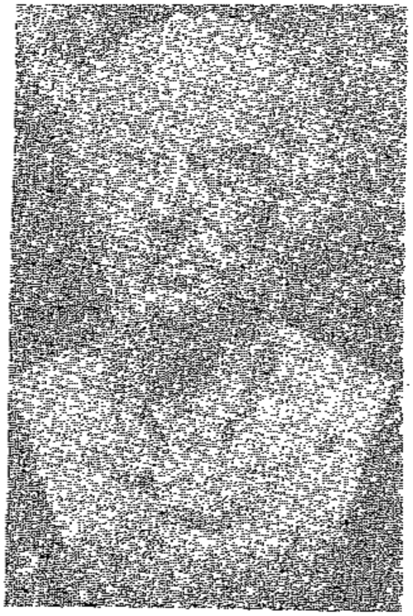
وراءه يوم عاد إلى إيطاليا جواد الحرب الذى حمله إلى النصر فى حملاته الأسبانية توفيراً لنفقة نقله . وكان يكره وجود الحدائق عند غيره من الناس ، لذا قطع عن الناس مدد الماء الذى كان يروى الحدائق بروما . وإنه ليخرج بعد الانتهاء من تناول العشاء والاحتفاء بمدعويه وبيده سوط من الجلد ليصلح ما عساه أن يكتشفه فى خدمه من إهمال . وكان يعجب بفضائله الذاتية أيما إعجاب ويشيد بها فى كتاباته . ودارت معركة فى ترموبيلاى بين الرومان وبين أنطيوخوس الأكبر ، وكتب عنها يقول متحدثاً عن نفسه : « إن من رأوه يهاجم العدو ويطارده ويقتفى أثره ، أعلنوا أن دين كاتو لأهل روما أقل من دين أهل روما لكاتو »[١] . ثم إن كاتو أصبح ، وقد طعن فى السن ، داعراً خليعاً ، ندّ عن قويم الأخلاق مع امرأة من الإماء . وفى النهاية لما أن احتج ابنه على هذه الفوضى فى دارهما المشتركة ، بلغ به الأمر أن تزوج من فتاة صغيرة ، هى ابنة سكرتيره ، الذى لم يكن فى مركز يسمح له أن يرفض طلبه . (ولسنا ندرى شيئاً عما آل إليه أمر تلك الأمة ؛ ولعله باعها) . ومات هذا الرجل الذى جمع فى شخصه صفوة الفضائل الرومانية القديمة بأكملها فى سن متقدمة ، والناس يحترمونه ويخشونه . ويكاد يكون آخر أعماله العامة تحريضه على إشعال الحرب البونية الثالثة وعلى تدمير قرطاجة نهائياً . ذلك أنه ذهب يوماً إلى قرطاجة مندوباً ليسوى بعض الخلاف بينها وبين نوميديا ، فهاله بل أرعبه ما فى ذلك القطر من بعض دلالات الرخاء بل وأمارات السعادة .

ومنذ تلك الزيارة أصبح كاتو يختم كل خطاب يلقيه فى مجلس السناتو بأن ينعق قائلا : « يجب أن تدمر قرطاجة — Delenda est Carthago » .

على هذه الحال كان طراز الرجل الذى ارتقى إلى ذروة الرفعة فى روما أثناء الحروب البونية ، وعلى تلك الشاكلة كان خصم هانيبال ، وعلى هذا المنوال كان استعداد قرطاجة للانتقام . وبواسطة كاتو وهانيبال نستطيع أن نحكم على طبيعة ذلك العصر وندرك كنهه وروحه .

---

(١) « حيـــاة كاتو » لبلوتارك .



١٠٧ — كاتو

كانت الدولتان الغربيتان العظيمتان مجهدتين مكدودتين عقلياً وخلقياً لما لحقهما من أهوال الحرب الأولى ، ولعل روما أشدهما إجهاداً وتوتراً . لقد كان جانب الشر هو الأعلى فى معترك الحياة . ومن الجلى أن تاريخ الحربين البونيتين الثانية والثالثة (من٢١٨ إلى ٢٠١ ق .م ، ثم من ١٤٩ إلى ١٤٦ ق.م) تاريخ شعوب ليست مستكملة تماماً لتوازنها العقلى . ومن سخف القول أن يتحدث المؤرخون عن « الغرائز السياسية » لدى الرومان أو القرطاچيين. فإن غرائز أخرى مضادة لهذه على خط مستقيم هى التى أطلق لها العنان . إذ غلب الحقد على العقل ، واحمرت الحدق كأنما عادت إلى هذا العالم عينا السلف القرد الحمراوان . ذلك زمان كان خصوم عقلاء الرجال يهاجمونهم بالعواء سباً وتشهيراً أو يقتلونهم قتلا . ولا أدل على الروح الحقة لذلك العصر المظلم من تلهف القوم فاحصين عن النذُر فى تلك الأكباد الإنسانية التى أخرجوها من الضحايا البشرية حارة مختلجة ، وهى الضحايا التى ذبحوها فى روما قرباناً يوم شملهم الرعب قبيل معركة تيلامون . فالعالم الغربى كان مسودّ الصحيفة بتلك الرغبة الجنونية فى القتل . فقد اختصم شعبان عظيمان ، كلاهما شديد اللزوم لتطور العالم وتقدمه ، ونجحت روما آخر الأمر فى إهلاك قرطاچة والقضاء عليها .

٦ ــ الحرب البونية الثانية

لسنا بمستطيعين فى هذا المقام إلا أن نوجز القول فى تفاصيل الحربين البونيتين الثانية والثالثة . ولقد أخبرناك منذ هنيهة كيف شرع هاملكار فى

تنظيم أسبانيا وكيف حظر عليه الرومان أن يتخطى نهر الإبرو . ومات هاملكار (٢٢٨ ق . م) وعقبه زوج ابنته هاسدروبال ، الذى اغتيل (٢٢١ ق . م) ، وخلفه هانيبال ، وكان إذ ذاك فى السادسة والعشرين . وقد عجل الرومان شبوب الحرب الفعلية بنقضهم الشروط التى وضعوها بأنفسهم وبتدخلهم فى شئون جنوبى نهر الإبرو . ومن ثم سار هانيبال قدماً مخترقاً جنوب بلاد الغال (أى فرنسا) ، ثم عبر جبال الألب (٢١٨ ق.م) وهبط إيطاليا .

والسنوات الخمس عشرة التالية تحوى قصة أشد الغزوات فى التاريخ شهرة وأقلها طائلا . فقد استمر هانيبال صامداً فى إيطاليا خمسة عشر عاماً وهو منصور لم يغلب . ولم يكن القواد الرومان كُفُواً لذلك القرطاجى ، فكلما التقوا به حلّت بهم الهزيمة . على أن قائداً رومانياً واحداً هو پ . كورنيليوس سكيپيو (P· Cornelius Scipio) أوتى من الإدراك الاستراتيجى ما جعله يختط لنفسه خطة فوتت على خصمه كل ثمار انتصاراته . فإنه كان عند ابتداء شبوب الحرب قد أرسل بحراً إلى مرسيليا ليصد هانيبال ويقطع عليه الطريق ؛ غير أنه وصل متأخراً ثلاثة أيام ، ولكنه بدلا من تعقبه دفع بجيشه إلى أسبانيا ليقطع عن هنيبال كل مؤونة أو مدد . وفى كل ما عقب ذلك من حـــرب ظل ذلك الجيش الرومانى فى أسبانيا حائلا بين هانيبال وقاعدته . فأصبح الرجل « معلقاً فى الهواء » ، لا يستطيع القيام بالحصارات ولا تعزيز الفتوح .

وكلما التقى هانيبال بالرومان فى قتال وجهاً لوجه غلبهم . فأحرز عليهم نصرين عظيمين فى شمال إيطاليا . وظفر بضم الغال إلى جانبه . ثم اندفع جنوباً نحو إترووريا ، ثم كمن لجيش رومانى وأحاط به ودمره تدميراً عند بحيرة ترازيمينى (Trasimene) . وفى ٢١٦ ق.م. هاجمته عند كانى (Cannae) قوة رومانية تفوقه فوقاً هائلا تحت قيادة ڤارو فقضى عليها

قضاء تاماً . ويقال إن خمسين ألفاً من الرجال قتلوا فى تلك المعـــركة ، وإن عشرة آلاف رجل أخذوا أسرى . على أنه لم يستطع مع ذلك أن يواصل الزحف إلى روما ويستولى عليها ، إذ لم تكن لديه معدات الحصار .

غير أن معركة كانى أثمرت ثماراً أخرى . فإن قسماً كبيراً من جنوب إيطاليا انحاز إلى هانيبال ، بما فى ذلك كاپوا (Capua) ، أكبر مدن إيطاليا بعد روما . ثم تحالف معه المقدونيون . هذا إلى أن هيرون السيراقوزى حليف روما المخلص كان قد مات ، وانضم خلفه هيرونيموس إلى القرطاچيين . وواصل الرومان الحرب مع ذلك بعزم أكيد وشدة مكينة لا تعرف الكلال . فرفضوا أن يعقدوا صلحاً مع هانيبال بعد كانى ثم ضربوا على كاپوا حصاراً بحرياً طويل الأمد كلل بالنجاح آخر الأمر . ثم أخذ جيش رومانى نفسه بإخضاع سيراقوزا . وحصار سيراقوزا مشهور بصفة خاصة بسبب المخترعات الرائعة التى استحدثها الفيلسوف « أرشميدس » ، والتى أوقفت الرومان موقف الحرج وصدتهم طويلا . ولقد ذكرنا من قبل أرشميدس هذا بوصفه أحد تلاميذ مدرسة المتحف الإسكندرى ومراسليها . وقتل أثناء فتح المدينة عنوة . ثم انتهى الأمر بعد سيراقوزا (٢١٢ ق.م) بأن سقطت تارنتم (٢٠٩ ق.م) ، وهى مرفأ هانيبال الرئيسى وسبيل تموينه من قرطاچة ، وكاپوا (٢١١ ق.م) ، فاضطربت على أثر ذلك مواصلاته .

وكذلك انتُزعت أسبانيا من قبضة القرطاچيين جزءاً فجزءاً . ولما أن وصلت إلى إيطاليا الأمداد المرسلة لهانيبال تشق طريقها كفاحاً تحت قيادة أخيه هاسدروبال (ويجب ألا يخلط اسمه باسم صهره هاسدروبال الذى اغتيل) ، دمرها الرومان فى معركة متاوروس (Metaurus) (٢٠٧ ق.م.) ، وكانت أول أخبار وصلت إلى هانيبال عن الكارثة ، هى رأس أخيه المفصول عن جسمه يلقى فى معسكره .

وبعد ذلك حُصِرَ هانيبال فى كالابريا (Calabria) وهى عقب الحذاء

الإيطالى . ولم تكن لديه قوات يستطيع بها القيام بعمليات حربية ذات جرم كبير ، فعاد آخر الأمر إلى قرطاجة فى الوقت المناسب لكى يتولى قيادة أبناء وطنه فى آخر معركة فى الحرب .

حدثت هذه المعركة الأخيرة وهى معركة زاما (Zama) (٢٠٢ ق.م) على مقربة من قرطاجة نفسها .

كانت أول هزيمة أصابت هانيبال ؛ ولذا فمن المستحسن أن نوجه بعض عنايتنا إلى شخصية قاهره سكيپيو الإفريقى الأسن ، الذى خلد التاريخ اسمه إنساناً دمث الأخلاق وجندياً عظيماً ورجلا كريماً . ولقد ذكرنا من قبل شخصاً معيناً اسمه پ . كورنيليوس سكيپيو ، كان ينزل الضربات بقواعد هانيبال فى أسبانيا . فهذا هو ابنه ؛ وكان هذا الابن إلى ما بعد معركة زاما يحمل اسم « پ . كورنيليوس سكيپيو » ثم منح لقب الإفريقى . (فأما سكيپيو الإفريقى الأصغر وهو (Scipio Africanus Minor) الذى قدر له فيما بعد أن ينهى الحرب البونية الثالثة ، فهو الابن المتبنى لابن سكيپيو الأول الإفريقى الأسن ذاك) . وكان كل ما فى سكيپيو الإفريقى يثير فى نفس كل رومانى من الطراز القديم — من مدرسة كاتو وأضرابه — نوازع المعارضة والكراهية وعدم الثقة . ذلك أنه كان صغير السن وكان سعيداً تام الكفاية ، جواداً ، ينفق المال بسخاء ، وكان واسع الاطلاع على الأدب الإغريقى ، ويكاد يكون من ناحية آرائه الدينية أميل إلى « البدع » الفريجية منه إلى آلهة روما الجامدة . ولم يكن ممن يؤمنون بالتروى المسرف الذى كان يتسلط على خطط قواد الرومان الاستراتيجية فى عصره .

حدث بعد الهزائم الأولى التى حلت بالرومان فى الحرب البونية الثانية ، أن تسلطت على العمليات العسكرية الرومانية ، شخصية قائد هو فابيوس (Fabius) ، الذى أخذ ينادى بضرورة تجنب الالتحام مع هانيبال حتى جعل من ذلك نوعاً من المبدأ المقدس . وغلب « فن التكتيك الفابى » على إيطاليا


١٠٨ — سكيبيو الإفريقى

مدة عشر سنوات . راح الرومان فى أثنائها يحصرون خصومهم بحراً ويقطعون الطريق على القوافل البحرية المعادية ، ويهاجمون الشاردين من أعدائهم ، فإذا لاح لهم شبح هانيبال ولوا الأدبار . ولا ريب أن الحكمة كانت تقضى عليهم ، عقب هزائمهم الأولى ، أن ينتهجوا مثل هذه الخطة إلى حين . بيد أن الواجب كان يقضى على الدولة الأشد قوة — وكانت روما هى الدولة الأقوى طوال الحرب البونية الثانية — بألاّ تسمح باستمرار حرب لا نهاية لها ، بل تسعى فى تعويض الخسائر ، واكتشاف القواد المقتدرين ، وتدريب جيوش أفضل ، وتدمير قوة العدو . والعزم أهم واجبات القوىّ وألزم صفاته .

كانت الخطة الفابيانية وما تتصف به من مكر ومماتلة غير مجدية ، وهى التى كانت تستنزف ببطء دماء إيطاليا وقرطاجة معاً حتى الموت ، - بغيضة ممقوتة عند أمثال سكيبيو من الرجال . لذلك أخذ ينادى مطالباً بالهجوم على قرطاجة نفسها .

« على أن فابيوس ملأ المدينة عند ذلك ذعراً ، كأنما كانت الجمهورية مقبلة على أشد الأهوال وأعظم المحن على يد شاب أهوج غير متزن . وموجز القول أنه لم يتورع عن أن يأتى أى عمل أو يقول أى شىء يرى فيه وسيلة لحمل مواطنيه على العدول عن قبول الاقتراح وتأييده . فظفر بأمنيته فى مجلس السناتو . على أن الناس اعتقدوا أن معارضة فابيوس لسكيبيو ترجع إما إلى حسده إياه على نجاحه ، وإما إلى إضماره الخوف من قيام هذا البطل الصغير بمأثرة باهرة ممتازة تضع للحرب حداً ، أو تبعد شبحها على الأقل

عن إيطاليا ، وعندئذ يظهر للملأ أن تصرفاته البطيئة التى امتدت خلال هذا العدد الجم من السنين لا يمكن أن تعزى إلا إلى التوانى والخور . فلجأ إلى كراسوس (Crassus) زميل سكيپيو فى القيادة محاولا أن يقنعه بألا يدع هذه الولاية لسكيپيو بل يذهب بنفسه إلى هناك للعمل ضد قرطاجة إذا رأى من الصواب أن يقوم بالحرب على تلك الشاكلة . ولم يكتف بهذا ، بل أعاق عملية تدبير المال اللازم لتلك الحملة ، حتى لقد اضطر سكيپيو أن يدبر ما يلزم الحملة من مال جهد طاقته . ثم حاول أن يثنى الشبان الذين تقدموا للتطوع فى الحملة عن تقييد أسمائهم ، وصرح بأعلى صوته فى كل من مجلس السناتو والفوروم « إن سكيپيو نفسه لم يكن يتجنب هانيبال فحسب ، بل يرمى أن يحمل معه كل ما تبقى لدى إيطاليا من قوة ، بإقناعه الشبان بالتخلى عن والديهم وزوجاتهم ومدنهم ، بينما لا يزال عدو قوى لم يقهر بعد مرابطاً على الأبواب » . بمثل هذه الترهات بث الرعب فى النفوس إلى حد جعل القوم لا يأذنون لسكيپيو إلا بالكتائب التى كانت فى صقلية وثلاثمئة من أولئك الرجال الذين عاونوه بإخلاص عظيم فى أسبانيا . . . وسرعان ما وردت من سكيپيو إثر نزوله بإفريقيا أخبار تبشر روما بما قام به من جلائل الأعمال وعجائبها . ثم تلا ذلك وصول غنائم ثمينة أكدت البشرى . وأخذ ملك نوميديا أسيراً ، وأحرق معسكران ودمرا وبهما عدد ضخم من الرجال والسلاح والخيل ، فأرسل القرطاجيون الأوامر إلى هانيبال أن يتخلى عن آماله العقيمة فى إيطاليا ، وأن يعود إلى بلاده ليدافع عن وطنه . وبينما كان كل لسان فى روما يلهج بالثناء على مآثر سيكيپيو هذه ، اقترح فابيوس ضرورة تعيين خلف له دون ما سبب أو مبرر معقول اللهم إلا ما يتضمنه هذا المثل الشهير القائل بأن : من الخطر أن نستودع حظ رجل واحد شئوناً على مثل تلك الدرجة من الأهمية ، لأنه ليس من المحتمل أن يستمر النجح حليفاً له على الدوام . كلا بل إن فابيوس حتى عندما أبحر

هانيبال بجيشه مغادراً إيطاليا ، لم ينقطع لحظة عن تكدير صفو السرور العام والتوهين من روح روما ، ذلك أنه سمح لنفسه أن يؤكد «أن الجمهورية قد وصلت إلى أقصى محنتها وأسوئها عاقبة وأن لديها كل سبب يدعوها أن ترهب جهود هانيبال عندما يصل إلى إفريقيا ويهاجم أبناء روما تحت أسوار قرطاجة ؛ وأن سكيپيو سيضطر إلى أن يلتحم بجيش ما تزال يداه مخضبتين دفيئتين بدماء هذا العدد الكبير من القواد والدكتاتورين والقناصل الرومان» . وانزعجت المدينة لهذه التشهيرات الحماسية ، ومع أن ساحة القتال انتقلت إلى إفريقيا . فقد أحس الناس أن الخطر أقرب إلى روما منه فى أى وقت آخر »(١) .

وحدثت قبيل معركة زاما هدنة وجيزة ومفاوضات ، انقطعت بغلطة من القرطاچيين . وكما كان الحال فى معركة إربيل (أربيلا) ، يمكن تحديد يوم معركة زاما بالضبط بكسوف حدث فى هذه المرة أثناء القتال . وكان قد انحاز إلى الرومان النوميديون ، وهم الشعب الذى يسكن ما يلى قرطاچة من أرض إفريقيا ، انضموا إليهم تحت إمرة ملكهم ماسينيسا Massinissa ، فأكسبهم ذلك لأول مرة تفوقاً عظيماً على هانيبال فى الفرسان . فتزحزح جناحا هانيبال من الفرسان عن مراكزهما ، على حين استطاع مشاة سكيپيو بما لهم من نظام أصلب وأسلم أن يفسحوا بين صفوفهم دروباً تهجم خلالها فيلة الحرب القرطاچية دون أن يضطرب نظام هؤلاء المشاة . وحاول هانيبال أن يمد خط مشاته لكى يحيطوا بكتلة المشاة الرومانية ، بيد أنه على حين كانت لجنوده بمعركة كانى كل ميزات التفوق فى التدريب وكانت القدرة على المداورة هنالك تبعاً لذلك فى جانبه ، فاستطاع آنذاك أن يحيط بحشد من المشاة وأن يعمل فيهم السيف ذبحاً وتقتيلا ، فإنه وجد الآن أمامه خط مشاة يفوق خط مشاته صلابة وقوة . فانقطع خطه أثناء امتداده ، وهجمت

(١) پلوتارك (كتاب السير) .

الكتائب الرومانيـة فى الصميم وخسر هانيبـال يومه . وعاد الفرسان الرومانيون من ملاحقة جواد هانيبال لكى يحيلوا الهزيمة التى منى بهـا القرطاجيون بالفعل إلى كارثة تشتيت مروعة .

عند ذلك خضعت قرطاجة وسلمت دون مزيد من كفاح . وكانت الشروط قاسية ، بيد أنها تركت لها المجال فى أن تأمل فى مستقبل كريم . فأجبرت على التخلى عن أسبانيا لروما ، وأن تتنازل عن كل أسطولها الحربى إلا عشر سفن ، وأن تدفع عشرة آلاف تالنتوم (٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه) ؛ وثمة شرط آخر هو أصعب شروط الحرب قاطبة وبه توافق على ألا تخوض غمار حرب دون إذن من روما . ثم أضيف آخر الأمر شرط يقضى بتسليم هانيبال عدو روما اللدود بيد أنه كفى مواطنيه هذا الإذلال ، بأن فر إلى آسيا .

كانت هذه شروطاً جائرة ، كان يجدر بروما أن تقنع بها . بيد أن من الشعوب من بلغ من الجبانة حداً لا يجترئون معه على مجرد قهر عدوهم ؛ فلا بد لهم إذن من إعمال القتل فيهم وإفنائهم . فإن ذلك الجيل من الرومان الذى كان يرى العظمة والفضيلة فى رجل مثل كاتو الرقيب ، خليق أن يجعل من وطنه حليفاً دنيئاً ومنتصراً جباناً .

٧ — الحرب البونية الثالثة

إن تاريخ روما فى السنوات الثلاث والخمسين التى انقضت فيما بين معركة زاما والفصل الأخير من المأساة ، وهو الحرب البونية الثالثة ، لينبئنا عما أصابته روما من نفوذ وسلطان خارجى واسع تتجلى فيه قسوة وخسة ، وينبئنا كذلك عما أحدثه ربا الأغنياء وشرههم من تدمير بطىء لعنصر الزراع الأحرار من سكان إيطاليا .

وكانت روح الشعب قد صارت إلى الخشونة والوضاعة . ولم يَعدْ هناك

توسع جديد فى منح حقوق المواطنية ، ولا أى محاولات سمحة أخرى ترمى إلى إدماج عناصر السكان من الأجانب بحكم مولدهم . وكان نظام الحكم الرومانى فى أسبانيا شيئاً معيباً واستنبطانها بطيئاً شديد العسر . وأفضت التدخلات المعقدة إلى إنزال إللبريا ومقدونيا من روما منزلة الولايات الدافعة للجزية . ولم يكن يخفى على أحد أن روما تنهج فى سياستها إذ ذاك نحو « تكليف الأجنبى بالضرائب » وإعفاء سكانها بأرض الوطن من كل ضريبة ، فبعد عام ١٦٨ ق. م. ، لم تعد الضريبة القـــديمة على الأراضى تجبى فى إيطاليا ، وكان مورد الدخل (الإيراد) الوحيد المتحصـــل من إيطاليا ، هو المتحصل من ممتلكات الدولة والأراضى العامة ومن المكوس المفروضة على الواردات الخارجية . وكانت الإيرادات الآتية من ولاية «آسيا» تقوم بنفقة الدولة الرومانية . وكان رجال من طراز كاتو يحتازون المزارع بأرض الوطن بإقراض الأموال عليها وحرمان الراهن من حق فكاك الرهن ، وكثيراً ما كانت هذه المزارع ملكاً لرجال حلّ بهم الفقر والعوز بسبب أدائهم الخدمة العسكرية . وكان هؤلاء المرابون يطاردون المواطنين الأحرار ويخرجونهم من أراضيهم ، ويديرون مزارعهم بواسطة العمال الأرقاء الذين كانوا يسوقونهم سوقاً لا رحمة فيه والذين أصبحوا زهيدى الأجور وفيرى العدد . وكان مثل هؤلاء الرجال يعدون السكان الأجانب فى الخارج عبيداً لهم وإن لم يجتلبوا إلى روما . وسلمت صقلية إلى ملتزمى الضرائب الشرهين يستغلونها ويستنزفون دماءها . وكان الأغنياء يستخدمون الأرقاء هناك فى زراعة القمح الذى كان يصدر بعد ذلك إلى روما فيدر عليهم الربح الوفير ، وبذلك أصبح فى المستطاع تحويل الأراضى الزراعية فى إيطاليا إلى مراعى للماشية والأغنام . ومن ثم شرع الإيطاليون الذين نزعت منهم أراضيهم يهرعون زرافات إلى المدن والحواضر وبخاصة إلى روما .

وليس لدينا هاهنا غير القليل ندلى به عن المنازعات الأولى بين قوة

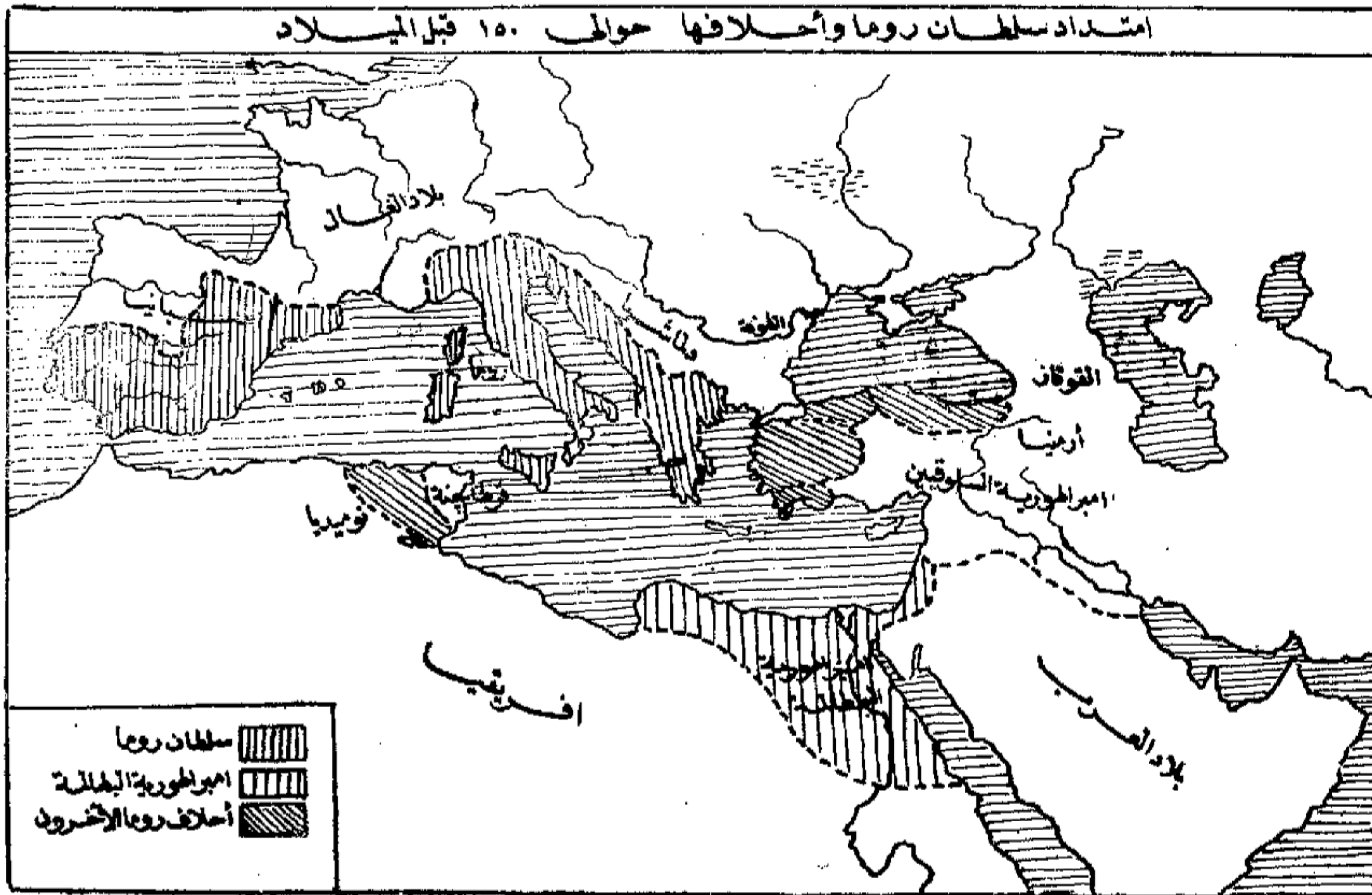
روما الناهضة وبين دولة السلوقيين ولا كيف أبرمت روما مع مصر تحالفاً ، كذلك ليس لدينا ما نقوله عن الأساليب الملتوية والتقلبات التى ألمت بحظ المدن الإغريقية منذ أن خيم عليها ظل روما أثناء توسيعها رقعة أملاكها حتى تردت تلك المدن فى هوة الخضوع الفعلى[1] . وحسبنا الآن خريطة لتوضيح امتداد إمبراطوريتها فى ذلك الزمان .

ولم يخل ذلك العصر على ما يشوبه من وضاعة كريهة وخسة مرذولة ، من صوت يجأر بالاحتجاج ويجهر بالتذمر . وقد أسلفنا إليك كيف وضعت قوة نفوذ سكيپيو الإفريقى حداً لداء الحرب البونية الثانية الوبيل المضنى الذى أصاب تلك الدولة وكان يخلق رجالا أثرياء أشحاء هم أشبه ما يكونون بالقروح والبثور تطفح فى أديم الجسد السقيم . ولما أن ساوره بعض الشك أن يسمح له مجلس السناتو بأن يتولى قيادة الجيش الرومانى هدده بأن يلجأ إلى الشعب فيحتكم إليه . ومنذ ذلك الحين أصبح رجلا موهوب الجانب تحذره عصبة السناتو الدائبون على تحويل إيطاليا من أرض مزارعين أحرار إلى أرض مراعى واسعة للماشية يشتغل فيها الأرقاء . فحاولوا أن يقضوا عليه قبل أن يصل إلى إفريقيا ، وكان أن أعطوه من القوات ما لا يكفى — فيما يؤملون — لإحراز النصر ؛ ثم حالوا بعد الحرب بينه وبين تولى أى منصب فى الدولة . وقد انبرى كاتو لمهاجمته مدفوعاً بعامل المصلحة الشخصية والنزعة الشريرة الفطرية .

ويبدو أن سكيپيو الإفريقى الأسن كان سمح النفس قليل الصبر بمن يحيطون به ، لا يميل بفطرته إلى استغلال تذمر الشعب مما حوله من النزعات الخبيثة السائدة واستثمار محبة الشعب العظيمة جداً له لمصلحته الخاصة . فعمل تحت رياسة أخيه لوكيوس سكيپيو **(Lucius Scipio)** عند ما قاد الأخير أول جيش رومانى عبر البحر إلى آسيا وهناك فى ماجنزيا من أعمال ليديا لقى على يديهما جيش عظيم مخلط بقيادة أنطيوخوس الثالث **(Antiochus III)**

---

(١) عن تفاصيل هذا النزاع وتاريخ الحقبة التى أعقبت وفاة الإسكندر حتى ظهور أوكتاڤيوس — انظر للمترجم كتاب « الحضارة الهللينستية » تأليف تارن مكتبة الأنجلو . (المترجم)



(١٠٩) امتداد سلطان روما وأحلافها سنة ١٥٠ ق. م.

الملك السلوقى (عام ١٩٠ ق . م .) ، — نفس الهزيمة التى لقيتها الجيوش الفارسية المختلطة قبل ذلك بمئة وأربعين سنة . وأثار هذا النصر عداوة مجلس السناتو ضد لوكيوس سكيپيو ، فاتهم باختلاس النقود التى تلقاها من أنطيوخوس . فغضب « الإفريقى » لهذا الاتهام غضبة الرجل الشريف . وبينما لوكيوس ماثل فى مجلس السناتو يحمل بين يديه وثائق حساباته وهو مستعد للرد على نهشات متهميه ، خطف الإفريقى الوثائق من يديه ومزقها وألقاها على الأرض ، قائلا إن أخاه قد دفع فى خزانة الدولة مئتى ألف سسترتيا[1] (sestertia) وهو ما يساوى مليونين من الجنيهات . فهل هم يريدون أن يكدروا صفو أيامه ويسقطوه لمثل هاته أو تلك من التفاصيل ؟ وعندما رفعت الدعوى فيما بعد على لوكيوس وحكم بإدانته أنقذه أخوه الإفريقى بالقوة . فلما أن قدم للمحاكمة ذكر الشعب أن ذلك اليوم هو يوم ذكرى موقعة زاما ، وتحدى السلطات بين تهليل جموع الشعب وهتافه .

ويلوح أن الشعب الرومانى كان يحب سكيپيو الإفريقى ويعاضده ، ولا بد أن يحبه الناس اليوم ويعطفوا عليه بعد انقضاء ألفين من السنين . فإنه استطاع أن يلقى بالورق الممزق فى وجه مجلس السناتو ، وعندما هوجم لوكيوس مرة ثانية ، تدخل أحد ترابنة الشعب بما له من حق النقض والاعتراض وأحبط الإجراءات . على أن سكيپيو الإفريقى كانت تعوزه صلابة العود ، التى تجعل من الرجال زعماء ديمقراطيين عظماء . فإنه لم يكن كقيصر . وكان يعوزه الكثير من صفات الرجل السياسى التى تجعله يستسلم لما تمليه عليه ضرورات الحياة السياسية على ما فيها من ضعة . ولم يلبث أن تقاعد بعد هذه الحوادث مشمئزاً وغادر روما إلى مزارعه ، حيث توفى عام ١٨٣ ق . م .

وفى نفس تلك السنة مات هانيبال ، إذ تجرع السم يائساً . فإن خشية مجلس السناتو الرومانى الراسخة له ظلت تتعقبه من بلاط إلى بلاط . وكانت

---

(١) السسترتيا — عملة رومانية قدرها عشرة جنيهات . (المترجم)

روما طلبت من قرطاجة أثناء مفاوضات الصلح أن تسلمه إليها على الرغم من احتجاجات سكيپيو الحانقة الغاضبة ، ثم استمرت تطلب هذا الطلب من كل دولة تؤويه . وعندما تم إبرام الصلح مع أنطيوخوس الثالث ، كان تسليم هانيبال أحد شروط ذلك الصلح . وفى بيثينيا قبض عليه فى مخبئه واعتقله ملكها لكى يرسله إلى روما ، بيد أن هانيبال كان يحمل منذ أمد طويل فى خاتمه السم اللازم له وبه قضى على نفسه .

ومما يزيد اسم سكيپيو شرفاً ، أن فرداً آخر من أسرته ، هو سكيپيو ناسيكا (Scipio Nasica) كان هو الذى يسخر من عبارة كاتو « يجب أن تدمر قرطاجة » بأن يختم كل خطبة له فى مجلس السناتو بقوله « يجب أن تبقى قرطاجة » . إذ بلغ من حصافة رأيه أن كان يرى أن وجود قرطاجة حافز عظيم لروما له فضل كبير فى رخائها العام .

ومع هذا شاءت الأقدار أن يكون سكيپيو الإفريقى الثانى ، وهو حفيد متبنى لسكيپيو الإفريقى الأسن ، هو فاتح قرطاجة ومدمرها . وكانت جريرة القرطاجيين الوحيدة التى سببت الحرب البونية الثالثة والأخيرة ، هى أنهم استمروا يتجرون وينجحون . ولم تكن تجارتهم مما ينافس تجارة روما . ولذلك فإن قرطاجة لما أن دمرت مات بموتها الشيء الكثير من تجارتها ، ودخل شمال إفريقيا فى دور تدهور اقتصادى . ولكن ما نعمت به قبل تدميرها من رخاء كان يثير فى نفوس الرومان حسداً عنيفاً متقد الأوار كان من الواضح أنه أقوى حتى من الجشع الذى ملأ نفوس طراز « الرومان القديم » . ذلك أن طبقة الفرسان الأغنياء كانت تضيق بأى ثراء فى العالم إلا ثراءها . وقد أثارت روما الحرب بتحريضها النوميديين على الاعتداء على قرطاجة ، حتى هب القرطاجيون للحرب ثائرين مستيئسين . وعند ذلك انقضت روما على قرطاجة . وأعلنت أنها خرقت المعاهدة ! لأنها دخلت حرباً بلا استئذان .

وأرسل القرطاچيون الرهائن الذين طلبتهم روما ، وسلموا أسلحتهم واستعدوا لتسليم أراضى من بلادهم . على أن الخضوع لم يكن ليزيد روما إلا تجبراً وعتواً ولم يكن ليزيد نفوس طبقة الفوارس الغنية إلا شراهة وجشعاً ، وهم الذين لا تعرف الشفقة إلى قلوبهم سبيلا ، والذين كانوا متسلطين على أداة الحكم فيها . هنالك طلبت روما أن يخرج أهالى قرطاچة من ديارهم ، وأن يرحل السكان إلى بقعة تبعد عن البحر مسافة لا تقل عن عشرة أميال . وقد طلب هذا المطلب إلى قوم يكادون يعتمدون اعتماداً كلياً فى معاشهم على التجارة فيما وراء البحار ! .

وأثار هذا المطلب غير المعقول اليأس فى نفوس القرطاچيين . فاستدعوا المنفيين منهم واستعدوا للمقاومة . وكانت الكفاية العسكرية عند الرومان فى تدهور مستمر خلال نصف قرن قضوه فى ظل حكومة قصيرة النظر ضيقة الأفق ، وكادت الهجمات الأولى على المدينة سنة ١٤٩ ق.م. أن تبوء بكارثة . ولم يتميز سكيپيو الصغير خلال هذه العمليات إلا بمقدرة ضئيلة . وكانت السنة التالية سنة فشل أيضاً يرجع إلى عجز رجال السناتو . وعند ذلك انتقل ذلك المجلس الجليل من حالة التحدى والوعيد الصاخب إلى حالة رعب مفرط . وانذعر الشعب الرومانى انذعاراً أشد وأكبر ، فانتخب سكيپيو الصغير قنصلا لا لسبب إلا اسمه ، على الرغم من أنه كان دون السن القانونية ، كما كان من نواح أخرى غير أهل لذلك المنصب ، فحزم متاعه ورحل إلى إفريقيا لينقذ وطنه الغالى .

وابتدأ على أثر ذلك أشد صنوف الحصارات عناداً وفظاعة ، وبنى سكيپيو جسراً عبر ميناء قرطاچة ، وقطع عنها كل المدد براً وبحراً . فقاسى القرطاچيون من الجوع آلاماً ذريعة . بيد أنهم صمدوا حتى فتحت المدينة عنوة . واستمر القتال فى الشوارع ستة أيام ، ولما سلمت القلعة آخر الأمر كان الأحياء من القرطاچيين خمسين ألفاً من سكان يقدر عددهم الأصلى

بنصف مليون نسمة . وأخذ هؤلاء الأحياء أرقاء ، ثم أحرقت المدينة بأسرها ، وأعمل المحراث فى الأنقاض تعبيراً عن التدمير النهائى ، واستنزلت اللعنات فى حفل دينى رهيب على كل من تحدثه نفسه بأن يعيد بناءها .

وفى نفس تلك السنة (١٤٦ ق. م .) قضى مجلس السناتو الرومانى وطبقة الفرسان الرومان على مدينة عظيمة أخرى أحسوا أنها تحد من احتكاراتهم وتجاراتهم ، هى كورنثة . وكان لهم فى ذلك مبرر ، لأن كورنثة كانت شهرت السيف فى وجههم ، على أنه كان مبرراً غير كاف .

٨ — كيف قوضت الحروب البونية الحرية الرومانية

ينبغى أن نلحظ هاهنا فى موجز من القول تغيراً لحق نظام روما الحربى بعد الحرب البونية الثانية ، وكانت له أهمية هائلة فيما تلا ذلك من تطوراتها . فحتى ذلك الوقت ، كانت الجيوش الرومانية تؤخذ من مجندين من المواطنين الأحرار . فكانت القوة المحاربة والقوة الناخبة مرتبطين ارتباطاً وثيقاً . وكان مجلس الأحرار فى وحداته المئوية يتخذ مظاهر التعبئة العسكرية ويتقدم وعلى رأسه الوحدات المئوية من الفرسان إلى ساحة الإله مارس . وكان هـذا النظام شديد الشبه بنظام البوير قبل شبوب الحرب الأخيرة بجنوب أفريقيا . وكان المواطن الرومانى العادى فلاحاً مثله مثل البويرى العادى ، فإذا « نُفخ فى البوق » لبى النداء وانخرط فى سلك الجندية . وكان البوير يبلون فى القتال بلاء فائقاً ، بيد أنهم كانوا يضمرون فى أنفسهم رغبة ملحة فى العودة إلى المزارع . فإذا استدعى الأمر القيام بعمليات مطولة من أمثال حصار ڤياى ، كان الرومان يرسلون إمدادات تعزيزاً لجيوشهم ويستبدلون بها أخرى تحل محلها . وعلى نفس هذه القاعدة جرى البوير ينهجون فى حصار ليدى سميث .

وكانت الحاجة إلى قهر أسبانيا بعد الحرب البونية تنادى بضرورة إنشاء

جيوش من طراز آخر . إذ كانت أسبانيا أبعد شقة من أن تسمح بموالاة العمل عن طريق هذا التبادل فضلا عن أن الحرب كانت تتطلب تدريباً أوفى ومراناً أكمل مما كان يستطيعه هؤلاء الجنود الغادون والرائحون . ومن ثم قيدت أسماء الرجال لمدد أطول ودفعت لهم الأعطيات والرواتب . وبذا بدأ ظهور الجندى المأجور فى الحياة الرومانية . وأضيفت الأسلاب إلى الأعطيات . فوزع كاتو كنوز الفضة على من تحت إمرته من الجنود فى أسبانيا . ومما هو مأثور عنه أيضاً أنه هاجم سكيپيو الإفريقى لأنه وزع الأسلاب على جنوده فى صقلية . وأدى إدخال نظام الأعطيات للعسكر آخر الأمر إلى نشوء جيش محترف ، كما أدى هذا بعد ذلك بقرن إلى نزع السلاح من المواطن الرومانى العادى الذى أخذ ينساب إذ ذاك إلى روما والمدن الكبرى وهو فى حالة عسر وإملاق . وكانت الحروب الكبرى كللت بالنصر ووضعت أسس الإمبراطورية وضعاً وطيداً بفضل جهود فلاحى روما الذين حملوا أعباء الحروب وخاضوا غمارها قبل (٢٠٠ ق . م .) . واختفى فى أثناء هــذه العملية الجديدة العديد الأكبر من فلاحى روما المقاتلين . على أن ذلك التغيير الذى ابتدأ بعد الحرب البونية الثانية لم يتم إلا عندما أشرف القرن على نهايته حين أعاد ماريوس تنظيم الجيش كما سيلى ذكر ذلك فى موضعه . وبعــد عصر ماريوس سنشرع فى الكلام عن « الجيش » ثم عن « الكتائب » ، وسنجد أنفسنا نعالج نوعاً جديداً تماماً من الجيوش ، لم تعد تضمه بعضه إلى بعض رابطة المواطنية . وإذ تنفصم عُرى هذه الرابطة لا تلبث أن تهتدى الكتائب إلى نوع آخر من الترابط هو روح التشيع للطائفة والإخلاص للجماعة « esprit de corps » يكتشفونه فيما يشتركون فيه من اختلاف عن المجتمع العام ومن مصلحة مضادة لمصلحته . ولا يلبث الجنود حتى يداخلهم المزيد من الاهتمام والتعلق الأشد بقوادهم ، الذين أباحوا لهم الأرزاق والسلب . وكان ذوو الأطماع من

الرجال نزاعين فى روما قبل الحروب البونية إلى استرضاء العامة والتملق إليهم ؛ ولكنهم بعد ذلك الزمان أخذوا يترضّون الكتائب ويخطبون وُدها .

٩ — مقارنة الجمهورية الرومانية بدولة عصرية

إنا لنتنسم من تاريخ الجمهورية الرومانية حتى ذلك الحين نفحات تذكرنا من كثير من الوجوه بالروح العصرية أكثر من أية دولة أخرى سبقتها ، وليس هناك من هو أشد إدراكاً لهذه النفحات من القارئ الأمريكى أو الأوربى الغربى . فإنا نلمس لأول مرة نوعاً من « أمة » تحكم نفسها بنفسها ، ومجتمعاً أكبر من مجرد « دولة مدينة » يحاول أن يتحكم فى مصائره . ولأول مرة نجد قطراً زراعياً فسيح الأرجاء يتفيأ فكرة واحدة من القانون . ونشهد فى مجلس السناتو ومجلس الأحرار نضالا بين الجماعات والشخصيات ، ومنهجاً فى تصريف الأمور وضبطها يقوم على الجدل والنقاش ، ولكنه أرسخ قدماً وأطول أمداً من أية أوتوقراطية ، وأكثر مرونة وقابلية للتكيف من أية كهانة . ولأول مرة كذلك نواجه منازعات اجتماعية تماثل من بعض النواحى منازعاتنا . وقد حلت النقود محل المقايضة ، وأصبح رأس المال النقدى سيالا حراً لا يعرف الجمود . أجل ربما لم يصل فى سيولته وحريته إلى ما هو عليه اليوم ، بيد أنه بلغ عند ذاك درجة لم يبلغها من قبل قط . ثم إن الحروب البونية كانت حروباً بين الشعوب ، وهى ظاهرة لم تسبقها إليها أية حروب أخرى سجلناها حتى الآن . ولامراء أن الخطوط العريضة التى يقوم عليها عالمنا الراهن أى ما به من فكرات أساسية وخلافات رئيسية ، كانت آخذة فى الظهور فى تلك الأيام .

غير أن روما إبان الحروب البونية كانت تعوزها كما أسلفنا أنواع معينة من التسهيلات الأولية ، كما أن بعض الأفكار السياسية السارية فى زماننا هذا كانت تنقصها . فلم يكن هناك صحف ، ولم يكن هناك فى الواقع أى استخدام لنظام الممثلين المنتخبين فى مجالس الأحرار الشعبية . وقد أمر

يوليوس قيصر (٦٠ ق. م.) بنشر محاضر جلسات السناتو وقراراته بكتابتها على الأبيض "in Albo" أعنى على ألواح النشرات . وكانت العادة قد جرت بنشر المرسوم السنوى للبرايتور[1] (Prætor) (أى صاحب القضاء بروما) على هذه الشاكلة . وكان هناك قوم يحترفون كتابة الرسائل ، فيرسلون الأخبار بوساطة الرسل والسعاة الخصوصيين إلى مراسلين أغنياء من سكان الريف ، وكان هؤلاء الكتاب ينسخون المكتوب على « اللوح الأبيض » (Album) . وعند ما كان شيشرون حاكماً على كيليكيا ، كان يتلقى الأخبار الجارية عن مراسل من هذا النوع ، وهو يشكو فى أحد رسائله أنها لم تكن مما يبغى . فان مجموعة الأخبار التى أرسلها إليه مراسله قد أسهبت فى أخبار سباق العجلات وغيرها من أنباء الألعاب ، على حين فات المراسل أن يقدم أى فكرة عن الموقف السياسى . وواضح أن هذه الطريقة فى نقل الأخبار بالرسائل كانت فى متناول الرجال العموميين الميسرى الحال دون غيرهم .

وثمة نقص كبير آخر فى النظام الديمقراطى للجمهورية الرومانية وهو نقص فهمه علينا اليوم يسير جداً ، وإن كان أبعد من أن يتطاول إليه فكر أى إنسان عند ذاك — ذلك هو انعدام كل أثر لمبادئ التعليم السياسى العام على الإطلاق . ولقد أظهر العامة فى روما بارقة من الإدراك لفكرة أنه بغير العلم والمعرفة لا يتسنى للأصوات الإنتخابية أن تجعل الرجال أحراراً ، وذلك يوم أصروا على نشر قانون « الألواح الاثنى عشر » . بيد أنهم لم يستطيعوا قط أن يتصوروا أن فى الإمكان توسيع مجال انتشار المعرفة بحيث يتطرق بها إلى كتلة الشعب إذ كان ذلك فوق إمكانيات العصر . ولم يبدأ الناس إلا فى هذه الأيام أن يدركوا تماماً الأهمية السياسية للقول المأثور :

---

(١) البرايتور هو موظف قضائى اختص بأعمال القضاء ومعاونة القنصل فى هذا المجال . (المترجم)

« المعرفة قوة » . فإن اتحادات ونقابات العمال البريطانية مثلا ، أنشأت حديثاً كلية العمال تسد حاجات الأكفاء منهم فى علم التاريخ وفى العلوم السياسية والاجتماعية وما إليها . على أن التعليم فى روما الجمهورية كان نزوة تلم بآحاد الآباء ، وكان من امتيازات ذوى الثروة والفراغ . وكان معظمه فى أيدى الإغريق الذين كانوا فى الكثير الغالب من الأرقاء . وكان هناك جدول ضحضاح من العلوم الرفيعة والتفكير الممتاز تواصل فيضه وانسيابه حتى القرن الأول من عصر الملكية (أو الإمبراطورية) ، يشهد على ذلك لوكريتيوس (Lucretius) وشيشرون (Cicero) بيد أنه لم يمتد إلى كتلة الشعب . ولم يكن الرومانى العادى جاهلا فقط بتاريخ الجنس البشرى جهلا مطبقاً ، بل بأحوال الشعوب الأجنبية كذلك . ولم يكن لديه أية معرفة بالقوانين الاقتصادية ولا بالإمكانيات الاجتماعية . بل إنه لم يكن حتى ليفهم مصالحه الخاصة فهماً واضحاً .

وبديهى أنه فى دول المدن الإغريقية الصغيرة ، وفى تلك الدولة الرومانية الأولى التى ذرعها أربعمائة ميل مربع ، كان الرجال يكتسبون عن طريق الحديث والملاحظة قدراً من المعرفة يكفى للقيام بواجبات المواطنية العادية ، ولكن الأمر عند ابتداء الحروب البونية كان تضخم وتعقد حتى أضحت المعلومات فوق طاقة الأميين من الرجال . ومع ذلك فلم يبد على أحد أنه لحظ الثغرة التى أخذت تباعد بين المواطن وبين دولته ، وعلى ذلك خلت السجلات من كل إشارة إلى أية محاولة ترمى إلى « توسيع » عقلية المواطن بالتعليم حتى يواجه اتساع واجباته . وإنك لترى الناس جميعاً منذ القرن الثانى قبل الميلاد وما بعده يبدون ملاحظاتهم ويعلقون على جهالة المواطن العادى وضآلة حظه من الحكمة السياسية . وكان كل شىء فى الدولة يعانى من انعدام التماسك السياسى الناشئ عن هذه الجهالة ؛ ولكن أحداً من الناس لا يخطو بالأمر حتى يصل به إلى ما نعده اليوم النتيجة الحتمية له ، فما من إنسان يقترح القضاء على الجهالة الضاربة أطنابها وإزالة

سبب الشكوى . لم تكن هناك أية وسيلة البتة لتعليم جماهير الشعب فى نطاق مثل عليا مشتركة ذات طابع سياسى واجتماعى . ولم يحدث إلا يوم تطورت الديانات الكبرى التى تقوم على الدعاية فى العالم الرومانى — وأهمها وأبقاها جميعاً المسيحية — أن لمس الناس ما يحتمل أن ينتج من آثار لمثل هذ التعليم المنظم لجماهير عظيمة من الناس ورأوا ثماره بارزة فى العالم . وكان الإمبراطور قسطنطين الأكبر ، ذلك العبقرى العظيم أول من أدرك بعد ذلك بستة قرون تلك النتيجة المحتملة ، وأول من حاول أن يستخدمها فى سبيل الإبقاء على تماسك المجتمع العالمى الذى كان يحكمه ونسجه ســـدى ولحمة من الناحيتين العقلية والخلقية .

على أن اختلاف نظام روما السياسى عن نظامنا ليس مقصوراً على قيام هاته النقائص المتمثلة فى وسيلة نقل الأخبار ونشر التعليم وفى صلاحية نظام الحكومة التمثيلية . أجل إنها كانت بالدول العصرية الممدنة أشبه كثيراً منها بأى دولة أخرى تقـــدم ذكرها ، على أنها كانت فى بعض الأمور بدائية بصورة عجيبة و« منحطة دون مرتبة الحضارة » . وإن قارئ التاريخ الرومانى حين يقرؤه متنبها إلى ما فيه من أساليب المجادلات والتدابير والسياسات والحملات الحربية وينظر إليه من وجهة نظر رأس المال والعمل ، ليعثر فيه بين الفينة والفينة على شىء يشيع فى نفسه قسطاً وافراً من ذلك الفزع الذى يتمشى فى مفاصل من نزل يستقبل فى بيته طارقاً مجهولا ، ومد يده فلقى كف الإنسان الأول النياندرتالى (Homo Neanderthalensis) الشوهاء المغطاة بالشعر ، ثم رفع رأسه فرأى وجهاً وحشياً بشعاً عديم الذقن . ولقد أشرنا من قبل إلى تقديمهم الأضاحى البشرية فى القرن الثالث ق.م ، وفوق هذا فإن كثيراً مما نعرفه عن ديانة روما فى العصر الجمهورى يرجع بنا شوطاً بعيداً إلى ما قبل أيام الآلهة المحترمين اللائقين أعنى إلى عصر العقيدة الشامانية[1] .

---

(١) الشامانية : ممارسات دينية بدائية لشعوب آسيا الشمالية تقوم على الاعتقاد بأن فى الإمكان الهيمنة بالسحر على الأرواح الطيبة والشريرة . (المترجم)

والسحر . فنحن نتكلم عن الهيئات التشريعية فينطلق بنا الذهن فوراً إلى « وستمنستر » (دار البرلمـــان الإنجليزى) ، ولـكن ماذا يكون شعورنا لو أنا ذهبنا نشهد افتتاح إحدى أدوار انعقاد مجلس اللوردة ، فوجدنا يد قاضى القضاة (Lord Chancellor) مخضبة بالدماء ، وهو يعبث بها فى اهتمام بالغ بين أحشاء شاة حديثة الذبح باحثاً فيها عن نبوءة بما يكنه المستقبل ؟ عند ذلك يكر الفكر راجعاً من وستمنستر إلى عادات بنين[١] المتوحشة . كذلك كان الاسترقاق فى روما وحشياً أدنى مرتبة تماماً من الاسترقاق فى بابل . ولقد أتيح لنا أن نلقى لمحة إلى كاتو صاحب الصلاح والفضيلة إذ ينتقل بين عبدانه فى القرن الثانى ق. م. وفوق ذلك فإنه فى القرن الثالث ق . م . حالما كان الملك أسوكا يحكم بلاد الهند فى جو يفيض ضياء ورقة ، كان الرومان يبعثون من جديد رياضة إترورية وحشـــية ، وهى تحريشهم العبدان بعضهم ببعض ليستنفذوا حياتهم جلاداً وقتالا ، مما يعيد إلى الذاكرة ثانية صورة أفريقيا الغربية كمنبت لهذه التسلية الهمجية . ذلك أنها نشأت عن عادة قديمة ترجع إلى ما قبل التاريخ وهى إعمال السيف ذبحاً فى الأسرى عند دفن أحد الرؤساء . ولهذه التسلية عندهم مسحة دينية ، فإن العبيد الذين كانوا يسحبون جثث الموتى من المجتلد بالخطاطيف كانوا يلبسون أقنعة تمثل إله العالم السفلى وهو خارون (Charon) المعدّاوى الجهنمى .

وفى ٢٦٤ ق . م . وهى نفس السنة التى بدأ فيها أسوكا حكمه والتى ابتدأت فيها الحرب البونية الأولى ، حدثت فى سوق المدينة « الفوروم » بروما أولى ما يذكره التاريخ من مصارعات المجالدين احتفالا بجنازة عضو من أعضاء أسرة بروتس (Brutus) الرومانية العريقة . كان ذلك عرْضاً متواضعاً تشترك فيه ثلاثة أزواج ، ولكن سرعان ما أصبح المجالدون يتقاتلون بالمئة . وأخذ الإقبال على تذوق هذه المصارعات يزداد بسرعة ، وأمدتهم

(١) بنين (Benin) مدينـــة فى غرب إفريقية تقع على الســـاحل الشمالى لخليج غانة .
(المترجم)

الحرب بالعدد الوفير من الأسرى . فأما الأخلاقيون الرومان القدماء الذين كانوا على غاية الصرامة ضد التقبيل وزينة النساء والفلسفة الإغريقية ، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن هذا التطور الجديد إلا كل خير . ولقد يلوح أن الأخلاق الرومانية كانت تطمئن راضية مرضية ما شهدت الناس يلقون الآلام والعذاب !! . . .

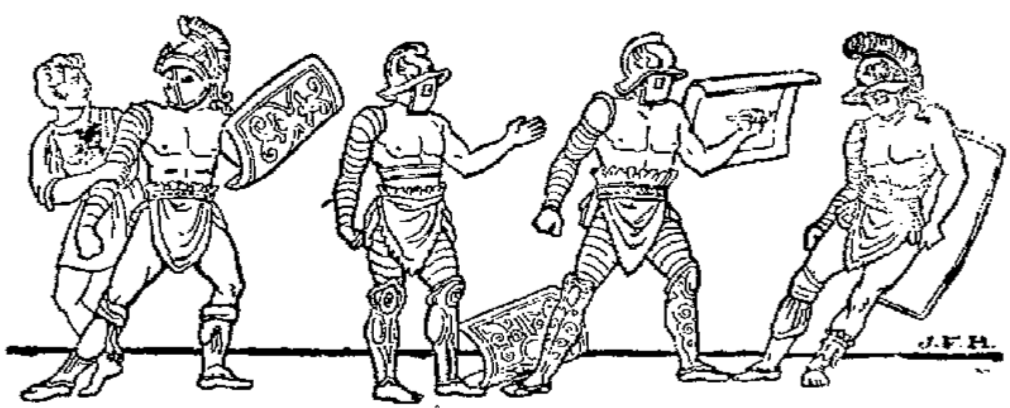
ولئن كانت روما الجمهورية أول المجتمعات القومية العصرية المتمتعة بالحكم الذاتى ، فلقد كانت ولا ريب أول شكل بدائى « نياندرتالى » لتلك المجتمعات

نمت حفلات المجالدين فى روما نمواً هائلا فى خلال القرنين أو الثلاثة التالية . وابتدأ الأمر بأن كان المجالدون يؤخذون من أسرى الحرب يوم كانت الحروب كثيرة متلاحقة . وكان كل مجالد يتقدم بأسلحته المميزة له ما بين بريطان ذوى وشم أو مغاربة أو إسكيذيين أو زنوج ومن إليهم ، وربما كانت لهذه الحفلات بعض القيمة العسكرية . على أنهم عمدوا بعد ذلك إلى استخدام المجرمين من الطبقات الدنيا ، ذلك أن العالم القديم لم يكن ليدرك أن المجرم المحكوم عليه بالإعدام ما يزال شخصاً له حقوقه . وأياً ما كان ، فإن استعمال المجرم كمجالد لم يبلغ من السوء الدرجة التى بلغها استعماله « مادة » للتشريح وهو حى فى متحف الإسكندرية . ولكن لما زادت أرباح هذا الصنف من الحفلات ، وزاد الطلب على الضحايا ، صار العبـــدان العاديون يباعون لمدربى المجالدين . لذا كان كل عبد يستغضب سيده عرضة لأن يجد نفسه فى أحد المعاهد الخاصة بتدريب المجالدين وتأجيرهم . وكان كل خليع فاسق من الشبان الذين بددوا ثرواتهم وكل ذوى النفوس الوثابة من الغلمان يحترفون تلك المهنة متطوعين فترة معينة من الزمان معتمدين فى بقائهم أحياء على بسالتهم وحسن بلائهم .

ولما تطورت تلك الحرفة ونمت وجد للمجالدين عمل جديد باستخدامهم

أتباعاً مسلحين ؛ فكان الأغنياء يشترون الجوقة منهم ويستخدمونها حرساً خاصاً لهم أو يؤجرونها فى الحفلات طلباً للربح .

وكانت حفلات العرض تبدأ بموكب استعراضى رسمى (Pompa) وبقتال زائف (Proelusio) . ثم يعلن بدء القتال الحقيقى بالنفخ فى الأبواق . فأما المجالدون الذين يرفضون أن يقاتلوا لأى سبب من الأسباب فيدفعون دفعاً بالسياط والحدائد المحماة . وربما التمس الجريح منهم الرحمة برفع أصبعه السبابة . وعندئذ فإما أن يلوح النظارة بمناديلهم دلالة على الرحمة ، أو يقضوا بإعدامه بمد أيديهم مقبوضة مع وضع الإبهام فى هيئة ما معناها الموت . ويختلف الثقات هنا فى حقيقة أمر هذه العلامة بالضبط . فيقول مايور « Mayor » إن رفع الإبهام إلى الصدر معناه الموت ، وإن خفض الإبهام إلى أسفل معناه : « أن أنزلْ هذا السيف » . ولكن جمهرة الرأى السائد أن وضع الإبهام إلى أسفل معناه الموت . وكان الصرعى والذين أشرفوا على الموت يسحبون إلى مكان خاص يسمى « الإسپولياريوم »[(١)]



١١٠ — المجالدون

(١) الإسپولياريوم **spoliarium** — مكان فى الملعب المدرج تنزع فيه ملابس المجالدين الذين خروا صرعى . (المترجم)

حيث يجردون من أسلحتهم وممتلكاتهم ، فمن لم يكن مات منهم آنفاً أجهزوا عليـــه .

وهذا الوضع الذى ينظم القتل ويعد الموت رياضة وتسلية يساعد على تبيان مقدار الثغرة العظيمة التى تفصل بين المعايير الخلقية عند كل من المجتمع الرومانى ومجتمعنا . ولا شك أن كثيراً من ألوان القساوات وانتهاك حرمه الكرامة الإنسانية بمثل هذه الوحشية الفظيعة ، ما تزال تحدث فى العالم . بيد أنها لا تحدث باسم القانون ، ولا دون أن يرتفع صوت واحد بالاعتراض عليها وإنكارها . فالحق إنا لم نعثر حتى زمان « سنيكا Seneca » (القرن الأول الميلادى) على أى أثر يسجل احتجاجاً صريحاً على ذلك الأمر . فلقد كان ضمير الإنسانية أضعف آنذاك وأقل فطنة مما هو الآن . ثم جرت إرادة المقادير أن تنشأ فى الضمير الإنسانى فور ذلك قوة جديدة تولدت عن انتشار المسيحية . فإن روح يسوع المنبعثة فى المسيحية ، أصبحت فى عصر تال من الدولة الرومانية الخصم اللدود لكل هذه الحفلات العنيفة القاسية والعدو العنيد للرق ، ولم يزل هذان الشران يتناقصان بانتشار المسيحية ، حتى أصبحا أثراً بعد عين . ويضيف العلامة جلبرت موراى إلى ذلك قوله : « كان الإغريق يرون فى حفلات المجالدين سبباً يدللون به على اعتبارهم الرومان برابرة متوحشين (Barbaroi) ، وقد حدثت بعض الاضطرابات عند ما حاول نائب القنصل الرومانى (proconsul) أن يدخلها فى كورنثة . » من هنا يتبين أن معارضة هذه القساوة القديمة لم تكن إذن مسيحية محضة . وواضح أن خيار الرومان كانوا يبغضونها ، بيد أن ضرباً من الخشية والحياء قد حال بينهم وبين التنديد بقسوتها علنا . مثال ذلك أن شيشرون عند ما كان يضطر أن يحضر لمشاهدة ساحة الألعاب [1] كان يأخذ

---

(١) **Circus** ساحة الألعاب ، وهى فى روما الساحة الكبرى التى كانت تقام فيها الألعاب ويجرى فيها السباق وفى بعض الأحيان كانت تجرى بها الاستعراضات العسكرية . (المترجم)

معه ألواحه وسكرتيره ، ثم لا ينظر إلى شيء منها قط . وإنه ليعبر عن اشمئزاز خاص لمقتل أحد الفيلة . وقد استنكرت الفلسفة الإغريقية هذه الألعاب ولم تتردد فى الطعن عليها ، وذهبت أرواح اثنين من الكلبيين ومسيحى واحد ضحية المجتلد[1] فى أوقات مختلفة فقضوا نحبهم وهم يجأرون بالاحتجاج عليها وذلك قبل أن يتقرر إلغاؤها .

(١) المجتلد **(Arena)** : الجزء الأوسط المكشاف للعيان من الملعب المدرج الرومانى **(Amphitheatre)** حيث كان يصطرع الجالدون **(Gladiators)** . (المترجم)

الفصل السادس والعشرون

من تيبريوس جراكوس إلى الإمبراطور المؤله فى روما

١ – منهج الوقوف فى سبيل الرجل العادى

سبق لنا مرتين ، أن شبهنا لك المجتمع الرومانى الذى يتمتع بحكم نفسه بضرب « نياندرتالى » من الدولة « الديمقراطية » العصرية الممدنة ، وهانحن نعود مرة أخرى إلى هذه المقارنة . فمن حيث الشكل ، كان الوضعان : وهما المحاولة البدائية العظيمة الأولى فى روما ، وضريباتها التى ظهرت فيما بعد حتى عصرنا هذا ، متشابهين تشابها خارقاً للمعتاد ؛ على أنهما يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافاً عميقاً من حيث الروح . فإن الحياة الرومانية السياسية والاجتماعية ولا سيما تلك الحياة السياسية والاجتماعية فى القرن المحصور بين سقوط قرطاجة وبين قيام قيصر والقيصرية ، ذات مشابهة عامة واضحة جداً بالحياة السياسية والاجتماعية فى أقطار كالولايات المتحدة الأمريكية ، أو الإمبراطورية البريطانية اليوم . ويزيد فى قوة التشابه ما درج عليه الرومان والمحدثون على السواء من استعمال ألفاظ من أمثال « مجلس السناتو والديمقراطية والبروليتارية » وما شابهها على درجات من عدم الدقة تتفاوت بين حالة وأخرى . بيد أن كل شىء فى الدولة الرومانية

---

(١) الأصل فى معنى كلمة **Princeps** هو الزعيم الأول أو الرئيس المقدم على غيره ثم اتخذت معنى اصطلاحيا للدلالة على أباطرة الرومان . (المترجم)

الرومانية كان يتسم بما لكل بدائى من سذاجة وخشونة وفجاجة . وكانت نار المظالم أشد تأججاً ، والمنازعات أبلغ خشونة وعنفاً . وكان حظ العالم من العرفان ضئيلا نسبياً ومن الفكرات العامة قليلا . ولم يشرع الناس فى روما فى قراءة مؤلفات أرسطو العلمية إلا إبان القرن الأول ق . م . حقاً أن فرّيرو[1] (Ferrero) يدعى لقيصر الإلمام بكتاب السياسة لأرسطو وينسب إليه الحلم بإنشاء «رُوما رِيكليسية» ، وكأنى بفرّيرو يهيم حين يقول ذلك فى غيبوبة من الأحلام الرائعة يرخى فيها لخياله العنان وهذا لعمرى مبعث سعادة كتّاب التاريخ وترديهم فى الزلل على السواء .

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى ما ينهض بين الأحوال الرومانية والعصرية من فروق عميقة بسبب انعدام الصحافة ، وعدم وجود أى تعليم شعبى ولا فكرة التمثيل النيابى فى مجلس الأحرار . ولا يبرح عالمنا اليوم بمنآة عن حل مشكلة التمثيل النيابى وعن ابتكار جمعية عمومية تلخص حقاً فكرة المجتمع وإرادته وتبلورها وتعبر عنها بشكل صادق . إذ لا تنفك انتخاباتنا فى جل شأنها سخرية بارعة بالناخب العادى ، الذى يجد نفسه عاجزاً مغلول اليدين حيال التنظيمات الحزبية التى تحيل حريته فى اختيار ممثليه إلى عملية اختيار لأقل المأجوريْن السياسييْن المرشحين أمامه سماجة وأهونهما ضرراً . ومع ذلك كله فإن صوته يعتبر بالمقايسة إلى صوت أى مواطن رومانى عادى ، أداة فعالة ذات أثر . ومن عجب أن الكثرة الغفيرة من كتب التاريخ التى تعالج هذا العصر من التاريخ الرومانى تتحدث عن «حزب الأحرار» وعن أصوات الشعب وما إلى ذلك من عبارات ، كأنما كانت تلك الأشياء عند ذلك حقائق واقعة كما هى اليوم . على أن أعضاء السناتو وسياسيي روما عملوا على ألا يكون لمثل هذه الأوضاع أى وجود كحقائق خالصة صحيحة

---

(١) فى كتابه : «عظمة روما وانحلالها Greatness & Decline of Rome» الكتاب الأول — الفصل الحادى عشر .

التكوين . لذا فإن هذه العبارات العصرية تقتادنا إلى أبلغ الضلال ما لم نحددها ببالغ العناية .

ولقد وصفنا لك من قبل اجتماعات مجلس الأحرار ؛ بيد أن ذلك المجلس القبيح الذى كان يزج بالرومان فى أماكن أشبه بحظائر الأغنام لا يصور لنا مبلغ ما كان يجرى فى روما من العبث بالتمثيل الشعبى بتقسيم البلاد تقسيما يكفل الأغلبية لأحد الأحزاب . فكلما منحت طائفة جديدة حقوق المواطنية فى إيطاليا ، لجأ بعض القوم إلى محكم الألاعيب ، وبادر البعض الآخر إلى ألاعيب أخرى متقنة مضادة لتلك ، هذه ترمى إلى تدوين المصوتين الجدد فى أقل أو أكثر عدد ممكن من « القبائل » الثلاثين القديمة ، وتلك تنزع إلى إدراجهم فى أقل ما يمكن من القبائل الجديدة . وإذ أن الأصوات كانت تؤخذ بعدد القبائل ، فمن الجلى أنه مهما بلغ عدد الأفراد الجدد الذين يضافون فلن يمكن أن يعد رأيهم إلا صوتاً قبلياً واحداً إن جمعوا كلهم فى قبيلة واحدة . وكذلك يكون الحال لو أنهم حشدوا فى بضع قبائل قليلة فقط سواء منها الجديد أو القديم .

ولو أنهم دونوا — من الناحية الأخرى — فى عدد عظيم جداً من القبائل ، فربما كان تأثيرهم فى أية قبيلة خاصة غير جسيم ، وهنا يقوم نوع العمل الذى يستهوى ويجتذب إلى غمرته كل نذل مخاتل من أنذال السياسة . وكان من المستطاع فى بعض الأحيان أن تستصدر من المجلس القبلى (Comitia Tributa) قرارات مناقضة للشعور العام تماماً . وكما سبق أن لاحظنا كانت الكثرة العظمى من الأفراد الأحـــرار فى إيطاليا معطلة حقوقها الانتخابية أيضاً بسبب بُعْد الشقة . وقد حدث قرابة منتصف مدة الحروب القرطاجية (البونية) أن ارتفع عدد الناخبين حتى تجاوز ٣٠٠,٠٠٠ مواطن . وفى حوالى ١٠٠ ق. م. ، كان هناك أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ منهم ، ولكن كان تصويت مجلس الأحرار فى واقع الأمر قاصراً على بضع

عشرات قليلة من الألوف تقيم فى روما وبالقرب منها معظمهم رجال من طراز وضيع . وفوق هذا كان الناخبون الرومان « منظمين » تنظيماً محكماً يجعل ما اشتهرت به الإدارة المركزية للحزب الديمقراطى فى نيويورك من فساد الأداة الانتخابية ، يبدو ساذجاً شريفاً بالقياس إليهم . فإنهم كانوا ينتسبون إلى أندية (collegia sodalicia) تستتر فى العادة وراء بعض مدعيات دينية أنيقة . وكان السياسى الناشىء — وهو يشق طريقه نحو المناصب — يذهب بادئ بدء إلى المرابين ، ثم ينقلب بالمال المقترض إلى هذه النوادى . فإذا أثارت مسألة من المسائل اهتمام الأفراد الأحرار فى غير روما إلى حد أن يهرعوا إلى المدينة حاشدين ، كان فى الإمكان دائماً تأجيل التصويت بإعلان عدم مواءمة النُّذُر . فإن حضروا إلى المدينة غير مسلحين ، كان من المستطاع إرهابهم . وإن أحضروا معهم أسلحتهم ، علت الصيحة بأن هناك مؤامرة لقلب الجمهورية ؛ وعند ذلك تعد العدة لإعمال الذبح فيهم .

وليس هناك من مرية أن كل إيطاليا وكل الإمبراطورية كانت جياشة بالسخط والقلق والتذمر طوال القرن الذى عقب تدمير قرطاجة . وكان عدد قليل من الرجال قد أخذ يغتنى غنى فاحشاً . ووجدت غالبية الناس نفسها غارقة فى أحابيل عجيبة من الأسعار غير الثابتة والأسواق المتقلبة والديون الباهظة . ومع هذا لم تكن هناك قط أية وسيلة للإعراب عن التذمر العام وإزالة أسبابه . ولم يسجل لنا التاريخ محاولة واحدة لجعل مجلس الأحرار أداة عامة قومية ذات أثر فعال . ومن دون المظاهر السطحية للشئون العامة ، كان جبار صامتٌ هو الرأى العام والإرادة العامة يكافح جاهداً ، وكان يبذل فى بعض الأحيان مجهوداً سياسياً عظيماً واندفاعاً إلى التصويت وما إلى ذلك ، أو يخوض غمار دور من أدوار العنف الفعلى . وطالما لم يبد من الناس شىء من مظاهر العنف الفعلى ، كان رجال السناتو والماليون يواصلون سياستهم الضارة المدمرة . ولم يكن هناك إلا الإخافة الشديدة سبيلا يمنع به الشعب

تلك المناسر الحاكمة أو الأحزاب من انتهاج سياستها الشنعاء وبرغمها أن تذعن للمصلحة العامة .

ولم يكن المجلس القَبَلى هو السبيل الحق الذى يعبر به الشعب فى إيطاليا آنذاك عن رغبانه تعبيراً صادقاً ، بل كانت الوسيلة إلى ذلك هى الإضراب والعصيان ، وهى أصلح الطرق وألزمها لكل الشعوب التى تمنى بالغش أو الظلم والقمع . ولقد رأينا فى زماننا هذا فى كثير من دول أوربا ما اعترى الحكومة البرلمانية من نقص فى هيبتها ، ومن لجوء الجماهير إلى الطرق غير الدستورية لنفس هذا السبب عينه ، أعنى جنوح بعض السياسيين إلى التلاعب بالأداة الانتخابية وحرمان طائفة معينة من الناس من حق الانتخاب ، حتى يُدفع المجتمع إلى الانفجار دفعاً .

على أن السكان المتذمرين يحتاجون فى عصيانهم إلى زعيم يتزعمهم . ومن ثم فإن تاريخ روما السياسى فى القرن الختامى للنظام الجمهورى الرومانى ، إنما يدور حول زعماء ثورات ، وآخرين يناهضون الثورة . وواضح أن معظم الأولين مغامرون لا شرف ولا ضمير لهم ممن يحاولون الإفادة من الضرورات الملحة والتعاسة الفاشية بين الناس فى رفع شأن أنفسهم . ويظهر الكثيرون من مؤرخى تلك الحقبة ميلا إلى التحزب ، فهم إما أرستقراطيون فى نزعاتهم أو ديمقراطيون متطرفون . ولكن الواقع أن أحداً من الطرفين المشتبكين فى هذه المنازعات الدقيقة المعقدة التركيب ليس له تاريخ يشهد له بسمو الغايات أو نقاء اليدين . فإن مجلس السناتو والفرسان الأغنياء كانوا ذوى نفوس خسيسة شرهة معادية للجمهور المسكين محتقرة له . وكان العامة جهلة لا يستقر لهم حال ، يعادلون الأولين فى الشره على أقل تقدير ويتلألأ اسم أسرة سكيپيو بالمقارنة إلى غيرها فى كل هذا السجل بوصفها مجموعة من السادة الشرفاء . وربما جاز لنا أن نحسن الظن قليلا بدوافع هذا الشخص أو ذاك من رجال ذلك العصر فنبسط عليه شيئاً من المزية

الحسنة التى يتيحها الشك ، شأننا مع تيبريوس جراكوس مثلا . أما الباقون فهم قوم لا يتبدى لنا منهم إلا ما هم عليه من الدهاء والمكر والمدى البالغ الذى بلغوه من الخبث والبراعة فى المنازعات ، ومقدار الذكاء فى الادعاء ومبلغ ما كان يعوزهم من الحكمة ورشاقة الروح . ولست أجد عليهم فى هذا المقام تعليقاً أبلغ من قول بعضهم وأظنه السير هارى چونستون حين وصف الإنسان النياندرتالى بقوله : « هو مخلوق مضطرب المشية أشعر وحشى وإن كان فيما يرجح شديد المكر المنبعث من مخ كبير وراءه » .

ولا يسعنا إلا أن نستعمل إلى يومنا هذا ألفاظاً مشابهة لهذه فى وصف روح رجل السياسة . فما أحوج رجل الدولة أن يطرد السياسى من عرينه ويسلبه أكوام أسلحته . وما أحوج التاريخ أن يصبح سجلا للكرامة الإنسانية ! ! !

٢ – المالية فى الدولة الرومانية

هناك ناحية أخرى كان فيها النظام الرومانى صورة بدائية وتسلفاً فجيجاً لنظامنا ، ومختلفاً عن كل ما تأملناه من النظم السياسية السابقة ، ذلك أنه كان نظاماً يستخدم طريقة الائتمان والدفع نقداً . ولم تكن العملة عرفت فى العالم إلا قبل ذلك بقرون قليلة ليس غير . بيد أن استعمالها كان آخذاً فى النمو ؛ لأنها كانت تزود الناس بأداة سيالة سهلة تعينهم على ما يقومون به من أسباب التجارة والمشروعات ، وباتت تحدث فى الأحوال الاقتصادية تغييراً عميقاً . وشرع رجل المال وفائدة رأس المال يلعبان فى روما الجمهورية دوراً بارزاً بادى الشبه بالأدوار التى يلعبانها فى الوقت الحاضر .

ولقد أسلفنا إليك فيما كتبناه عن هيرودوت ، أن من أوائل آثار النقود أن أتاحت من حرية الحركة والفراغ ، ما مكن عدداً من الناس لم يكونوا

ليستطيعوا من دونها أن يستمتعوا بهاتين الميزتين . وهنا تقوم القيمة الخاصة للنقود لدى الجنس البشرى . فبدلا من أن يدفع أجر العامل أو المساعد عيناً وبطريقة تغل استمتاعه قدر ما تقيده فى عمله ، تتركه النقود حراً فى أن يفعل ما يشاء ، وتدع أمامه مجال الاختيار واسعا للحصول على ما يشاء من منافع يستعين بها ومن راحة يستجم بها ومن لذات يستمتع بها . وهو قد يستهلك نقوده بتناولها طعاماً أو احتسائها شراباً أو يعطيها لمعبد من المعابد ، أو ينفقها فى تعلم شىء أو يدخرها لمناسبة متوقعة . ذلك فضل النقود ونقطة الخير فيها وهو حرية قابليتها للتحويل وتداولها . بيد أن الحرية التى تمنحها النقود للرجل الفقير لا تعد شيئاً بالموازنة إلى الحرية التى منحتها للثرى . فإن الأثرياء قد كفوا بفضل النقود عن أن يكونوا مرتبطين بالأرض والمنازل والمخازن والقطعان والرعائل . وصاروا يستطيعون أن يغيروا طبيعة ممتلكاتهم وموضعها بحرية لم يسمع الناس بمثلها من قبل . وفى القرنين الثالث والثانى ق. م. كان ما ترى من إطلاق سراح الثروة وفكاكها من الأغلال قد أخذا يؤثران فى الحياة الاقتصادية العامة للعالم الرومانى والمهلن (المصطبغ بالصبغة الهلينية) ، فشرع الناس يشترون الأرض وما إليها لا ابتغاء النفع الذى يفيدونه منها ، بل لبيعها ثانية بشىء من الربح . وصار الناس يقترضون ليشتروا ، وتطورت المضاربات . وكان هناك لا محالة رجال مصارف فى بابل عام ١٠٠٠ ق. م. ، بيد أنهم كانوا يقرضون فى نطاق يتسم بالضيق والجمود إلى أبعد حد قضباناً من المعدن ومخزونات من السلع . فقد كان ذلك العالم العتيق عالم مقايضة يجرى فيه الدفع عيناً ، وكان لهذا السبب يسير سيراً بطيئاً بل وأكثر اتزاناً وثباتاً . وعلى تلك الحالة ظلت مملكة الصين الهائلة حتى الزمن الحاضر تقريباً .

وكانت المدن الكبيرة قبل روما مدناً تجارية وصناعية . وعلى هذه الشاكلة كانت كورنثة وقرطاجة وسيراقوزة . بيد أن روما لم تنتج قط

سكاناً صناعيين وفيرى العدد ولم تنافس مخازنها قط مخازن الإسكندرية . وكانت ميناء أوستيا على صغرها تفى على الدوام بكل مطالبها . وإنما كانت روما عاصمة سياسية ومالية . وكانت من هذه الناحية الأخيرة على الأقل نوعاً جديداً من المدن . إذ كانت تستورد الأرباح والجزيات ، ولا يخرج منها مقابل ذلك إلا أقل القليل . وكانت أرصفة ميناء أوستيا مشغولة بنوع خاص بتفريغ قمح صقلية وإفريقيا والأسلاب من العالم أجمع .

وقد جُنَّ جنون الخيال الرومانى بعد سقوط قرطاجة ، بما سنح له من فرص الإمكانيات المالية التى لم يعرف الناس لها حتى ذلك الحين نظيراً . إذ أن الصدفة أظهرت الجنس البشرى على النقود كما أظهرته على معظم مخترعاته الأخرى . وكان ما يزال لزاما على الناس أن يطوّروا علم النقد وأصوله الأخلاقية ، كما لا يزال عليهم اليوم أن يبلغوا بهما مرتبة الكمال . وإن المرء ليرى تلك الأداة الصغيرة (النقود) وهى « ترسى جذورها » فيما سُطر من ترجمة كاتو الرقيب وفيما تواتر إلينا من كتاباته . ذلك أنه كان فى مستهل حياته شديد الورع مرير العداوة للربا ؛ غير أنه قضى ما تلا ذلك من أيام حياته فى استنباط أبرع الخطط وأسلمها عاقبة للربا .

وإنك لترى الناس على مر هذا القرن الممتع العجيب من عصور التاريخ الرومانى يتساءلون رجلا بعد رجل « ماذا جرى لروما ؟ » وتسمع عن ذلك أجوبة متنوعة : إنه الانحطاط فى الدين — أو التدهور عن مستوى فضائل السلف الأول من الرومان — أو إنها تلك « السموم العقلية » الإغريقية ، وما إلى ذلك من إجابات ! ! . ونحن الذين ننظر إلى المسألة وأمامنا — بتراخى الدهور — أفق رحيب ، نستطيع أن نحكم أن ما حاق بروما من النوازل إنما جلبه عليها « المال أو النقد » ، وما أتاحه ذلك المال من حريات جديدة وفرص سانحة . وقد أثر طوفان النقود فى الرومان فهاموا على متنه سابحين ، ومادت الأرض الثابتة من تحت أقدامهم . فإن كل إنسان فى

الدولة أخذ يقبض على النقود بكلتا يديه ، فاحتازتها الغالبية بالوسيلة البسيطة وسيلة الاستدانة . وما كان امتداد الإمبراطورية شرقاً فى معظم أمره إلا تصيداً للكنوز التى تحتويها الحجرات الحصينة والمعابد ، وذلك إبتغاء مسايرة تلهف الناس إلى تلك الطلبة الجديدة . وأصبحت طبقة الفوارس على الأخص هى صاحبة القوة المالية . وكان كل فرد يزيد فى ممتلكاته ، وكان الفلاحون يهجرون القمح والماشية ، إذ يقترضون الأموال ويشترون الرقيق ويبدأون فى زراعة الزيتون والكروم على نطاق واسع وإنتاج وفير .

كانت النقود حدثاً صغير السن فى خبرة البشر وكانت ضارية متوحشة . فلم يكن أحد قد استطاع بعد أن يكبح جماحها ، وكانت تتأرجح تأرجحاً عظيماً . فهى آونة وفيرة وآونة نادرة . وكان الناس يدبرون الخطط الماكرة الفجة لاصطيادها وتضييق الخناق عليها واكتنازها ، وكانوا يعمدون إلى رفع الأسعار بإطلاق المعادن المكتنزة . وأخذت طائفة صغيرة من أشد الناس دهاء تثرى ثراء فاحشاً . وكان الكثيرون من النبلاء (البطارقة) قد أخذ الفقر يعضهم وأخذ الغيظ بمجامع نفوسهم فلم يعودوا يستمسكون بمبدأ ولا ضمير . وكان من بين أفراد الطبقة الوسطى كثيرون تمتلئ قلوبهم بحرارة الأمل ، وآخرون توفروا على الخطار والمغامرة ، وآخرون قد شاعت خيبة الآمال فى نفوسهم . فأما من نزعت منهم أملاكهم وهم جمهرة نامية متزايدة فقد تدسس إليهم ذلك الشعور المبهم المربك الذى يفقد المرء معه كل أمل ويحس بأنه أصبح مغلوباً على أمره وأن الكوارث تدهمه بغير ما علة ظاهرة ، وهى الحالة التى تمهد السبيل لكل الحركات الثورية العظيمة .

٣ – آخر العهد بالسياسة الجمهورية

كان أول زعيم بارز التجأ إلى الشعور الثورى المتجمع فى إيطاليا هو تيبريوس جراكوس (Tiberius Gracchus) وهو يبدو أقرب رجال ذلك

العصر إلى النزاهة ، لا نستثنى منهم أحداً إلا سكيپيو الإفريقى الأسن .
كان تيبريوس جراكوس فى مبدأ الأمر مصلحاً معتدلا من طراز يكاد يكون رجعياً . وكان شديد الرغبة فى أن يعيد إلى طبقة صغار المزارعين أملاكهم ، لاعتقاده الراسخ بأن تلك الطبقة هى العمود الفقرى للجيش . وقد وقرت فى نفسه خبرته العسكرية فى أسبانيا قبل تدمير قرطاجة وبعده ، ما أصاب الكتائب الرومانية من انحطاط فى كفايتها . فكان تيبريوس بذلك أحد من قد نسميهم فى هذه الأيام « دعاة العودة إلى الريف » . ولم يكن يدرك — مثله فى ذلك مثل الكثيرين من الناس فى أيامنا هذه — أن نقل السكان من الأرض إلى حضر المدينة أيسر كثيراً من إعادتهم إلى الأشغال الرتيبة فى الحياة الزراعية المضنية البسيطة . فأراد أن يبعث القوانين الليسينية ، التى سنت عند ما بنى كاميلّوس معبده المسمى معبد الوفاق منذ نحو قرنين ونصف من الزمان (راجع الفصل الخامس والعشرين القسم ٢) ، مع قصر أثر تلك القوانين على تجزئة المزارع العظيمة والحد من استخدام الرقيق فى العمل .

ولطالما بُعثت هاته القوانين الليسينية مراراً وتكراراً ، ثم أهملت مراراً وتكراراً وعفّى عليها النسيان . ولم يحدث إلا عند ما اعترض كبار ملاك الأراضى فى مجلس السناتو على ذلك المقترح — أن تحول تيبريوس جراكوس إلى الشعب وشرع يحدث اضطراباً عنيفاً مطالباً بقيام حكومة شعبية . فأنشأ لجنة للبحث فى حق الملاك كافة فى ملكية الأراضى . وبينما تيبريوس فى أوج نشاطه حدثت حادثة من أشد حوادث التاريخ خرقاً للمألوف . ذلك أن أتالوس ملك برجامة ذلك القطر الغنى فى آسيا الصغرى مات (١٣٣ ق.م.) موصياً بمملكته للشعب الرومانى .

ومن العسير علينا أن نفهم السر فى تلك المنحة . فإن برجامة كانت قطراً متحالفاً مع روما ، وبذلك أصبحت فى مأمن من الاعتداء نوعاً ما .

وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هاته الوصية هي إثارة جشع مناسر مجلس السناتو إلى عنيف التخاطف والتدافع وإضرامها نار النزاع بينهم وبين الشعب على مغانم تلك القنيصة الجديدة . والواقع أن أتالوس نزل عن مملكته لتنهبها أيدي الناهبين . وكان بتلك البلاد — لا جرم — كثير من رجال الأعمال الإيطاليين الذين اســـتوطنوها واستقروا بها ، وحزب قوى من الأهالى الأصليين ذوى اليسار لهم علاقة وثيقة بروما . وكان الانضمام إلى النظام الرومانى أمراً مقبولا لديهم ولا مراء . ويشهد يوسيفوس[1] بوجود مثل هاته الرغبة فى التبعية لروما والانضمام إليها لدى أغنياء سوريا . وهى رغبة كانت على غير هوى من كل من الملك والشعب فيها . وهذه الوصية التى تهب مملكة برجامة لروما إن كانت مدهشة فى حد ذاتها ، فقد كانت لها إلى ذلك نتيجة أدهش منها كثيراً وهى أنها أصبحت قدوة تحتذيها أقطار أخرى . فى (٩٦ ق.م.) وهب بطلميوس أبيون (Ptolemy Apion) بلاد برقة فى شمال أفريقيا للشعب الرومانى . وفى (٨١ ق.م.) اتبع الإسكندر الثانى ملك مصر نفس الطريقة فأوصى بمصر وهى تراث أكبر من أن تتحمله شجاعة أعضاء مجلس السناتو إن لم يكن أكبر من أن تستسيغه أفواههم ، فرفضوا قبول هذه الهبة . وفى (٧٤ ق.م.) أوصى نيقوميدس ملك بيثينيا ببلاده بعد وفاته لروما . ولن نزيدك فى هذا المقام حديثاً عن هذه الوصايا الأخيرة الشاذة . ومن هنا يتضح عظم الفرصة التى أتاحتها هبة أتالوس لتيبريوس جراكوس فشرع من فوره يتهم الأثرياء بالشره ، وألح فى طلب إصدار المراسيم بإعطاء كنوز أتالوس للشعب عامة . واقترح أن تستخدم هذه الثروة الجديدة فى إمداد الناس بالبذور والماشية والأدوات الزراعية حتى يعودوا إلى المقام بالريف والاستقرار فى أراضيه .

---

(١) يوسيفوس (Josephus) مؤرخ يهودى عاصر الإمبراطور فسبازيان ، ولد فى أورشليم ٣٧ ميلادية وتوفى فى ١٠٠ م . وأهم مؤلفاته كتاب « تاريخ اليهود القديم » فى عشرين جزءا وهو يسرد تاريخهم منذ بدء الخليقة حتى عام ٦٦ م . (المترجم)

على أن حركته سرعان ما اشتبكت فى أحابيل النظام الانتخابى الرومانى المعقدة . وذلك أن كل الحركات الشعبية إن لم يكن لها واقٍ من نظام انتخابى بسيط قويم ، فلامناص لها فى كل العصور من أن تصاب بالاضطراب والاختلال ، ويمسها مما يخالطها من المعقدات الدستورية مس من الجنون ثم توشك الضرورة أن تؤدى بها إلى سفك الدماء . وكان من اللازم لتيبريوس جراكوس — إن شـــاء لعمله دواماً — أن يظل فى وظيفة التريبيون ، ولم يكن القانون يبيح له أن يصبح تريبيوناً مرتين متعاقبتين . ولذا تجاوز حدود القانون ، وأخذ يطالب بأن يعين للمرة الثانية فى وظيفة التريبيون . وحضر الفلاحون الذين جاءوا من الريف ليعطوه أصواتهم مسلحين . فتعالت فى مجلس السناتو الصيحات القائلة بأنه يرمى إلى جعل نفسه طاغية ، وهى تلك الصيحات التى قضت منذ زمن طويل على مايليوس ومانليوس ، فذهب أنصار «القانون والنظام» إلى الكابيتول هيئة رسمية يصحبهم زعانف من الأتباع مسلحين بالعصى والهراوات . وحدث بين الطرفين نزاع ، أو قل مذبحة فى الثوار ، قتل فيها ما يقرب من ثلاثمائة شخص ، وضرب تيبريوس جراكوس حتى قضى نحبه ، ضربه اثنان من اعضاء مجلس السناتو بحطام مقعد مكسور .

وعند ذلك حاول أعضاء السناتو أن يقوموا بثورة مضادة ، وأهدروا دماء كثيرين من أتباع تيبريوس جراكوس وصادروا أملاكهم . بيد أن الرأى العام كان غاضباً متوعداً بحيث أهملت هذه الحركة ، واضطر سكيپيو ناسيكا الذى كان له ضلع فى مقتل تيبريوس أن يرحل إلى الخارج اتقاء للشر وإن كان يشغل وظيفة الحبر الأعظم (Pontifex maximus) . وكان لزاماً عليه أن يبقى فى روما من أجل تقديم القرابين العامة ، وهى التى كانت قوام واجبات منصبه .

وبعد ذلك بقليل ثارت نفس سكيپيو الأفريقى الأصغر لما كان يشهده

فى إيطاليا من دلائل القلق فاقترح منح كل إيطالى الحرية المدنية . غير أنه مات موت الفجاءة قبل أن يخرج اقتراحه إلى حيز التنفيذ .

ثم أعقبه كايوس جراكوس (Caius Gracchus) وسيرته مبهمة وهو أخو تيبريوس ، فاتبع « سياسة » ملتوية ، لا تزال تحير عقول المؤرخين . فإنه زاد فى أثقال الضرائب الملقاة على عاتق الولايات ، ويظن أنه كان يرمى بذلك إلى إثارة الماليين الحديثين أعنى الفرسان (Equites) على أصحاب الأراضى من أعضاء السناتو . وأعطى الأولين التزام جباية الضرائب فى ولاية آسيا الموهوبة للدولة حديثاً ، وأدهى من ذلك وأمر أنه أعطاهم حق الرقابة على المحاكم الخاصة المعينة لمنع الابتزاز . ثم شرع يقوم بأعمال عامة هائلة وبخاصة إنشاء الطرق الجديدة ، واتهم بأنه يستغل العقود لخدمة مآربه السياسية . ثم بعث من جديد الاقتراح الخاص بمنح إيطاليا كلها الحقوق المدنية . وزاد فى مقدار القمح الرخيص الموزع إعانة للمواطنين الرومان . . . ولسنا بمستطيعين محاولة تفسير خططه ، ولا نحن بقاضين فيه برأى . ولكن لا يخالجنا أدنى شك أن سياسته قد أساءت إلى الجماعات التى كانت تتحكم فى مجلس السناتو . فذبحه أنصار « القانون والنظام » ومعه قرابة ثلاثة آلاف من أتباعه فى شوارع روما (١٢١ ق. م .) . وحمل رأسه المفصول عن جسده إلى السناتو على رأس حربة .

(ويقول بلوتارك : إن القاتل منح جائزة تعادل وزن الرأس ذهباً مقابل ما أحرز من أمارات النصر ؛ وأن هذا السفاك قد تصرف أليق التصرفات وأجدرها بنصراء الشرف والنزاهة « وجلائل الأعمال » فملأ (تجويف الجمجمة بالرصاص وهى فى طريقها إلى الميزان ! ! . .) .

وعلى الرغم من هذه التدبيرات السريعة الحازمة لم تكتب الأقدار للسناتو أن يستظل لواء السلام وينعم بمزايا التحكم فى موارد الإمبراطورية زماناً طويلا ، فلم تنقض عشر سنوات حتى ثار القوم ثانية .

فني (١١٨ ق. م.) تملك عرش نوميديا وهي المملكة شبه الهمجية التي نشأت في إفريقيا الشمالية على أنقاض الدولة القرطاچية الممدنة ، ملك قدير اسمه يوجورثا (Jugurtha) ، سلفت له الخدمة العسكرية مع الجيوش الرومانية في أسبانيا ، فكان أعرف الناس بالخلق الروماني . وقد سببت بعض تصرفاته تدخل روما العسكري . على أن الرومان وجدوا أن قوتهم العسكرية في ظل سناتو مكون من الماليين وملاك الأراضي مختلفة جد الاختلاف عما كانت عليه حتى في أيام سكيپيو الإفريقي الأصغر . « واشترى يوجورثا ذمم المندوبين المرسلين لمراقبته وأعضاء السناتو الذين عهد إليهم بمحاكمتهم ، والقواد أصحاب الإمرة على الجيوش المسيرة عليه . »[1] وهناك مثل روماني هذا نصه : المال لا يأسن « Pecunia non olet » . ولكنه مثل خاطئ ذلك أن نقود يوجورثا أسنت وفاحت رائحتها حتى في روما . فثار ثائر القوم ؛ وفي أثناء موجة الغضب العام رُفع إلى منصب القنصلية جندي مقتدر وضيع الأصل اسمه ماريوس (١٠٧ ق. م.) . ولم يحاول ماريوس أن ينسج على منوال آل جراكوس بأن يعيد للريف طبقة صغار الملاك الذين هم عماد الجيش وعموده الفقري . كان جندياً محترفاً على درجة عالية من الكفاية وميل إلى سلوك أقصر السبل . فاكتفى بأن جمع الجنود من بين طبقات الفقراء ، سواء أكانوا من أهل الريف أم من الحضر وأجزل لهم العطاء ونظمهم تنظيما كاملا . ثم أنهى في (١٠٦ ق. م.) حرب السنوات السبع مع يوجورثا بإحضاره ذلك الزعيم إلى روما مكبلا بالسلاسل والأغلال . ولم يخطر ببال إنسان أن ماريوس قد قام أيضاً بمحض الصدفة بإنشاء جيش محترف ليس له من مصلحة تجمع شتاته إلا أعطياته . ثم أقام في وظيفة القنصلية سنوات عدة لا يبالي أكان بقاؤه فيها قانونياً أم غير قانوني ، وفي (١٠٢ ، ١٠١ ق. م.) صد حركة

---

(١) انظر فرّيرو في المرجع السابق .

هجوم خطرة قام بها الجرمان (الذين يظهرون بذلك فى تاريخنا لأول مرة) ، والذين كانوا يغيرون مخترقين بلاد الغال فى طريقهم إلى إيطاليا . فأحرز نصرين ، أحدهما على الأرض الإيطالية . فهلل له الناس وأكبروه كمنقذ لوطنه ، وشبهوه بكاميلّوس (١٠٠ ق.م.) .

ولطالما سخرت التوترات الاجتماعيـة فى ذلك الزمان من تشـبيهه بكاميلّوس ، وقد اجتنى السناتو أكبر الفوائد بما تم من النشاط الكبير فى الشئون الخارجية ومن الكفاية العسكرية المتزايدة التى وضع ماريوس أسسها . بيد أن التذمر القبيح المرير الذى يملأ نفس الجمهور كان ما يزال يبحث عن منقذ فعال ينفّس عنه ما به . وازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً . وكان من المحال مواصلة استخدام الأحابيل السياسية إلى الأبد فى القضاء على نتائج هذه الحال . فان الشعب الإيطالى كان ما يزال محروماً من حقوقه المدنية . وقد اغتيل اثنان من الزعماء الديمقراطيين المتطرفين . هما ساتيرنينوس (Saturninus) وجلوكيا (Glaucia) . بيد أن هذا العلاج المألوف الذى اعتاده مجلس السناتو باء بالفشل فى تهدئة الشعب فى هـذا الظرف . وفى (٩٢ ق. م.) حاول موظف أرستقراطى هو روتيليوس روفوس أن يضع حداً لابتزازات الماليين فى آسيا الصغرى ، فاتهم بالفساد والرشوة — وكان ذلك اتهاماً مفتعلا لم ينخدع له أحد — ثم قضى بإدانته . وفى (٩١ ق. م.) اغتيل ليڤيوس دروسوس (Livius Drusus) وهو تريبيون للشعب حديث الانتخاب ، حاول أن يستغل محاكمة روتيليوس روفوس ، واقترح منح الحقوق المدنية للإيطاليين عامة . ولم يكن ظهوره نذيراً فحسب بسن قانون آخر للأراضى بل ومؤذناً بإلغاء عام للديون . ومع ذلك فعلى الرغم من هذه الشدة التى كان يبديها رجال السناتو المرابون ومتصيدو الأراضى ومحتكرو الأسواق ، لم ين الجياع والقلقون عن ملاحقتهم بالتمرد والعصيان . وكان مقتل دروسوس آخر قطرة فى كأس العامة ؛ فإن إيطاليا اضطرمت بنار عصيان مستيئس .

ونشبت فى أعقاب ذلك حرب مدنية مريرة دامت سنتين ، هى الحرب الأهلية ، وهى صراع بين فكرتين إحداهما تنادى باتحاد إيطاليا والأخرى تقول بحكم السناتو الرومانى وسيادته . ولم تكن تلك الحرب حرباً « اجتماعية » بالمعنى العصرى ، وإنما هى حرب بين روما وأحلافها (Socii)[١] من الإيطاليين . « وطفق القواد الرومان المدربون على تقاليد الحروب الاستعمارية يذرعون إيطاليا بكل قسوة طولا وعرضاً : يحرقون المزارع وينهبون المدن ويحملون الرجال والنساء والأطفال أسرى لكى يبيعوهم فى السوق علنا أو يسخروهم فى العمل جماعات فى مزارعهم الكبيرة[٢] » .

وكان يقود جيوش روما ماريوس ومعه قائد أرستقراطى هو سُلاّ (Sulla) ، وقد كان يعمل معه فى إفريقيا كما كان منافساً لدوداً له ، ومع أن الثوار كابدوا كثيراً مما لاقوا من هزائم وما فقدوا من أسلاب ، فان واحداً من هذين القائدين لم يستطع وضع حد للحرب . على أنها انتهت بشكل ما (٨٩ ق. م.) بأن سلم السناتو عملياً بفكرة الإصلاح فسلبت الثورة روحها بقبول مطالب الثوار « من ناحية المبدأ » . وما أن تفرق الثوار حتى عاد زعماء السناتو إلى ما ألفوه من تلاعب بالناخبين الجدد قائم على نفس الأساليب التى شرحناها فى القسم الأول من هذا الفصل .

وما وافت السنة التالية (٨٨ ق. م.) حتى كانت الجولة القديمة ابتدأت من جديد . وكان يشوبها ويخالطها المؤامرات الشخصية التى يأتمر فيها كل من ماريوس وسُلا بصاحبه . ولكن الكفاح اتخذ لوناً جديداً . بسبب إصلاحات ماريوس فى الجيش ، التى أنشأت طرزاً جديداً من الكتائب المكونة من جند محترفين لا أرض لهم ولا مصلحة فى الحياة غير الأعطيات والأسلاب ، ولا شعور عندهم بالولاء إلا نحو قائد موفق . وظهر

---

(١) Socii ومفردها Socius ـ هو الحليف . (المترجم)

(٢) فيرّيرو المصدر نفسه .

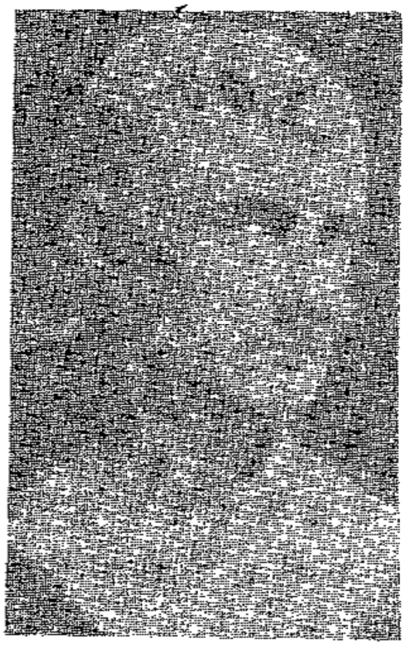
ريبيون شعبي اسمه سَلْپيكيوس (Sulpicius) أخذ يسن بعض قوانين جديدة تتصل بالديون ، بينما راغ القنصلان من العاصفة بإعلان إيقاف الأعمال العامة . ثم جاء الدور المعتـــاد من اللجوء إلى العنف ، فطرد أتباع سَلپيكيوس القنصلين من سوق المدينة (الفوروم) . وعند ذلك ظهرت القوى الجديدة التي قوامها الجيش الجديد وتقدمت للعمل . فإن مثْريداتس (Mi hridates) ملك بُنطش المطبوعة بالطابع الهلّيني والواقعة على شواطئ البحر الأسود الجنوبية والمتاخمة من الناحية الشرقية بيثينيا ، أخذ يتحرش بروما ويستدرجها إلى الحرب . وكان من بين مشروعات القوانين التي اقترحها سَلپيكيوس قانون يقضي بأن يقود ماريوس الجيوش التي أرسلت على ذلك الملك . وعند ذلك زحف « سُلاّ » على روما بالجيش الذي كان تحت إمرته طوال الحرب الأهلية . ففر ماريوس وسَلپكپيوس ، وابتدأ عصر جديد هو عصر الإعلانات والتصريحات العسكرية الثورية .

ولسنا بمستطيعين أن نبين لك في أي تفصيل كيف جعل سُلاّ من نفسه قائداً للحملة على مثْريداتس ثم رحل عن البلاد ، ولا كيف أن الكتائب الموالية لماريوس قبضت عند ذلك على زمام الحكم ، ولا كيف عاد ماريوس إلى إيطاليا وتشفّى من خصومه السياسيين بمذبحة رهيبة ، ثم مات بالحمى بعد أن روى غلّته انتقاماً . غير أن هناك تدبيراً واحداً أبرم في أثناء حكم الإرهاب الذي أقامه ماريوس وكان له فضل كبير في تخفيف التوتر الاجتماعي ، ذلك هو إلغاء ثلاثة أرباع الديون المستحقة . ولســـنا بمستطيعين أيضاً أن نبين لك كيف أن سُلاّ عقد صلحاً مخزياً مع مثْريداتس (الذي سبق له أن أعمل السيف في مئة ألف إيطالي بآسيا الصغرى (لكي يرجع بكتائبه إلى روما ، ويهزم أنصار ماريوس عند معركة بوابة كولين (Colline Gate) بروما ، وينقض كل ما أبرمه ماريوس من تنظيمات . واستعاد سَلاّ النظام والقانون بأن أهدر دماء أكثر من خمسة آلاف إنسان

أعدمهم وصادر أملاكهم . وخرب أجزاء كبيرة من إيطاليا فأصبحت قاعاً صفصفاً ، وأعاد إلى السناتو سلطانه ، ونقض كثيراً من القوانين الحديثة العهد ، وإن لم يستطع أن يرجع أعباء الديون الملغاة ، حتى إذا داخله الملل من السياسة وقد جمع ثروة طائلة ؛ فإنه اعتزل العمل يحوطه جو من الكرامة ، وما لبث أن استسلم لأبشـع الملذات . وسرعان ما قضى نحبه ، وقد أكل جسده مرض وبيل مما يسببه الفسوق .

٤ – حقبة القواد المغامرين

لم يكن ما طرأ على الحياة السياسية فى إيطاليا بعد ذلك من السكون هدوءاً قدر ما كان ذهولا مما استهدفت له على يد ماريوس وسُلاّ من ذريع المذابح والمصادرات . ولا يسمح لنا النطاق الذى وضع على أساسه هذا الكتاب بأن نتكلم هاهنا عن كبار المغامرين الذين سرعان ما أخذوا يدبرون خططاً ودسائس يرمون من ورائها إلى إقامة الديكتاتورية فى روما معتمدين اعتماداً متزايداً على نصرة الكتائب لهم . وفى (٧٣ ق. م.) ذعرت إيطاليا بأجمعها بثورة الأرقاء وبخاصة المجالدين منهم بقيادة مجالد تسالى اسمه سپارتاكوس . كان هرب ومعه سبعون آخرون من « ضيعة » للمجالدين فى كاپوا (Capua) . وحدثت فورات مشابهة لهذه فى صقلية . وأصبحت القوات التى تحت إمرة سپارتاكوس عصبة مخلطة تجمّعت حوله من كل حـدب وصوب ، وليس بينها من رابط أو فكرة مشتركة إلا فكرة التفرق والعودة إلى الأوطان . ومع ذلك فإنه صمد فى جنوب إيطاليا مدة سنتين ، متخذاً من فوهة بركان فيزوف التى كانت خامدة آنذاك خموداً ظاهرياً قلعة طبيعية تحصن بها حيناً من الدهر. وبالرغم من حب الإيطاليين لحفـلات المجالدين ، فإنهم كرهوا تحويل كل البلاد إلى مجتلد عام ، وتوصيل سيف المجالدين إلى أبواب المنازل . فلما أن غلب


١١١ — پمپی العظیم

سپارتاكوس وأصحابه على أمرهم آخر الأمر ، انقلب رعب الرومان منهم إلى قساوة جنونية ، فصلب ستة آلاف من أتباعه الذين أسروا — وامتدت الضحايا الذاوية المرفوعة على الأعواد مسافة أميال طويلة على طول الطريق الأپيـــانى .

ولســـنا بقادرين هنا أن نسهب الحديث فى لوكولّوس(Lucullus)الذى اجتاح بُنطش وحارب مثريداتس ، وجلب شجرة الكريز لتزرع لأول مرة فى أوربا . ولا كيف استطاع پومپى العظيم (Pompey) أن يغتصب بمهارة وحذق معظم ما فاز به لوكولّوس فى أرمينية وراء بُنطش من نصر وهيبة وسلطان . وتقاعد لوكولّوس كما فعل سُلاّ فعاش عيش الثراء واليســـار يحوطه جو أكثر لياقة وكرامة من صاحبه حتى انتهى إلى نهاية أشرف وأكرم . ولسنا كذلك بمفصلين القول فى كيف أن يوليوس قيصر حاز فى الغرب الشهرة البالغة بغزوه بلاد الغال وهزيمته القبائل الجرمانية على نهر الراين ، ثم بتوجيهه حملة تأديبية عبر مضيق دوڤر إلى بريطانيا . وتزايدت الكتائب أهمية يوماً بعد يوم بقدر ما تناقصت قيمة السناتو والمجالس فى روما . على أن قصة كراسوس يحيط بها من الفكاهة المرة جو لا نستطيع تلقاءه أن نغفلها كلية .

كان كراسوس هذا مرابياً عظيماً ومحتكراً كبيراً ، فكان نموذجاً لطراز الفرسان بوضعهم الجديد . وهو يعادل من الناحية الاجتماعية رجال السوق السوداء المستغلين لأسعار المؤن والذخائر فى العصر الحديث . وقد أثرى فى أول أمره بأن اشترى أملاك أولئك الذين أهدر سُلاّ دماءهم

وصادر أملاكهم . وكانت أول جهوده الحربية فى الميدان حملته ضد سپارتاكوس ، فاستطاع آخر الأمر أن يقضى عليه بدفع المبالغ الطائلة وبذل المجهودات الشاقة بعـــد حملة طويلة الأمد باهظة النفقة . ثم استطاع بعد ذلك أن يتولى القيادة فى الشرق نتيجة لمساومات وصفقات معقدة ، ثم تهيأ لمنافسة ما ناله لوكولّوس من مجد ، وهو الذى تقدم من پرجامة وبيثينيا شرقاً إلى بُنطش ، كما تأهب لمطاولة مجد پومپى الذى كان أتم نهب أرمينية .

ويساعدنا ما حاق به من محن على تبيان الجهل المطبق الذى كان الرومان يسيّرون به أمورهم فى ذلك الزمان . فإنه عبر نهر الفرات متوقعاً أن يجد فى بلاد فارس مملكة مهلّنة تشبه بُنطش[1] . ولكن حقيقة الأمر كما سبق أن أشرنا هى أن المستودعات الكبرى للشعوب المترحلة التى كانت تمتد من الدانوب عبر الروسيا إلى آسيا الوسطى ، أخذت تفيض ثانية فى الأراضى المحصورة بين بحر قزوين ونهر السند وهى المنطقة التى غزاها الإسكندر وضمها للنفوذ الهلينى . وما لبث كراسوس أن وجد نفسه من جديد أمام « الإسكيذيين » ، أمام قبائل سريعة الحركة من الفرسان يقودهم ملك فى ثياب ميدية . وكان من لقيهم من « الإسكيذيين » شاكلة خاصة تسمى بالبارثيين (Parthians) . ويحتمل أن الپارثيين كان يخالط دماءهم عنصر مغولى (طورانى) ممتزجاً بالسلالة الآرية . ومن غرائب الاتفاق أن حملة كراسوس وراء الفرات تشبه حملة دارا وراء الدانواب شبهاً عجيباً . إذ حدث فى هذه كما حدث فى تلك أن قذف القائد قذفاً ثقيلا بقوة من المشاة ضد راكبة من الفرسان مراوغة خفيفة الحركة . بيد أن كراسوس كان أبطأ من دارا إدراكاً لضرورة الانسحاب ، وكان الپارثيون ناشبة يفوقون الإسكيذيين الذين لقيهم دارا براعة ومقدرة . ويبدو أنه كان لديهم نوع ما من القذائف الرنانة لها شدة وقوة غير عاديتين ، وتختلف

(١) إن شئت توسعاً فى تاريخ هذه المنطقة هى وبلاد الإغريق ومصر وسوريا فى تلك الأيام وقبلها بقليل أى بعد الإسكندر فاقرأ للمترجم كتاب و . تارن « الحضارة الهلينستية » الألف كتاب ومكتبة الأنجلو .

عن السهم العادى . ويقول الأستاذ ج. ل . مارز (Myres) ، إن هذا القوس كان فيما يرجح هو القوس المركب ، المسمى كذلك لأنه كان مصنوعاً من لوحات عديدة من القرن تبلغ الخمس أو نحو ذلك ، على هيئة زمبركات (سوستات) العربات . وهو يقذف سهماً عالى السرعة له طنين . وكان هذا هو القوس الذى كانت المغول تستعمله . فهذا القوس المركب — ولم يكن بالطويل — قديم العهـــد جداً فى الخبرة الإنسانية . فهو قوس أوديسيوس (Odysseus) . وكان لدى الأشوريين على هيئة معدّلة . وقد اندثر من بلاد الإغريق ولكنه ظل معروفاً لديهم باسم القوس المغولى . كان قصيراً تمام القصر ، صلباً جداً فى جذبه ، وله خط سير منبسط ومدى طويل عجيب وضجة عظيمة (نقلا عن إشارة هوميروس إلى طنين القوس) . ولكنه زال من البحر المتوسط ، لأن المناخ هناك لا يناسبه ، ولأنه لم تكن هناك حيوانات كافية لتقديم ما يلزم لصنعه من القرون .

وبلغت الحملة أقصى ذروتها فى تلك المذبحة المعروفة باسم معركة كاراى (Carrhae) (٥٣ ق . م .) ، التى استمرت يومين أعمل العدو فيهما الذبح فى الفرق الرومانية وقد أعياها الحر وأنهكها العطش والجوع وأضناها التعب . لقد ظلوا يكدحون فى الرّمال الحارة مهاجمين عدواً لا يبرح يروغ منهم ، ثم يدور من خلفهم راكباً ويعمل فيهم بالقسى حتّى يمزقهم أشتاتاً . فقُتل منهم فى المعركة عشرون ألفاً ، وواصل عشرة آلاف المسير شرقاً بعد أن أخذوا أسرى وأصبحوا أرقاء فى إيران .

وإن أحداً لا يدرى على وجه الدقة ماذا جرى لكراسوس . وهناك قصة ، ربما حيكتْ لتكون عظة خلقية لنا وربما أوحى بها اشتغاله بالربا تقول : إنه وقع حياً فى أيدى البارثيين ، فقتل بأن صُبّ فى فيه الذهب المصهور .

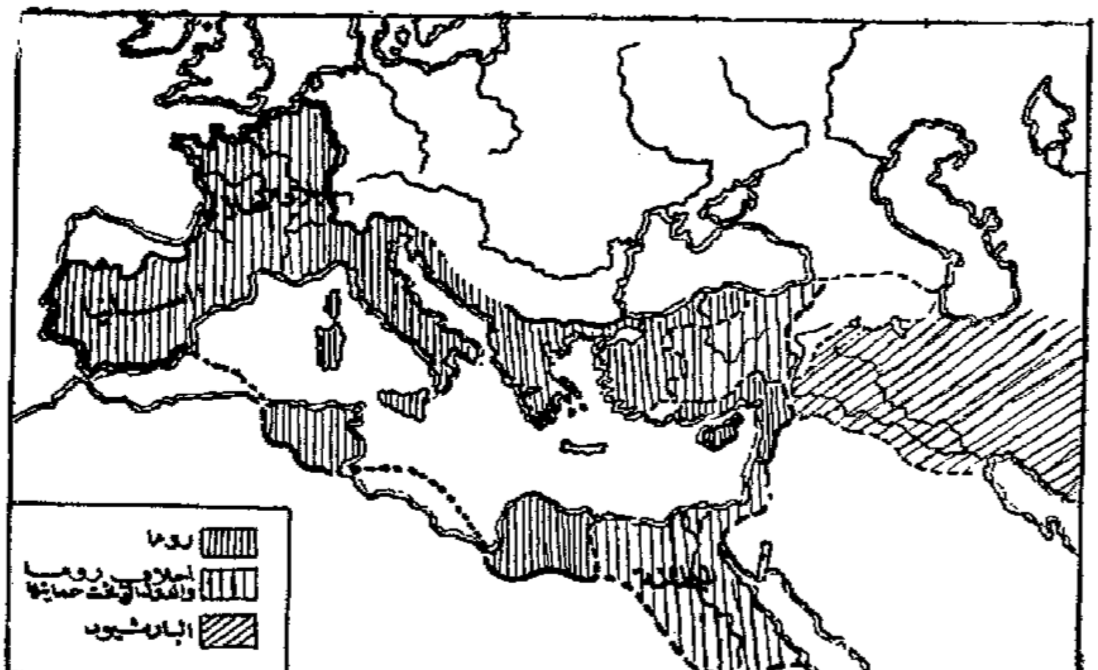
والحق إن لهذه الكارثة دلالة عظيمة الأهمية فى هذا التاريخ العـــام

للإنسانية . فإنها تساعد على تذكيرنا ، أنه من الراين إلى الفرات وعلى الأرض الممتدة بينهما ، إلى شمال جبال الألب ونهر الدانوب والبحر الأسود — كانت تمتد سحابة واحدة متصلة من الشعوب المترحلة وشبه المترحلة الذين لم يستطع دهاء روما السياسى والاستعمارى أن يكبح جماحهم ويبعث فيهم السكينة ويبث المدنية بينهم كما لم تتمكن فنونها العسكرية من إخضاعهم . ولقد استرعينا النظر قبل هذا إلى خريطة تبين كيف رقدت الإمبراطورية البابلية الثانية (وهى الإمبراطورية الكلدانية) ، رقدة الحمل بين ذراعى الدولة الميدية . وعلى نفس هاته الشاكلة بالضبط ، رقدت الإمبراطورية الرومانية رقود الحمل بين ذراعى هذا الهلال العظيم من البرابرة النازلين بأوطانهم النائية خارج حدودها . ولم تثبت روما فحسب عجزها التام عن دفع ذلك الهلال المتراكب حول كاهلها ، وعن تمثله فى كيانها ، بل إنها لم تستطع قط أن تنظم طرق المواصلات فى البحر المتوسط وتجعل لها فيه نظام مواصلات مضموناً مأموناً محكماً بين مختلف أجزاء إمبراطوريتها . وكانت روما لا تزال تجهل كل شىء عن قبائل المغول فى شمال شرق آسيا وهم الهون وذوو قرباهم ، ممن دأبت أسرتا تسى وهان على صد تيارهم عن الصين بإقامة السور ومطاردتهم بالقوة ، فأخذوا يزحفون غرباً مخالطين البارثيين[١] والإسكيذيين والتيوتون ومن إليهم أو دافعين إياهم أمامهم .

ولم يحدث مطلقاً أن نجح الرومان فى توسيع حدود إمبراطوريتهم إلى ما وراء أرض الجزيرة ، ولم تكن قبضتهم على أرض الجزيرة مكينة قط . وقبل نهاية عهد الجمهورية أخذت مقدرتهم على التمثل تلك التى كانت فيما سلف سر نجاحهم تزول وتذوى ويحل محلها حال من الاعتزال أو العزلة « الوطنية » والشراهة « الوطنية » . وقد نهبت روما آسيا الصغرى ومملكة بابل ، ثم دمرتهما وهما القاعدة اللازمة للتوسع شرقاً نحو الهند ، تماماً مثلما

(١) البارثيون : هم سكان بارثيا وهو الاسم الذى كان يطلق قديماً على بلاد خراسان وشمال إيران وعاصمتها إكتيسفون . (المترجم)

دمرت ونهبت قرطاجه ، وبهذا حرمت نفسها من موطئ قدم تمتد منه أملاكها فى إفريقيا ، وكما فعلت بالضبط فى تدميرها كورنثة ، فقطعت بذلك على نفسها طريقاً سهلا يوصلها إلى قلب بلاد الإغريق . وكثيراً ما يميل كتّاب الغرب الأوربيون لتأثرهم بما فعلته روما فيما بعد من صبغ بلاد الغال وجنوب بريطانيا بالصبغة الرومانية وبـالمدنية فيهما وتعويض أسبانيا عما أنزلته بها فى البداية من الإتلاف والتخريب يسراً ورخاء ، — كثيراً ما يميل هؤلاء الكتّاب إلى التغافل عن أنها وجهت نفوذها فى مناطق أخرى أعظم كثيراً تقع إلى الجنوب والشرق ، إلى إضعاف تلك الأراضى المترامية الأطراف المنتزعة من يد المدنية الهلّينة وإلى ردها ثانية إلى مرتبة الهمجية .



خريطة سلطان روما حوالى ٥٠ ق . م

(١١٢)

٥ — نهاية الجمهورية

لم يكن لدى سياسيي إيطاليا فى القرن الأول قبل الميلاد خرائط لألمانيا والروسيا ولا إفريقيا ولا آسيا الوسطى ، ولم يكن فيهم من وُهب القدر الكافى

من الذكاء لدراستها لو أنها وجدت . ولم تبعث روما فى النفوس قط ذلك النوع الدقيق من حب الاستطلاع الذى ساق هانو وملاحى الفرعون نخاو إلى ارتياد سواحل إفريقيا . وعندما حدث فى القرن الأول (ق . م) أن وصل مبعوثو أسرة هان إلى الساحل الشرقى لبحر قزوين ، لم يجدوا إلا أقاصيص متناثرة عن مدنية بادت وعفت آثارها . وكانت ذكرى الإسكندر ما تزال باقية فى تلك البلاد ، أما روما ، فلم يكن الناس يعرفون عنها إلا أن پومپى وصل إلى شواطئ بحر قزوين الغربية ثم عاد ادراجه وأن كراسوس هلك وقضى نحبه . وكانت روما مشغولة بشئونها الداخلية . ذلك أن البقية الباقية من طاقة المواطن الرومانى الذهنية بعد الذى ينفقه منها فى محاولاته الوصول إلى موفور الثراء والعيش بسلامة الشخص وعافية البدن ، كانت تستنفدها شدة انشغال باله بما يجرى من خطط ومكائد وضربات تكال وضربات أخرى مضادة يقوم بها شتى المغامرين الذين كانوا يتخاطفون إذ ذلك السيادة العليا والسلطان جهاراً .

وقد درج المؤرخون على أن يعالجوا هذه المنازعات باحترام مفرط : فهم يصورون لنا شخص يوليوس قيصر بصفة خاصة كما لو كان نجماً بلغ فى تاريخ الإنسانية ذرا التألق والأهمية . ومع ذلك فإن نظرة تأمل مجرّدة من الهوى وفاحصة للحقائق المعروفة عنه لا بد أن تُمنى بالفشل التام فى تبرير تلك النظرية التى تجعل من قيصر نصف إله . بل إن الإسكندر الأكبر نفسه ، ذلك الغرير المخيِّب لكل ما نيط به من آمال كبار وما تهيأ له من إمكانيات جسام ، قد فخم وعُظم شأنه وأسبلت عليه ثياب رائعة تسترعى إعجاب القراء السطحيين العاجزين عن النقد . وهناك طراز من العلماء يقصر همه — وأقولها صريحة واضحة — على القعود للتقوّل واختراع سياسات عالمية عجيبة ينحلونها أبرز شخصيات التاريخ بانين ذلك على مبررات أوهن من خيط العنكبوت أو على غير مبرر إطلاقاً .

أولئك يخبروننا مثلا أن الإسكندر كان يزمع فتح قرطاجة وروما ، وكان يبغى إخضاع الهند إخضاعاً تاماً . وأنه لم يقض على هذه الخطط سوى وفاته . وكلّ ما تعرفه على وجه التحقيق هو أنه غزا الإمبراطورية الفارسية ولم يتجاوز حدودها أبداً إلى مدى بعيد . وأنه يوم كان الاعتقاد سائداً أنه يدبر هذه الخطط الهائلة النبيلة ، كان فى حقيقة الأمر يستمرئ أموراً بالغة حد البشاعة والسخرية مثل حزنه على حظيّه هيفايستيون ، ويجعل شغله الشاغل أن يحتسى الخمر حتى يغيب عن وعيه . وعلى هذا النحو ينسب البعض إلى يوليوس قيصر أنه أزمع الإقدام على نفس ذلك الأمر الوحيد الذى لم يكن من المستحيلات والذى كان كفيلا بإنقاذ الإمبراطورية الرومانية من انهيارها النهائى — وأعنى به فتح أوربا فتحاً منظماً حتى بحر البلطيق ونهر الدنيبر وطبعها بطابع الحضارة . ويقول بلوتارك ، إنه كان يأمل أن يزحف على ألمانيا مخترقاً بارثيا وإسكيذيا عن طريق شمال بحر قزوين والبحر الأسود . . . .

ومع ذلك فإن الحقيقة التى نحن ملزمون أن نوفق بينها وبين ذلك المشروع الحكيم الواسع النطاق تقول بأن قيصر وهو فى أوج قوته وقد أصبح رجلا أصلع وجاوز منتصف العمر وتخطى رشاقة الحب الفتىّ الحارة ودوافعه الجامحة — قضى الردح الأكبر من عام بمصر يقيم الولائم ويسلى نفسه ويرفه عنها بتبادل كؤوس الغرام والملذات مع الملكة المصرية كليوباترة . ثم استصحبها معه بعد ذلك إلى روما ، حيث ضاق الناس ضيقاً مريراً بسلطانها عليه . وإن وقوعه فى حبائل امرأة على هذا النحو ليبين فيه شهوة الشيخ المسن أو عاطفته — إذ أنه كان فى الرابعة والخمسين عند ابتداء هذه العلاقة — أكثر مما يظهره فى صورة السيد الآمر القاهر للرجال .

ولزام علينا — إبرازاً لحجج نظرية وضع قيصر فوق مصاف البشر وإنزاله منزلة السوبرمان — أن ندخل فى تقديرنا ذلك التمثال النصفى لقيصر الموجود فى متحف نابولى . وهو يمثل وجهاً ممتازاً سامى المدارك شديد

النبل فى تعبير قسماته ، وفى إمكاننا ان نقرن هذا بالقصة القـائلة بأن رأسه كان حتى فى يوم مولده ، ذا ضخامة غير عادية ، كما كان ممتاز الشكل . ولكن ليس هناك فى الحقيقة دليل مقنع بأن هذا التمثال النصفى الشهير يمثل قيصر فعلا . ومن العسير أن نوفق بين ما يتجلى فيه من صفاء النفس واطمئنان شديد وبين اشتهار قيصر بالدوافع العنيفة وسوء النظام . وهناك تماثيل نصـفية أخرى تمثل رجلا مختلفاً وهى تنسب إليه مع أرجحية أعظم .

ولا يخالجنا أقل شك أنه كان فى صباه رجلا فاسقاً خليعاً ومسرفاً مبذراً — وتترادف الفضائح حول اسمه أثناء إقامته فى بيثينيا التى لجأ إليها فراراً من سُلاّ ؛ وكان قريناً للخليع الفاجر كلوديوس والمتآمر كاتيلينا ، وليس فى سيرة حياته السياسية أى شيء يدل على وجود أى هدف له يعلو أو يبعد عن رغبته فى رفع نفسه إلى مرتبة القوة والسلطان وإلى كل ما تيسره القوة من المجد الشخصى والمتعة الذاتية . ولسنا بمحاولين أن نخبرك هاهنا عن أساليب حياته والدورات التى ألمت بها . وهو وإن كان ينتمى إلى أسرة عريقة من البطارقة ، فإنه دخل ميدان السياسة بوصفه معبود الشعب وبطله المتألق . فأنفق مبالغ طائلة واستدان ديوناً باهظة ليقيم ولائم عامة على أعظم ما يكون السخاء والسرف . ولقد عارض تقاليد سُلاّ واعتز بذكرى ماريوس ، الذى كان زوجاً لخالته . وأقام زماناً يعمل فى ألفة ووفاق مع كراسوس وپومپى ، ولكن دبيب الشقاق دب بينه وبين پومپى بعد وفاة كراسوس .

وما وافت سنة (٤٩ ق.م.) حتى كان يقتتل سو وپومپى ويتنازعان علناً على السلطان فى الدولة الرومانية تؤيد كلا منهما كتائبه ، فقيصر من الغرب وپومپى من الشرق . وقد خالف القانون بإحضاره كتائبه عبر نهر الروبيكون الذى كان الحد الفاصل بين ما تحت إمرته وإيطاليا نفسها . وشتت شمل جيش پومپى فى معركة فارسالوس فى تساليا (٤٨ ق.م) ، وفرّ

پومبي إلى مصر ، فقتل بها تاركاً فى يد قيصر من السيادة على العالم الرومانى ما لم يبلغه سُلاً أبداً .

وعند ذلك عين دكتاتوراً لمدة عشر سنوات (٤٦ ق.م.) ، وفى أوائل (٤٥ ق. م.) عين دكتاتوراً مدى الحياة . وكان هذا هو الملكية بعينها . ولئن لم تكن وراثية ، فلقد كانت على الأقل انتخابية مدى الحياة . وكانت تلك فرصة لا حد لها يؤدى فيها خير ما فى مستطاعه لخدمة العالم . ونحن ملزمون أن نحكم عليه من كنه وروح استخدامه لهذه السلطة الدكتاتورية فى أثناء تلك السنين الأربع . فأعاد تنظيم الإدارة المحلية شيئاً ما . ويلوح أنه تصدى لموضوع كانت الحاجة إليه فى تلك الأيام واضحة نوعاً ما ، وهو مشروع إعادة مرفأى كورنثة وقرطاجة الصريعتين اللتين نتج عن تدميرهما تحطيم الحياة البحرية فى البحر المتوسط . بيد أن سلطان كليوبطرة ومصر كانا أبلغ أثراً فى ذهنه . والظاهر أن فؤاده هفا كما هفا فؤاد الإسكندر من قبل إلى فكرة الملك الرب ، وكان تزلّف تلك الربة الوراثية الفاتنة كليوبطرة إليه عوناً دون ريب على زيادة تلك الفكرة فى حالته قوة ورسوخاً . وإنا لنجد من الشواهد ما يدل على أنه نشب بينه وبين أصدقائه الشخصيين فيما يتعلق بموضوع تلك الادعاءات الإلهية نفس ذلك النزاع الذى سجلناه من قبل فى حالة الإسكندر . وتقديم مظاهر الإكبار والتقديس للحكام كان فكرة مألوفة فى الشرق المهلن لا جرم . بيد أنها كانت ما تزال بغيضة لدى ما كان باقياً عند روما من روح آرية .

وكان أنطونيوس — وهو تاليه فى الرتبة فى فارسالوس ومساعده فى القيادة من أشد المتملقين المتزلفين إليه . ويصف پلوتارك مشهداً حدث فى الألعاب العامة ، حاول فيه أنطونيوس أن يجبر قيصراً على قبول تاج ، فرفضه قيصر بعد تمنع قليل وبعد ما أظهره الجمهور من عدم الاستحسان . غير أنه اتخذ لنفسه الصولجان العاجى والعرش اللذين كانا شارتين تقليديتين

لملوك روما القدامى وحمل تمثاله بين تماثيل الآلهة فى موكب افتتاح المجتلد ، ونصب تمثاله فى أحد المعابد وقد خطت من تحته العبارة الآتية : « إلى الإله الذى لا يقهر ! » . بل لقد عيُن بعض الكهنة سدنةً لعبادته . وليست هــذه الأمور من دلائل رجاحة العقل ورحابة الأفق بل هى تشير إلى جنون العظمة يمس عقل رجل عادى . وإن ما يسجله التاريخ على قيصر من تدبيره الخطط الرخيصة الرامية إلى أشد مساخر العبادة الشخصية ابتذالا وخسة لأمرٌ سخيف مخجل . وهو لا يستقيم مع الفكرة الذاهبة إلى أنه كان فوق مستوى البشر وأنه كان حكيما رائعاً يوجه العالم نحو الخير والحق .

ثم انتهى أمره بأن اغتالته عصبة من نفس أصدقائه ومناصريه (٤٤ ق. م.) ، بعد أن ضاقوا ذرعاً بتلك الأمانى والأطماع القدسية . فحاصروه فى مجلس السناتو ، وطعنوه فى ثلاثة وعشرين موضعاً من جسمه فخر صريعاً تحت قدمى تمثال خصمه المهزوم پومپي العظيم . ويدلك هذا الحادث على مبلغ الانحطاط الخلقى التام لدى الهيئة الرومانية القديمة الحاكمة . وكان بروتس زعيم عصابة القتلة يود لو قام فى أعضاء السناتو خطيباً ، لولا أن الأعضاء حين صدمتهم هذه الملمة هبوا يفرون فى كل صوب . وظلت روما غالب نهارها وهى لا تدرى كيف تتصرف فى هذا الحادث . وسار القتلة بأسلحتهم ملوثة بالدم بين ظهرانى مدينة مترددة لم تستقر بعد على رأى ، دون أن يعترضهم أحد ودون أن ينحاز إليهم إلا نفر قليل . ثم انقلب الرأى العام عليهم ، فهوجمت بيوت بعضهم ، واضطروا أن يختبئوا وأن يفروا طلباً للنجاة وخشية على حياتهم .

٦ — ظهور الزعيم أو الأمير الحاكم (Princeps)

بيد أن تيار الحوادث كان متجهاً نحو الملكية بشكل واضح جارف . واستمر النضال بين الشخصيات ثلاثة عشر عاماً أخرى . وهناك فرد واحد

هو شيشرون[1] خليق بأن ننوه به بوصف كونه رجلا حبته المقادير بالفكر الرحيب وألهمته طموحاً يكاد يبرأ من الأنانية . كان رجلا متواضع الأرومة أكسبته فصاحته وقوته فى الأدب مكانة مبرزة فى مجلس السناتو . وقد انتقلت إليه من ديموستنيز عدوى الهجاء وإن بقدر طفيف ، ومع ذلك فإنه يبرز بين الناس شخصية نبيلة لا تأثير لها مع الأسف ، وهو يدافع عن المثل العليا للجمهورية مجادلا مجلس سناتو تلك الأيام وقد ساءت سيرته وبلغ من الانحطاط والوضاعة والجبانة حداً عظيماً . كان شيشرون كاتباً مجيداً ممتازاً ، وإن الخطب والرسائل الخاصة التى تركها لنا لتجعله فى نظر القارئ العصرى واحداً من أشد شخصيات ذلك العصر صدقاً وخلوداً . وقد أهدر دمه وأعدم عام ٤٣ ق. م. وهى السنة التالية لمقتل يوليوس قيصر ، ثم سمرت رأسه ويداه فى الفوروم الرومانى . ويلوح أن أوكتاڤيوس (Octavian) الذى أصبح آخر الأمر عاهل روما ، بذل جهداً لإنقاذ شيشرون . فلا مراء أن ذلك القتل لم يكن مما جنت يداه .

وما نحن هاهنا بمستطيعين أن نتعقب ألوان الاتفاقات والخيانات التى انتهت بتألق نجم أوكتاڤيوس هذا ، وهو وريث يوليوس قيصر المتبنى . ومما يجدر ذكره هنا ارتباط مصير الشخصيات الكبرى بمصير كليوبطرة .

فإنها جعلت شغلها الشاغل بعد مقتل قيصر أن تتسلط على مشاعر أنطونيوس وغروره وهو رجل أحدث سناً من قيصر بكثير ، ولعلها كانت تعرفت إليه من قبل . وظل أوكتاڤيوس وأنطونيوس وشخص ثالث هو ليبيدوس (Lepidus) ردحاً من الزمن يقتسمون العالم الرومانى بينهم مثلما كان قيصر وپومپى يقتسمانه قبل نزاعهما النهائى . فاختص أوكتاڤيوس بالغرب الأصلب عوداً ، ثم ثبت فيه سلطانه ؛ وكان لأنطونيوس الشرق

---

(١) شيشرون : أفصح خطباء الرومان قاطبة ولد ١٠٦ ق . م. وشايع پومپى معارضا قيصر وأنصاره وقتل فى ٤٣ ق.م. (المترجم)

الأكثر بذخاً وأبهة — ومعه كليوباترة . وكان نصيب ليبيدوس تلك العظمة النخرة التي أصبحت حطاماً بالية وهي أفريقيا القرطاجية . وهو يلوح رجلا طيب النفس حميد السيرة بين الناس متجهاً بكل فؤاده إلى تعمير قرطاجة من جديد أكثر منه إلى الثراء والغرور الشخصي . فأما أنطونيوس فقد رانت على عقله تلك الفكرات القديمة فكرات الملكية الإلهية المقدسة التي كانت أكبر من أن يتحملها اتزان يوليوس قيصر العقلي . وما لبث أن استسلم في ظلال كليوبطرة للهوى والملذات ولحلم من المجد الحسي ، حتى جاء وقت شعر فيه أوكتاڤيوس ، أنه قد آن له أن يقضي على هذين الإلهين المصريين .

وفي (٣٢ ق. م.) حمل أوكتاڤيوس السناتو على خلع أنطونيوس من إمرة الشرق ، ثم مضى يهاجمه . ودارت بينهما رحى معركة بحرية عظيمة في أكتيوم (٣١ ق. م.) كان العامل الفاصل فيها تخلي كليوباترة عنه على غير انتظار وفرارها بستين سفينة حين حمي وطيس القتال . ومن المحال علينا الآن تماماً أن نفصل في هل كان هذا التخلي عن خيانة مدبرة من قبل ، أم هو نتيجة لنزوة فجائية أطافت برأس امرأة فتانة . على أن رحيل هذه السفائن الستين قد ألقى بأسطول أنطونيوس في حالة من الحرج والارتباك قطعت عليه كل أسباب الرجاء ، وتفاقم الخطب عند ما عجل ذلك العاشق المثالي الولهان بالهرب في إثر معشوقته . إذ انطلق من خلفها في سفينة سريعة دون أن يخبر قواده . وبذا ترك أتباعه يقاتلون ويموتون حسبما يتراءى لهم ، فظلوا زماناً لا يصدقون أنه قد ولّى . أما ما تلا ذلك من لقاء العاشقين وصلحهما فهو أمر نتركه لپلوتارك يتمعن فيه بروحه التهكمية .

وأطبقت شباك أوكتاڤيوس على مهل حول منافسه . وليس مستبعداً أنه كان هناك نوع ما من التفاهم بين أوكتاڤيوس وكليوبطرة ، كما لعله

كان فى زمان يوليوس قيصر ، تفاهم بينها وبين أنطونيوس . واستسلم أنطونيوس للشيء الكثير من مظاهر الأسى الفاجع التى نوعت أشكالها مناظر الحب المختلفة أثناء المرحلة الأخيرة من درامته الصغيرة . فقد أقام دهراً على حالة تحاكى مسلك تيمون الكلبى ، حين فقد كل ثقة فى الجنس البشرى ، وإن كنا نرى أن بحارته الذين تخلى هو عنهم فى أكتيوم كانوا أولى منه بهذا الموقف ! ! . ثم ألقى نفسه وكليوبطرة آخر الأمر يحاصرهما أوكتافيوس فى الإسكندرية . وقام المحصورون بهجمات عديدة ونالوا من النجاح قسطاً محدوداً ، وطفق أنطونيوس يجهر بالتحدى لأوكتافيوس أن يفصل فى الأمر بالنزال الشخصى . ثم ألقى بعضهم فى روع ذلك النجم الولهان أن كليوبطرة قد انتحرت ، فطعن نفســه طعنة غير قاتلة جعلته يقضى نحبــه على مهل ثم حمل إليها ليلفظ أنفاسه الأخيرة فى حضرتها (٣٠ ق. م.) .

وإن ما كتبه پلوتارك عن أنطونيوس ، وأغلبه مستقى من الشــهود الذين رأوه وعرفوه ، يصفه بأنه كان رجلا باسلا مقداماً . ويقارنه بهرقل (Hercules) نصف الإله ، (وكان فى الواقع يدعى الانتساب إليه) ، ويشبهه كذلك بباكخوس الهندى . ويورد پلوتارك عدا ذلك حادثة تغثى لها النفوس وإن ألقت علىَ أخلاقه ضياء مرشداً ، إذ يصف حادثة وقعت له فى مجلس السناتو وهو يحاول أن يخطب وهو ثمل فلاحقه زميل من أخس قرنائه فى معاقرة الشراب وأقلهم كرامة .

وقد ظلت كليوبطرة فترة وجيزة وهى ما تزال متعلقة بالحياة . ولعلها كانت تعلل النفس بإخضاع أوكتاڤيوس لنفس ذلك الدور القدسى ، الذى مَثَّلَه من قبل يوليوس قيصر وأنطونيوس . وجرى بينهما وبين أوكتاڤيوس مقابلة تقدمت إليه فيها كحسناء مهيضة الجانب كسيرة الفؤاد تلم بها محنة قاســية ، وكانت فى ثياب شفافة . بيد أنه لما اتضح ما أن

أوكتافيوس كانت تنقصه الشرارة الربانية ، وأن عنايته براحتها وسعادتها لم يكن يمليها عليه بوجه خاص إلا الرغبة فى عرضها فى موكب نصر يجتاز شوارع روما ، قضت على نفسها منتحرة . إذ دست إليها أفعى مخبأة فى سلة من التين دون أن يشعر بها الحراس الرومان ، فماتت ضحية أنيابها .

ويكاد أوكتافيوس أن يخلو فؤاده تماماً من كل ما داخل يوليوس قيصر وأنطونيوس من التطلع إلى التقديس والألوهية . فهو لم يكن بالإله ولا بالبطل الغرامى ؛ بل كفاه أنه كان رجلا أوسع أفقاً وأكثر مقدرة من أى ممثل آخر فى هذا الفصل الآخير من مسرحية الجمهورية فى روما . وإذا نحن قدرنا كل الاعتبارات فلربما وجدنا أن ظهوره كان خير ما قد تحبو به الأقدار روما فى ذلك الزمان . فإنه تنازل راضياً عن السلطات غير العادية التى ظل يتولاها منذ (٤٣ ق. م.) ، أو كما عبّر هو عن ذلك بنفسه حين قال : « إنه سلم الجمهورية ليتولى السناتو وشعب روما الإشراف عليها » وبذا دبّت الحركة من جديد فى الأداة الدستورية القديمة ؛ وعاد مجلس السناتو ومجلس الأحرار والموظفون إلى تولى اختصاصاتهم وهلل الناس لأوكتافيوس « معيد الجمهورية ونصير الحرية » .

« لم يكن من اليسير تحديد العلاقة بينه — وهو لعمرى السيد الفعلى للعالم الرومانى — وبين تلك الجمهورية التى بعثت من جديد . فلو أنه تنحى عن الرياسة فإن تنحيه — بأى معنى حقيقى أياً كان — لم يكن ليحدث من نتيجة إلا العودة بكل شيء إلى الفوضى . فان مصلحة السلام والنظام كانت تقضى عليه أن يحتفظ على الأقل بالقسم الجوهرى من سلطته . وقد تمت له تلك الغاية حقاً ، وتم تأسيس حكم الأباطرة ، على طريقة ليس لها من ضريب فى التاريخ . وكان إحياء الملكية وألقابها أمراً لا يصح التفكير فيه . وقد رفض أوكتافيوس نفسه وظيفة الدكتاتورية قصداً . كذلك لم تخلق له أية وظيفة أخرى ولا أنشئ من أجله أى لقب رسمى جديد . بيد أن السناتو والشعب

منحاه وفقاً للأوضاع الدستورية القديمة سلطات معينة ، كما منح مواطنون كثيرون من قبله ، وبذلك تبوأ مقعده بجوار موظفي الجمهورية العموميين المعينين وفق الأصول القانونية . وإظهاراً لمرتبته الرفيعة بوصفه كبيرهم جميعاً ، أصدر السناتو مرسوماً يقضي بأن يتخذ لنفسه لقباً إضافياً هو « أوغسطوس » (Augustus) ، على حين أطلق الناس عليه في كلامهم العادى منذ ذلك الحين لقب الزعيم أو الأمير الحاكم (Princeps) ، وهو مجرد لقب مألوف في الاستعمال الجمهورى العادى أطلق عليه من قبيل التكريم ، ولا ينطوى على أية فكرة أخرى عدا فكرة الأولية المعترف بها، والأسبقية على كل زملائه المواطنين .

« وبذا تحققت تحققاً ظاهراً فكرة المثل الأعلى الذى رسمه شيشرون فى كتابة « عن الجمهورية » (De Republica) ، لرئيس دستورى يتولى الأمر فى جمهورية حرة ؛ بيد أن ذلك كان أمراً لا يتجاوز الظواهر . إذ الواقع أن الامتيازات والحقوق الخاصة التى خُوِّلت أوكتافيوس أعادت إليه جوهر السلطة الاستبدادية (الأوتوقراطية) التى تنازل عنها ، فأما توازن القوى بين الجمهورية التى أعيد بعثها وبين أميرها الجديد ، فكان شديد الجنوح ناحية الأخير بدرجة جارفة »[١] .

٧ — لماذا فشلت الجمهورية الرومانية

على هذه الشاكلة انتهى النظام الجمهورى بظهور زعيم أو أمير حاكم ، وانهارت وباءت بالفشل أولى التجارب العظيمة فى مجتمع يتمتع بالحكم الذاتى ويقوم على نطاق أوسع من القبيلة أو المدينة .

وسر فشلها أنها لم تستطع أن تدعم الوحدة وترسخ قدمها فى البلاد . فى مراحلها الأولى ، كان لمواطنيها ، سيان منهم البطارقة (النبلاء)

---

(١) نقلا عن هـ . س . جونز H. S. Jones فى الموسوعة البريطانية مادة « روما » .

أو العامة (البلبيان) ، تقاليد معينة تقوم على العدالة وطيب الثقة وعلى ولاء المواطنين جميعاً للقانون ، وعلى أن القانون يهدف إلى خير المواطنين جميعاً . وتعلقت روما بأهداب هذه الفكرة ، فكرة أهمية القانون واحترامه ، والخضوع له حتى قرابة القرن الأول (ق. م.) . بيد أن اختراع النقود وتطورها بدرجة لم تكن فى الحسبان ، وما ترتب على التوسع الاستعمارى من مغريات وتفكك عرى ، وما عرفته روما من تعقيد فى الأساليب الانتخابية ، — كل هذه أمور أضعفت هذه التقاليد وأغرقتها فى لججها بإظهار الخلافات القديمة فى أثواب جديدة عز على من تصدوا للحكم عليها أن يتبينوها من دونها ، وبتهيئتها للرجال أسباب الإخلاص لحرفة المواطنية لا لروحها . وكانت الرابطة بين الشعب الرومانى على الدوام رابطة أخلاقية أكثر منها دينية . وكانت ديانتهم تقوم على القرابين والخرافات ؛



خريطة الإمبراطورية الرومانية عند وفاة أوغسطس ١٤ ميلادية

(١١٣)

ولم تتضمن أياً من تلك الفكرات العظيمة كفكرة الزعيم المقدس والرسالة المقدسة من أمثال ما كانت تنادى به اليهودية . فلما أن فشلت فكرة المواطنية واضمحلت تلقاء الظروف الجديدة لم تعد لهم أى وحدة داخلية ، أو بالاحرى لم تعد تجمع شتات نظامهم أية وحدة حقيقية على الإطلاق . فتزايد بالناس النزوع إلى أن يفعل كل منهم ما يراه صواباً .

وفى مثل تلك الظروف لم يكن هناك خيار بين الفوضى الشاملة وبين الرجعة إلى النظام الملكى أى إلى قبول فرد مختار ليكون رمزاً لإرادة واحدة عاملة على توحيد الدولة . وبديهى أن يكمن وراء تلك العودة على الدوام توقع الناس أن يستحيل العاهل إلى شىء يشبه السحر — كما قد يقولون ؛ وأن يكف عن أن يكون مجرد كائن بشرى ضئيل القدر ، وأن يشرع فى التفكير والشعور بأنه شىء أعظم وأكثر نبلا ، بوصفه — كما هو الواقع — شخصية تمثل الدولة . وبديهى أن الملكية تفشل على الدوام فى أن تحقق ذلك الأمل . وسوف نلقى نظرة سريعة إلى مبلغ هـــذا الفشل فى العرض الوجيز الذى سنستعرض فيه من توّنا أباطرة روما . ولسوف نجد آخر الأمر واحداً من أشد هؤلاء الأباطرة تجديداً وإنشاء هو قسطنطين الأكبر ، فإنه وقد أدرك عجزه عن آن يكون قوة عاملة على توحيد الدولة ، شخص ببصره إلى عقيدة وإيمان ونظام وخيوط التعاليم التى تقوم بهـــا إحدى الحركات الدينية الجديدة فى الإمبراطورية ، لتمده بنفس ذلك العامل الذى يتغلغل فى عقول الرجال وربطها بعضها ببعض ، والذى كان من الواضح جداً أن العالم فى أمس الحاجة إليه .

وبظهور قيصر عادت حضارة أوربا وآسيا الغربية إلى الملكية ، وهيأ لهذه الحضارة عن طريق الملكية بفضل ما لقيته من المسيحية المنظمة من تأييد عاجل ، أن تسعى فى سبيل السلام والعدالة والحق والسعادة والنظام العالمى طوال مدة تقارب الثمانية عشر قرناً . ثم شرعت على حين بغتة

تقريباً فى التحول إلى النظام الجمهورى ، مبتدئة بأحد الأقطار ثم مثنّية بالآخر . وإذ كان فى غونها قوى جديدة من الطباعة والصحافة والتعليم العام المنظم وكانت مستندة إلى الفكَر الدينية العالمية التى انعمس فيها العالم أجيالا عدة ، فإنها لتبدو الآن كأنما قد عادت من جديد إلى بذل الجهد فى سبيل إقامة دولة جمهورية عالمية ووضع خطة شاملة لكل أرجاء العالم قوامها العدالة والحق الاقتصادى الذى كان الرومان أرادوا أن يفرضوه قبل أوانه والذى فشلوا فيه ذلك الفشل التام الذريع .

وعندى أننا أخذنا ندرك الآن أن هناك شروطاً معينة لا مندوحة من توافرها لتحقيق مثل هذا الخلق والابتداع ؛ وهى شروط ليس من المعقول أن أى رومانى سابق للمسيحية كان يراها ممكنة . ولعلنا لا نزال نرى الوصول إلى هذه الشروط عملا يكتنفه الكثير من المتاعب والصعوبات والشكوك . بيد أنا ندرك أن بذل المحاولة واجب حتم ، إذ ليس هناك فى المستقبل بارقة أمل أخرى تبشر بمنحنا حتى مجرد الوعد بالسعادة أو احترام الذات أو حفظ نوعنا البشرى . وأول هذه الشروط هو أنه يجب أن تقوم فى عقول جميع الناس فكرة سياسية واحدة ، وهى الفكرة التى تعد « الدولة » المِلْك الشخصى لكل فرد على حدة وتعتبرها الحقيقة الأساسية والعمود الفقرى لمنهج واجباته . فى أيام روما الأولى ، عندما كانت دولة مغمورة قليلة الشأن ذرعها عشرون ميلا ، كان فى الإمكان بث هذه الأفكار فى الأطفال فى بيوتهم وتطويرها فى عقولهم بالتلقين وبواسطة ما كانوا يرون ويسمعون من حياة آبائهم السياسية ؛ فأما فى قطر كبير الرقعة كالذى بلغته روما قبل حربها مع پيروس ، فكانت هناك حاجة إلى خطة منظمة لتعليم التاريخ والقوانين الرئيسية والنوايا العامة للدولة نحو كل إنسان ، إن كان يراد الإبقاء على هذه الوحدة الأخلاقية . غير أن هذه الحاجة لم تتحقق قط ، ولم تبذل أية محاولة للقيام بأى ضرب من هذا التعليم . إذ لم يكن

ذلك العمل مستطاعاً فى ذلك الزمان ، بل ليس معقولا أن القيام به كان أمراً ميسوراً . فإن المعرفة كانت تعوزهم ، ولم يكن ثمة طبقة يمكن أن يؤخذ منها المعلمون المطلوبون لهذه المهمة ولا كان لدى الناس أية فكرة عن هيئة تتولى مثل تلك التربية النظامية الخلقية الفكرية التى قدمتها على الفور هيئة التعليم عند المسيحية ، بما كان لها من عقائد وتعليم لأصول الدين بالحوار وما احتوته من مواعظ وتلقين وتأكيدات باتباع الصلاح والتقوى .

هذا إلى أننا نعرف اليوم أنه حتى التربية العامة التى من هذا النوع تعد قاصرة ، فهى لا تمدنا إلا بمجرد الأساس اللازم لإقامة دولة جمهورية سليمة . ويجب أن يلى التربية العمل على نشر أنباء وفيرة سريعة صادقة لما يجرى فى الدولة ، وتهيئة فرص تجرى فيها مناقشة صريحة حرة لكل ما يعرض للناس من موضوعات الساعة . ولا تتم هذه الخدمات حتى فى هذه الأيام إلا على حال من النقص والقبح بواسطة ما لدينا من صحافة وعلى يد من لدينا من الصحفيين والمحررين والسياسيين . وهى وإن كانت سيئة التنفيذ والأداء فحسبنا أن تتم على أى حال ، وحسبك فى مجرد القيام بها الآن إشارة إلى إمكان الوصول بها فى النهاية إلى مرتبة الجودة والإتقان . ومهما يكن من شىء فإن أحداً فى الدولة الرومانية لم يبذل فى هذا السبيل أية محاولة . فكان المواطن الرومانى يحصل على الحقائق السياسية من الشائعات أو من خطيب عرضى . وكان يقف فى الفوروم كالخشب المسندة ، يستمع فى غير استبانة واضحة لصوت خطيب بعيد . والراجح أن أى أحد منهم لم يكن يحسن فهم أى موضوع يؤخذ عليه الرأى .

ولقد أسلفنا إليك القول فيما عليه نظام التصويت الرومانى من قصور فظيع .

ليس عجيباً أن تتجه الغرائز السياسية فى العقل الرومانى نحو الملكية بعد أن أعياها التغلب على تلك العوائق أو إزالتها من السبيل للوصول إلى نظام

حكم شعبي سليم فعال . بيد أنها لم تكن ملكية من الطراز الأوربى فى العصر المتأخر ، ولم تكن الملكية التى أقيمت إذ ذاك فى روما وراثية . أجل كان « الأمير الحاكم » فى الحقيقة شبيهاً برئيس أمريكى فى وقت الحرب ، ولكنه لم يكن مثله منتخباً لمدة أربع سنوات وإنما لمدى الحياة . وكان فى مكنته أن يعيّن أعضاء مجلس السناتو بدل أن يحد من سلطته مجلس سناتو منتخب ، وكان إلى جانبه مجلس شعبي من الغوغاء بدلا من مجلس نواب . وهو أيضاً الحبر الأعظم (Maximus Pontifex) أى كبير كهنة القرابين وهى وظيفة غير معروفة فى واشنطن . وقد درج بحكم الممارسة على تعيين خلفه وتدريبه وأن ينتخب لذلك المنصب الرفيع ابناً أو ولداً متبنى أو ذا رحم وقربى يستطيع أن يثق به . كانت سلطات الأمير هائلة فى ذاتها وأعظم من أن توضع فى يد رجل واحد دون أن يقوم إزاءها من الضوابط ما يكفل الحد منها ، بيد أن تقاليد عبادة الملك زادته قوة على قوة ، حيث انتشرت عند ذاك من مصر وبسطت ظلالها فى جميع أرجاء الشرق المهلّن ، وكانت تفد على روما مستكنّة فى ذهن كل عبد ومهاجر شرقى . ولم تلبث فكرة الإمبراطور الرب حتى أصبحت على درجات ومراحل طبيعية غير محسوسة ، متسلطة على العالم بأسره المصطبغ بالصبغة الرومانية .

ولم يبق إلا شىء واحد يذكّر الإمبراطور الرب أنه فان غير مخلّد ، ذلك هو الجيش . فإن الإمبراطور الإله لم يكن قط بمأمن فوق الأولمبوس القائم على التل البالاتينى[1] بروما . فهو لا يطمئن إلى سلامته حتى يكون قائداً محبوباً من كتائبه . ونتيجة لهذا فليس بين الأباطرة من دام له الحكم طويلا إلا المجدون فى أعمالهم الذين دأبوا على تشغيل جنودهم وجعلهم على اتصال وثيق بأنفسهم . فكان السيف مسلطاً أبداً على الإمبراطور يحفزه على النشاط الذى لا يفتر . فلو أنه ترك الأمور لقواده ، لحل أحد

(١) الأولمبوس مثوى الآلهة ، والتل البالاتينى أحد التلال السبعة المحيطة بروما ، — فكأن الإمبراطور الرب لم يكن بمأمن على الرغم من ربوبيته . (المترجم)

هؤلاء القواد محله من فوره . وكان ذلك الحافز فيما يحتمل الظاهرة المعوضة التى تكفر عن مساوئ النظام الإمبراطوى الرومانى . على أن الإمبراطورية الصينية ، وهى أكبر حجماً وأشد تماسكاً وأكثر أمنة واطمئناناً ، لم تكن بها نفس الحاجه إلى الكتائب . وبذا لم يلق الملوك الكســالى أو الخليعون أو الأحداث هناك نفس النهايات السريعة التى كانت تحل بأمثالهم فى روما .

الفصل السابع والعشرون

القياصرة بين البحر والسهول العظيمة

---

١ – ثبت موجز بالأباطرة .
٢ – المدنية الرومانية فى أوجها .
٣ – خصائص الفن فى ظلال الإمبراطورية الرومانية .
٤ – قدر معين من الركود فى الخيال الروماني .
٥ – حركة السهول العظيمة .
٦ – الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع .
٧ – الإمبراطورية الشرقية (الهلّينية المبتعثة)

---

١ – ثبت موجز بالأباطرة

يجنح كتاب الغرب متأثرين بما توقر فى نفوسهم من ميول وطنية إلى المبالغة فيما أسدته الملكية المطلقة التى استقرت فى روما بعد اعتلاء أوغسطس قيصر العرش من تنظيم وبث للحضارة ونشر للأمن والطمأنينة . فنحن إنما نقتبس عن روما التقاليد السياسية التى نراها ببريطانيا وفرنسا وأسبانيا وألمانيا وإيطاليا . وإن هذه الأقطار لتتراءى ضخمة فى أبصار الكتّاب الأوربيين . على حين يتجاهلون ما دمرته روما فى الشرق .

وإذا قيست الدولة الرومانية بمعيار التاريخ العالمى ، لم تعد تبدو بتلك الأهمية الخارقة التى تنسب إليها . فإنها لم تعمر إلا قرابة أربعة قرون فقط قبل أن تتمزق وتتحطم تماماً . ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية استمراراً حقيقياً لهـا ؛ بل كانت استئنافاً مشوّهاً لإمبراطورية الإسكندر الهلّينية . وكانت تتكلم اليونانية . أجل إن لعاهلها لقباً رومانياً ما فى ذلك ريب . ولكن كذلك كان شأن قيصر بلغاريا السابق . وقد تطورت

أرض الجزيرة فى معظم أمرها وفقاً لأساليب خاصة بها فى أثناء فترة الحكم الرومانى. فكل كسب هلينى مستحدث تناولته عبقرية الشعوب الفارسية والپارثية بالتعديل الشامل، فأما فى بلاد الهند والصين، فإن نفوذ روما كان ضئيلا ضآلة لا نهاية لها.

ومرت إمبراطورية روما فى أثناء عمرها البالغ أربعة قرون فى أدوار من الانقسام والفوضى الشاملة. فلو جمعت سنوات الرخاء فيها وحسبت، لم تصل كلها إلى قرنين من الزمان. ولو قورنت بما كان للإمبراطورية الصينية المعاصرة لها من الأمنة والاتساع الهادئ المتواصل وما قامت به من جهد فى بث المدنية أو لو أنها ووزنت بعصر بين ٤٠٠٠، ١٠٠٠ ق. م.، أو بسومر قبل الغزو السامى، لنزلت بها هذه المقارنات إلى مجرد حدث تافه فى التاريخ. كذلك بلغت إمبراطورية فورش الفارسية، التى امتدت من الهلسبونت (الدردنيل) إلى السند، شأواً عالياً فى الحضارة يعادل فى رفعته شأوها. وظلت أرضها الأصلية بعيدة عن منال الفاتحين وفى حال لا بأس بها من الرخاء مدة تربى على قرنين. وكانت سابقتها الإمبراطورية الميدية قد استدامت نصف قرن من الزمان. وبعد أن غشيها الإسكندر الأكبر فترة وجيزة، نهضت من جديد باسم الإمبراطورية السلوقية التى استمرت بضعة قرون. وانكمشت الأراضى السلوقية آخر الأمر إلى غرب نهر الفرات، ثم أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. ولكن بلاد فارس وقد ابتعثها البارثيون ثانية بوصفها إمبراطورية فارسية جديدة تحت حكم الأرشكيين[1] (Arsacids) أولا، ثم تحت الساسانيين (Sassanids) ثانياً عمرت طويلا بعد إمبراطورية روما. وأصبحت ملاذ

(١) الأرشكيون: دامت دولتهم بفارس من ٢٥٥ ق. م. إلى ٢٢٦م. وتنسب إلى ارشك (أرساكيس **Arsakes**) زعيم الپارثيين وهم جيل مختلط من الإسكيذيين.

(المترجم)

العلمْ اليونانى من الاضطهاد الغربى ، وأضحت مهداً دفيئاً تكتَنّ فيه الفكرات الدينية .

وقد شن الساسانيون الحرب مراراً فى صميم الإمبراطورية البيزنطية ، واستمسكوا ثابتين بخط دفاع الفرات . وفى (٦١٦ ميلادية) تحت حكم كسرى الثانى (أبرويز) (Chosroes) كانت فى يدهم دمشق وبيت المقدس ومصر وهددوا الهلسبونت . على أن الساسانيين لم تكن لهم تقاليد تصون لهم ما أحرزوا من مجد . وقد ازدهرت شهرة روما بسبب ما أصابه ورثتها من رخاء ونجاح . ولذا فإن تقاليد روما وتراثها تتراءى أعظم بكثير من حقيقتها . ذلك أنه حدث بين المدنيات الأعرق منها ائتلاف وامتزاج وانتشرت المدنية غرباً . فاختلط الساميون والآريون فى لجات تطور كان يهدر حول حوض البحر المتوسط دون أن يمتزجوا بعضهم ببعض ، وكان نظام الحكم الرومانى أشبه الأشياء بشبكة لا تبرح خيوطها تتقطع ثم تتصل ثانية ، حتى انتهى أمرها إلى التمزق النهائى فى جميع أرجائها .

ويميز التاريخ مجموعات عدة من الأباطرة الرومان الذين كانوا رجالا إداريين أكفاء وعلى رأس المجموعة الأولى يأتى : —

أوغسطس قيصر (من ٢٧ ق . م . إلى ١٤ م .) وهو أوكتافيوس الذى ورد ذكره فى القسم السابق ؛ والذى دأب عملا فى تنظيم حكومات الولايات وفى الإصلاح المالى . فاستن فى حكومته البيروقراطية سنة طيبة من النزاهة واحترام القانون ، ثم ضيق الخناق على المفاسد والظلم المتفشى بدرجة مخيفة فى الدولة بأن أعطى المواطنين فى الأقاليم حق اللجوء إلى قيصر . بيد أنه ثبت الحدود الأوربية للإمبراطورية على امتداد الراين والدانوب ، وبذا ترك ألمانيا التى هى الدعامة الضرورية والعمود الفقرى الذى يكفل لأوربا الأمنة والرخاء نهباً لهمجية البرابرة ؛ ثم أقام فى الشرق حداً مشابهاً لهذا عند نهر الفرات تاركاً أرمينية مستقلة ، مما ترتب عليه

أن أصبحت مثار نزاع لا يفتر بين الدولة الرومانية وبين الأرشكيين والساسانيين . والناس من أمره فى ريب وشك فهل تراه كان يعتقد أنه يثبت حدود الإمبراطورية نهائياً على امتداد هذه الخطوط ؟ أم تراه قدر أن من المرغوب فيه أن يوطد أجزاء دولته ويوثق الروابط بينها لبضع سنين ريثما يقوم بمحاولات أخرى للتوسع ؟

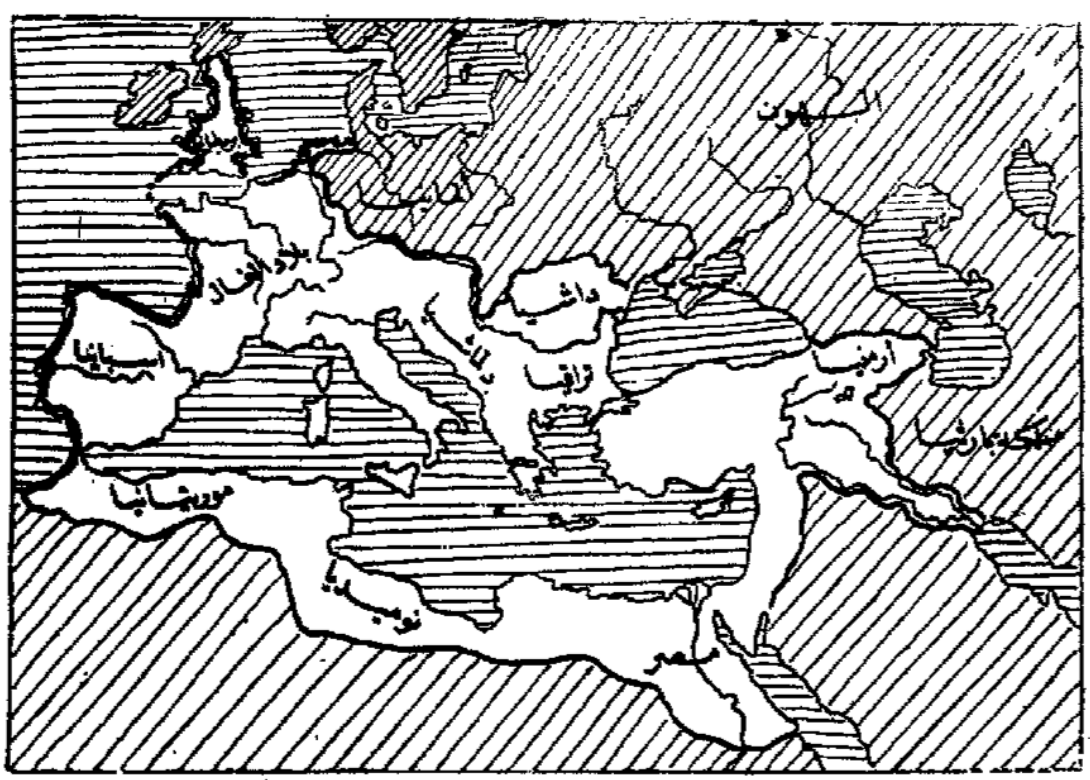
كذلك يوصف تيبريوس (Tiberius) (١٤ إلى ٣٧ م) بأنه حاكم قدير ، بيد أنه أصبح يلقى من الشعب فى روما كراهية شديدة ، ويروى أنه كان منغمساً فى رذائل منكرة مستبشعة . على أن انغماسه فى هذه الرذائل وطغيانه الشخصى وقساواته فى محيطه الخاص لم تحل دون تمتع الإمبراطورية فى عهده بالرخاء العام . ومن العسير على الإنسان أن يقضى فيه برأى ؛ لأن كل المصادر التى فى متناولنا تكاد تجمع على العداء الصريح له .

وكان كاليجولا (Caligula) (٣٧ إلى ٤١ م) معتوهاً ، غير أن الإمبراطورية واصلت سيرها فى طريق التقدم فى السنوات الأربع التى قضاها على رأسها فى شذوذه وتقلب أهوائه . وأخيراً قتله خدمه فى قصره ، ويبدو أن قد بذلت محاوله لاستعادة حكومة طبقة أعضاء السناتو ؛ ولكن سرعان ما قضت كتائب الحرس الإمبراطورى على هذه المحاولة .

أما كلوديوس (Claudius) (٤١ إلى ٥٤ م) وهو عم كاليخولا الذى وقع عليه اختيار الجند ؛ فكان غليظ الطبع ، ولكن يبدو أنه كان مجداً قديراً إلى حد ما فى تدبير شئون الحكم . فمد التخوم الغربية للإمبراطورية بضم النصف الجنوبى من بريطانيا . ثم قتلته بالسم أجريبينا (Agrippina) ، أم ولده المتبنى نيرون (Nero) ، وهى امرأة أوتيت حظاً عظيماً من الفتنة وقوة الشكيمة .

وتنسب إلى نيرون (٥٤ إلى ٦٨ م) — شأن تيبريوس — رذائل

وقساوات بشعة ، بيد أن الإمبراطورية كانت أحرزت من القوة الذاتية الدافعة ما كفل مواصلتها التقدم فى أثناء حكمه الذى امتدّ أربعة عشر عاماً وليس من ريب أنه قتل أمه المحبة المخلصة والمكدرة لصفوه أيضاً !! كما قتل زوجته ، (قتلها إظهاراً لشغفه بسيدة أخرى هى پوپايا (Poppaea) التى تزوجته عند ذاك) . على أن ما يكتنف حياة القياصرة المنزلية من تعس واضطراب ومتاعب ليس مما يدخل فى نطاق قصتنا هذه . وما على القارئ التواق إلى التفاصيل الإجرامية إلا أن يرجع إلى المرجع القديم وهو المؤرخ سوتونيوس (Suetonius) . ولعل هؤلاء القياصرة وأعقبهم ونساءهم لم يكونوا بالضرورة أسوأ خلقاً من معظم الكائنات الإنسانية الضعيفة الخلق والخاضعة للشهوات ، ولكنهم لم يكونوا على أى دين حقيقى ، إذ كانوا هم أنفسهم آلهة يُعبدون . ولم تتثقف عقولهم بالمعرفة الواسعة يبنون عليها المطامح



خريطة الإمبراطورية الرومانية فى عصر تراجان

السامية ، واتصفت نساؤهم بشراسة الطباع وكثيراً ما كنّ أميات ، ولم يكن يحدُّ من تصرفاتهن أى حدود من القانون أو العرف . وكان يحيط بهم فئة من المخلوقات ديدنها التحفز لاستثارة أهون رغباتهم ووضع أتفه نزعاتهم موضع التنفيذ . فكل ما قد يدور بخلد الناس من أفكار شـيطانية عابرة ودوافع غضب وغيظ كانت لديهم بناء على ذلك أفعالا نافذة لا مرد لها .

وقبل أن يحكم أى إنسان منا بإدانة نيرون ويحكم عليه بأنه نوع آخر من الكائنات يختلف عن شخصه ، يجب عليه أن يبدأ بنفسه فيختبر أفكاره الخفية اختبار إمعان وعناية . وقد اشتد كره الناس فى روما لنيرون ، وإنه لمن الشائق أن نلحظ أنه لم يصبح مكروها لأنه كان يقتل أقاربه الأقربين ويدس لهم السم ، بل لأنه حدث فى زمانه عصيان فى بريطانيا تحت قيادة ملكة اسمها بواديكيا (Boadicea) فأصيبت من جرائه القوات الرومانية بكارثة عظيمة (٦١ م) ، ولأن زلزالا مدمراً حدث فى جنوبى إيطاليا . وكان شعب روما المحافظ على الروح الأترورية المتمشية فى عروقه والمتجلية فى ضعف عقيدته الدينية وفى اعتقاده الدائم فى الخرافات ، لا يبالى أن يتولى أموره قيصر خبيث شرير ، ولكنه يعترض اعتراضاً شديداً على أن يحكمه قيصر يرى فيه الشؤم وسوء الطالع . فثارت الكتائب الأسبانية تحت قيادة قائد مسن بلغ الثالثة والسبعين هو جالبا (Galba) فنادوا به إمبراطوراً . وزحف على روما وهو محمول فى محفة . فقضى نيرون على نفسه منتحراً ليأسه من عون الناس له (٦٨ م) .

على أن جالبا لم يكن إلا واحداً من مجموعة من المتطلعين لمنصب الإمبراطور والساعين إليه . فإن القواد الذين كانوا على إمرة كتائب الراين والقوات المعسكرة على التل البالاتينى والجيوش الشرقية ، حاول كل منهم أن يظفر بالسلطان . وشهدت روما أربعة أباطرة فى سنة واحدة : جالبا وأوتو (Otho) وڤيتيليوس (Vitelius) وڤسپازيان . وكان الأخير منهم أعنى ڤسپازيان (٦٩ — ٧٩ م)

وهو من ذوى الإمرة فى الشرق أشدهم قبضـة على أزمّة الأمور ، فقبض على الغنيمة واحتفظ بها . بيد أن سلسلة القياصرة بحق المولد أو التبنى انتهت بمقتل نيرون فلم يعد اسم قيصر يطلق على أفراد أسرة الأباطرة الرومان ، بل أصبح لقباً هو قيصر الإله (Divus Caesar) . وتقدمت الملكية خطوة أخرى فى سبيل اتخاذ الطابع الشرقى بإظهارها المزيد من الإصرار على عبادة الحاكم . وبذا انتهت أول مجموعة من القياصرة واقتصر عهدهم على خمس وتسعين عاماً فقط .

ويكوّن فسپازيان (٦٩ — ٧٩م) وابناه تيتوس (Titus) (٧٩ م) ودوميتيان (٨١ م) على — حد قولهم — أسرة ثانية هى الفلافية (Flavian) . ثم جاءت بعد مقتل دوميتيان مجموعة من الأباطرة يتصل أحدهم بالآخر لا صلة الرحم بل صلة التبنى ، وهم الأباطرة المتبنون . وكان نيرڤا (Nerva) (٩٦ م) أول هذه المجموعة ، وتراجان (Trajan) (٩٨ م) هو الثانى . وتبعهما هادريان (١١٧ م) الذى لا يكل ، وأنطونينوس پيوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) (١٦١ — ١٨٠ م) ، وقد اتسعت حدود الإمبراطورية وخطت إلى الأمام من جديد تحت ظل كل من الفلافيين والأنطونينيين (Antonines) . فضم شمالى بريطانيا (٨٤م) إلى أملاك الدولة الرومانية ، وامتدت حدودها وراء زاوية التقاء الراين بالدانوب ، وجعل ما يسمى الآن باسم ترانسلڤانيا ولاية جديدة هى داكيا (Dacia) . كذلك غزا تراجان پارثيا وضم أرمينية ومملكة أشور وأرض الجزيرة . ووصلت الإمبراطورية تحت حكمه إلى أقصى اتساعها .

وكان خلفه هادريان حذراً يميل بطبعه إلى الانكماش . فتخلى عن هذه الفتوحات الشرقية الجديدة التى فتحها الإمبراطور تراجان ، كما تخلى أيضاً عن شمال بريطانيا . واقتبس الفكرة الصينية القائلة بإقامة سور يصد البرابرة ويحد من جماحهم ، وهى فكرة بديعة ما دام ضغط السكان فى الناحية الامبراطورية من السور أقوى من الضغط الخارجى ، فأما فيما عدا ذلك من

حال فإنه يصبح عديم الجدوى . فبنى سور هادريان عبر بريطانيا[١] وأقام حاجزاً بين نهرى الراين والدانوب . وكان أوج التوسع الرومانى قد فات ، وكانت الحدود الأوربية الشمالية إبان حكم خلفه متخذة خطة الدفاع النشيط ضد اعتداء القبائل التيوتونية والسلافية .

وماركوس أوريليوس أنطونينوس هو أحد تلك الشخصيات التاريخية التى يختلف فى أمرها رأى الناس اختلافاً بيناً حاداً . فهو يلوح فى نظر بعض النقاد شخصاً مغروراً صلفاً . كان يشغل نفسه بالأديان والعبادات ، وكان يجد سروراً لا يعد له سرور فى أن يرأس الحفلات الدينية فى ثياب كهنوتية — وهى نزعة لا يرضى عنها عامة الناس — وهم يستنكرون ما يقال عنه من عجز عن وضع حد لشذوذ وجماح زوجته فوستينا (Faustina) وآثامها . على أن الأقاصيص التى تدور حول تعاسة حياته المنزلية لا تستند مع ذلك إلى أى أساس قوى ، وإن كانت فظاعة ابنـــه كومّودوس (Commodus) مما لا يتناسب وأبناء البيوت الكريمة . على أنه من الناحية الأخرى كان ولا مرية إمبراطوراً شديد الكد والإخلاص حافظ على شتات النظام الاجتماعى خلال سلسلة من سنى الكوارث الحافلة بالملمات : من جو سيئ وفيضانات عظيمة ومحاصيل ضئيلة ومجاعات ، فضلا عن غارات البرابرة وثوراتهم ، ثم أصاب البلاد آخر الأمر وباء عام جائح . وتقول الموسوعة البريطانية نقلا عن ف . و . فارر (F. W. Farrar) « لقد كان يعد نفسه فى الحقيقة خادم الجميع . وكان تسجيل المواطنين والقضاء على التشاحن والتنابذ ورفع مستوى الأخلاق العامة والعناية بالقُصَّر والأحداث وتقليل النفقات العامة والحد من حفلات المجالدين واستعراضاتهم والعناية بالطرق ورد امتيازات

---

(١) السور الرومانى : كان يمتد من مدينة نيوكاسل إلى مدينة كارليل عبر بريطانيا وهو حائط ضخم البناء حفرت الخنادق من أمامه ومن خلفه وأقيمت على طوله المعسكرات الرومانيــة . (المترجم)

مجلس السناتو إلى سابق عهدها وقصر التعيين فى الوظائف العامة على الأكفاء القادرين حقاً ، بل حتى تنظيم حركة المرور فى الطرقات ، بالإضافة إلى واجبات أخرى لا عداد لها ، — تستنفد عنايته تمام الاستنفاد إلى حد أنه بالرغم من اعتلال صحته نوعاً ما ، كانت هذه الأعمال تثقل كاهله بالشغل القاسى من الصباح الباكر إلى ما بعد منتصف الليل بكثير . حقاً إن منصبه كان يحتم عليه فى الغالب الحضور لمشاهدة الألعاب وحفلاتها . بيد أنه كان فى تلك المناسبات يشــغل نفسه إما بالمطالعة أو الاستماع إلى قارئ يقرأ له أو بكتابة المذكرات . كان أحد أولئك الذين يرون أنه يجب ألا يتم أى شىء فى عجلة وأنه قل أن كانت هناك جريمة أسوأ من إضاعة الوقت » .

ولكن قلما ذكره الناس اليوم لهذا العمل المتواصل المضنى . بل يذكرونه لأنه كان من أحسن شراح الفلسفة الرواقية . وهو فى كتابه « التأملات » التى سطرها فى المعسكر والبلاط على السواء ، قد سجل من خطرات إحدى النفوس الإنسانية قدراً كبيراً ينشئ له فى كل جيل مجموعة جديدة من الأصدقاء والمعجبين .

وبموت ماركوس أوريليوس انتهى هذا الدور من أدوار الوحــدة والحكومة الصالحة نسبياً ، وكان حكم ابنه كومودوس فاتحة عصر من عصور الفوضى . ظلت الإمبراطورية من الناحية العملية فى سلام داخلى استمر مئتى سنة . والآن يجب على دارس تاريخ الرومان فى مئة السنة التالية أن يجلو أمام ناظريه الجرائم المتنوعة التى ارتكبها عدد من الأباطرة الضعاف ، على حين كانت الحدود تتهاوى وتتراجع تحت ضغط البرابرة ، ويبدو أنهم ليس فيهم غير واحد أو اثنين فقط من ذوى المقدرة أمثال سبتيميوس سيفيروس (Septimius Severus) وأوريليــان (Aurelian) وبروبوس (Probus) . وكان سبتيميوس سيفيروس قرطاجيا ، ولم تستطع أخته قط أن تتقن اللاتينية . فكانت تدير دارها الرومانية وما يحيط بها

باللغة البونية (الفينيقية) ، وهو أمر لا بد أنه جعل عظام كاتو الأسن تتقلب في قبره تململا . أما سائر أباطرة ذلك العصر فكانوا فى معظم الشأن مغامرين أقل وزناً من أن تسمح لنا الخطة العامة لهذا الكتاب بالالتفات إليهم . وكان يظهر بين الفينة والفينة آحاد من أباطرة كانوا يحكمون فى أجزاء مختلفة من الإمبراطورية الممزقة . وليس هناك من هو جدير بالملاحظة من وجهة نظرنا الحالية سوى الإمبراطور ديكيوس (Decius) الذى هزم وقتل فى أثناء غارة القوط العظيمة على تراقيا (٢٥١ م) والإمبراطور ڤالريان (Valerian) الذى وقع فى قبضة شاه فارس الساسانى وسقطت معه مدينة أنطاكية (Antioch) العظيمة عام (٢٦٠ م) ، وما ذلك إلا لأنهما يسجلان ما لحق النظام الرومانى جميعه من التقلقل وعدم الأمان ، كما يدلان على طابع الضغط الخارجى عليه . وهكذا أيضاً كان شأن كلوديوس « قاهر القوط » ، لأنه فاز بنصر عظيم على هؤلاء القوم فى نيش ببلاد الصرب (٢٦٩ م) ، ولأنه مات بالطاعـون كما مات پريكليس به من قبل .

وفى كل هاته القرون كانت الأوبئة المغبَّة[1] تلعب دوراً فى إضعاف الشعوب وتغيير الأحوال الاجتماعية : وهو دور لا يزال لزاماً على المؤرخين أن يوفوه حقه من الدرس . فقد حدث مثلا طاعون عمّ أرجاء الإمبراطورية بين سنتى (١٦٤ ، ١٧٠ م) إبان حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس . والراجح أن قد كان له أثر كبير فى إفساد نظام الحياة الاجتماعية ، فمهد الطريق للفتن التى عقبت اعتلاء كومّودوس العرش . وهذا الوباء نفسه هو الذى عاث فى الصين خراباً ، كما سنبين ذلك فى القسم الخامس من هذا الفصل . وألمت بالمناخ كذلك تقلبات جسيمة فى أثناء القرنين الأول والثانى

---

(١) المغبة (بضم الميم وكسر الغين) هى التى تجىء دهرا وتنقطع دهرا . (المترجم)

ترتب عليها شيوع الويلات بين الناس وانتقالهم من مواطنهم ، وهى أمور لا يزال على المؤرخين أن يعدروا آثارها .

على أنه لزام علينا قبل الانتقال إلى الكلام فى غزوات البرابرة ومحاولات أولئك الأباطرة المتأخرين من أمثال دقلديانوس (Diocletian) (٢٨٤ م) وقسطنطين الأكبر (٣٠٦ م) أن يحافظوا على كيان الدولة المترنحة المتناثرة الحائرة فى مهب الرياح ، — أن نعرج على وصف شىء من أحوال حياة الناس فى الإمبراطورية الرومانية فى أثناء قرنى رخائها .

٢ — المدنية الرومانية فى أوجها

وبما نزع قارئ التاريخ المتعجل أن يعد قرنى النظام والاستقرار (بين ٢٧ ق. م. و ١٨٠ م) من بين ما ضاع على الجنس البشرى من فرص . كان عصر إنفاق لا عصر خلق وابتداع ، عصر عمارة وتجارة ، كان الغنىّ فيه يزداد غنى ويزداد فيه الفقير فقراً وتنحل فيه روح الإنسان ونفسه . فلو نظرنا إليه نظرة سطحية شاملة كما ينظر إليه محلق بطائرة تعلو عن الأرض ألفى قدم ، لوجدنا الرخاء فى ازدهار بالغ . ولرأينا فى كل أرجاء الدولة من يورك إلى برقة (Cyrene) ومن لشبونه إلى أنطاكية مدناً كبيرة متينة البناء بها المعابد والمسارح والمدرجات والأسواق وما أشبهها . أجل كنا نجد الآلاف من أمثال هاته المدن مزودة « بسقايات الماء aqueducts » (وهى القنوات المشيدة على قناطر مرتفعة لجر مياه الشرب) وتربطها طرق عامة ممتازة ، ولا تزال أطلالها تدهشنا بفخامتها وروعتها حتى يومنا هذا . ولا بد أن يلاحظ المرء زراعة وفيرة وخيرات كثيرة ، وإن لم يُدرك فى تحليقه العالى أن هذه الزراعة إنما هى من عمل أرقاء مكرهين حاقدين . وإنه لا بد مبصر فى البحر المتوسط والبحر الأحمر حركة مرور للسفن عظيمة . وقد لا يستطيع الطيار وهو على مثل ذلك

الارتفاع الشاهق أن يتبين عند مرآه سفينتين متجاورتين أن إحداهما سفينة قرصان تنهب الأخرى .

بل لو أن المشاهد هبط إلى مسافة دانية تساعده على الفحص وتدقيق النظر لشهدت عيناه قدراً كبيراً آخر من التحسينات جديراً بالملاحظة . إذ لانت الأخلاق كثيراً وتهذبت آداب السلوك بوجه عام منذ أيام يوليوس قيصر . وصحب هذا التحسن والرق زيادة ملموسة فى الشعور الإنسانى . وقصارى القول أن روما كانت تصعد إلى مستوى المدنية الذى سبقتها إليه بلاد الإغريق وبابل ومصر منذ زمن مديد .

وفى زمان الأنطونيين ظهرت قوانين لحماية الأرقاء من شطط القساوات المفرطة ، فلم يعد مسموحاً لأحد ببيعهم إلى مدارس المجالدين . ولم يقتصر أمر المدن من حيث هيئتها الظاهرة على تجلى المزيد من الفخامة والأبهة فى مبانيها ، بل حدث فى داخل منازل الأثرياء رقى عظيم فى فن الزخرفة . وداخلت القوم بعض التهذيبات التى خففت من غلوائهم فى مآدبهم الضخمة ومتعهم الحيوانية وتظاهرهم السوقى فى أيام رفاهة روما الأولى . وأصبحت الثياب أفخر وأرق وأكثر جمالا . وقامت بينهم وبين بلاد الصين القاصية تجارة عظيمة فى الحرير ، لأن شجرة التوت ودودة القز لم تكونا بدأتا بعد فى الانتقال غرباً . فإذا انتهى الحـــرير إلى روما بعد رحلته الطويلة بالبر والبحر بات يساوى وزنه ذهباً . ومع ذلك كان إقبال الناس عليه عظيماً وكان فيض المعادن الثمينة الميمم نحو الشرق كبديل له فيضا لا ينقطع له معين .

وأصاب التأنق فى المآكل والمشرب وأساليب الضيافة وفنون إقامة الولائم قسطاً جسيماً من التقدم والرقى . ويصف پترونيوس (Petronius) وليمة أقامها رجل من الأثرياء أيام حكم القياصرة الأول تتعاقب فيها ألوان الأطعمة تعاقباً رائعاً فمنها ما هو لذيذ شهى ومنها ما هو ممتع يأخذ

بالألباب ويفوق كل ما تستطيع أن تقدمه حتى أناقة نيويورك الحديثة وفخامتها وخيالها ، ويتخلل الوليمة عزف الموسيقى وعرض للرقص على الحبل المشدود وألعاب الحواة وإلقاء قطع من هوميروس وما إلى ذلك .

ويتجلى فى أرجاء الإمبراطورية كافة قدر كبير مما قد نصفه بأنه « ثقافة الموسرين » . وباتت الكتب أوفر عدداً مما كانت عليه قبل زمان القياصرة . ولكم كان الرجال يفاخرون بمكتباتهم ، حتى عندما شغلتهم هموم الثروة ومسئولياتها شغلا لا يسمح لهم بأن يوجهوا إلى كنوزهم الأدبية أكثر من نظرة عابرة . انتشرت المعرفة بالإغريقية شرقاً وانتشرت المعرفة باللاتينية غرباً ، فلئن أعوزت أحد الرجال المبرزين فى هذه أو تلك من المدن البريطانية أو الغالية أى ثقافة إغريقية عميقة ، كان فى ميسوره دائماً أن يتقلب إلى أحد العبدان — ممن يضمن النخاس له حسن إلمامه بالعلوم — ليمده بما يعوزه .

ومن أعظم المحال أن نعالج أدب روما أو فنها بوصفهما شيئاً مستقلا بذاته . فإن كلا منهما استمرار وحلقة من الثقافة الهلينية الأعظم منه شأناً والأطول منه عمراً . ذلك بأن الفن الهلينى والآداب الهلينية أنبتت فرعاً لاتينياً . وكان الجذع الأصيل موجوداً قبل أن نبت الفرع ، ثم استمر الجذع ينمو بعد أن ذوى الغصن . وكان العقل اللاتينى يجنح من حيث التعبير الأدبى قبل أن يتأثر بالنماذج الإغريقية إلى شكل أدبى هو الساتورا (Satura)[1] إن صح أن يطلق عليها لفظ شكل أدبى ، وهى أسلوب يشبه فى روحه « التمثيلية الاستعراضية » فى الوقت الحاضر ، وهى خليط من التنديد والتقليد والموسيقى . وكانت طائفة من الشعراء هم الفاتس[2] (Vates) تنشد

(١) Satura كلمة لاتينية معناها الهجو والقدح المصوغ فى قالب شعر تهذيبى . (المترجم)

(٢) Vates كلمة لاتينية معناها شاعر أو منشد ملهم . (المترجم)

كذلك على مسامع الفلاحين أشعاراً تهكمية هى الأشعار الفسكنينية[1] . وكانت هناك أيضا خطب ومراث وابتهالات دينية . وتطورت « الساتورا » مع تقدم الكتابة إلى هيئة كشكول مخلط من الشعر والنثر ، ثم تطورت هذه مرة أخرى إلى قصص نثرى أكثر تسلسلا . وقد ضاع الكثير من الأدب اللاتينى ؛ إذ كان معظمه لأمر ما ، لا يروق الرهبان المسيحيين ولا يرونه جديراً بالحفظ والاستبقاء ، ولكن لما عمت القراءة وتكاثر إنتاج الكتب ، انتشرت القصص النثرية على الراجح انتشاراً واسعاً جداً ، ولكن لم يبق منها إلا قصاصات وأجزاء قليلة .

ولا مراء أن الشعب الرومانى فى العهد المتأخر من الجمهورية وصدر عصر الإمبراطورية كان جمهوراً محباً لقراءة القصص الخيالية . فإن كتاب الساتيريكون[2] الذى ألفه پترونيوس والذى يرجع إلى زمان نيرون ، من أشد الآثار الأدبية الباقية توضيحاً لهذا الرأى . فما من أحد مارس فن كتابة القصة قط يستطيع أن يقرأ تلك القطعة الزاكية دون أن يدرك امتيازها بالصنعة الفنية العالية . ولا بد أن قد كانت توجد مئات من تلك الكتب ، ولا بد أن عشرات من الرجال كانوا يشتغلون بفن الكتابة قبل أن صار إنتاج الساتيريكون فى حيز الإمكان . وثمة منحى آخر كان فيه الشـعر التهكمى (satire) لهوراس وجوڤينال مديناً لروح « الساتورا » بالكثير ، وكان أيضاً طرازا واسع الانتشار من مادة القراءة . بيد أنه منذ القرن الثالث ق. م. وما يليه ، كان النفوذ الإغريقى فرض على العقل اللاتينى الأشكال التى كانت استقرت عليها فيما سلف الكوميديا الإغريقية . والكوميديا (الملهاة) اللاتينية توشك أن تكون صورة إغريقية ذات صبغة لاتينية أكثر منها تطوراً

---

(١) نسبة إلى مدينة فى إتروريا تسمى فسكينيا **Fescennina** والشعر الفسكنينى هو الشعر الروائى الغنائى أو الهجائى الرخيص . (المترجم)

(٢) الساتيريكون قصة تشبه الرواية الهزلية ، فيها خلاعة وتتخللها اللذعات من الهجو القـارص . (المترجم)

محلياً محتفظاً بطابعه القومى الخاص . وما على القارئ الذى قد يرغب فى أن يرى نموذجاً لما كانت عليه إلا أن يلقى نظرة إلى مسرحيات پلوتوس (Plautus) وتيرينس (Terence) وهى فى متناول يده فى طبعات حديثة .

وكان هناك أيضاً تراث لاتينى مستقل من النثر الواضح البين الذى بذل كاتو الرقيب كثيراً من الجهد فى مناصرته . ومن الشائق الممتع أن يقارن المرء بين كتاب قيصر « عن الحرب الغالية » (De Bello Gallico) وبين مؤلفات ثوسيديدس (Thucydides) . فمن حيث سهولة مدخله وقوة تماسكه ، لو جاز لنا أن نصدم العالم المدقق الميال إلى الجد والرزانة بتشبيه عصرى ولكنه مناسب ، فإن الأول للثانى أشبه شىء بحقيبة الزينة المجهزة بكامل أدواتها إلى جوار منضدة المزدان (التسريحة) .

كانت منزلة العلوم الإغريقية ذات الطراز الذى تعارف الناس على قبوله وإقراره تعادل فى رفعتها بروما أثناء عصر أنطونينوس پيوس المقام الذى تبوأته فى أكسفورد وكمبريدج بانجلترة إبان حكم الملكة ڤيكتوريا . وكان العالم بالأدب الإغريقى يلقى من الاحترام المقترن بالغباء والاحتقار العملى نفس المزيج الذى كان يلقاه علماء اليونان القديمة إذ ذاك . وبرز قدر ضخم جداً من الدراسات الإغريقية الضليعة كما ظهر قدر جسيم جداً من مدونات النقد والتعليق . وفى الحق لقد بلغ الإعجاب بالآداب الإغريقية حداً كاد يقضى على الروح الإغريقية قضاء تاماً . وكانت مشاهدات أرسطو المدونة تلقى من عالى التقدير ما يُحبط أية محاولة لتقليد ما سنه من نظام لموالاة البحث العلمى . وطاول شيشرون كلا من ديموستنيز وسالوست (Sallust) المؤرخين الإغريقيين . وتعلم كاتولوس من خير النماذج الإغريقية كيف يهتك الستر عن خفايا قلبه . وكما كان لبلاد الإغريق ملاحمها وما إليها من أدب ، أحس الرومان أنهم كذلك يجب أن تكون لديهم ملاحمهم ، وكان عصر أوغسطس عصر زيف باهر . فأخذ ڤرچيل نفسه — فى تواضع وعزم توجا بالنجح والرشاقة — بمطاولة الأوديسيا والإلياذة بملحمته الإنيادة . ويتحدى كل

من أوفيد (Ovid) وهوراس خير شعراء الإغريق فى الأشعار الغنائية (Lyric) والمراثى . .

على أن فيض الأدب الإغريقى ظل يدارج هذا « العصر الذهبى » للأدب اللاتينى ، متدارك التيـــار عريضاً زاخراً . حتى إذا انقضى على هبوط قوة الدفع اللاتينية زمان طويل ، كان العالم الإغريقى ما يزال غنياً بالإنتاج . بل لقد واصل مسيره بلا انقطاع حتى تداخل فى الأدب المسيحى المبكر . ولقد أسلفنا لك القول عن البدايات الفكرية الزاكية فى الإسكندرية وعن تدهور أثينا النسبى . فلئن كانت العلوم فى الإسكندرية سرعان ما ماتت وذوت ، فإن الفيض الأدبى لم يكفّ عن منافسة روما منافسة وسطا بين بين : وكان إقبال الناس هائلا على نسخ الكتب التى لم يكن منزل أى موسر يُعد وافياً كاملا بدونها . واستمر تدوين التاريخ وكتابة التراجم . وقد تحدث بوليبيوس (Polybius) — (حوالى ٢٠٤ — ١٢٢ ق . م) عن غزو روما لبلاد الإغريق . وأنشأ بلوتارك (حوالى ٥٠ — ١٠٠ م) دراســاته المقارنة عن عظماء الرجال . وظهر عدد لا يحصى من القصص والمحاورات ، وقد ضاع الآن معظمها مرة ثانية . وكان لوكيان (Lucian) (١٢٠ ؟ — ٢٠٠ م) كاتبا قديراً واسع الخيال مبتكراً وهو لا يزال موضع تقديرنا وإعجابنا . وكانت حركة النقل والترجمة بين الإغريقية واللاتينية عظيمة جسيمة . فلقد كان الأدبان يكتنفهما جو فكرى واحد ويكادان يتدانيان شأن الأدبين الإنجليزى والأمريكى اليوم .

كل هاته الثقافة الواسعة الانتشار التى كانت بين يدى السراة من أرباب البيوتات ، تعتبر من حسنات ومفاخر الإمبراطورية الرومانية فى صدرها الأول . ويستفيد منها جيبون أكبر الفائدة فى استعراضه المشرق الرائع لعصر الأنطونيين ، الذى يفتتح به كتابه « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » .[1] وكانت خطته التى اختطها لذلك السفر الجليل تستلزم مقدمة قوامها

---

(١) Gibbon : Decline & Fall of the Roman Empire .

الفخامة والسكينة والوقار . ولكنه كان أحصف وأمهر من أن يفوته أن يقيد من استحسانه الظاهر للأحوال التي يصفها ، فيقول إنه « في ظلال الإمبراطورية الرومانية ، كان مجهود شعب مجدّ ذكي منصرفاً بطرق شتى ولكن من غير انقطاع إلى خدمة الموسرين . فقد كان الذين اصطفاهم الحظ وآثرهم بالثراء يضمون في ثيابهم وموائدهم ومنازلهم ورياشهم أشتات كل رقيّ أصابته الكماليات ووسائل الراحة وكل ألوان الرشاقة وكل فنون البذخ وكل شيء من شأنه أن يرضى كبرياءهم أو يشبع شهواتهم . ولقد حمل الأخلاقيون في كل عصر على مثل هذه الكماليات ونعتوها بالترف ذلك الاسم البغيض الشنيع . وربما كان أجدى وأدعى إلى الفضيلة لدى الجنس البشري وأدنى إلى سعادته أن يمتلك الكل ضروريات الحياة ، ولا يحصل أحد على ما يزيد عن حاجته من الكماليات . ولكن الذي نشهده فيما يكتنف الجماعة الإنسانية اليوم من أحوال يعتورها النقص ، أن الترف وإن كان يصدر عن رذيلة أو سفاهة وحماقة ، إلا أنه يبدو الوسيلة الوحيدة التي في طوقها أن تصلح من عدم المساواة في توزيع الأملاك . فإن العامل الميكانيكي المجد والفنان الحاذق اللذين لم يحصلا على نصيبهما من الأرض ، يستوليان من ملاك الأراضي على ضريبة اختيارية . ويحس هؤلاء الأخيرون بدافع المصلحة الذاتية بضرورة الاهتمام بتحسين هاته المزارع حتى يتسنى لهم أن يحصلوا على ملذات إضافية عن طريق منتجاتها . فهذه العملية التي تلمس آثارها الخاصة في كل مجتمع كانت أبعد أثراً وأقوى نشاطاً وأوسع مدى في العالم الروماني منها في أي مجتمع آخر . فلو أن صناع سلع الترف وتجارها ، لم يستردوا بطريقة غير محسوسة إلى الرعايا المجدين المبالغ التي كانت تفرضها عليهم جيوش روما وسلطاتها لاستنزفت كل ثروة المقاطعات في وقت قصير » . وعلى هذا الحال استمر جيبون يتكلم في تهكم لاذع يتمشى في ثنايا ذلك الوصف الزاهر .

ولو أنا نظرنا نظرة أوسع من تلك التى تتهيأ لطائرة محلقة ، إلى حركة الشعوب على ظهر البسيطة ، أو نظرة أدق مما تستطيع أن تصل بنا إليه مشاهدة ما فى الطرقات والمدرجات والولائم ، نظرة تنفذ إلى أرواح الناس وأفكارهم ، فإنا سنجد أن ذلك المظهر الرائع للرخاء المادى إنما هو مجرد ثوب براق لتنظيم سياسى (Polity) قد عميت عيناه عن كل ما فى الخارج والداخل من الأمور كما عميت عن المستقبل . فلو أنا مثلا وازنّا بين قرنى عظمة روما والفرص الطيبة التى سنحت فيهما ، وهما القرنان الأول والثانى الميلاديان ، وبين قرنى الحياة الإغريقية والهلينية المبتدئين قرابة (٤٦٦ ق. م.) بعهد عظمة بريكليس وسيطرته فى أثينا ، لأذهلنا ما نراه مما لا سبيل إلى تسميته نقصاً وانحطاطاً لأنه كان انعداماً تاماً للعلوم . فإن صدوف الرومانى الغنى عن حب الاستطلاع وإعراض الحكام الرومان عن البحث والتنقيب كان ظاهرة تفوق فى ضخامتها كل شىء لديهم حتى فنهم المعمارى .

وهناك مجال واحد من مجالات العلم والمعرفة ، ربما حق لنا أن نتوقع من الرومان أن يظهروا فيه شيئاً من النشاط واليقظة والإقدام بصفة خاصة ، وأعنى به علم الجغرافيا . فإن مصالحهم السياسية كانت تقتضيهم درساً وبحثاً متواصلا فى الأحوال السائدة فيما وراء حدودهم من أقاليم ، ومع ذلك فإن ذلك الدرس والبحث لم يتم قط . وليس هناك بالفعل أى مصنفات دَوَّن الرومان فيها قيامهم برحلات وكشوف وراء حدود الإمبراطورية . وليس هناك أى بيانات شائقة عجيبة كالتى يذكرها هيرودوت عن الإسكيذيين والإفريقيين ومن إليهم . وليس فى اللاتينية شىء تستطيع أن تقارنه بالأوصاف الأولى للهند وسيبيريا مما هو وارد فى اللغة الصينية . ولقد ذهبت الكتائب الرومانية يوماً إلى إسكتلندة ، ومع ذلك فلم يخلفوا أى وصف يتجلى فيه الذكاء الحق لقبائل البكْت (Picts) أو الإسكُتش (Scots)

فضـــلا عن أى وصف لما وراءهم من بحار . ويبدو أن أمثـــال تلك الكشوف التى قام بها هانو أو الفرعون نخاو كانت مما لا يخطر للخيال الرومانى ببال .

والراجح أنه بعد تدمير قرطاجة هبط عدد السفن التى كانت تخرج إلى المحيط الأطلسى مارة بمضيق جبل طارق إلى قدر لا يكاد يذكر . وأكثر من هذا استحالة فى ذلك العالم عالم الثروة السوقية والذكاء المستعبد والحكم البيروقراطى ، وجود أى مزيد من التطور فى علمى الفـــلك والجغرافيا الطبيعية الإسكندرانيين . بل ليس يبدو أن الرومان بحثوا أى نوع من الرجال كان أولئك الذين ينسجون الحرير ويجهزون التوابل والأفاويه أو يجمعون الكهرمان أو اللآلئ التى كانت ترد إلى أسواقهم . ومع ذلك فإن سبل البحث كانت مفتحة ميسرة . فأما أن السبل العديدة كانت تمتد فى كل اتجاه مؤدية إلى أنسب « نقط الوثوب » لكل من أراد استكشافاً ، فأمر لا يعسر على القارئ تصوره .

وكانت أشد أقطار العالم القديم بعداً تنهب لكى تمد روما بألوان الأبهة والملذات . فغابات إسكيذيا تقدم نوعاً من الفراء الثمين . ويؤتى بالكهرمان بطريق البر من شـــواطئ البلطيق إلى الدانوب ، وكان البرابرة يعجبون للأسعار التى كانوا يتسلمونها فى مقابل هذه الســـلعة العديمة الفائدة . وكان الطلب على الأبسطة البابلية والمصنوعات الشرقية الأخرى جسيماً . بيد أن أهم فرع للتجارة الأجنبية كان مع بلاد العرب والهند . فى كل سنة قرابة زمن الانقلاب الصيفى ، كان أسطول مكون من مئة وعشرين سفينة يبحر من ميوس هورموس (Myos Hormos) ، وهى ميناء مصرية على البحر الأحمر ، ويقطع المحيط بمساعدة الرياح الموسمية الدورية فيما يقرب من أربعين يوماً . وكان ساحل ما لابار أو جزيرة سيلان هدف رحلتهم البحرية فى العادة ، فإذا وصلوا إلى هذه الأسواق وجدوا التجار الوافدين من أقطار

آسيا القصية ينتظرون مقدمهم . وكان موعد عودة الأسطول إلى مصر هو شهر ديسمبر أو يناير ، وما أن تنقل حمولته الثمينة على الجمال من البحر الأحمر إلى نهر النيل ، فتنســـاب فى ذلك النهر إلى الإسكندرية حتى تفيض على الفور إلى عاصمة الإمبراطورية[1] » .

وكانت هناك مستودعات رومانية ومخازن للتجارة فى جنوب الهند . وفصيلتان من الجيش الرومانى ترابطان فى كرانجانور (Cranganore) على ساحل مالابار ، حيث أقيم هناك أيضاً معبد لأوغسطس .

ومع ذلك فان روما قنعت بأن تأدب المآدب وتجمع أداء الأموال وتثرى وتشاهد حفلات مجالدها ، دون أن تبدى أدنى محاولة لتتعـــلم شيئاً عن الهنـــد أو الصين أو فارس أو إسكيذيا أو بوذا أو زرواستر (زرادشت) أو عن الهون أو الزنوج وسكان إسكندناوه أو شيئاً من أسرار البحر الغربى .

وإذا نحن أدركنا الجو الاجتماعى الموات الخالى من الإلهام الذى أذن بقيام مثل هـــذا الجمود وعدم الاهتمام ، استطعنا أن نتعرف الأسباب التى جعلت روما إبان عصر الفرصة السانحة لها تفشل فى أن تنهض بأى علم فيزيقى أو كيماوى ، وأن لا تحصل نتيجة لهذا على زيادة فى الهيمنة على المادة والتحكم فيها . وكان غالب الأطباء فى روما من الإغريق وكان الكثير منهم عبدانا أرقاء — ذلك أن أثرياء الرومان قد غاب عنهم أن العقل البشرى المشترى بالمال إنما هو عقل اعتراه الفساد . ومع ذلك فإن هذا الحال لم يكن راجعاً إلى أى قصور فى النبوغ الطبيعى لدى الشعب الرومانى ، بل كان راجعاً فى كليته إلى ظروفهم وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية .

وآية ذلك أن إيطاليا أخرجت منذ العصور الوسطى حتى أيامنا هذه عدداً

---

(١) نقــلا عن جيبون .

كبيراً من رجال العلم الأذكياء اللامعين . وكان من بين أحصف الكتاب والعلماء وأنفذهم بصيرة ، إيطالى ملهم يدعى لوكريتيوس (Lucretius) — عاش بين زمن ماريوس ويوليوس قيصر — (من قرابة ١٠٠ إلى قرابة ٥٥ ق . م) . وكان هذا الرجل العجيب من طراز ليوناردو دافنشي (وهو إيطالى كذلك) أو من طراز نيوتن الإنجليزى . فكتب عن أساليب الطبيعة وتطورها قصيدة لاتينية عصماء طويلة تسمى « فى طبيعة الأشياء » (De Rerum Natura) ، تنبأ فيها ببصيـــرة مدهشة عن تكوين المادة والتاريخ الأول للجنس البشرى . . ويقتبس أسبورن فى إعجاب عظيم فى كتابه « العصر الحجرى القديم » فقرات طويلة من كلام لوكريتيوس عن الرجل البدائى ، لا تزال حتى اليوم جيدة ومطابقة للحقيقة . بيد أن هذا كان مظهراً فردياً ، وكان بذرة لم تؤت ثمارها . فكان العلم الرومانى يولد ميتاً خامداً فى جو خانق من الثراء والاضطهاد العسكرى . والشخص الحقيقى الذى يمثل موقف الرومانى القديم من العلم ليس هو لوكريتيوس ، وإنما هو ذلك الجندى الرومانى الذى قطع أرشميدس إرباً عند فتح سيراقوزة عنوة .

وإذا كانت ضويت العلوم الفيزيقية والبيولوجية ضويت واضمحلت وماتت وسط الرخاء فى تربة روما الحجرية الصلدة ، فإن بذرو العلوم السياسية والاجتماعية لم تتح لها البتة فرصة تساعد على إنباتها . فكانت المناقشة السياسية تعد خيانة للإمبراطور ، وكان البحث الاجتماعى أو الاقتصادى يعد تهديداً للأثرياء . ولذا فإن روما حتى نزلت بها الكارثة ، لم تتبين قط مبلغ ســـلامة بنيانها الاجتماعى بالفحص والتمحيص ولم تبحث البتة فى القيمة القصوى لتمسكها بالروح الحكومية الخامدة وتقاليدها المتزمتة . وبنـــاء على هذا فإن واحداً من الناس لم يدرك خطورة فشلها فى إقامة صرح أى خيال فكرى ترتبط به أجزاء إمبراطوريتها بعضها ببعض ، ولا أى تعليم عـــام يقوم على فكرات مشتركة تجعل الرجال يقاتلون ويعملون فى سبيل الإمبراطورية كما يقاتل الرجال ويكدون من أجل تراث عزيز عليهم . على أن حكام

(١) Osborn : "Old Stone Age".

الإمبراطورية الرومانية لم يكونوا يرغبون فى أن يحارب مواطنوهم بأية روح مهما يكن ما يحاربون من أجله . كان الأغنياء قد أكلوا قلب الشعب عامة ، وقنعوا بالوجبة التى طعموها . وكانت الكتائب مليئة بالألمان والبريطان والنوميديين ومن إليهم . وكان أغنياء الرومان يظنون حتى أحاطت بهم النهاية بقضها وقضيضها ، أنهم يستطيعون أن يواصلوا شراء البرابرة ليدفعوا عنهم غائلة العدو فى الخارج والفقراء المتمردين فى الداخل .

وبحسبك هذا البيان التالى بما أتمه الرومان من التعليم لإظهار كم كان ما أتموه ضئيلا . إذ يقول مستر هـ . ستيوارت جونز « بمنح يوليوس قيصر حقوق المواطنية الرومانية لمعلمى الفنون الحرة ؛ وأسبغ فسپازيان الهبات على وظائف أساتذة الخطابة الإغريقية واللاتينية بروما . وبسط من تلاهما من الأباطرة وعلى الخصوص أنطونينوس پيوس تلك المزايا نفسها إلى الأقاليم والولايات . كذلك وجهت بعض الجهود المحلية وشىء من السخاء بالأموال نحو التعليم . وإنا لنعلم من مراسلات پلينى (Pliny) الأصغر أن المدارس العامة أنشئت فى بعض المدن بشمال إيطاليا . ومع أن العرفان انتشر انتشاراً كبيراً إبان حكم الإمبراطورية فلم يكن ثمة تقدم فكرى حق . حقاً إن أوغسطس جمع من حوله أذكى كتاب زمانه وألمعهم ، واتفق أن جاء مطلع الملكية الجديدة مع العصر الذهبى للأدب الرومانى . بيد أن هذا العصر كان قصير الأجل . وشهدت بواكير الحقبة المسيحية انتصار الروح القديمة (الكلاسيكية) كما شهدت أولى مراحل التدهور الذى ينتظر كل الحركات الأدبية التى تتجه إلى الماضى أكثر منها إلى المستقبل » .

وقد دبج كاتب إغريقى لعله لونجينوس فيلولوجوس (Longinus Philologus) مقالا عن الأمجاد الرفيعة شخص فيه حالة الانحطاط الذهنى التى يرسف فيها عصره — وهو يقع فى زمن ما من القرن الثانى أو الثالث أو الرابع الميلادى — مبيناً بغاية الوضوح عاملا واحداً ظاهراً يرجع إليه السقم

العقلى فى العالم الرومانى . وينقل عنه جيبون فيقول : « إن لونچينوس الرفيع القدر الذى عاش فى زمان متأخر بعض الشيء وفى بلاط ملكة سورية (وهى زنوبيا) واحتفظ بروح أثينا القديمة ، استرعى انتباهه وأثار أشجانه انحلال معاصريه ، الذى حط من عواطفهم وأوهن من شجاعتهم وفتّ فى عضدهم وضيّق الأفق أمام مواهبهم . ثم هو يقول بنفس هذه الطريقة « وعلى هذه الشاكلة نفسها فكما أن بعض الأطفال يظلون على الدوام أقزاماً إذا ضغطت أطرافهم فى طفولتها ضغطاً شديداً ، فكذلك عقولنا اللينة حين يغلها ما يملؤها من التحامل والتحزب وما يتعوده الناس وينشأون عليه من عبودية حقة ، إذ تصبح تلك العقول غير قادرة على بسط نفسها أو الوصول إلى تلك العظمة وذلك التناسق والتناسب الحسن اللذين نكبرهما فى القدماء الذين كانوا يكتبون بكامل الحرية التى بها يتصرفون لأنهم يعيشون فى ظل حكومة شعبية » .

بيد أن هذا الناقد لم يدرك سوى وجه واحد من أوجه القيود التى كانت تغل النشاط العقلى . فإن أهم الخيوط التى غلّت العقل الرومانى وجعلته فى حالة مســتديمة من الطفولية ، كانت تتضمن استعباداً مزدوجاً ، أحدهما اقتصادى والثانى سياسى . والبيان الذى يدلى به جيبون عن حياة رجل اسمه هيروديس أتيكوس (Herodes Atticus) كان يعيش فى زمان هادريان ، يبين تماماً كم كان نصيب المواطن العادى من أبهة الزمان الخارجية ضئيلا لا يذكر . كان هذا الأتيكى من أرباب الثراء الطائل ، وكان رأس ما يتسلى به تقديمه منحاً خيرية ضخمة من المبانى لمدن متنوعة . فمنح أثينا ميداناً للسباق وأقام هنالك مسرحاً من خشب الأرز محفوراً حفراً عجيباً تخليداً لذكرى زوجته . وبنى مسرحاً فى كورنثة ، ووهب لدلفى ميداناً للسباق وأنشأ الحمامات بثرموبيلاى وبنى بكانوزيوم (Canusium) سقاية حجرية لجر المياه وهكذا دواليك . وإن لسان المرء لينعقد ذهولا لرؤيته عالماً كهذا مكوناً من أرقاء وعامة لا يستشارون ولا يقام لرأيهم وزن يستشرف على رءوسهم

دون مشاركة من جانبهم ، ذلك الرجل الغني مستمتعاً بتجلية « مزاجه وذوقه » .
ولا تزال كتابات عديدة في بلاد الإغريق وآسيا تخلد اسم هيروديس الأتيكي « النصير والمحسن » الذي كان يتجول في أرجاء الإمبراطورية تجول من يتنزه في حديقته الخاصة فخلد ذكراه على الأيام بهذه الزخارف والحليات التي زين بها المدن . ولم يقتصر على العناية بالمباني الفاخرة . بل كان أيضاً فيلسوفاً ، وإن لم يبق الزمن لنا من حكمته شيئاً . كانت له ڤيلا كبيرة بالقرب من أثينا ، وهناك ينزل الفلاسفة ضيوفاً كراماً ما داموا يستطيعون إقناع نصـيرهم بصحة مدعياتهم كفلاسفة ، وأن يتلقوا حديثه باحترام ولا يكدروه بالخصومة الوقحة .

ومن الجلي أن العالم لم يصب شيئاً من التقدم في أثناء هذين القرنين من الرخاء الذي بلغته روما . ولكن هل كان العالم سعيداً في ركوده هذا ؟ إن هنالك من الدلالات التي لا يتطرق الخطأ إليها ما يشير إلى أن الأغلبية العظمى من الكائنات البشرية في الإمبراطورية ، وهي كتلة من الناس يتراوح عددها بين مئة مليون ومئة وخمسين مليوناً ، لم تكن بالسعيدة ، بل الراجح أنها كانت جد شقية شقاءً حاداً بالغاً يتوارى تحت ستار خارجي من فخامة الإمبراطورية وعظمتها . حقاً إنه لم تحدث حروب عظيمة ولا غزوات داخل الإمبراطورية ولم يحل بالجنس البشرى إلا الشيء الطفيف التافه من المجاعة أو الحريق أو المذابح . ولكن كان هنالك من الناحية الأخرى ، تضييق شديد من جانب الحكومة وتضييق أشد من جانب الملاك للأغنياء يحدان من حرية نشاط كل إنسان تقريباً . لذا فإن الحياة لدى الغالبية العظمى التي لم تكن بالغنية ولا الموظفة ، ولا هي من عنصر النساء والطفيليين الذين يلوذون بالأغنياء والموظفين ، لا بد أن كانت حافلة بالكد المضني والكدح الشديد ، يعوزها الأمل والجدوى وتنقصها الحرية إلى حد لا يكاد يتصوره عقل حديث .

وربما جاز لنا أن نذكر بصفة خاصة ثلاثة أمور تدعم الرأى القائل بأن هـــذا العصر كان عصر تعاسة وبؤس شامل : أولها جمود السكان وموت إحساسهم العجيب حيال الأحداث السياسية . فلطالما رأوا مدعياً لعرش الإمبراطورية من محدثى النعمة يخلف مدعياً آخر ، دون أن يبدو عليهم أى اهتمام أو مبالاة . إذ ليس يلوح أن مثل هذه الأمور ، ماكانت تعنيهم . فقد زال الرجاء من النفوس. فلما أن تدفق البرابرة بُعَيْد ذلك على الإمبراطورية . لم يكن هناك من يواجههم إلا الكتائب . فلم يحدث يوماً أن هب الشعب لمقاتلتهم . وليس من ريب أن عدد البرابرة فى كل مكان كان أقل من عدد الرومان لو خف الأهالى لمقاومتهم . بيد أن الأهالى لم يقاوموا ! وواضح أن الدولة الرومانية لم تكن تبدو فى نظر كتلة سكانها شيئاً يستحق أن يحارب المرء من أجله . ولعل الرقيق وعامة الشعب كانوا يرون فى البرابرة مؤذناً بقدر من الحرية والكرامة الإنسانية أكبر مما كان يمنحهم إياه حكم موظفى الإمبراطورية الفاخر واستخدام الأغنياء لهم ذلك الاستخدام المضنى الطاحن . ولم يكن نهب القصور وإحراقها وحدوث مذبحة من وقت إلى آخر مما تنزعج له الطبقة الدنيا الرومانية انزعاج الأغنياء والمثقفين الذين نحن لهم مدينون بكل ما لدينا من أخبار عن تحطم النظام الإمبراطورى . والراجح أن عدداً كبيراً من الأرقاء والعامة انضموا إلى البرابرة الذين لم يكونوا يعرفون إلا القليل من التحزب العنصرى أو الوطنى ، والذين كانت أيديهم مبسوطة للترحيب بكل جندى تتبدى فيه أمارات الاقتدار . ولا ريب أن السكان وجدوا البرابرة أشد وبالا حتى من جامع الضرائب ومن النخاس فى كثير من الأحوال . بيد أن هذا الاكتشاف جاء بعد فوات فرصة المقاومة أو استعادة النظام القديم .

وإنا لنجد ظاهرة ثانية تشير إلى نفس هذه النتيجة الذاهبة إلى أن الحياة فى أعين الفقراء والعبدان وغالبية الناس أثناء عصر الأنطونيين لم تكد تكون جديرة بأن يحياها الإنسان ، تلك الظاهرة هى التناقص المطرد فى عدد سكان

الإمبراطورية . فكان الناس يأبون أن يكون لهم عقب وذرية . وأغلب الظن أنهم كانوا يفعلون ذلك لأن منازلهم لم تكن فى أمان من الاضطهاد والظلم ، ولأنه لم يكن هناك فى حالة العبدان أى ضمان يضمن ألا يفرق السيد بين الزوج وزوجه ، ولأن الآباء لم يكونوا يعقدون على أولادهم أى أمل أو فخار . وغنى عن البيان أن المسرح الأعظم لإنتاج النسل والأبناء فى الدول الحديثة هو على الدوام أرض الريف الزراعية ، حيث يعيش الريفيون فى ظلال أمن واطمئنان يتفاوتان قدراً . بيد أنه فى ظلال الإمبراطورية الرومانية كان الفلاح والزارع الصغير فى ريفه بين مدين قد أرهقه الدين وأقلقه وبين شخص تُضيّق عليه شبكة حرجة من القيود تجعل منه مولى أرض (serf) لا روح فيه ، أو كان يطرد طرداً تاماً ويحل محله فى العمل والإنتاج عصبات من الأرقاء .

ثم تتكشف لنا أيضاً دلالة ثالثة على أن هذا العصر المزدهر فى ظاهره كان عصر تعاسة عميقة ومحنة عقلية لدى جماهير غفيرة ، وتتجلى هذه الدلالة فى انتشار حركات دينية جديدة بين جميع السكان . ولقد رأينا كيف أنه أمكن فى حالة قطر صغير كبلاد اليهودية ، أن يصاب شعب بأكمله بعدوى الاقتناع بأن الحياة خاطئة غير مرضية ، وأنه لا بد لها من شىء يقوّم ما اعوج منها . ومن ثم تبلّرت عقلية اليهود كما نعرف حول فكرة الوعد ، وعد الإله الأحد الحق ومجىء مخلّص أو مسيح . وثمة فكرات أخرى تكاد تخالف هذه ، أخذت تنتشر فى الإمبراطورية الرومانية . وهى لم تكن غير أجوبة متنوعة على سؤال واحد يتردد على ألسنة الناس عامة : « ماذا يجب علينا أن نفعل للوصول إلى الخلاص ؟ » : فإن النتيجة الطبيعية المألوفة للتبرم بهذا الضرب من الحياة على ما هى عليه تطيح بالخيال إلى حياة بعد حياتنا هـــذه ، تعوّض على الناس كل ما يلقونه فى هذه الحياة الدنيا من التعاسات والمظالم . والاعتقاد بمثل هذا الجزاء إنما هو مسكّن عظيم للشعور بالتعاسات .

الحاضرة . وكانت الديانة المصرية من قديم الزمان مشبعة بفكرة الخلود ، وقد رأينا كيف أن هذه الفكرة كانت محورية أساسية فى نحلة سرابيس وإيزيس بالإسكندرية . وقد انتعشت الأسرار العتيقة : أسرار عقيدة « ديميتر »[١] و « أورفيوس » ، وهى الأسرار الخوافى لجنس البحر الأبيض — وكونت بينها وبين هذه العقائد الجديدة ضرباً من الثيوكرازيا[٢]، « أى اتحاد الآلهة » .

وكانت الحركة الدينية العظيمة الثانية هى الميترائية[٣] (Mithraism) وهى تطور للزرادشتية (Zoroastrianism) ، وهى ديانة ذات أصل آرىّ عريق فى القدم ، يمكن تقفى أثرها حتى الشعب الهندوإيرانى قبل أن يتفرع إلى فرس وهندوس . ولسنا بمستطيعين أن نفحص هنا أسرارها فى أى تفصيل[٤] . وكان ميترا رباً للنور ، وشمساً للبرّ والتقوى ، وكان يُمثَّلُ دائماً فى مقاصير ملّته وهو يذبح عجلا مقدساً يسيل دمه فيكون هو بذرة الحياة . وبحسبك أن هذه العقيدة عقيدة عبادة ميترا وصلت إلى الإمبراطورية الرومانية قرابة زمان بومبى العظيم مختلطة بعناصر كثيرة مضافة إليها ، وبدأت تشيع شيوعاً واسعاً جداً إبان حكم القياصرة ، والأنطونينين . وكانت شأن عقيدة إيزيس تعد الناس بالخلود . وكان أتباعها على الأخص من العبيد والجنود ومن ألمت بهم عوادى الزمان . وهى فى طرائق عبادتها وفى إيقاد الشموع أمام المذبح إلى غير ذلك ، تحمل ضرباً معيناً من المشابهة السطحية بالتطورات الأخيرة لطقوس الحركة الدينية الكبرى الثالثة التى ظهرت فى العالم الرومانى وأعنى بها المسيحية .

والمسيحية أيضاً عقيدة خلود وخلاص ، وانتشرت فى بادئ الأمر هى الأخرى كذلك بين مصاف الطبقات الدنيا والتعساء . وقد هاجم الكتاب

---

(١) ديميتر : ربة الزراعة عند قدماء اليونان . (المترجم)

(٢) الثيوكرازيا (Theocrasia) هى المزج بين عبادة آلهة مختلفة ، وقد أسميناها أيضاً بالمزج اللاهوتى . (المترجم)

(٣) ميترا : إله الإيرانيين والهنود . ومعنى الكلمة عندهم النور أو الضياء أو الحب . (المترجم)

(٤) راجع كتاب (Forerunners and Rivals of Christianity) لمؤلفه ليجى legge .

الحديثون الديانة المسيحية ووصموها بأنها « ديانة أرقاء » . وكذلك كان حالها فإنها ضـمت الأرقاء والمدوسين بالأقدام المهيضى الجانب ، فمنحتهم الأمل وردت إليهم احترام الذات ، حتى أصبحوا يناصرون البر والهدى مناصرة الرجال وواجهوا ألوان الاضطهاد والتنكيل والتعـذيب . فأما أصل المسيحية وكنهها ، فإننا سنتكلم عنهما بمزيد من الإسهاب فى فصـل تال .

٣ - خصائص الفن فى ظلال الإمبراطورية الرومانية

قلنا آنفاً إن ثقافة روما الفنية والأدبية ليست سوى مجرد فرع من الثقافة الهلينية العظيمة ، ورث كل ما كانت تستطيع بلاد الإغريق وغرب وآسيا وبابل ومصر أن تمنحه إياه . بيد أن هناك اتجاهات بعينها ، نحا فيها الجانب الرومانى وجهات محددة جداً اختص بها وحده ، ولم يكن ذلك إلا فى فن العمارة خاصة . والإمبراطورية الرومانية تؤذن بدور جديد من أدوار التاريخ أى بتغير فى المعيار ، انعكس فيا لمبانيها من الضخامة العظمى والحجم الأكبر . وأهم هبات روما لفن العمارة هى الأسمنت واستعمال العقد (الباكيه) بحرية ووفرة . وحيثما ذهبت الكتائب الرومانية ، ظهر العقد وظهر الأسمنت . وبفضـل الأسمنت صار فى الإمكان إقامة القباب والأقبية الهائلة الضخمة ، كما أصبح من اليسير تبطينها بالرخام . واقتبس الرومان العمود الكورنثى الغنى بالنقوش ثم غيروه وأتقنوه واستعملوه مع العقود . وإنما الممرات ذات العقود فكرة رومانية أصيلة ؛ وكذلك أيضاً ذلك الميل إلى إقامة المبانى المستديرة ، وإلى وضع العقود (البواكى) بعضها فوق بعض فى طوابق المبانى المختلفة . وأينما ذهب الرومان خلفوا المدرجات ، وأقواس النصر والشوارع ذات العقود والسقايات المائية المبنية والقصور الفاخرة . كذلك أنشأوا طرقات ذات تدريج معقول وكبارى بديعة وسقايات متقنة . وما يزال الإيطالى حتى يومنا هذا خير من ينشئ الطرق فى العالم .

ولم يحدث لفن العمارة الرومانى أى تطور منظم كالذى حدث للمصرى والإغريقى . وكانت جهوده الأولى تحذو حذو النماذج الإترورية وهى من خشب مكسو بالفخار . ثم ما لبث الحجر أن حل محل الخشب تدريجياً . ولكن بقيام الإمبراطورية انتقل المهندس المعمارى الإغريقى إلى روما واستخدم من فوره الفرص الجديدة التى أتيحت له والمواد التى وجدها ميسرة فى متناوله . ففن العمارة الرومانى لم يتطور بمقدار ما تفجر فجأة ولكنه إذا تفجر ساد بقوة وعم انتشاره .

وقد صحب نسور الألوية الرومانية فن نحت قوى إغريقى كذلك فى جوهره . وإن مجتمعاً مكوناً من رجال أثرياء كبار ، لمجتمع لا تكاد تكون له مندوحة عن الإنتاج فى فن التصوير ، ثم إن الصورة المحفورة تمثالا نصفياً والتمثال الكلى اللذين يصوران خصوصية صاحبهما فى مماثلة ذاتية دقيقة ، قد وصلا إلى أعلى منزلة لتطوراتهما فى ظلال العصر الأخير من الجمهورية وصدر عصر القياصرة . وبقى التصوير أيضاً مليئاً بالحيوية . وهناك حادثة سعيدة هى حادثة تدمير بركان فيزوف لمدينتى بومبياى (Pompeii) وهركولانيوم مع الإبقاء عليهما مطمورتين ، مكنت العالم الحديث أن يقدر ما كان عليه فن التصوير لديهم من الوفرة والتنويع والجمال فى القرن الأول الميلادى . وكانت هاتان المدينتان منتجع الأغنياء ، وإن لم تكونا بأى حال ملتقى أرفع الأغنياء شأناً ، ويحمل إلينا ما تحتويان من ثروة من الطُّرف والمواد الممتعة أبرز معيار لمـا ضاع علينا من روائع الفنون وبدائعها .

والفسيفساء طراز آخر من الإنتاج الذى برزت فيه الإمبراطورية الرومانية فى عصرها الأول أى دور سابق من أدوار المدنية . كذلك وصلت صناعة الزجاج إلى مستويات عالية فى الجمال على يد عمال من الإغريق والشرقيين على الأخص .

وقد أصيب الفن بحلول النوازل والفوضى التى أطبقت على الإمبراطورية الرومانية الغربية فى نهاية القرن الثانى الميلادى ، بتوقف فى الكثير من نواحى هذه القوة الإنتاجية الفنية . واستمر فن عمل الصور وانتعش فن العمارة من جديد . بيد أنه بعد القرن الثالث تصلبت الروح الطلقة الفياضة فى كثير من النحائت بتأثير المؤثرات الشرقية .

٤ – قدر معين من الركود فى الخيال الرومانى

أسلفنا إليك بيان الأسباب التى حملتنا على تقرير أن النظام الإمبراطورى الرومانى كان فى واقع الأمر تطوراً سياسياً جد غير سليم . ومن السخف أن يتناول المرء بالحديث ما كان ينطوى عليه من فن الحكم والتدبير . إذ لم يكن لديه فن حكم ولا تدبير . كانت له فى خير أحواله إدارة بيروقراطية أقامت السلام فى العالم فترة من الزمان وفشلت فشلا تاماً فى صيانته . فلنسجل هنا أهم العوامل فى فشلها .

ومفتاح كل ما أصابها من إخفاق قائم فى انعدام كل نشاط عقلى حر وكل تنظيم يؤدى إلى زيادة العلم والمعرفة وتطورهما وتطبيقهما . فكانت تحترم الثراء وتزدرى العلم . وكانت تسلم زمام الحكم للأغنياء وتتصور أن الحكماء يمكن أن يشروا بالمال وأن يساوم عليهم فى أسواق الرقيق عند ما تدعو الحاجة إليهم . فهى بناء على هذا إمبراطورية جاهلة سقيمة الخيال إلى حد مروّع . فلم تكن تتنبأ بشىء ولم تتوقع شيئاً .

ولم تكن من الناحية الاستراتيجية على أى حظ من بُعد النظر ، لأنها كانت صفحة بيضاء فى جهلها بالجغرافيا وعلم السلالات البشرية (الإثنولوچيا) . فهى لم تعرف شيئاً عن أحوال روسيا ولا آسيا الوسطى والشرق . وقنعت بأن تتخذ من الراين والدانوب حداً لها ، وألا تبذل أى جهد فى سبيل صبغ ألمانيا بالصبغة الرومانية . وما علينا إلا أن نلقى نظرة

إلى خريطة أوربا وآسيا التى تبين الإمبراطورية الرومانية ، لكى ندرك أن ضم ألمانيا برضاها وإدماجها فيها كان ضرورة ماسة تقتضيها حياة أوربا الغربية وسلامتها . فلما أن أهمل ضم ألمانيا أصبحت إسفينا لم يكن ينقصه لكى يحطم النظام كله بددا إلا أن تدفعه مطرقة الهون من الخلف .

وفضلا عن ذلك فإن هذا التراخى عن توسيع الحدود شمالا حتى البلطيق ، قد جعل منه ومن بحر الشمال منطقة تجارب وتدريب على فنون الملاحة بين أهل الشمال من سكان إسكندناوة والدانمارك والساحل الفريزى . بيد أن روما ظلت سادرة فى طريقها بغاية الغباء غافلة عن نمو قرصنة فى الشمال أحدث عهداً وأشد قوة .

وكان هذا الخيال الكليل نفسه مما دفع الرومان إلى إهمال الطرق البحرية فى البحر المتوسط دون تطويرها والنهوض بها . فلما تدفق البرابرة بعد ذلك نحو المياه الدفيئة ، فلسنا نقرأ فى تاريخهم عن أى نقل سريع للجيوش من أسبانيا أو أفريقيا أو آسيا لإنقاذ إيطاليا وسواحل الأدرياتى . وعلى النقيض من ذلك نرى الوندال يصبحون سادة الحوض الغربى للبحر المتوسط دون أن يحدث ما يشبه معركة بحرية .

وقد صد الرومان عند نهر الفرات حشد من الفرسان الرماة وكان من الواضح أن الكتيبة الرومانية — بالطريقة التى نظمت بها ، — غير ذات جدوى فى الأراضى الفسيحة الرحيبة ، وكان ينبغى أن يتجلى بنفس الدرجة من الوضوح أن الفرسان الرحل من ألمانيا الشرقية وجنوب الروسيا أو پارثيا لم يكن مفر إن عاجلا أو آجلا من أن يحاولوا تصفية موقفهم مع الإمبراطورية . بيد أن الرومان بعد زمان قيصر بمئتى سنة كانوا ما يزالون يُسيِّرون فى العالم نفس الكتائب المدربة المجلجلة التى لم يداخل نظامها أى تغيير ، وهى التى كان من الميسور الالتفاف حولها ركضاً بالجياد وتمزيقها إرباً . ولم تتعلم الإمبراطورية أى شىء حتى من معركة كاراى . .

وإن ما أظهره الاستعمار الرومانى من العجز عن التجديد فى وسائل

المواصلات لأمر يدعو كذلك إلى الدهشة . إذ كان جلياً أن قوة الرومان ووحدتهم تعتمدان على سرعة حركة الجنود وإرسال الأمداد من أحد أجزاء الإمبراطورية إلى الجزء الآخر . أجل شيدت الجمهورية الطرق الفاخرة . ولكن لم تدخل الإمبراطورية عليها أى تحسين . وقبل ظهور الأنطونيين بأربعمئة سنة اخترع هيرون (Hero) السكندرى أول آلة بخارية . وكانت المدونات الأنيقة التى تسجل مثل هاته البدايات فى العلم من بين الكنوز المهملة التى تضمها مكتبات الأثرياء فى كل أنحاء الممتلكات الإمبراطورية ، مثلها مثل بذور ألقيت فى أرض من الحجر الصلد . وكانت جيوش ماركوس أوريليوس ورسله تكدح فى اختراق الطرق على نفس النسق الذى كانت عليه جيوش سكيبيو الإفريقى قبلهم بثلاثة قرون .

ولم ينفك الكتّاب الرومان يندبون على الدوام تخنث العصر . فتلك أنشودتهم المحببة . وذلك أنهم أدركوا أن الرجال الأحرار من سكان الغابات والسهوب والصحارى كانوا مقاتلين أشد بأساً وأكثر استبسالا من مواطنيهم ، غير أن النتيجة الطبيعية الحتمية التى تترتب على تنمية قوة الصناعة لدى مجموعاتهم الضخمة من السكان بدرجة تكفل إنتاج العتاد اللازم لضمان الموازنة بينهم وبين أعدائهم البرابرة لم تخطر لهم قط على بال . بل تراهم على العكس من ذلك يدخلون البرابرة فى كتائبهم ويعلمونهم فنون الحرب ويسيرونهم فى أرجاء الإمبراطورية ثم يعيدونهم إلى شعوبهم بعد أن أتقنوا الدرس الذى تعلموه .

فليس عجيباً وهذا حالهم من الإهمال الواضح المتكرر أن يغفل الرومان إغفالا تاماً ذلك الأمر الأشد دقة وأعنى به روح الإمبراطورية ، فإنهم لم يبذلوا أى جهد لتعليم أو تدريب عامة الناس فيها أو اكتساب قلوبهم حتى يندمجوا فى حياتها اندماج المشاركة الشعورية الواعية . إذ كان مثل هذا التعليم أو التدريب فى الواقع متعارضاً مع كل آراء الأغنياء وموظفى


خريطة
آسيا ومعها أوروبا
وهي توضح الأحوال العامة للحياة في العصر التاريخي
التندرا
المنطقة الشمالية لأقاليم الغابات
موطن القبائل الرحل
مرتفعات
أراضي زراعية
تندرا
غابات أو مراعي
غابات
صحاري
سهوب

(١١١٥)

الإمبراطورية . وهم قد اتخذوا من الديانة أداة ووسيلة . وتركوا العلم والأدب والتعليم فى يد الأرقاء الذين كانوا يربون ويدربون ويباعون كالكلاب والخيل . وكان المغامرون من الرومان فى ميادين المال والعقار وهم الذين خلقوا الإمبراطورية ، يسودونها بأقصى مشاعر الأمنة والاطمئنان ، على حين كانت عاصفة تدميرهم قد أخذت تتجمع خارج الإمبراطورية وداخلها .

وما أن حل القرنان الثانى والثالث الميلاديان ، حتى كانت أداة الحكم فى الإمبراطورية المرهقة بالضرائب والمنهكة إلى أقصى حدود الإعياء قد أخذت بالفعل تترنح نحو الهاوية التى تردت فيها آخر الأمر .

٥ – حركة السهول العظيمة

إذا أردنا الآن أن نفهم فهماً واضحاً مركز الإمبراطورية الرومانية الصحيح ، وجب علينا أن نشخص بأبصارنا إلى العالم فيما وراء حدودها الشمالية والشرقية . وهو عالم السهول الذى يمتد امتداداً لا يكاد يكون له انقطاع من هولندة عبر ألمانيا وروسيا حتى جبال آسيا الوسطى ومنغوليا . وأن نعير بعض التفاتنا إلى الإمبراطورية المماثلة لهذه فى بلاد الصين ، وهى التى كانت آخذة فى التماسك والتطور حتى صارت وحدة أخلاقية وفكرية أصلب كثيراً وأبقى عمراً من تلك التى وصلت إليها الإمبراطورية الرومانية فى تاريخها كله .

ويقول المستر ا . ه . پاركر : « جرت العادة بالناس جميعاً حتى أعلى رجال أوربا تربية وثقافة أن يرسلوا جملا طنانة يتشدقون فيها بما يسمونه : « السيادة العالمية وإخضاع كل شعوب الأرض للنفوذ والسلطان » إلى غير ذلك . على حين كان الأمر فى الحقيقة مقصوراً على زاوية أو ناحية من البحر المتوسط فقط ، أو القيام ببضع هجمات سريعة الزوال فى بلاد الفرس أو بلاد الغال . فإن كلا من قورش والإسكندر ودارا وإجزرسيس وقيصر

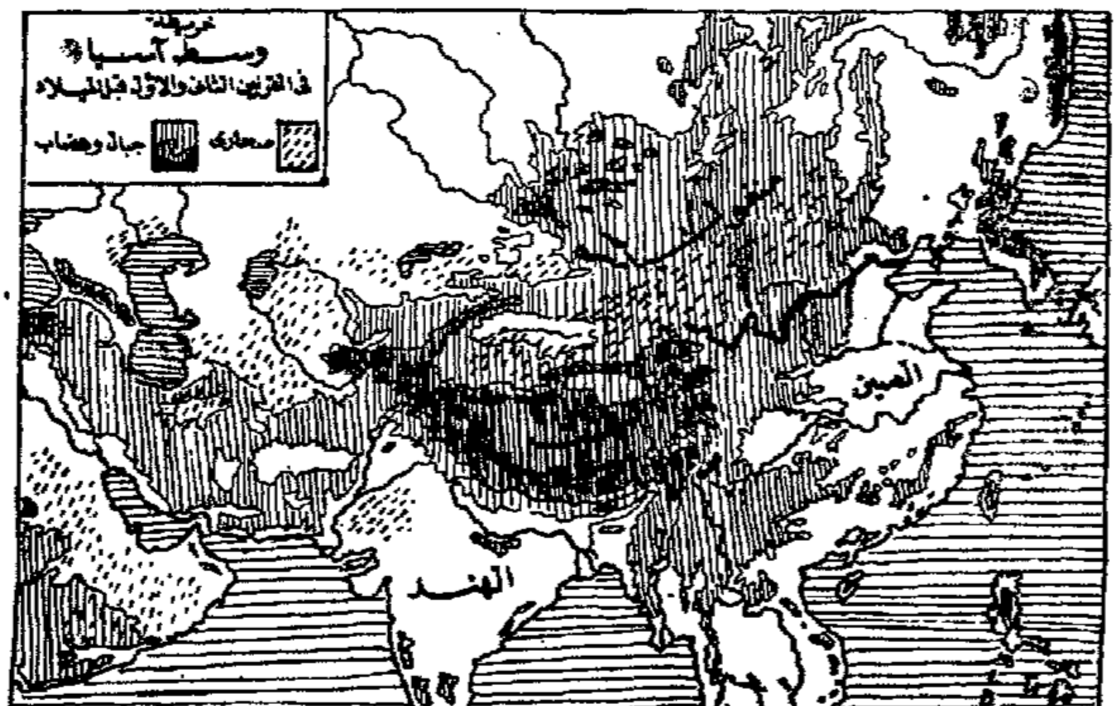
وبومبي ، قد قاموا بحملات شائقة للغاية . ولكن لا شك أنها لم تكن فى اتساع نطاقها واحتفالها بالمصالح البشرية الكبرى تفوق البتة تلك الحملات التى كانت تجرى فى الطرف الآخر من آسيا . كان فى متناول المدنية الغربية من ألوان الفن والعلم شىء كثير مما لم تعن به الصين أبداً ، غير أن الصينيين من الناحية الأخرى أنتجوا أدباً[١] تاريخياً ونقداً أدبياً وكياسة وأدباً للسلوك وترفاً فى الثياب ونظاماً إدارياً ، لو أتيحت لأوربا لكانت موضع فخارها وزهوها . وموجز القول أن تاريخ الشرق الأقصى لا يقل فى أهميته وإمتاعه عن تاريخ الغرب الأقصى . وما نحن إلى شىء بأحوج منا إلى القدرة على قراءته . فإذا نفضنا عن بالنا فى شىء من الاحتقار تلك الأحداث الجسام التى مرت على سهول بلاد التتار (Tartary) لكان جديراً بنا ألا نسرف فى لوم الصينيين لعدم صرف عنايتهم واهتمامهم فى شئون دول كانت تبدو لهم لا وزن لها وتقع متناثرة كالنقط حول البحر المتوسط وبحر قزوين ، وهى التى كانت فى ذلك الزمان تمثل كل العالم الذى نعرفه فى أوربا[٢] » .

ولقد أسلفنا إليك اسم « شى هوانج تى » الذى ربط أجزاء إمبراطورية أصغر فى الواقع كثيراً من حدود الصين الحاضرة ووطد سلطانه بها ، وهى مع ذلك فى غاية من العظم ووفرة السكان ولا تبرح تمتد من وادبى الهوانج هو واليانج تسى كيانج . أصبح ملكاً على « تس إن Ts'in) فى (٢٤٦ ق.م) ، وأصبح إمبراطوراً ٢٢٠ ق. م. ، واستمر حكمه حتى ٢١٠ ق.م. ، فقام خلال حكمه الذى امتد هذا الثلث القرن الذى قضاه فى توطيد سلطانه بنفس عملية التماسك التى أتمها أوغسطس قيصر فى روما بعد ذلك بقرنين . وحدث على العرش عند وفاته نزاع استمر أربع سنوات ثم ما لبثت أسرة جديدة

(١) يستخدم المؤلف لفظة الأدب هنا كعادته للدلالة على ما ظهر فى اللغة الصينية من مؤلفات وكتب فى علم التاريخ . (المترجم)

(٢) E.H. Parker: "A Thousand years of the Tartars"

هى أسرة هان أن استوت على عرش الإمبراطورية ٢٠٦ ق . م وحكمت البلاد مدة تسع وعشرين ومئتين من السنين . وقد كدر مغتصب للملك صفو ربع القرن الأول من الحقبة المسيحية . ثم عاد الملك إلى ما يسمى باسم أسرة هان الثانية التى حكمت البلاد قرناً آخر ونصفاً من الزمان حتى ظهر فى الصين فى أوان الأنطونيين وباء دام أحد عشر عاماً ، أهلك الحرث والنسل وقذف البلاد إلى أحضان الفوضى . ولعلنا نلحظ أيضاً أن نفس هذا الوباء ساعد على انتشار الفوضى فى العالم الغربى مدة قرن (راجع القسم الأول) . على أن الصين الوسطى ظلت حتى حدوث هذا الوباء تستمتع بوجه عام بما يربى على أربعة قرون من السلام وتحظى على الجملة بحكم طيب لا بأس به ، فمرت بذلك فى كثرة من القوة والرخاء ليس ثمة ما يماثلها فى خبرة العالم الغربى وأحداثه .



(١١٦)

ولم ينهج إلا أول ملوك أسرة هان على سياسة « شى هوانج تى » المضادة لرجال العلم والأدب (Literati) . ثم أعاد خلفه الدراسات القديمة

(الكلاســيكية) ، ذلك أنه رأى أن التقاليد القديمة لدعاة الانفصــال قد حطمت ؛ وأن توثّق عرى الوحدة الصينية يقوم على اتساق العلم ووحدته وانتشاره فى جميع أرجاء الإمبراطورية . وعلى حين كان العالم الرومانى لا يزال غافلا عن إدراك الحاجة إلى تنظيم للشئون الفكرية ، كان أباطرة أسرة « هان » يقيمون للتعليم والدرجات الأدبية فى كل أرجاء الصين نظاماً متسقاً أبقى حتى العصور الحديثة على التماسك الفعلى لذلك القطر العظيم الذى لم ينقطع يوماً عن الاتساع . وكان موظفو الحكومة المركزية البيروقراطيون بروما قوماً ينتمون إلى أشد الأصول والتقاليد تفاوتاً وتبايناً . على حين كان بيروقراطيو الصين وما يزالون ، مطبوعين بطابع واحد ، وكلهم استقى من تقاليد واحدة . وقد ألمت بالصين منذ أيام أسرة هان تقلبات عظيمة فى الحظ السياسى ، بيد أنها لم تغير قط من خصائصها الجوهرية . أجل انقسمت على نفسها حيناً ، غير أنها كانت على الدوام تسترجع وحدتها . وكثيراً ما تغلب عليها أعداؤها ، ولكنها كانت على الدوام تمتص عدوها وتتمثل قاهرها وتستوعبه . .

وعندى أن أهم ثمرة هيأها تماسك الصين هذا تحت حكم « شى هوانج تى » وأسرة هان — هى ما أحدثته من رد فعل ومقاومة للقبائل غير المستقرة النازلة على حدود الصين الشمالية والغربية . فإن الهون (الهيونج نو Hiung-nu) كانوا طوال القرون المنكوبة بالفوضى قبل زمان « شى هوانج تى » يحتلون منغوليا وأقساماً كبيرة من الصين الشمالية ، وكانوا يغيرون على الصين بلا حرج ويتدخلون بملء حريتهم فى الأمور السياسية الصينية . على أن القوة الجديدة التى توفرت على تنظيم الحضارة الصينية شرعت فى تغيير هذه الأوضاع تغييراً تاماً ونهائياً .

ولقد سبق أن أشرنا إلى وجود هؤلاء الهون فى بياننا الأول عن البدايات الصينية . فمن الضرورى الآن أن نفسر فى إيجاز من هم وما هم . فنحن حتى

فى استعمالنا هذه الكلمة (هون) كمرادف عام لكلمة «هيونج نو» إنما ندخل فى حومة الجدل والنقاش . وقد سنحت لنا ونحن بصدد بياناتنا عن تطور العالم الغربى فرصة لذكر الإسكيذيين ، وأن نشرح ما نلقى من الصعوبة فى التمييز تمييزاً واضحاً ما بين الكِمَّريين والسرماتيين أو السرامطة والميديين والفرس والپارثيين والقوط وشعوب أخرى تتفاوت فى درجة ترحلها وتتفاوت فى مقدار آريتها ، كانت تنتقل غدواً ورواحاً فى قوس عظيم بين الدانوب وآسيا الوسطى . فعلى حين كانت أقسام من الآريين تتجه جنوباً وتحصل على قسط من المدنية وتطورها ، كان هذا الفريق الآخر من الشعوب الآرية آخذاً بأسباب التطور فى خفة الحركة والترحل . كانوا يتعلمون حياة الخيمة والعربة والقطيع وكذلك شرعوا يتعلمون أن يستعملوا اللبن أساساً لغذائهم ، وأخذوا فيما يرجح يصبحون أقل عناية بالزراعة وأقل ميلا حتى إلى نوع المحصولات السريعة مما كانوا عليه من قبل . ومما ساعد على تطورهم هذا تغير بطىء ألم بالمناخ وأخذ يتبدل السهوب بالمستنقعات والغابات وبأراضى الأحراش الخفيفة فى جنوب الروسيا وآسيا الوسطى . والسهوب كما هو معلوم أراضى رعى فسيحة تساعد على إنتاج حياة تنقّل صحية وتستدعى حركة سنوية بين مراعى الصيف ومراعى الشتاء .

ولم تنتج هذه الشعوب سوى أحط أنواع النظم السياسية . وكانوا ينقسمون فيما بينهم ويختلطون بعضهم ببعض . ولكن تلك الشعوب على تنوعها كان لها عادات اجتماعية متماثلة تماماً . ومن ثم نشأت صعوبة بل استحالة التمييز الحاد الدقيق بينها . فإذا كر البصر راجعاً إلى الصين رأى حالة الشعوب المغولية فى شمال وشمال غربى المدنية الصينية شديده المماثلة لهذه الحال . إذ يخامرنا إلا القليل من الشك أن الهيونج نو أى الهون ومن جاء فى أعقابهم من قوم يسمون بالمغول ، كانوا جميعاً شعباً واحداً ، وأن الترك والتتار ما لبثوا أن تفرعوا من نفس هؤلاء القوم المغول الرُّحَّل . فأما القلموق (Kalmucks) والبوريات (Buriats) فهم تطور متأخر لنفس النبعة . ونحن هاهنا

أميل إلى استعمال كلمة «الهون» بوصفها ضرباً من التسمية العامة لهاته القبائل جميعاً ، مثلما توسعنا فى استعمالنا تماماً بحرية كلمة «الإسكيذيين» فى الغرب .

وكان تماسك الصين أمراً خطيراً جداً على هذه الشعوب الهونية . فإن الفائض من أفراد السكان لديهم كان حتى آنذاك ينساب نحو الجنوب مغامراً فى لجات فوضى الصين المنقسمة انسياب الماء فى شعاب الإسفنج . ثم إذا هم الآن يجدون سوراً مبنياً يقف فى وجوههم وحكومة حازمة وجيوشاً نظامية تصدهم عن سهول الكلأ . ومع أن السور كان يصدهم عن التقدم ، فإنه لم يصد الصينيين . ذلك أنهم كانوا يتزايدون ويتكاثرون خلال قرون السلم هذه ، وكانوا مع زيادتهم وتكاثرهم ينتشرون انتشاراً مستمراً دافعين قدماً بمسكنهم ومحراثهم حيثما سمحت لهم تربة الأرض . فانتشروا غرباً فى بلاد التبت وشمالا وشمالا بغرب وربما وصلوا إلى حافة صحراء جوبى . ثم انتشروا أيضاً فى مواطن الهون المترحلين وفى مراعيهم وأراضى صيدهم ، على نفس النســق بالضبط الذى اتبعه سكان الولايات المتحدة البيض فى انتشارهم غرباً فى أراضى الصيد التى يقطنها الهنود الحمر . على أنهم بالرغم من الغارات والمذابح ، كانوا والأمريكيين سواء فى منعتهم واستحالة قهرهم ، إذ كان فى جانبهم ضغط الكثرة العددية ، ومن ورائهم حكومة قوية تقتص لهم وتأخذ بالثأر . بل لئن لم يكن معهم حتى العون الأخير ، فإن لمدنية الصين الزراعيــة قوة هائلة وقدرة على التغلغل والتوسع والامتداد ، وقد انتشرت فى بطء واطراد مدى ثلاثة آلاف من السنين . وهى تنتشر اليوم فى منشوريا وسيبيريا وترسل جذورها عميقاً حيثما انتشرت .

مدن الصينيون الهون جزئياً وتمثــلوا بعض عشائرهم . فأما الهون الأبعدون شمالا فقد صدوا ووجهت غرباً طاقاتهم المفرطة القوة . وانغمر الهون الجنوبيون فى سكان الإمبراطورية .

ولو أن القارئ تأمل خريطة آسيا الوسطى لرأى أن حواجز جبلية عظيمة جداً تفصل شعوب آسيا الجنوبيين عن الغربيين والشرقيين . (ولكن يجدر به أن يتحرز من تكوين فكراته من خريطة مرسومة على أساس مشروع مركاتور (Mercator)[1] الذى يبالغ مبالغة هائلة فى مساحات ومسافات آسيا الشمالية وسيبيريا) . وإنه لواجد عند كتل الجبال الوسطى أن ثلاث سلاسل جبلية عظيمة تتفرع شرقاً ، فتذهب الهملايا جنوباً بشرق جنوبى بلاد التبت وتذهب جبال الكوين لن شرقاً مارة بشمال التبت ، وتتجه التيان شان شمالا بشرق لكى تتصل بجبال آلتاى . وبعد ذلك إلى الشمال يوجد السهل العظيم الذى لا ينى جليده يذوب وجفافه يزداد . وبين التيان شان والكوين لن متسع هو حوض التاريم (وهى التركستان الشرقية على وجه التقريب) ، وبه أنهار لا تصل إلى البحر أبداً ، بل تنتهى فى مستنقعات وبحيرات متقطعة وكان هذا الحوض أكثر خصباً فى الماضى منه اليوم . والحاجز الجبلى فى غربى حوض التاريم ذاك مرتفع ، بيد أنه لا يمنع المرور تمام المنع . وهناك طرق كثيرة مسلوكة تنحدر إلى أسفل متجهة إلى التركستان الغربية . ومن الميسور أن يسافر الناس إما على امتداد التـــلال الفسيحة الشمالية لجبال الكوين لن أو بواسطة وادى التاريم فى الناحية الغربية من الصين إلى قشغر (حيث تلتقى الطرق) ، ومن ثم من فوق الجبال إلى خوقند وسمرقند وبخارى . فهنا إذن مكان الالتقاء الطبيعى فى التاريخ بين الآريين والمغول . وهو التقاء إما أن يتم هنا أو لا يتم إلا بالدوران بحراً .

ولقد ذكرنا من قبل كيف أن الإسكندر الأكبر وصل إلى أحد جوانب ذلك الحاجز الضخم فى عام ٣٢٩ ق. م. وفى أعلى جبال تركستان بحيرة تخلد اسمه . والواقع أن ذكريات غارته العظيمة تخلد اسمه إلى حد أنه

(١) مشروع مركاتور : طريقة لرسم الخرائط تجعل خطوط الطول والعرض خطوطاً مستقيمة فتبدو المناطق القطبية أكبر من حقيقتها . (المترجم)

لا تكاد توجد أية خرابة من الأطلال الحجرية فى آسيا الوسطى إلا نسبت حتى اليوم إلى« إسكندر » . وبعد هذه البارقة الخاطفة يعود نور التاريخ فيخبو عن هذا الإقليم مرة ثانية . حتى إذا عاد إليه سطوعه كرة أخرى كانت عودته فى الناحية الشرقية لا فى الناحية الغربية .

وهناك فى أقصى الشرق نهض « شى هوانج تى » لتشتيت شمل الهون وإبقائهم خارج الصين نفسها فيما وراء السور . فبقى من هؤلاء القوم قسم فى شمال الصين ، وهى بقية قدر لها أن تندمج فى الحياة الصينية فى أثناء حكم أسرة هان ، بيد أن قسماً عظيماً منهم اتجه غرباً ثم طاردوا أمامهم (فى القرنين الثانى والأول ق . م) شعباً من ذوى قرباهم اسمه يوويه تشى « Yueh Chi » دافعين إياه من أقصى شرق الكوين لن إلى أقصى غربها ، ثم عبر الحاجز نفسه إلى إقليم التركستان الغربية الذى كان يوماً ما إقليماً آرياً . هؤلاء الأقوام من اليوويه تشى فتحوا مملكة باكتريا ذات الطابع الهلينى الخفيف واختلطوا بشعبها الآرى هناك . وأصبح هؤلاء اليوويه تشى فيما بعد آريين ، أو انغمروا ومعهم عناصر آرية فى شعب يسمى الهندوإسكيذيين انحدر فى ممر خيبر وفتح أقاليم الهند الشمالية حتى وصل بنارس (١٠٠ — ١٥٠ م) جارفاً أمامه آخر أثر للحكم الهلينى فى الهند .

والراجح أن هذا الانهمار الكبير للأجناس المغولية نحو الغرب لم يكن أول تلك الحركات ، بل هو أول انهمار لها يسجله التاريخ . وجاء الهون فى أعقاب اليوويه تشى ، وكانت أسرة هان القوية الصينية فى إثر الهون تدفعهم آنذاك إلى الشمال . وما حل زمان ووتى (Wu - Ti) (١٤٠ — ٧٦ ق. م.) أعظم ملوك أسرة هان إلا وكان الهون قد طردوا شمالا خارج التركستان الشرقية بأكملها أو كانوا أخضعوا ، وحتى كان حوض التاريم يموج بالمستقرين الصينيين ، وحتى كانت القوافل تسير غرباً تحمل الحرير وطلاء اللاكيه والكهرمان الأسود لتستبدل بها ذهب أرمينية وروما وفضتهما .

أجل إن حركات « اليوويه تشى » وانسيابهم مدونة فى صفحات التاريخ ، ولكنه من الواضح إلى حد ما أن الكثير من تحركات شعوب الهون نحو الغرب لم يدون . واستمرت الإمبراطورية الصينية من ٢٠٠ ق . م إلى ٢٠٠ م ، تحافظ على جبهة صلبة قوية التصميم متقدمة إلى الأمام فى بلاد الترحل ، وكان فائض المترحلين ينساب على الدوام غرباً . وإذن فلم يكن من ناحية الصينيين أى استقرار وراء حدود نهائيـة كالذى رأيناه فى حالة الرومان على نهرى الراين والدانوب . وكانت النتيجة أن انتقال المترحلين قبل هذا الضغط الصينى المتواصل قرناً بعد قرن اتجه فى بادئ الأمر جنوباً نحو باكتريا . ولعل دماء البارثيين فى القرن الأول ق . م خالطتها عناصر إسكيذية ومغولية . والظاهر أن « السهام الطنانة » التى قضت على جيش كراسوس كان مصدرها فى الأصل هو جبـال آلتاى وتيان شان . وبعد انقضاء القرن الأول ق . م انتقل خط الجاذبية الكبرى والمقاومة الصغرى إلى اتجاه آخر شمالى بحر قزوين حيث بقى فترة من الزمان . وقبل أن ينقضى قرن أو ما يقاربه ، أصبح كل القطر المعروف باسم التركستان الغربية مصطبغاً بالصبغة المغولية ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا . وابتدأت طعنة كبيرة ثانية أو زحف من الصين قرابة ٧٥ م فزادت من سرعة انتقال المترحلين جهة الغرب . فنى ١٠٢ م كان « پان تشاو Pan Chau » وهو قائد صينى يرسل من معسكره الأمامى على بحر قزوين (أو على الخليج الفارسى كما يقول بعض الثقات) طلائعه ليتعرف بواسطتهم مبلغ قوة الرومان . بيد أن تقاريرهم حملته على أن يقرر ألا يواصل المسير .

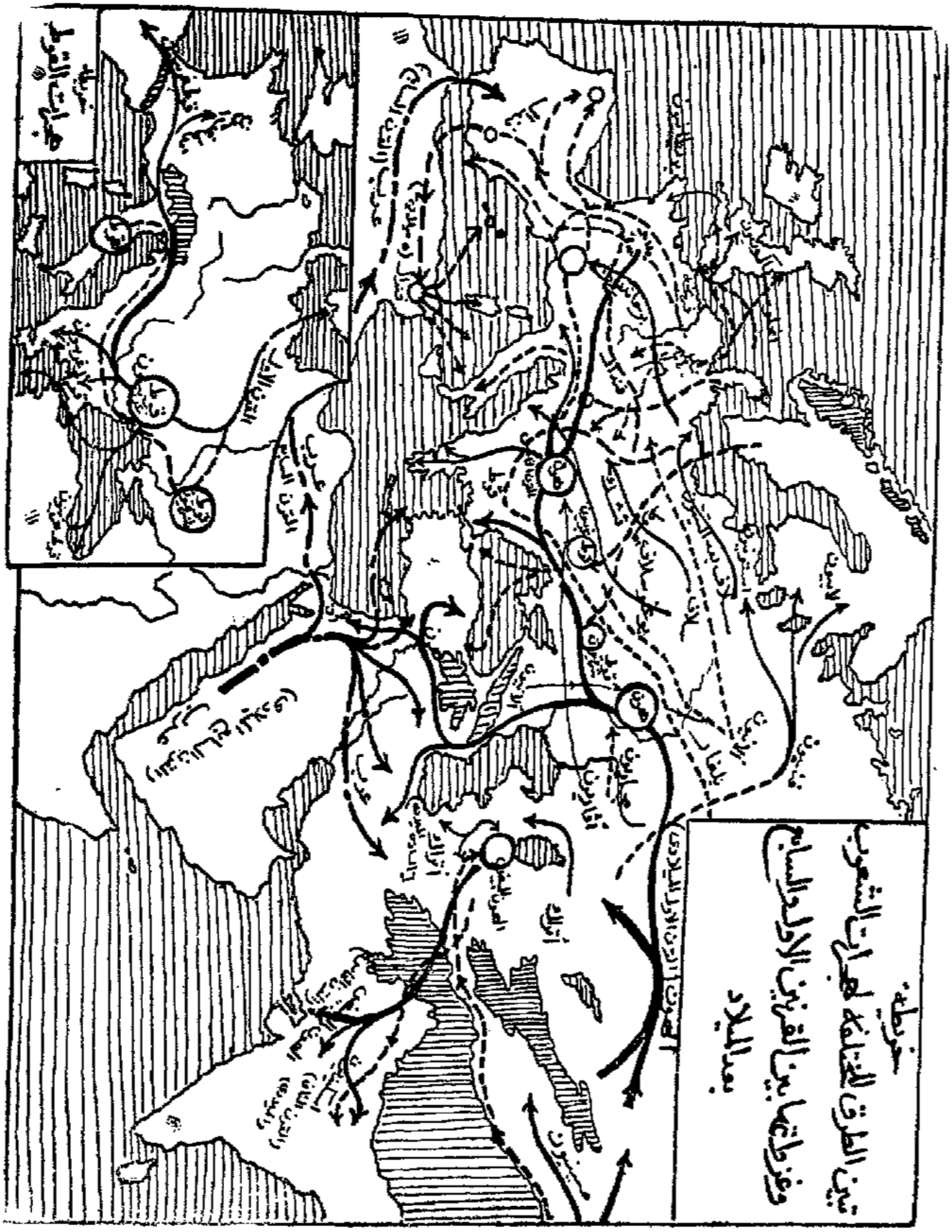
وما وافى القرن الأول الميلادى حتى كانت بعض الشعوب المغولية المترحلة قد ظهرت على حدود أوربا الشرقية مختلطين بالفعل اختلاطاً عظيماً بالنورديين المترحلين وبعناصر نوردية مستأصلة من الإقليم الممتد بين قزوين وپامير . وكانت هناك شعوب هونية مستقرة بين بحر قزوين وجبال

أورال . وإلى الغرب منهم كان الآلان (Alans) وهم كذلك فى الراجح شعب مغولى به عناصر نوردية سبق أن قاتلوا پومپى العظيم عند ما كان فى أرمينية عام ٦٥ ق. م. فكان هؤلاء حتى ذلك الحين أشد شعوب الزحف المغولى الجديد توغلا فى الغرب ، ثم لم يقوموا بعدها بأية حركة أخرى نحو الغرب حتى القرن الرابع الميلادى . وفى الناحية الشمالية الغربية كان الفنلنديون[١] وهم شعب مغولى استقر من زمان طويل فى أرض أوغلت غرباً على بحر البلطيق .

وإلى الغرب من الهون فيما وراء نهر الدون ، نزلت قبائل نوردية خالصة هى القوط . وقد انتشر هؤلاء القوط فى اتجاه جنوبى بشرق من بلاد أرومتهم فى إسكندناوة . كانوا شعباً تيوتونياً ، وسبق أن لحظناهم وهم يعبرون البلطيق فى الخريطة التى قدمناها عن التوزيع الأول للشعوب الناطقة بالآرية . وواصل هؤلاء القوط حركتهم نحو الجنوب الشرقى عبر الروسيا ، وهم يستخدمون الأنهار غير ناسين البتة ما تدربوا عليه فى بحر البلطيق من فنون الملاحة . وليس من شك أنهم تمثلوا كثيراً من الإسكيذيين أثناء انتشارهم نحو البحر الأسود جنوباً . وكانوا فى القرن الأول الميلادى فى قسمين رئيسيين هما القوط الشرقيون (Ostrogoths) ، الذين كانوا بين الدون والدنيبر ، والقوط الغربيون (Visigoths) فى غرب نهر الدنيبر . وساد السكون السهول العظمى فى أثناء القرن الأول ، بيد أن السكان كانوا يتجمعون وكانت القبائل تختمر وتنضج . ويلوح أن القرنين الثانى والثالث شملتهما دورة من فصول ممطرة كثيرة الكلأ نسبياً . ولكن سرعان ما أصبح الجو فى القرنين الرابع والخامس أكثر جفافاً ، وتناقص الكلأ وتحرك المترحلون من جديد .

---

(١) ورد اسم الفنلنديين واللاپلنديين فى الخريطة رقم ١١٧ : مختصرا إلى لفظى فنيون ولاپيون ولذا لزم التنويه . (المترجم)


خريطة
تبين الطرق المختلفة لهجرات الشعوب
وغزواتها بين القرنين الأول والسابع
بعد الميلاد

على أن من الشائق أن نذكر لك أنه فى القرن الأول من الحقبة المسيحية كانت الإمبراطورية الصينية على درجـــة من القوة مكنتها أن تطرد وأن تدفع عن نفسها فائض هذه الشعوب المترحلة المغولية النازلة إلى الشمال منها ، فما لبث هؤلاء المترحلون حتى غزوا شمال الهند وأصبحوا ذوى قوة ثم اختلطوا بالمترحلين الآريين ، ثم انقضوا آخر الأمر انقضاض الهيار الجليدى على الإمبراطورية الرومانية الضعيفة التماسك المهيضة الجناح .

وقبل أن نواصل الحديث عن الضربات التى أخذت تكال للإمبراطورية الرومانية ، ونتعرض لمجهودات عظيم أو عظيمين من الرجال لإيقاف الانهيار ، نرى أن نذكر بضع كلمات عن عادات وكنه هذه الشعوب المغولية المتبربرة المتجهة غرباً ، والتى كانت عند ذاك تتقدم من حدود الصين نحو البحرين الأسود والبلطيق . وما يزال العرف الأوربى جارياً على الانسياق وراء الكتاب الرومان فى تصوير هؤلاء الهون وخلطائهم فى صورة قوة هدامة قاسية إلى حد لا يتصوره عقل . بيد أن مثل تلك البيانات التى نستقيها عن الرومان إنما كتبت فى عصور يكتنفها الذعر والهلع . وكان فى وسع الرومانى أن يكذب فى حق أعدائه ويفترى عليهم بجرأة وقوة لا بد أن تستثير حسد عملاء الدعاية العصريين أنفسهم .

فإن الواحد منهم يستطيع أن يتحدث عن « العقيدة البونية » كمرادف للغدر بينما يرتكب هو ضد قرطاجة أشنع الخيانات وأبشعها . وكان يجعل من اتهاماته التى يعير بها هذا الشعب أو ذاك ويتهمه بالدأب على أعمال القساوة المنظمة ، مقدمة وذريعة فى العادة لما يقوم به بعيد ذلك من شنيع المجازر أو الاسترقاق أو السرقات . وكان شديد الولع بتبرير نفسه هو وتسويغ تصرفاته كالعصريين سواء . ولا يذهبن عن بالنا أن تلك البيانات التى تنعت الهون بالوحشية والفظاظة المخيفة ، صدرت عن شعب كان أهم ما يتسلى به حفلات المجالدين ، وكانت أهم وسيلة لديه للتصرف فى أهل

العصيان والفتنة دقهم على الصلبان بالمسامير حتى يموتوا . وليس من ريب أن الإمبراطورية الرومانية قتلت منذ بدايتها إلى النهاية مئات من آلاف الرجال على هذه الشاكلة . وكان قسم كبير من سكان هذه الإمبراطورية التي كانت تستطيع أن تتباكى وتتشاكى من بربرية مهاجميها يتكون من عبدان يتعرضون فعلا لكل ما يثور فى صدور سادتهم من هوائج الشهوات أو ثوائر النزوات . فمن المستحسن أن نتذكر هذه الحقائق قبل أن نأسى ونحزن على اجتياح البرابرة الإمبراطورية الرومانية ، كأنما كان فى ذلك قضاء كل ما هو كالح وقبيح على كل ما هو جميل ورفيع فى الحياة .

ويبدو أن الحقيقة هي أن الشعوب الهونية كانت النظير الشرقى للآريين البدائيين ، وأنهم على الرغم مما يفرق بينهم من فروق أساسية فى الجنس واللغة ، قد وفقوا بغاية السهولة إلى الاختلاط مع البقايا المترحلة وشبه المترحلة للشعوب الناطقة بالآرية فى شمال الدانوب وفارس . وبدلا من إعمال التقتيل فى الشعوب التى غزوها ، كانوا يضمون تحت لواء جيوشهم أفراد الشعوب التى يقهرونها بل ويتزاوجون معهم . وكانت فيهم تلك الموهبة الضرورية لكل شعب قدر له السيادة السياسية — وهى موهبة التمثل المقترن بالتسامح . ولكنهم جاءوا فى عصر متأخر نوعاً ما ، وكانت حياتهم الترحلية أكثر تقدماً من حياة الآريين البدائيين . إذ كان الآريون البدائيون شعباً يسكن الغابة ويستخدم العربة التى يجرها الثور ثم استهواهم الحصان فيما بعد . على حين درجت الشعوب الهونية فى تطورها مع الحصان . ذلك بأنهم فى زمان ما يقارب ١٢٠٠ أو ١٠٦٠ ق. م أخذوا يركبون الحصان . وما الشكيمة[1] ولا السرج ولا الركاب بأشياء بدائية ، بيد أنها ضرورية إذا كان لا بد للإنسان والحصان أن يسيرا متلازمين فى مساحات مترامية . وخليق بنا

---

(١) الشكيمة : حديدة توضع فى حنك الحصان . (المترجم)

أن نتذكر كم ركوب الخيل شيء حديث قريب العهد ! فالإنسان لم يمض عليه وهو على صهوات الخيل أكثر كثيراً من ثلاث آلاف سنة[١] . ولقد سبق أن لحظنا فى هذا الكتاب كيف ظهر على التدريج المركبة الحربية والرجل الفارس ، كما لحظنا أخيراً ظهور الخيالة المنظمة . وكان مصدر هذه الأمور أقاليم آسيا المغولية . ولا يزال الرجال فى آسيا الوسطى إلى يومنا هـــذا يستخدمون السرج فى ترحالهم أكثر من انتقالهم على أقدامهم . ويقول راتزل (Ratzel)[٢] : « توجد فى أرض السهوب خيول قوية طويلة الأعناق فى أعداد هائلة . فليس الركوب عند المغول والتركمان من الترف فى شيء . بل إن رعاة المغول يرعون قطعانهم على ظهور الخيل . ويتعلم الأطفال الركوب وهم بَعْد أيفاع . وكثيراً ما يتلقى طفل فى الثالثة من عمره أول درس له فى الركوب فى سرج للأطفال أمين ويتقدم تقدماً سريعاً » .

ومحال أن نفترض أن من الممكن أن يختلف الهون والآلان اختلافاً بعيداً فى صفاتهم عن مترحلى منطقة السهوب فى الزمان الحاضر ، ويكاد كل المراقبين يجمعون على وصف هؤلاء الأخيرين بأنهم قوم صرحاء ظرفاء . فهم أمناء أمانة تامة وهم أحرار الروح . ويقول راتزل « إن خُلُق رعاة آسيا الوسطى عندما يكونون خُلّصاً غير مدخولين ينطوى على الفصاحة الرصينة وطيب العنصر فى خشونة وكبرياء ، ولكن مع شيء من التكاسل وسرعة الانفعال والميل إلى الانتقام . وتنم وجوههم عمالهم من نصيب جسيم من الصراحة المشوبة بالسذاجة المسلية . وشجاعتهم إنما هى توهج فجائى من الشراسة أكثر منها جرأة طابعها الاتزان والهدوء . وليس لديهم أى تعصب دينى ، والكرم عندهم أمر شائع » . وليست هذه صورة مرذولة أو بغيضة فى مجموعها . وهو يقول بعد ذلك إن مظهرهم الشخصى أهدأ سمتًا وأكثر

---

(١) انظر كتاب « الخيل » تأليف روجر پوكوك (Roger Pocock) وهو كتاب شائق ممتع على صغر حجمه .

(2) The History of Mankind, book v

وقاراً من أهل المدن فيما وراء ذلك من التركستان وبلاد إيران . أضف إلى ذلك أن حياة الترحل تمنع أى فروق عظيمة من عدم المساواة بين الطبقات ، أو أى تطور كبير فى نظام الاسترقاق .

وبديهى أن هؤلاء الشعوب المنطلقين من آسيا كانوا أميين تمام الأمية لم تتطور نفوسهم من الناحية الفنية . ولكن لا ينبغى لنا أن نظن بناء على هذا أنهم كانوا برابرة بدائيين ، وأن أحوالهم المعيشية كانت على نفس المستوى الذى نشأت منه المدنية الزراعية منذ زمن بعيد . فإنها لم تكن كذلك . ذلك أنهم تطوروا هم أيضاً . ولكنهم تطوروا على نسق آخر مختلف ، نسقٍ أقل تعقيداً ذهنياً ، وربما كان أكبر حظاً من الكرامة الشخصية ، ولكنه على التحقيق أوثق اتصالا بالريح والسماء .

٦ — الإمبراطورية الغربية (الرومانية الحقة) تتصدع

ابتدأت فى القرن الثالث أول الغارات الخطيرة للقبائل الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية مع انحلال قوتها المركزية . ولن نزج بالقارئ هاهنا فى ذلك الموضوع الشائك المعقد من أسماء مختلف القبائل الجرمانية المتنوعة وتباين أو تطابق ذاتيتها وعلاقاتها المتبادلة . فالمؤرخون يكابدون أعظم العسر فى تمييزها بعضها من بعض . ويزيد فى هذه الصعوبات ما حدث من أنهم هم أنفسهم لم يعنوا إلا قليلا بأن يظلوا متميزين منفصلين .

فإنا نجد فى ٢٣٦ م شعباً يسمى الفرنجة (Franks) يقطع الحدود على الراين الأدنى ، وشعباً آخر هو الألامانى (Alamanni) ينثال إلى الألزاس . وكانت هجمة القوط جنوباً هجمة أكثر خطورة بكثير . ولقد سبق أن لحظنا وجود هؤلاء القوم فى جنوب الروسيا ، وانقسامهم حول الدنيبر إلى قوط غربيين وشرقيين . وفى البحر الأسود عادوا من جديد شعباً بحرياً . والراجح أن هجرتهم التقليدية من السويد كانت على امتداد الطرق المائية ، إذ أنه ما يزال سهلا على المرء أن يمضى مجدفاً فى قارب من بحر البلطيق عبر الروسيا

قدماً حتى البحر الأسود أو بحر قزوين ، ولا يعترض مجدافه إلا مسافات قليلة بين الأنهار يمكن التغلب عليها . ثم انتزع هؤلاء القوط الإمرة فى البحار الشرقية من يد روما .

وما لبثوا أن شرعوا يغيرون على شواطىء بلاد الإغريق . كذلك عبروا نهر الدانوب فى غزوة برية عظيمة فى (٢٤٧ م) وهزموا الإمبراطور ديكيوس (Decius) وقتلوه فيما يسمى الآن باسم بلاد الصرب . واختفت مقاطعة داكيا (Dacia) من التاريخ الرومانى . وفى (٢٧٠ م) هزمهم كلوديوس عند مدينة نيش ببلاد الصرب ، وفى (٢٧٦ م) كانوا يغيرون على بنطش[١] . ومما يتصل بما جبلت عليه الإمبراطورية من طبيعة رخوة واهية ، أن الكتائب المحتلة بلاد الغال وجدت أن أفعل الوسائل فى معالجة الفرنجة والألامانى فى ذلك الزمان ، هى إقامة إمبراطور منفصل فى بلاد الغال على أن يتولوا تنفيذ ذلك بأنفسهم .

وعندئذ صُدت جموع البرابرة برهة من الزمان ، وحارب الإمبراطور بروبوس (Probus) (٢٧٦ م) الفرنجة والألامانى حتى أرجعهم وراء الراين . ولكن مما له مغزاه العميق الدال على جو القلق الذى أوجدته تلك الغارات ، أن أوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥ م) حصن روما ؛ وكانت مدينة مفتوحة آمنة طوال سنىّ الإمبراطورية الأولى .

وفى (٣٢١ م) هبط القوط من جديد على الدانوب ينهبون ما هو الآن بلاد الصرب وبلغاريا . فدفعهم قسطنطين الأكبر إلى الوراء ، وسنزيدك عنه بياناً فى الفصل التالى . وفى قريب من نهاية عهده (٣٣٧ م) حصل الوندال وهم شعب تربطهم صلات الرحم والقربى بالقوط الذين كانوا يدفعونهم أمامهم — على إذن بعبور الدانوب إلى پانونيا (Pannonia) وهى الآن ذلك القسم الواقع غربى النهر من بلاد المجر .

(١) بنطش كما هو معلوم هى الولاية الواقعة على ساحل البحر الأسود الجنوبية . (المترجم)

بيد أنه عند منتصف القرن الرابع كانت الشعوب الهونية فى الشرق قد عادت إلى العدوان من جديد . وكانوا أخضعوا الآلانى من زمن بعيد ، وإذا هم الآن يجعلون القوط الشرقيين من أتباعهم الذين يدفعون لهم الجزية . وحذا القوط الغربيون حذو الوندال ، وأعدوا العدة لعبور الدانوب إلى الأراضى الرومانية . ثم دب بين الطرفين شىء من النزاع على شروط هذه الإقامة ، وثارت ثائرة القوط الغربيين فعمدوا إلى خطة الهجوم ، وهزموا الإمبراطور فالنس (Valens) عند أدرنة ، وقد قتل فى هذه المعركة . فسمح لهم عند ذاك بالاستقرار فيما هو الآن بلغاريا ، وأصبح جيشهم جيشاً رومانياً بالاسم وإن احتفظوا برؤسائهم الذين كان أبرزهم ألاريك (Alaric) . ومما يدلك على مبلغ اصطباغ الإمبراطورية الرومانية « بالطابع البربرى » اصطباغاً تاماً ، أن أكبر خصم لألاريك القوطى ، وهو ستيليكو (Stilicho) كان من وندال بانونيا ، وأن الكتائب فى بلاد الغال كانت تحت إمرة أحد الفرنجة ، وأن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (Theodosius) (الذى تولى العرش من ٣٧٩ إلى ٣٩٥ م) كان أسبانياً تناصره بوجه خاص جنود أجنبية حليفة من القوط .

كانت الإمبراطورية آخذة فى الانقسام حينذاك نهائياً إلى نصفين شرقى (ناطق بالإغريقية) وغربى (ناطق باللاتينية) . وقد خلف ثيودوسيوس العظيم على العرش ابناه أركاديوس فى القسطنطينية وهونوريوس فى رافنا (Ravenna) . فاتخذ ألاريك من الملك الشرقى ألعوبة فى يده ، واتخذ ستيليكو ألعوبة من الغربى . وعند ذاك يظهر الهون لأول مرة داخل الإمبراطوريا بوصفهم جنوداً أجنبية حليفة تحت قيادة ستيليكو . وفى هذا النزاع بين الشرق والغرب انهارت الحدود — إن كان لا يزال فى طوقنا أن نتكلم عن وجود حدود بين البربرى الذى يقف فى الخارج دون تفويض من أحد وبين البربرى الذى وكل إليه عمل فى الداخل — وزحفت غرباً جماعة جديدة من الوندال وأفواج أخرى من القوط والآلان والسويڤى (Suevi) علىء

حريتهم ، وهم يعيشون على حساب البلاد . وحدث فى معمعان هذه الربكة حدث جلل ، فإن ألاريك القوطى انحدر فى إيطاليا وفتح روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

وحوالى (٤٢٥ م) كان الوندال (الذين رأيناهم أولا فى ألمانيا الشرقية) وجزء من الآلانى (الذين ذكرناهم لأول مرة فى جنوب روسيا الشرقى) قد اخترقوا بلاد الغال وجبال البرانس واندمجوا بعضهم فى بعض ثم استقروا فى جنوب أسبانيا . وكان هناك هون يسيطرون على بانونيا وقوط فى دالماتيا . وهبط إلى أرض بوهيميا ومورافيا شعب صقلبى (سلافى) واستقر هناك هو التشك (Czechs) (٤٥١ م) . وكان فى بلاد البرتغال وفى شمال الوندال فى أسبانيا قوط غربيون وسويفى . وقسمت بلاد الغال بين القوط الغربية والفرنجة والبرجنديين . وكانت تجتاح بريطانيا قبائل من جرمان السهل المنخفض بألمانيا : (Low German) هم الجوت (Jutes) والأنجل والساكسون ، وكان البريطانى الكلتى فى الجنوب الغربى يفر من أمامهم عبر البحر إلى ما هو اليوم بريتانى بفرنسا . والتاريخ الثابت عادة لهذا الغزو هو (٤٤٩ م) . بيد أنه حدث فيما يرجع فى وقت أبكر من هذا . وحدث نتيجة لمؤامرات دبرت بين اثنين من السياسيين فى الدولة الرومانية أن وندال جنوب أسبانيا تحت إمرة ملكهم جنسريك (Genseric) عبروا البحر على بكرة أبيهم إلى إفريقيا الشمالية (٤٢٩ م) وأصبحوا سادة قرطاجة (٤٣٩ م) ، وحصلوا على السيادة فى البحر وغزوا روما واستولوا عليها ونهبوها (٤٥٥ م) ، ثم عبروا البحر إلى صقلية ، وأقاموا مملكة فى غرب صقلية استمرت هناك مئة سنة حتى (٥٣٤ م) . ومملكة الوندال هذه كانت تضم أيضاً إبان أقصى اتساع بلغته (٤٧٧ م) كورسيكا وسردينيا وجزائر البالبار ، كما كانت تملك جزءاً كبيراً من شمال إفريقية .

هذه المملكة الوندالية تؤثر عنها وقائع وأرقام تبين بغاية الوضوح

الطبيعة الحقة لهذه الغزوات البربرية . فإنها لم تكن فى الحقيقة فتحاً ولا تبدل شعب أو جنس بآخر . بل إن ما حدث كان شيئاً مخالفاً لذلك تماماً ، إذ كان انقلاباً اجتماعياً ابتدأ ثم تقنع بقناع سطحى من الغزو الأجنبى . مثال ذلك أن كل الأمة الوندالية التى انتقلت من أسبانيا إلى إفريقية بما حوت من رجال ونساء وأطفال ، لم تكن تزيد فى عددها عن ثمانين ألف نسمة . وقد تهيأ لنا العلم بذلك إذ وصلت إلينا تفاصيل تقلهم بحراً . وينبئنا الدكتور شورتز (Schurtz)[1] : « لم يظهر السكان أدنى مقاومة جدية . وقد دافع بونيفاس (والى شمال إفريقية الرومانى) عن مدينة هيبو (Hippo) بمعونة المرتزقة من القوط ، على حين لم يعره الأهالى الأصليون أى مساعدة تذكر ، وعلى حين أن قبائل الرحل كانت بين متخذ مسلكاً مريباً وبين منتهز الفرصة للاستفادة من الصعوبات التى أخذت تواجه الوالى الرومانى وذلك بالقيام بهجمات والاشتغال فى حملات غايتها النهب . وهذا الانحـــلال الخلقى إنما نشأ من الأحوال الاجتماعية السائدة ، التى لعلها تطورت فى إفريقية تطوراً أسوأ منه فى أى جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية . فإن الفلاحين الأحرار كانوا أصبحوا من زمن بعيد موالى أرض لكبار أصحاب الأراضى ، وكانت منزلتهم لا تفضل بكثير جماهير الأرقاء الذين كنت تلقاهم أينما حللت . كذلك أصبح كبار ملاك الأراضى بدورهم غنيمة هينة لسياسة الابتزاز التى كان يتبعها ولاة لا ضمير لهم ولا يتورعون عن أية منقصة ، بدرجة متزايدة لم يسبق لها مثيل تزداد نسبيا كلما أمعنت هيبة الإمبراطورية سقوطاً وانهيـــاراً . فلم يكن أحد من الناس يملك شيئاً من المال يخاف عليه الضياع ليقبل حين ذاك أن يكون له مقعـــد فى مجلس سناتو المدن الكبيرة ، وهو شرف كان فى يوم ما هدف الطامحين ، ذلك أن أعضاء السناتو كان يطلب إليهم أن يسدوا كل نقص فى موارد الدخل . وكان هـــذا النقص فى

---

(١) In Helmolt's History of the World

تلك الأيام متلاحقاً جسيماً . . . . وكانت تقوم فى البلاد فتن دموية متكررة ، ترجع على الدوام فى النهـاية إلى فادح عبء الضرائب . . . . » .

من هنا يتجلى لك أن الوندال هبطوا تلك البلاد بمثابة إنقاذ إيجابى من هـذا النظام . فأبادوا طبقة الملاك الكبار ، ومحوا كل الديون التى للمرابين ، وألغوا آثار الخدمة العسكرية . فوجد الزراع أنفسهم أيسر حالا . واحتفظ صغار الموظفين بمراكزهم حتى لم يعد الأمر غزواً بمقدار ما كان إصلاحاً للأمور وتحريراً للناس مما هم فيه من مأزق لا مخرج منه .

وقد حدث يوم كان الوندال ما يزالون فى إفريقية أن ظهر بين الهون زعيم عظيم هو أتيلا (Attila) . وكانت قصبة حكومته فى السهول الواقعة شرقى نهر الدانوب . فتسلط ردحاً من الزمان على إمبراطورية ضخمة من قبائل هونية وجرمانية ، وكان سلطانه يمتد من نهر الراين إلى آسيا الوسطى . وكان يتفاوض على قدم المساواة مع إمبراطور الصين . وظل يرهب رافنا والقسطنطينية ويتهددهما عشر سنوات . وحدث أن هونوريا (Honoria) حفيدة ثيودوسيوس الثانى عاهل الإمبراطورية الشرقية وإحدى أولئك الشابات المفتونات اللواتى يجلبن على العالم الكثير من المتاعب لقيت بعض التضييق لاتصالها بتشريفاتى فى القصر اتصالا غرامياً ، فأرسلت خاتمها إلى أتيلا ودعته ليكون زوجها ومنقذها . كذلك استحثه جنسريك الوندالى أن يهاجم الإمبراطورية الشرقية عنـد ما واجهته محالفة بين الإمبراطورين الشرقى والغربى . فأغار بجيشـه جنوباً حتى بلغ أسوار القسطنطينية نفسها مدمراً فى زحفه على حد قول جيبون سبعين مدينة تدميراً تاماً وهو يتقدم إلى الأمام ، وفرض على الإمبراطور صلحاً جائراً ، لم يكن يحوى فيما يظهر أى بند يقضى بإطلاق سراح هونوريا لتسليمها لبطلها .

ولسنا بقادرين بعد انقضاء هذا الزمن الطويل على تلك الأمور أن

نُعمل الحدس لتعرف الدوافع التي دعت إلى إغفال ذلك الموضوع . ولكن أتيلا استمر يدعوها عروسه المخطوبة ، ولم يبرح يتخذ من تلك الرابطة تكأة للعدوان . وفى المفاوضات التالية رافق شخص معين اسمه بريسكوس (Priscus) بعثة إلى معسكر العاهل الهونى ، والشذرات الباقية من القصة التى كتبها تلقى شعة من الضوء على المعسكر وتكشف النقاب عن أسلوب حياة ذلك الفاتح المظيم .

وكانت البعثة فى حد ذاتها مكونة تكويناً عجيباً ، فكان على رأسها مكسيمين (Maximin) وهو سياسى شريف ذهب وهو حسن النية ، فلم يكن يعـــرف البتة كما لم يكن بريسكوس يدرى حيناً من الزمان أن فيجيليوس (Vigilius) مترجم البعثة كان مكلفاً أيضاً بمهمة سرية من لدن بلاط ثيودوسيوس ترمى إلى الوصول بطريق الرشوة إلى اغتيال أتيلا . سارت البعثة الصغيرة بطريق نيش ، فعبرت الدانوب فى بعض زوارق الكانو المحفورة من شجرة واحدة ، وكانت تعتمد فى غذائها على ما تقدمه إليها القرى التى تمر بها . وسرعان ما استرعى الاختلاف بين ألوان الأطعمة نظر أعضاء البعثة . فيذكر بريسكوس خمر العسل بدل النبيذ ويذكر الدُّخْن بدل القمح ويذكر شراباً إما أن يكون مستقطراً[1] أو خمراً من الشعير . وإن الرحلة خلال بلاد المجر لتذكر القارئ فى كثير من حوادثها برحلات الرحالة فى أواسط إفريقية فى أثناء العصر الفيكتورى . وقد أبت مكارم الأهالى إلا أن يقدموا لأعضاء البعثة زوجات موقتات .

وكانت عاصمة أتيلا أقرب إلى معسكر فسيح وقرية منها إلى مدينة . لم يكن فيها غير بناء واحد من الحجر ، وهو حمام مبنى على الطراز الرومانى . وكانت كتلة السكان تقيم فى أكواخ وخيام . وكان أتيلا والشخصيات البارزة فى قومه يسكنون فى قصور من الخشب أقيمت من حولها السياجات ومن حولهم زوجاتهم العديدات وأعوانهم . وكان هناك استعراض هائل

---

(١) عن جيبون .

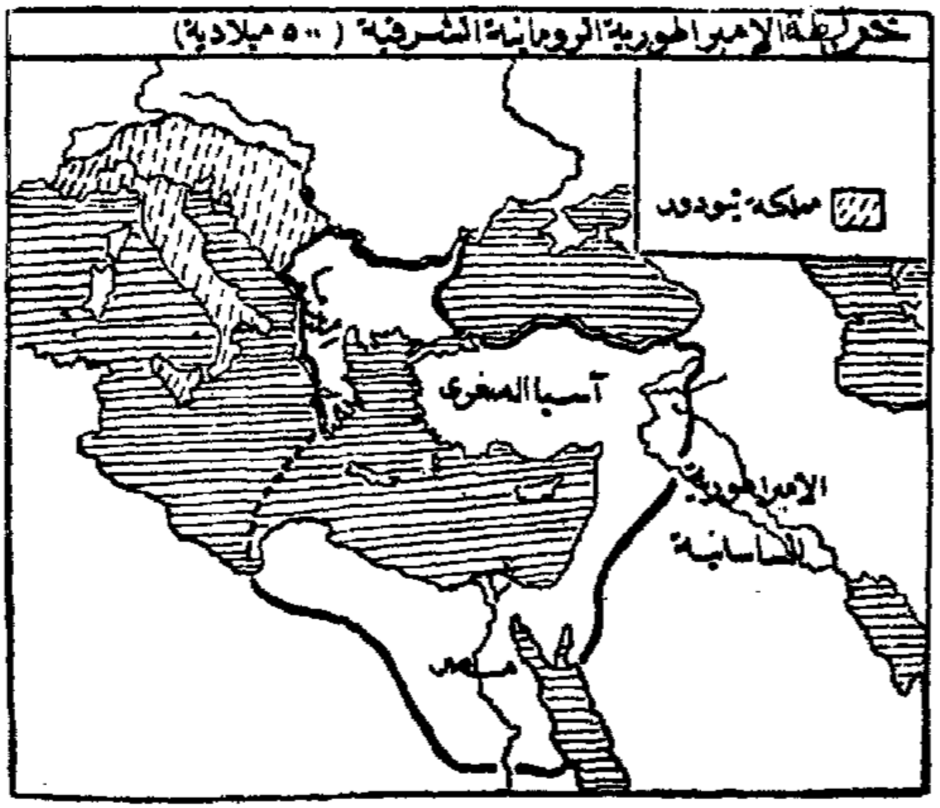
للأسلاب والمغانم ، بيد أن أتيلا نفسه قد اتخذ بساطة المترحلين ديدنه . فكان يتناول شرابه وطعامه فى فناجين وصحاف من الخشب . ولم يكن يمس الخبز قط . وكان يشتغل دائباً ويقيم مجلساً علنيا أمام بوابة قصره ، وكان فى العادة فى سرجه على الدوام . وكانت العادة البدائية لدى كل من الآريين والمغول من إقامة ولائم عظيمة فى البهو ما تزال مرعية عند القوم يكثرون فيها من معاقرة الخمر . ويصف بريسكوس كيف غنى الشعراء أمام أتيلا : « فألقوا بين يديه أشعاراً نظموها هم أنفسهم يشيدون فيها ببسالته وانتصاراته . ويسود البهو صمت عميق ، واسترعى التفات الضيفان صوت الرجال وهم يغنون فى انسجام صوتى شعراً يشيد بمآثرهم العظيمة ويخلد ذكراها . وينبعث من عيون المقاتلة حمية حربيـــة ، تنم عن مزيد تشوقهم إلى القتال . ودموع الشيوخ تعبر عن يأسهم الكريم من عدم تمكنهم أن يأخذوا بنصيبهم من أخطار الميدان ومجده . ويعقب هذه التسلية التى ربما جاز أن تعد مدرسة تلقن فيها الفضيلة العسكرية ؛ فصل مضحك حط من كرامة الطبيعة الإنسانية ، إذ قام مهرجان أحدهما مغربى والآخر إسكيذى على التوالى باستثارة ضحك النظارة الأفظاظ بشكليهما المشوهين وثيابهما المضحكة وحركاتهما الشاذة وأحاديثهما السخيفة وخلطهما الغريب غير المفهوم بين اللغات اللاتينية والقوطية والهونية مما جعل البهو يدوى بضحكات عالية ماجنة . وفى وسط هذا الصخب المفرط ، لم يكن أحد لا تتغير أسارير سحنته إلا أتيلا وحده فإنه ظل محتفظاً بوقاره الثابت الذى لا يتغير »[١] .

ومع أن أتيلا كان متيقظاً حذراً كما اعترف بذلك من اختير لتنفيذ المهمة السرية التى كلف بها ڤيجيليوس ، فانه يسمح لهذه البعثة بأن تعود فى سلام إلى القسطنطينية ومعها هدايا مكونة من خيول عديدة وما إليها . ثم

---

(١) عن جيبون .

أرسل إلى ثيودوسيوس الثانى سفيراً ليبلغ ذلك العاهل رأيه فيه . وقال الرسول « إن ثيودوسيوس ينحدر من والد نبيل محترم ، وإن أتيلا كذلك ينحدر من سلالة نبيلة ، وإنه كان بأعماله معواناً للكرامة والمهابة التى ورثها عن أبيه مونزوك (Munzuk) . ولكن ثيودوسيوس ضحى بشرف آبائه ، وإذ قبل أن يدفع الجزية فإنه حط بنفسه إلى مرتبة العبيد . فمن العدل إذن أن يوقر الرجل الذى وضعته المقادير والجدارة فى مرتبة أسمى منه ؛ بدلا من أن يحاول محاولة عبد أثيم آن يتآمر سراً على سيده » . .



(١١٨)

وقوبل هذا التحدى الصريح بخنوع دنىء . وابتهل الإمبراطور طالباً الغفران ودفع فدية عظيمة .

وفى (٤٥١) أعلن أتيلا الحرب على الإمبراطورية الغربية وغزا بلاد

الغال . ولعمرى لقد كانت الأمور تجرى على ما يهوى طالما كان اشتباكه فى الحروب بقوات الإمبراطورية ، فإنه نهب معظم مدن فرنسا حتى أورليان جنوباً . وعند ذاك اتحد ضده الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ، وحدثت معركة عظيمة شديدة فى ترويس (Troyes) (٤٥١) قتل فيها من الجانبين ما ربى على مئة وخمسين ألف رجل ، فانتهت بصده وأنقذت أوربا من أن يكون لها سيد أعلى مغولى . وما كانت هذه الكارثة لتستنفد بأى حال موارد أتيلا . فوجه التفاته جنوباً ، واجتاح شمال إيطاليا . فأحرق أكويليا وپادوا (Padua) ثم نهب ميلانو ، بيد أنه تصالح ما أعدائه تلبية لرجاء البابا ليو الأول ، ومات (٤٥٣) . . .

ومنذ ذلك الحين اختفى من التاريخ الهون وأعنى بهم هون أتيلا ، من حيث اتصال هـــذا الاسم بأوربا . فإنهم ذابوا فيمن أحاط بهم من سكان . ولعل دماءهم كانت مخلطة من قبل تخليطاً كثيراً كما كانوا آريين أكثر منهم مغولا . وهم لم يصبحوا كما قد يظن المرء سكان بلاد المجر ، وإن كانوا على الراجح تركوا هناك أحفاداً كثيرين . وبعد ذلك بنحو مئة سنة ، أتى شعب آخر هونى أو مختلط ، هم الآفار (Avars) قادمين من الشرق إلى بلاد المجر ، بيد أن شرلمان دفعهم منها نحو الشرق مرة ثانية (٧٩١ — ٧٩٥ م) . وجاء المجريون (الماجيار Magyars) وهم الهنغاريون العصريون نحو الغرب بعد ذلك . وكانوا شعباً تركياً فنلندياً (Turko Finnish) . والمجرية لغة تنمى إلى القسم الفنلندى الأجْرى (Finno Ugrian) من الألسن الأورال آلتائية . وكان المجريون على ضفاف الڤولجا قرابة (٥٥٠ م) . واستقروا فى هنغاريا قرابة (٩٠٠) . . . على أننا نتجاوز الحد فى إمعاننا فى هذا الحديث . ولا بد لنا من العودة إلى روما[1] .

فى (٤٩٣) أصبح ثيودوريك (Theodoric) وهو من القوط ملكاً على روما ، ولكن مضت حتى آنذاك سبعة عشر عاماً وليس هناك إمبراطور

---

(١) إن شئت توسعاً فى هذا الموضوع انظر للمترجم « ميلاد العصور الوسطى » تأليف موص ، الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب .   (المترجم)

رومانى . وبذلك انتهت « السيادة العالمية » العظيمة مالكة الرقيق ، سيادة القياصرة الأرباب وأثرياء رجال روما ، ولفظت آخر أنفاسها وهى فى أقصى حالات الانحلال والانهيار الاجتماعى .

٧ – الإمبراطورية الشرقية (الهلينية المبتعثة)

ومع أن النظام الإمبراطورى الرومانى انهار فى كل أنحاء أوربا الغربية وإفريقية الشمالية ، ومع أن الديون اختفت وإنتاج الترف قد توقف وأخفيت الأموال ، ومع أن الدائنين صاروا لا يحصلون على ديونهم وأصبح الأرقاء بلا أسياد ، فإن تقاليد القياصرة كانت لا تزال مرعية فى القسطنطينية . وقد سنحت لنا من قبـــل الفرصة لذكر اسم دقلديانوس (٢٨٤ م) وقسطنطين الأكبر (٣١٢ م) بوصفهما شخصيتين بارزتين بين القياصرة المتأخرين . وإنما يدين العالم للثانى بفضل إقامة قصبة جديدة للإمبراطورية هى القسطنطينية .

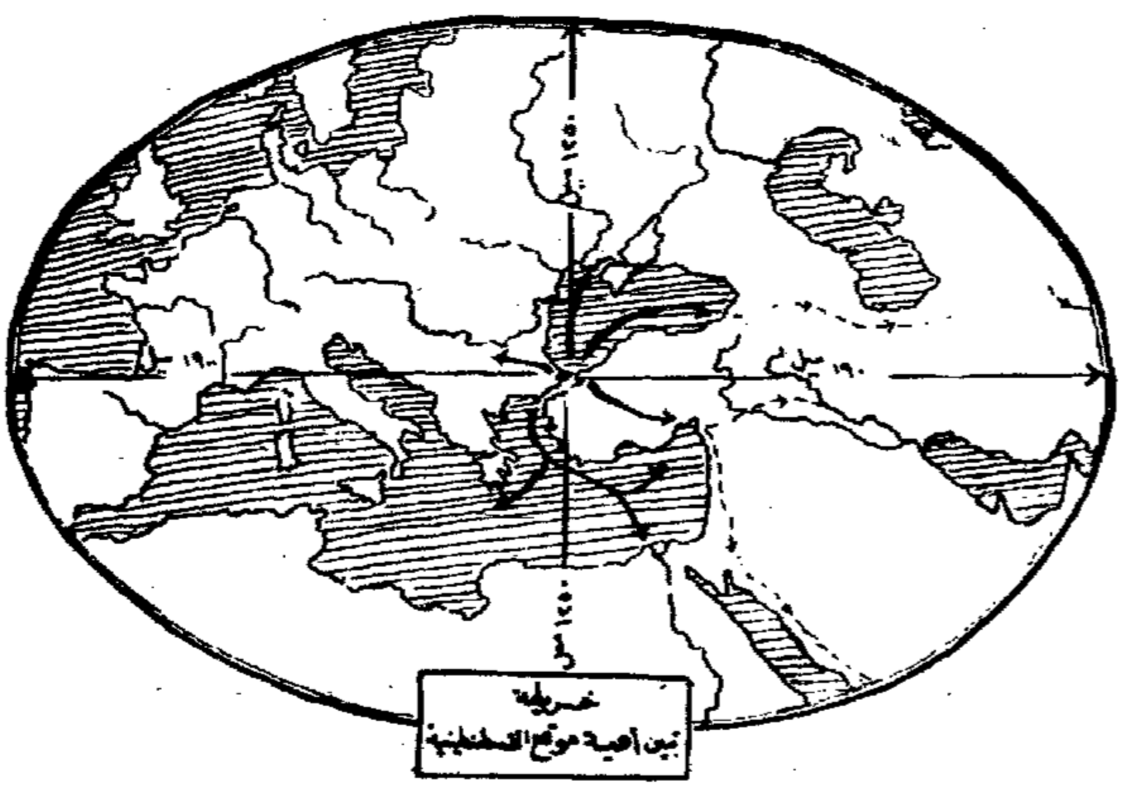
فى وقت مبكر جداً من عصر الإمبراطورية أخذ الناس يدركون عدم ملاءمة مركز روما لأن تكون عاصمة عالمية بسبب نكوص الرومان عن استخدام البحر . وقد قضى تدمير قرطاجة وكورنثة على حركة النقل والملاحة التى كانت تجتاز الطرق البحرية الرئيسية بالبحر المتوسط . فإن شعباً لا يستخدم البحر على الوجه الأكمل ، لم يكن هناك من معنى لاتخاذه مقره الإدارى فى روما ، إلا أن تضطر كل كتيبة وكل بعثة من الموظفين وكل أمر يصدر — أن تتجه شمالا مسافة طولها نصف إيطاليا قبل التحول شرقاً أو غرباً . ومن ثم يكاد كل الأباطرة المقتدرين يقيمون مقر إدارتهم العليا فى مركز من المراكز الثانوية ، يمتـــاز بموقع أكثر ملاءمة . فكانت سيرميوم (Sirmium) (على نهر السيف (وميلانو وليون ونيقوميديا (فى بيثينيا) من بين أمثال تلك العواصم الإضافية . ولبثت دورانزو ردحاً

من الزمان هي العاصمة فى حكم الإمبراطور دقلديانوس . وكانت راقنا بالقرب من رأس الأدرياتى عاصمة الأباطرة الآخرين من الرومان أيام آلاريك وستيليكو .

وكان قسطنطين الأكبر هو الذى صمم على نقل مركز الساطة الإمبراطورية إلى ضفاف البسفور نقلا مستديماً . ولقد سبق أن لحظنا وجود مدينة بيزنطة التى اختار قسطنطين أن ينهض بها ويجعل منها عاصمة له ، والتى مثلت دوراً فى قصة هستيائيوس المعقدة كما صدت فيليب المقدونى . فلو تأمل القارئ موقعها ، لرأى أنها لو قيض لها سلسلة من الأباطرة المقتدرين ، وكانت مركزاً لشعب له بعض التماسك والروح القوية والفن البحرى : (وهما أمران لم يتحققا لها قط — لعاشت فى عزة ومنعة . فلقد كانت من حسن الموقع بمنزلة عظيمة خارقة للعادة . ولا تنس أن سفنها كانت تستطيع أن تتوغل فى الأنهار حتى قلب الروسيا ، وبذلك تضرب من الخلف كل تقدم يقوم به البرابرة . لقد كانت تتسلط على الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق . وكانت على مسافة دانية ومعقولة تستطيع منها أن توجه ضربة إلى أرض الجزيرة ومصر وبلاد الإغريق وكل جهات العالم الأكثر رخاء والأوفر حظاً من المدنية والثراء فى ذلك الزمان . بلغ بها الأمر أنها رغم وقوعها تحت حكم سلسلة من ملوك عاجزين ، وفى ظل ظروف اجتماعية منحلة الأخلاق ، فإن بقايا الإمبراطورية الرومانية التى تمركزت فى القسطنطينية ، صمدت هناك ما يقارب الألف سنة .

وظهرت من قسطنطين الأكبر النية الواضحة على جعل القسطنطينية مركزاً لإمبراطورية متماسكة غير مجزأة . بيد أنا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى وسائل السفر والنقل التى كانت فى متناول ذلك الزمان ، رأينا أن الظروف الجغرافية لأوربا وآسيا الغربية لا تشير إلى أى مركز واحد بالذات يصلح قصبة للحكومة . فلئن اتجهت روما صوب الغرب بدلا من الشرق فقاتها بذلك

أن تمد سلطانها إلى ما وراء الفرات ، فإن القسطنطينية من الناحية الأخرى كانت بعيدة عن بلاد الغال بعداً تتقطع دونه كل علائق الأمل . إن مدنية البحر المتوسط الموهنة القوى تركت الغرب فى الواقع يفلت منها إفلاتاً تاما بعد أن بذلت بعض الجهد فى سبيل الحصول على إيطاليا ، ثم تركزت بوجه الخصوص على البقايا المركزية والدعائم الأساسية التى قامت عليها إمبراطورية الإسكندر . واستعادت اللغة الإغريقية سلطانها الذى لم يحدث البتة أن تقوض تقوضا خطيراً بسبب استعمال اللاتينية رسميا . ويشير الناس بوجه عام إلى هذه الإمبراطورية « الشرقية » أو البيزنطية ، كأنما كانت استمراراً للتقاليد الرومانية . بينما هى فى الحقيقــة أقرب كثيراً أن تكون اســتئنافاً لإمبراطورية الإسكندر .



(١١٩)

وما كانت القوة الفكرية تنهض من وراء اللغة اللاتينية ، إذ لم يتوفر لتلك اللغة من الأدب والعلم ما يجعل منها ضرورة لا يستغنى عنها أذكياء

الرجال فيطوّع لها ذلك استمرار التغلب على الإغريقية . فإن أية لغة مهما بلغ شأن ما يستطيع الحكام أن يفعلوه لها ، لا تستطيع أن تفرض نفسها بصورة تمكنها من منافسة أخرى فى إمكانها أن تهب الناس ما لديها من مزايا أدب عظيم أو معلومات موسوعية . فاللغات المعتدية يجب أن تصاحبها مواهبها ومزاياها ، ومواهب الإغريقية أعظم من مواهب اللاتينية عظماً لا يدع سبيلا للمقارنة . وكانت الإمبراطورية الشرقية منذ بواكير انفصالها ناطقة بالإغريقية ، كما كانت استمراراً للتقاليد الهلّينية ، وإن يكن ذلك الاستمرار مقترناً بالانحلال . ولم يعد مركزها الفكرى بعدُ فى بلاد الإغريق بل فى الإسكندرية . ولم تعد عقليتها بعدُ عقلية مواطنين أحرار الفكر صريحى القول ؛ عقلية أرسطو الإستاجيرى[1] وأفلاطون الإغريقى . بل كانت عقليتها عقلية المتحذلقين وعقلية رجال عاجزين سياسياً . وكانت فلسفتها تهرباً باهراً من حقائق الأمور وكان حافزها العلمى قد خبا . ومع ذلك فإنها كانت هلّينية على كل حال وما كانت باللاتينية بحال . لقد ظهر الرومانى على المسرح هنيهة ثم توارى عن الأبصار مرة أخرى والواقع أنه اختفى إلى حد كبير جداً من الغرب أيضاً . ولما حل القرن السادس الميلادى ، مست سكان أوربا وإفريقيا الشمالية رجة عنيفة حركتهم حركة العكارة المترسبة فى قعر إناء . وعند ما تبدأ تلك العكارة أن تستقر من جديد فى القرنين السابع والثامن ويشرع مختلف السكان فى اتخاذ سمة محددة محلية التكوين ، لا يتبقى من الرومانى سوى اسمه فقط فى المنطقة المحيطة بروما .

فأما لغته اللاتينية فإنها فى أجزاء مترامية من إمبراطوريته الغربية قد داخلتها التعديلات وظهرت لها صور متغيرة أو كانت آخذة بأسباب التغير . حدث ذلك فى بلاد الغال حيث كان الفرنجة يتعلمون من اللاتينية صيغة

---

(١) استاجيرا مدينة فى مقدونيا ولد فيها أرسطو الفيلسوف فعرف بأرسطو الاستاجيرى .
(المترجم)

غالية وبذلك يطوّرون اللغة الفرنسية فى ثنايا تلك العملية . وفى إيطاليا حيث تجلى تأثير المغيرين التيوتون ما بين لومبارد وقوط ، أخذت اللاتينية تتحور إلى لهجات إيطالية متنوعة ؛ وفى أسـبانية والبرتغال أخذت تتحول إلى الأسبانية والبرتغالية . والجوهر اللاتينى الأساسى فى لغات هذه الأقاليم يساعدنا على إدراك انعدام القيمة العددية لمختلف الغزاة من الفرنجة والوندال والآفار والقوط ومن إليهم من الناطقين بالجرمانية كما يساعد على تبرير ما قلناه من أن ما حدث للإمبراطورية الغربية لم يكن فتحاً وتبدُّل سكان بآخرين قدر ما كان انقلاباً سياسياً واجتماعياً . كذلك احتفظ إقليم ڤاليه (Valais) بجنوب سويسرا بلغة لاتينية الأساس ، وهكذا كانت حال كانتون جريسون . وأعجب من هذا وأدعى للإمتاع أن داكيا ومويسيا الدنيا (Moesia Inferior) التى منها أجزاء كبيرة تقع فى شمالى الدانوب والتى أصبحت دولة رومانيا الحديثة قد احتفظت كذلك باللسان اللاتينى . مع أن هذه الأقاليم لم تلحق بالإمبراطورية إلا مؤخراً ولم تلبث حتى ضاعت من يديها سريعاً .

فأما فى بريطانيا فإن اللاتينية محاها الفاتحون الأنجلوسكسون محواً تاماً . ومن لهجاتهم المتنوعة نبتت للفور مادة الاشتقاق الأساسـية فى اللغة الإنجليزية .

بيد أنه على حين كان تحطيم البناء السياسى والاجتماعى الرومانى كاملا كما ترى ، وعلى حين قضت عليه فى الشرق التقاليد الإغريقية الأقدم منه عهداً والأشد قوة ، وعلى حين تمزق فى الغرب إلى أجزاء شرعت تتخذ لنفسها حياة منفصلة بها ، — فلقد كان هناك شىء واحد لم يهلك ، بل ترعرع ونما ، وكان ذلك هو تقاليد إمبراطورية روما العـالمية وسيادة القياصرة : فلما قضى على هذه الحقيقة اتسع أمام الأسطورة مجال الامتداد والتوسع . ذلك أن فكرة السيادة الرومانية العالمية المتسمة بالوقار والعظمة عند ما حرمت كل احتمال للتحقيق والخروج إلى حـيز

التنفيذ ، ربت وازدهرت فى خيال الجنس البشرى ولا تزال ممسكة بزمامه إلى يومنا هذا .

لقد ظلت تطيف بالفكر الإنسانى منـــذ زمان الإسكندر فكرة تبشر بإمكان توحيد الجنس البشرى توحيداً سياسياً . ولطالما دار بخلد كل قوى من أقوياء رؤساء البرابرة وزعمائهم وملوكهم الذين كانوا يغيرون فى بحران تلك الفوضى الضخمة الناشبة أظفارها فى الإمبراطورية المنحلّة المتضعضعة ، أن فى الإمكان وجود ملك ملوك قوى أعظم منهـــم جميعاً يهب القانون الحقيقى النافذ للناس كافة ، ويقيم فى العالم قسطاساً مستقيماً ، وكانوا على أتم استعداد للإيمان بأن قيصر قد جاء فى الماضى فى موضع وزمان ما ، وأنه كان ملك الملوك المنشود ذاك ، وأنه قادر على العودة من فوره لمواصلة حمل صولجان سيادته مرة ثانية . من أجل هذا كانوا يبجلون ذلك اللقب القيصرى ويغارون منه ويضعونه فى منزلة تعظم ألقابهم ورتبهم . وما تاريخ أوربا الدولى منذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا إلا تاريخ ملوك ومغامرين يعملون لمنصب القيصرية والإمبراطورية . ونحن محدثوك عن بعض هؤلاء فى الحين المناسب . ولقد بلغ من انتشار هذا « التقيصر » وشموله أجزاء العالم أن الحرب العظمى ١٩١٤–١٩١٨ ثلت عروش ما لا يقل عن أربعة من هؤلاء القياصرة ، هم قيصر ألمانيا وقيصر النمسا وقيصر الروسيا ثم ذلك الشخص الغريب المضحك قيصر بلغاريا . وكان الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث قد هوى قبل ذلك عن عرشه فى ١٨٧١ م . ولم يبق فى العالم اليوم أحد تهيأ لمواصلة حمل اللقب الإمبراطورى والنهوض بتقاليد قيصر المؤله (Divus Caesar) غير العاهل البريطانى الذى يسمى قيصر الهند (وهى بلاد لم يرها قط قيصر من القياصرة الحقيقيين) . وهو يرث هذا اللقب عن المغولى الأعظم الذى سنتكلم عنه فى حينه .

(تم المجلد الثانى ويعقبه الثالث
حاوياً تاريخ المسيحية والإسلام والعصور الوسطى)

فهرس أبجدى الكتاب

« ت »

« ث »

« ج »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

التعريف بالمترجم

حياته :

ولد بالقاهرة ، وتخرج فى المعلمين العليا الأدبية (١٩٢٩) واشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥١) فمديراً للمركز الرئيسى للتدريب بمنشية البكرى بوزارة التربية والتعليم (١٩٦٣) — وشغف بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية منذ حداثته .

أعماله :

اهتم بالترجمة بنوع خاص فنقل إلى العربية ما يلى من كتب .

١ — فى التاريخ : — « معالم تاريخ الإنسانية » وصنوه « موجز تاريخ العالم » لولز .

٢ — فى تاريخ الحضارات : — (ا) « حضارة الإسـلام » — جرونيباوم . (ب) « الحضارة البيزنطية » — رنسيمان . (حـ) « الحضارة الهلينستية » — تارن . (د) « ميلاد العصور الوسطى » — موص . (هـ) « إدبار العصور الوسطى » هويزنجا .

٣ — فى علم النفس والتربية : — (ا) « مدخل إلى علم النفس » — زانجويل . (ب) ثلاثية آرنولد جزل فى تربيـة الأطفال وسيكولوجيتهم ، « الحضين والطفل » — و « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » — و « الشباب » .

٤ — كتب فى السياسة ومتفرقات : — (ا) « آسيا والسيطرة الغربية » — پانيكار . (ب) « حول منع الحروب » — جون استراتشى .

٥ — كتب أخرى تحت الطبع : (ا) « أعـلام وأفكار » — هويزنجا . (ب) « كيف يفسرون التاريخ » — ألبان ويدجرى . (حـ) « التربية عن طريق الفن » — هربرت ريد . (د) « دراسات إنسانية أصيلة » — ألدوس هكسلى . (هـ) « الطفولة وما بعدها » — سوزان إيزاكس .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨ ٤١٠/١٩٩٤

I.S.B.N 977-01-3766-9